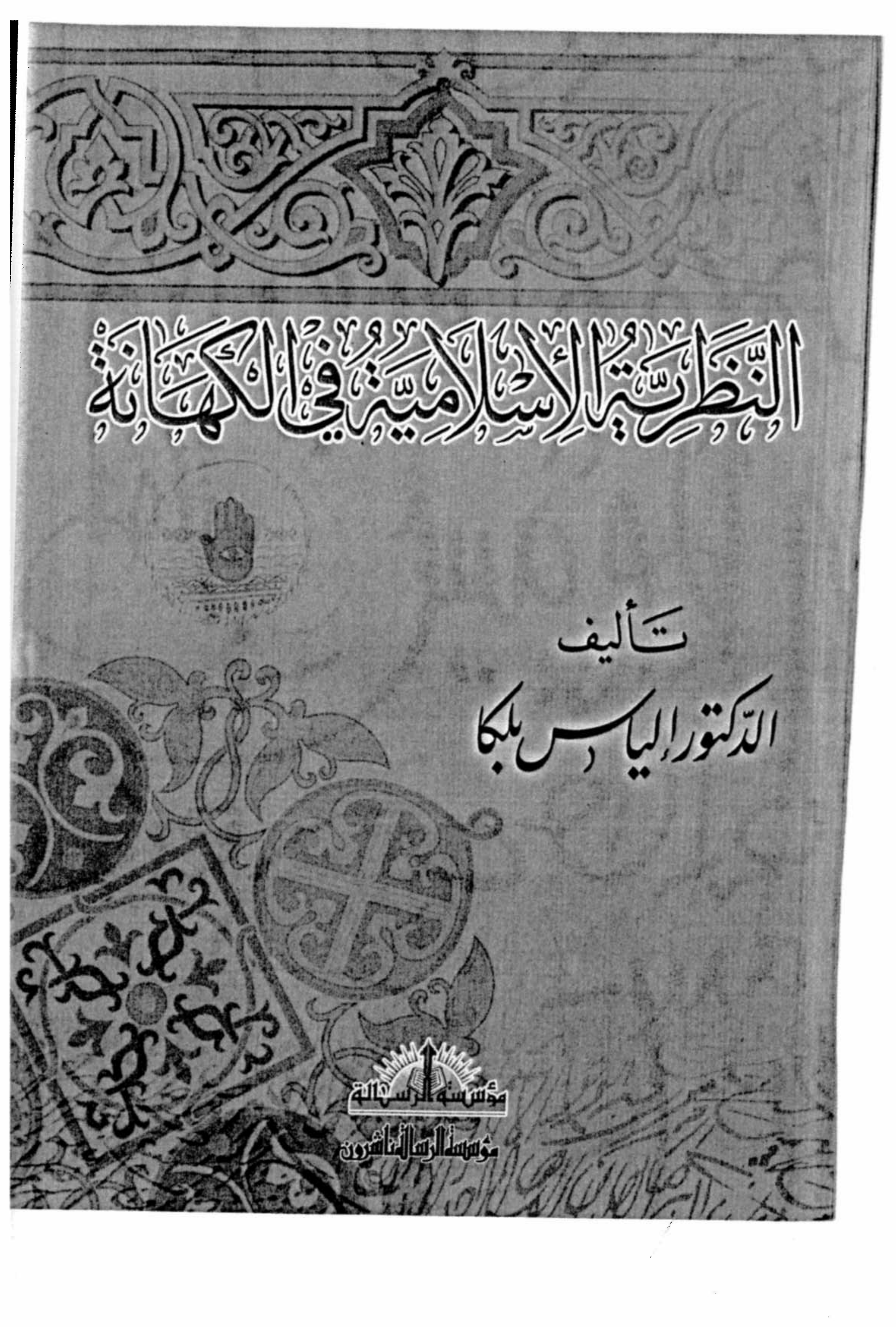

النظرية الإسلامية في الكهانة
تأليف
الدكتور إلياس بلكا
مؤسسة الرسالة
مؤسسة الرسالة ناشرون

هذا الكتاب وقف لله تعالى. ويمكن لكل من أراد ذلك طبع الكتاب أو نشره أو ترجمته.. كله أو بعضه..

مدونة إلياس بلكا: Blog : http://ilyassbelga.blogspot.ae/

Twitter + Facebook:

تكتب الاسم باللغة العربية: إلياس بلكا

Email: ilyassbelga@gmail.com

إلياس بلكا: كاتب وأستاذ جامعي من المغرب.

- إجازة (بكالوريوس) في الدراسات الإسلامية، وأخرى في القانون العام (العلاقات الدولية).
- دبلوم الدراسات العليا في الفقه الإسلامي وأصوله.
- دكتوراه الدولة في العقيدة والفكر الإسلامي.

- الكتب المطبوعة، بالعربية:

1- الاحتياط في الشريعة الإسلامية. مؤسسة الرسالة، بيروت، 2003.
2- مقدمة في التنجيم وحكمه في الإسلام. مؤسسة الرسالة، 2003.
3- النظرية الإسلامية في الكهانة. مؤسسة الرسالة، 2003.
4- الغيب والمستقبل.
5- الغيب والعقل (دراسة في حدود المعرفة البشرية). الطبعة الأولى: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 2008 . الطبعة الثانية: دار التنوير بالقاهرة، 2014.
6- جولات في الدوريات الفكرية الفرنسية الكبرى. مطبعة أنفوبرانت، فاس . 2007 .
7- استشراف المستقبل في الحديث النبوي. سلسلة كتاب الأمة رقم 126، قطر. 2008.
8- الوجود بين مبدئي السببية والنظام. منشورات المعهد العالمي، 2008.
9- إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب الكبير: المغرب نموذجا. (بالاشتراك مع الدكتور محمد حراز). مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، 2014.

- كتب بالفرنسية:

- الفكر الجيوبوليتيكي لزبيغنيو بريجينسكي، من خلال كتابه"رقعة الشطرنج الكبرى".

- كتب تحت الطبع:

- مشكلات افتراق الأمة إلى سنّة وشيعة. الأصول والحلول.
- علوم السنة الشريفة: إرث الماضي وتحديات الحاضر.
- دراسات وأبحاث فكرية عامة.
- دراسات وأبحاث في العلوم الشرعية.
- آفاق جديدة في البحوث الإسلامية.
- مشكلة الاستدلال في الفقه المالكي: تطبيقات فقهية من فقه الأسرة.

ومئات المقالات والأبحاث والترجمات المنشورة.. بعضها بمدونة المؤلف.

غاية في كلمة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

9953-32-020-9

مؤسسة الرسالة

مؤسسة الرسالة ناشرون

منشورات

مروان رضوان دعبول

هاتف: ٥٤٦٧٢١، ٥٤٦٧٢٠

فاكس: ٥٤٦٧٢٢ (٩٦١١)

ص.ب: ١١٧٤٦٠

بيروت - لبنان

Resalah Publishers

Tel: 546720 - 546721

Fax: (9611) 546722

P.O.Box: 117460

Beirut - Lebanon

Email: resalah@resalah.com

Web site: Http://www.resalah.com

النظرية الإسلامية في الكهانة

تأليف
الدكتور الياس بلكا

مؤسسة الرسالة
ناشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين، ورضي عن آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين. أما بعد:

فقبل ما يزيد على عشرين عاماً استحدثت مؤسستنا قسماً جديداً يهدف إلى خدمة التراث العربي الإسلامي من خلال إحياء الكتب الهامة التي أُلفت وصُنفت في عصور الحضارة الإسلامية الذهبية.

وقام على هذا القسم علماء وطلبة علم شهد لهم بالمستوى العلمي المتميز والمنهج العلمي الدقيق، وكان من ثمرة ذلك كتبٌ كانت نجوماً زينت سماء المكتبة العربية، ومدحها القاصي والداني، وما «سير أعلام النبلاء» للذهبي، و«تهذيب الكمال» للمزي، و«صحيح ابن حبان»، و«شرح مشكل الآثار»، و«توضيح المشتبه» إلا أمثلة على ذلك.

ثم كان من توفيق الله أن تتصدى المؤسسة لمشروع «الموسوعة الحديثية الكاملة» بصحيحها وضعيفها، وكان أول الغيث في هذا «مسند الإمام أحمد» الذي صدر في خمسين مجلداً بعد أكثر من عشر سنوات من الجهد البشري و الفكري و المادي، ليكون كتاب الكتب و جامع المجاميع.

وتسعى المؤسسة إلى هدف هامّ وهو إيصال الكتاب المفيد الهادف إلى القارئ الذي يطلبه ويحتاجه، في دقة وإتقان ومنهجية، إضافة إلى المظهر الحسن، محاولة بلوغ الصورة الفضلىٰ شكلاً ومضموناً، واضعة في سبيل ذلك كل ما تكوّن لديها من خبرات في هذا المجال على مدى سنوات طويلة.

وهي بهذا تحاول المحافظة على التميز في إصداراتها عامة، وفي ما يجب حفظه والاعتناء به وخدمته من تراث هذه الأمة على وجه الخصوص.

وتتطلع مؤسستنا إلى تواصل حقيقي بينها وبين قرائها في كل ما من شأنه الرقيُّ بهذه الاستراتيجية.

واللهَ نسأل أن يمن علينا بالتوفيق والتأييد، ونستعينه أن يأخذ بأيدينا لما فيه خير هذه الأمة.

مؤسسة الرسالة

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على النبي وآله وصحبه.

وبعد،

يدل تاريخ البشرية قديما على أن المجتمعات الإنسانية عرفت صراعا مستمرا بين اتجاهين كانا يتنافسان على قيادتها وتوجيهها، في مجالات الاعتقاد والتعبد والتصور.. خاصة.

فمنذ ماض سحيق ظهرت الكهانة وملحقاتها من السحر والتنجيم وسيطرت على كثير من القبائل والشعوب زمانا طويلا لكنها ووجهت من طرف النبوة التي دعت إلى مذهبية أخرى مخالفة تماما للكهانة.

ودارت الحرب سجالا بين الأنبياء الذين كانوا يحملون إلى أممهم دينا ساميا يبين لهم غاية الإنسان في هذا الوجود ومكانته فيه وعلاقته بخالق الكون وما فيه من طبيعة وحياة.. وبين الكهنة حماة الوثنية ورموزها.

ولا يمكن أن نفصل ـ عند كثير من الشعوب، كالإغريق مثلا ـ بين الديانة الوثنية والكهانة، فهما كلٌّ واحد لا ينقسم، بل إن التكهن ـ هنا ـ هو روح «الدين» وأساسه.

ويسجل التاريخ أن ظاهرة التكهن، خصوصا ذاك الذي يُمارس في المعابد بطقوس احتفالية خاصة كما عند اليونان، ضعفت كثيرا في المرحلة الزمنية قبل ميلاد المسيح عيسى عليه السلام بقليل واستمر هذا الضعف قائما حتى أظل زمن الإسلام الذي استطاع أن يقضي على «الكهانة» بشكل شبه نهائي، وخصوصا في الأراضي التي خضعت لحكمه.

وهذا الإنجاز الذي حققه الدين الجديد إنجاز ضخم جدا، ولا يقدره حق قدره إلا من اطلع على شيء من تاريخ الكهانة في العالم القديم، ومبلغ تأثيرها في الناس آنئذ.

ولذلك فإن مما يهدف إليه هذا الكتاب هو تجلية دور الإسلام في محاربة الكهانة والعرافة، وكيف توصل إلى تحرير الإنسان من إسار هذه الممارسات الخطرة، والتي تفسد نفسيات الناس كما تعيق حرية البحث وتحرف طريق ابتغاء المعرفة.

ولهذا كان لقضاء الإسلام على هذه الظاهرة آثار فكرية وثقافية عميقة، تتجاوز مجال الميتافيزيقيا والتعبد الصرف إلى نظرة الإنسان إلى العالم وفهم الوجود.

لكن إدراك هذا ـ على الكمال ـ يتطلب الإحاطة الكافية بظاهرة الكهانة، من حيث فهمها ومعرفة أسبابها وطرق اشتغالها وغاياتها ومكانتها في المجتمعات الماضية وغير ذلك من شؤون تاريخها العام

ولما كان بحث هذا كله عند مختلف الشعوب وعبر مراحل زمنية طويلة أمرا غير ممكن في هذا الكتاب، وهو أيضا غير ضروري لأن مظاهر التكهن تتشابه كثيرا بين الأمم لما كان الأمر كذلك فقد رأيت أن أقتصر من دراسة تاريخ الكهانة على نموذجين: الأول، الكهانة عند الإغريق، والثاني عند العرب. ومما دفعني إلى اختيار هذين النموذجين دون سواهما جملة أمور:

١ ـ أهمية الكهانة وانتشارها عند الشعبين.

٢ ـ توفر اليونان والعرب على إرث مكتوب لا بأس به يسمح بتحديد معالم الظاهرة بوضوح، وأحيانا بتفصيل. في حين أن شعوبا أخرى ـ كالبربر، أو الأمازيغ ـ لا تملك ما يقارب هذا الإرث رغم أنها عرفت وجود الكهانة.

٣ ـ دور الشعبين ـ اليونان والعرب ـ في التاريخ الإنساني، خصوصا الاعتقادي منه.

٤ ـ احتضان الجزيرة العربية لدين الإسلام الذي يرجع إليه الفضل الأول ـ في التاريخ ـ في تحطيم الكهانة، بل كان هذا الدين فاصلا بين مرحلتين في التاريخ الإنساني.

لهذا جعلت الباب الأول خاصا بـ: «الكهانة قبل الإسلام»، حيث عرضت في الفصل الأول للكهانة اليونانية، وفي الثاني للكهانة العربية. ثم رجعت في الفصل الثالث إلى بحث وضع التكهن في عصر بزوغ المسيحية.

وقد بينت الدراسة ـ في هذه الفصول الثلاثة ـ وجود إشكالات حقيقية يثيرها موضوع الكهانة، وهي إشكالات قديمة سجلتها بعض الأدبيات اليونانية ثم اللاتينية فالمسيحية. وهي تتعلق ـ أساسا ـ بسؤالين:

الأول: ما هي حقيقة الكهانة، خصوصا التي تقوم بالمعابد؟ ولماذا كانت هذه الممارسة تتمتع ـ طوال زمن طويل ـ بالنفوذ والاحترام؟ وكيف نفسر صدق بعض نبوءاتها، وهو الصدق الذي ظل دائما أحد أهم أسباب استمرار الكهانة.

الثاني: لماذا ـ قبيل ظهور المسيح بن مريم ـ توقفت أكثر معابد التكهن عن إلقاء النبوءات، ولماذا حدث هذا التوقف بصورة سريعة ومفاجئة حيرت القدماء والمحدثين، على حد سواء؟

وقد نبهت على هذه الإشكالات في الفصل الثالث؛ ثم درستها بتفصيل وأوردت خلاصة النظر الهليني والمسيحي في أمرها، وناقشتها وبيّنت مالها وما عليها، وهذا موضوع الفصل الرابع.

ثم تكشَّف لي بالبحث والدراسة أن الإسلام يحمل أجوبة هامة على هذه الإشكالات، وهي أجوبة متكاملة ومتماسكة ومفصلة تُكون كلها معالم نظرية أصيلة في الموضوع، ولهذا جعلت الباب الثاني حول النظرية الإسلامية في الكهانة.

وقد قدمت كثيرا من عناصر هذه الأجوبة في الفصل الأول، وعنوانه: حقيقة الكهانة في الإسلام.

وفي الفصل الثاني قابلت بين النبوة والكهانة، وبينتُ ما بينهما من فروق كبيرة، وأوضحت لماذا كان يصر بعض العرب على اتهام النبي الكريم بالتكهن. وكان من تتمة هذا الموضوع ـ النبوة والكهانة ـ أن عرضت باختصار لقصة الغرانيق، وللغز ابن صياد الذي عاش بمدينة الرسول ﷺ أيام البعثة، ويعتقد بعض العلماء أن له علاقة بالكهانة.

وفي الفصل الأخير تناولت موضوع انقطاع الكهانة، أو استمرارها إلى يوم القيامة، وبينت قيمة تقسيم العلماء المسلمين هذه الظاهرة إلى نوعين مختلفين.

إن أكثر عناصر هذا الكتاب موجودة في التراثين الغربي والإسلامي، ولكنني لم أرها مجموعة ـ عندنا ـ ومنسقة ومفسرة على هذا النحو الذي يجده القارئ في هذه الدراسة، ولذلك أعتقد أن هذا الكتاب هو أول دراسة متخصصة في الموضوع في العربية، وأحسب ـ والله تعالى أعلم ـ أنه لذلك يسد ثغرة في المكتبة العربية والإسلامية، كما أنه يفيد في رسم التاريخ الديني والفكري للبشرية، وما حمله الإسلام إلى هذا التاريخ وخدمه به.

ولا يحسبن القارئ أن هذا البحث ينتمي فقط إلى تاريخ مضى وانقضى، وذلك لأن التكهن والعرافة والسحر وسائر فنون التنبؤ كالتنجيم وقراءة الكف ممارسات لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، ويعتبر استمرارها أحد أهم الأسئلة المطروحة على علوم

الأنثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعي وعلم الأديان وسائر العلوم المهتمة بفهم الإنسان، خصوصا إنسان القرنين العشرين، والواحد والعشرين. ويكفي القارئ - لكي يدرك أهمية هذه الفنون والاعتقادات في عصرنا هذا - أن يعرف أن حوالي أربعين مليونا أوربيا - بالاتحاد الأوربي فقط - يزورون سنويا الكهان والعرافين والمنجمين والمداوين بغير الطب..ونحو هؤلاء. (انظر مقال: Ignacio Ramonet : l'irrationnel et la socit , in : le monde diplomatique, septembre 1997, p 28).

وهذه الناحية في ظاهرة الكهانة موضوع آخر لم أتطرق إليه هنا، بل آثرت بحثه في كتاب آخر لي عنوانه: «الغيب والمستقبل»، فراجعه إن شئت.

إن هذا الانبعاث الجديد للتكهن وما يقاربه دليل آخر على أن جوهر الصراع - في ميدان الأفكار والمعتقدات - قلما يتغير في التاريخ الإنساني. ولذلك يحتاج العالم اليوم - مرة أخرى - إلى الإسلام لكي يؤدي دوره في هداية الإنسان وتحريره وتخليصه من إسار الكهانة المعاصرة بجميع أشكالها. فإنسان الحداثة - وما بعد الحداثة - يظل بئيسا رغم كل مظاهر التطور المادي، ولذلك فهو معرض الآن لخطر العودة إلى بعض الاعتقادات التي كان مفكرو القرن التاسع عشر - في غمرة تفاؤلهم بفكرة التقدم - يظنون أنها مجرد ذكرى من تاريخ انتهى.

تمهيد في مفهوم «سبب النزول الجملي»

لقد أشار القرآن الكريم إلى ظاهرة بشرية قديمة تهم التنبؤ بالمستقبل عامة، ومستقبل الأفراد والجماعات خاصة، عرفت باسم الكهانة. وكان الكتاب العزيز حريصا على رد اتهام قريش للنبي ﷺ بأنه مجرد كاهن من الكهان، فميز بين النبوة والكهانة. ثم إن الإسلام أبطل الكهانة وقضى عليها، حتى كادت تكون ظاهرة خاصة بالعالم القديم، وبالعالم غير الإسلامي بعده.

ولعل الفائدة تكون محدودة لو أننا تناولنا مباشرة حكم الكهانة في الإسلام بالدرس والتحليل، باعتبارها شكلا من أشكال الإخبار بالمستقبل، وذلك لأننا لن نفهم حق الفهم هذا الحكم لو لم نحط علما بوضعية الكهانة والكهان قبل الإسلام.

إن من رأيي أن الدراسة الأكمل لبعض القضايا التي تحدث عنها الوحي تقتضي أن نتعرض لها ببحثين اثنين:

الأول: البحث التاريخي، أي دراسة القضية من حيث نشأتها وظهورها وتطورها التاريخي، عند مختلف الأمم، ما أمكن ذلك. ثم يجب توسيع هذه الدراسة حين نتعرض لهذه القضية في حالتين:

أ ـ عند العرب، باعتبارهم الأمة التي نزل فيها الوحي.

ب ـ قبيل الإسلام، ومعه، لأنها الفترة التي استهدفها الوحي بصفة مباشرة وأولية. فالحالة الأولى تحصر البحث في المكان، والثانية تحدده في الزمان.

الثاني: البحث الفقهي والتشريعي، وهنا لا ندرس هذه القضية على أنها واقع مفروض، أو تاريخ انقضى، بل نبحث في أحكامها، وفي فلسفة هذه الأحكام، أي فيما ينبغي أن يكون وهذا كله في إطار النصوص الشرعية الواردة في الموضوع، وفي ضوء البحث التاريخي السابق ونتائجه.

هذا المنهج مفيد جدا في دراسة موضوعات مثل الشرك والسحر، وبعض الأوضاع الاجتماعية الخاصة ـ كوضع المرأة ـ، وكثير من الممارسات المالية كالربا وبيوع الغرر، وكذا بعض التقاليد أو الطبائع، كالرقى والطيرة

فالمنهج باختصار عبارة عن: فقه وتاريخ، وهو ـ في الواقع ـ طريق صعب ووعر

المسالك، ولكنه يسمح لنا بفهم بالغ للقضايا التي تحدث عنها الوحي أو أشار إليها، كما يتيح لنا أن ندرك الحكمة في كثير من الأحكام، وأن نعرف علل كثير من التشريعات، وبذلك نفهم مقاصد الشريعة بشكل أتم وأعم. ولذا يظهر لي أن على علماء المقاصد أن يجعلوا لهذا المنهج مكانا بين مناهج علم المقاصد وطرائقه في البحث.

وتقدم لنا هذه الطريقة في البحث خدمة أخرى، وهي أننا ـ بفضلها ـ يمكن أن نعرف جيدا حجم التغيير الذي أحدثه الإسلام في العالم. إن وضعا يبدو لنا اليوم شيئا متجاوزا ومخجلا وغير عقلاني ـ كعبادة الأصنام ـ لم يكن كذلك حين ظهر الإسلام، ولن نقدر قيمة تعاليم الإسلام حق قدرها في تحريم السحر والتطير ـ على سبيل المثال ـ إذا لم نكن على بينة من تأثير هذه الممارسات والعادات في البشرية قديما، وفي القسم غير المسلم منها في العصر الوسيط، وحتى الحديث. ولذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: لم يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية.

وأنا أحب أن أسمي هذا المنهج: سبب النزول الجملي، أو لنقل سبب النزول العام، في مقابل سبب النزول التفصيلي، أو الجزئي، أو ما يعرف في العلوم الإسلامية بسبب النزول هكذا مجردا. فسبب النزول الجملي عبارة عن الوعاء التاريخي للقضايا التي تكلم عنها القرآن أو الحديث.

وسأحاول ـ فيما يلي من هذا البحث ـ تطبيق هذا المنهج على قضية التنبؤ واستطلاع المستقبل، ففي الوحي ـ قرآنا وسنة ـ حديث في هذا الموضوع، وسنفهم جيدا أحكام الدين في قضايا التنبؤ في ضوء ظروفها التاريخية ـ خصوصا القريبة من زمن الوحي والمعاصرة له ـ، وفي ضوء النصوص المطلقة أيضا.

ويجوز ـ في إطار هذا المنهج ـ أن نعتبر أن القرآن الكريم «وثيقة» تاريخية، بل هو وثيقة بالغة الأهمية، فهو أصدق كتاب تناول عددا من قضايا وأحداث العالم القديم، وهو أيضا من أقدم الوثائق التاريخية المكتوبة الصحيحة النسبة إضافة ـ طبعا ـ إلى أنه وحي منزل.

وهذا الذي قدمته عما أسميته سبب النزول الجملي ليس شيئا قلته من عندي، أو بدعا في العلم لم أسبق إليه، فكثير من العلماء مارسوا هذا المنهج وإن لم يصرحوا به، كما تراهم يفعلون حين يتعرضون لموضوع المرأة في الإسلام مثلا، فهم يقدمون

له بحديث عام أو مفصل عن أوضاع المرأة في الجاهلية، ويجعلون ذلك تمهيدا أو مدخلا لبحث أحكام الدين الجديد في الموضوع. فليس لي في هذا الباب جديد، وإن كان فهو بيان المنهج بصريح الكلام، ثم تسميته بلفظ خاص، هو سبب النزول الجملي.

ويلزم أن أنبه على أمر آخر، وهو أنه لا خوف على الدين من هذه المنهجية أو من نتائجها، فنحن لا نفسر النصوص بأسرها في إطار ظروف تاريخية خاصة لا تتعداها، كما هو حال من يقول بتاريخية القرآن ويجعل من الإسلام دينا خاصا ببيئة محددة وزمان محدد. إن نصوص الوحي عندنا ـ معشر المسلمين ـ نصوص مطلقة لأزمنة مطلقة، ولو أن بعضها جاء جوابا عن نوازل خاصة أو أحداث جزئية قال ابن تيمية: «بعض آيات القرآن وإن كان سببه أمورا كانت في العرب، فحكم الآيات عام، يتناول ما تقتضيه الآيات لفظا ومعنى في أي نوع كان»[1].

فهذا المنهج لا يحصر المجال الدلالي للنصوص أو يضيقه، ولكنه يلقي عليها ضوءا خاصا، يعيننا على فقهها حق الفقه، وعلى استخلاص حكمها وعللها.

فهذه الدراسة هي عبارة عن بحث في سبب النزول الجملي وحيثياته، لقضية خاصة هي: الكهانة.

---

(١) الفتاوى، ١٩/ ٣١ ـ ٣٢.

الباب الأول

الكهانة قبل الإسلام

الفصل الأول: الكهانة عند اليونان.

الفصل الثاني: الكهانة في عصر بزوغ المسيحية.

الفصل الثالث: الإشكالات الرئيسة في تاريخ معابد الكهانة .

الفصل الرابع : الكهانة عند العرب

الكهانة عند اليونان

نبذة مختصرة عن تاريخ اليونان[1]:

اليونان بلاد جبلية - ٤٥٪ من أراضيه جبلية - ، وكثيرة الجزر، وهي تشكل خمس مساحته. مناخ البلد متنوع، ففي مناطق قاري جاف وفي مناطق ممطر، وفي أخرى متوسطي. وبسبب هذه العوامل - وغيرها - كان اليونان مصدرا دائما للهجرة، وهذا الوضع تغير لأول مرة في تاريخ البلد منذ ١٩٨٠م، حيث أصبح يستقبل مهاجرين من بلدان مجاورة. (انظر الخريطتين).

يمكن أن نقسم تاريخ اليونان إلى المراحل الآتية، وهو تقسيم تقريبي فقط:

١ - **عصر البرونز**: وهو يبدأ حوالي سنة ٢٦٠٠ ق.م، بمجيء غزاة لا نعرف من أين، عن طريق بحر إيجه. ومعهم دخلت زراعات وصناعات واكتشافات جديدة، مثل البرونز والمحراث.

كانت بداية الحضارة الهلينية بجزيرة كريت حوالي ١٥٠٠ قبل الميلاد، ربما لاتصالها بالفينقيين والمصريين. وبعد هذا جاءت أفواج أخرى هندو - أوربية من مناطق حوض الدانوب بوسط أوربا.

حوالي القرن ١٢ ق.م تعرضت اليونان لغزو الدوريين الذي أعطى السيطرة للأرستوقراطية العسكرية، ووجه البلد أكثر نحو الفلاحة على حساب البحر والتجارة. وفي هذا العهد انتقل مركز الحضارة نحو شرق اليونان على شواطئ بحر إيجه، وتقوى الاتصال مع الشرق الأسيوي.

٢ - **المرحلة القديمة**[2]: تبدأ من حوالي ٧٥٠ قبل الميلاد إلى ٥٠٠ ق.م.

---

(١) راجع أي كتاب في التاريخ القديم عامة، أو تاريخ أوربا، أو اليونان خاصة. وقد اعتمدت هنا على الكتب التالية:

Paul Petit: Prcis d'histoire ancienne. G. Duchet et M.Suchaux: Histoire grecque. Moses. Finley : Les premiers temps de la Grce.

(٢) وتسمى بـ : époque archaïque مقابل العصر الكلاسيكي : époque classique.

وهذه المرحلة شهدت بروز الأرستوقراطية التي كانت تملك أخصب الأراضي، كما في أثينا. أما في إسبارطة فقد تشكلت هذه الطبقة من العسكر أساسا.

وهنا أيضا بدأت تتشكل وتبرز ملامح اللغة اليونانية ونوع من الهوية القومية وإطار من الاعتقاد واشتد التوسع اليوناني في عالم البحر الأبيض المتوسط، بسبب كثرة السكان، وظهر اقتصاد التجارة، ونشطت الحروب الأهلية، فلقد أسست المدن اليونانية عددا من نقاط التبادل التجاري على طول شواطئ البحر المتوسط، خصوصا الشرقي منه، ولذلك نشطت التجارة البحرية بتبادل القمح والمعادن والعبيد. وكان الحكم في الأكثر لقادة عسكريين أطلق عليهم اسم الطغاة Tyrans.

ورغم ذلك، دخل البلد في أزمة اجتماعية وسياسية خانقة بسبب ظهور طبقة التجار والصناع، ورغبتها في المشاركة بنصيب في الحكم، وكذا بسبب انتشار الفقر بين الفلاحين المثقلين بالديون. ومنذ وسط القرن السابع وطيلة القرن السادس حدثت ثورات شعبية، كان «الطغاة» أحيانا يقمعونها ـ ومن هنا التسمية ـ، وأحيانا كان يستجيب بعضهم لبعض مطالبها.

ولم يخل عصر الطغاة من إيجابيات تتمثل في بعض الاستقرار، وفي الثقافة، وفي البناء والتشييد.

وفي هذه المرحلة نمت الفنون والآداب جيدا، وبنيت معابد كثيرة، ولذلك كان هذا عصر النحت، وظهرت الفلسفة والعلوم، وخصوصا في القرن السادس.

٣ ـ العصر الكلاسيكي: يمتد من حوالي سنة ٥٠٠ ق.م إلى حوالي سنة ٣٣٨ ق.م.

وفي هذا العهد الذي كان فيه العالم اليوناني ينمو ويزدهر، كانت إمبراطورية كبيرة في الشرق تتوسع شيئا فشيئا، وهي: إمبراطورية الفرس. ولذا كان الصدام بين العالمين واقعا لامحالة، فدارت بينهما حروب طويلة[١]، لم يستطع الفرس أن يسيطروا إثرها على اليونان، وإن هددوه مرارا ودخلوا أراضيه. ولما كانت أولى هذه المعارك قد قادتها مدينة أثينا بنجاح، فقد أصبحت مركزا وعاصمة لشبه إمبراطورية أثينية ويونانية مزدهرة.

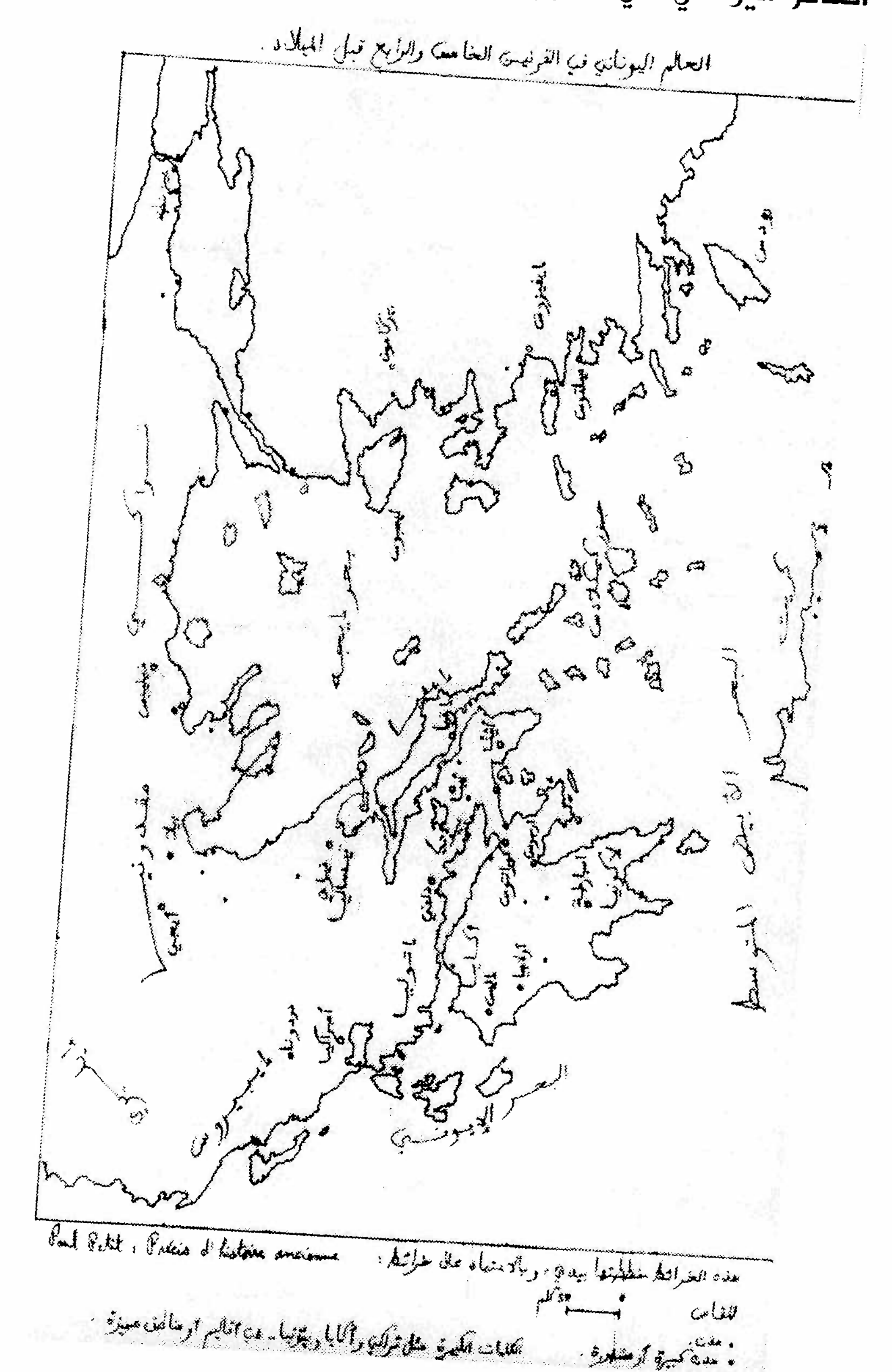
---

(١) وهي المعروفة بـ: Les guerres mdiques.

لكن هذا لم يدم طويلا ، فأثينا التي كانت ديموقراطية في الداخل، كانت تمارس سياسة استعمارية وقمعية على حلفائها اليونان، وعلى المدن التجارية والبحرية التابعة لها، ما دفع هؤلاء إلى ثورات متكررة، سرعان ما تحولت إلى حرب ضد أثينا ، بقيادة المدينة المنافسة اسبارطة. وهذه هي الحرب الطويلة المعروفة بحرب البلوبونيسوس، والتي دامت من ٤٣١ إلى ٤٠٤ ق.م. وانتهت بفوز اسبارطة بعد تنازلها لملك الفرس عن اليونان الأسيوي، لكسب دعمه ضد أثينا.

ثم بعد إسبارطة كانت الهيمنة لإقليم البيوتيا ، ثم لأثينا مجددا في شكل من التحالفات المتقلبة باستمرار. لكن العالم اليوناني أصبح الآن محاصرا من الغرب والجنوب بالشعوب الإيطالية والقرطاجنيين، ومن الشرق بالفرس.

العالم اليوناني في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد



إن اليونان لم يكن أبدا بلد واحدا وموحدا، بل هو مجموعة من المدن والأقاليم، يستقل بعضها عن بعض، ولكنها تكون عالما يونانيا متماثلا واضح القسمات.

وقد كان العصر الكلاسيكي هو الفترة الحقيقية لتأسيس الفلسفة والفكر السياسي، ومسرح التراجيديا والتاريخ. وفيه عاشت أبرز الأسماء المعروفة في هذه المجالات، كما ستلاحظه في التراجم الكثيرة في هذا المبحث، بعد قليل.

٤ ـ **العصر الهليني**: من حوالي ٣٣٨ ق.م إلى حوالي ١٤٦ ق.م.

كانت مملكة مقدونيا ـ في شمال اليونان ـ على علاقة بالعالم اليوناني ومعرفة به. واستغل ملكها فيليب الثاني الوضع السياسي والاقتصادي المأزوم للبلد جاره، فاجتاح اليونان وأخضعه ـ في مدة عشرين سنة ـ لحكمه. وجاء بعده ابنه الإسكندر الأكبر فأسس إمبراطورية واسعة إلى حدود الهند، سرعان ما تفككت بعد موته إلى ثلاث ممالك. لكن معالم عالم هليني بدأت تتشكل، وهو يضم اليونان ومقدونيا ـ وكانتا مملكة واحدة بعد الإسكندر ـ، ومصر، وسواحل سوريا وفلسطين والأناضول.. وهذه الهلينية ـ وهي الثقافة اليونانية في الأصل ـ كانت مطعمة بكثير من ثقافات الشرق وعلومه، وذلك بسبب التوسع المقدوني.

٥ ـ **المرحلة الرومانية**:

في القرن الثاني قبل الميلاد اتجه الرومان إلى إخضاع مقدونيا واليونان، بعد أن أتموا السيطرة على إيطاليا وصقلية، وهو ما استغرق نسبيا زمنا طويلا، وانتهى باحتلال الإمبراطور سيلا لأثينا سنة ٨٦ ق.م، وهزيمة أونتونيوس وكليوباترا في الشواطئ الغربية لليونان سنة ٣١ ق.م.

كان الحكم الروماني مفيدا لاستقرار بلاد الإغريق وازدهارها، ولذلك عرف إحياء جديدا في ميادين الآداب والتاريخ والفلسفة.. وهو الإحياء الذي لم يطل بعد أن أصدر الإمبراطور ثيودوس الأول سنة ٣٨١ بعد الميلاد قرارا بمنع الوثنية والمعاقبة عليها. وكان آخر احتفال بالألعاب الأولمبية سنة ٣٩٣م رمزا لانتهاء اليونان القديم والكلاسيكي.

٦ ـ **العصر الوسيط والحديث**:

وحين انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية، كان اليونان من نصيب

إمبراطورية الشرق، المعروفة بالإمبراطورية البيزنطية، وكان ضعفها قد عرّض اليونان ـ قرونا ـ لغزوات كثيرة من الشمال الأوربي، حتى جاء العثمانيون سنة ١٤٦٠م فسيطروا على البلاد حوالي أربعة قرون، وتركوا للسكان إدارة ذاتية لشؤونهم الدينية والتجارية.

استمر هذا الوضع إلى سنة ١٨٣٢م، تاريخ انفصال اليونان عن الخلافة العثمانية، ليسقط البلد في سلسلة من التدخلات الخارجية لبعض الدول الأوربية الكبيرة، يبدو أنها لم تنته إلا مع انتهاء الحرب العالمية الثانية، وما تلاها من اندماج اليونان في الاتحاد الأوربي.

هذا باختصار شديد موجز تاريخ بلد احتضن إحدى أهم الحضارات الإنسانية القديمة.

مشاكل الترجمة:

من أول الصعوبات التي واجهتني في هذا الموضوع مشكلة كيفية ترجمة بعض المصطلحات الأساسية المتعلقة بالكهانة. ولحد الآن حين أفكر في مصطلح مثل: Divination ، لا أجد له الترجمة المناسبة في العربية. وقد تكون لهذا أسباب تتعلق بمشاكل الترجمة على العموم، وترجمة النص الديني والفلسفي على الخصوص. وهي المشاكل التي درسها جيدا الأستاذ طه عبد الرحمن وبسطها في كتاب خاص[(١)].

لكن يبدو لي أن من أهم أسباب هذه الصعوبة هو أن مصطلحا مثل السابق ذكره ليس واضحا حتى في اللغة الأصلية الأجنبية ذاتها.

وحتى لا أطول على القارئ أقدم له مثالين من المصطلح:

١ ـ Devin، وأصله باللاتينية .Devinus وقد فسره معجم روبير ـ وهو معتمد ـ بأنه شخص يدعي كشف ماهو مستور، والتنبؤ بالمستقبل، بأساليب لا تتصل بالمعرفة الطبيعية أو العادية.

---

(١) هو حاليا أستاذ المنطق وفلسفة اللغة بكلية الآداب بالرباط، ناقش الدكتوراه بجامعة السوربون بباريس في موضوع: رسالة في منطق الاستدلال الحجاجي والطبيعي ونماذجه. له عدد من المؤلفات، منها: اللغة والفلسفة، بالفرنسية. المنطق والنحو الصوري. الألوهية ومراتب التقرب. في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. أما الكتاب المقصود في الصلب، فهو: الفلسفة والترجمة. من نشر المركز الثقافي العربي.

وفي معجم الفرائد الدرية - في كلمة عرف - Devin هو العراف، لكنه عاد - في لفظ كهن - فاعتبر الفعل من Devin هو كَهن، بينما الكاهن هو .Prêtre وكذلك في معجم جبور.

أما في معجم المنهل، فالمصطلح يعني: الكاهن، والعراف. وفي موضع آخر جعل للعرافة اسما خاصا هو .Voyance

٢ - وهذا كله هين، إذا قارناه بمصطلح مشكل هو: .Divination ماذا تعني هذه الكلمة بالضبط؟ يكاد معنى الكلمة يختلف في كل استخدام أو استعمال، يختلف ولا يتكرر. ولذلك فإن الفقرة والسياق العام وزمن الكاتب هو الذي يمكن أن يحدد - على وجه التقريب - معنى هذه اللفظة، بحيث إن هذا المعنى يتغير من جملة إلى جملة، ومن فقرة إلى فقرة.

بل يبدو أن الاستعمالين القديم والوسيط يعبران بهذا المصطلح عن كل شيء لا يفهمه الإنسان، ويشعر بأنه من عالم آخر غير عالمه المادي المحسوس.

ولذلك أعرف الاضطراب والتردد اللذين شعر بهما واضعو معجم المنهل، ودفعهم لكتابة الترجمة الآتية[١]:

Divin (نعت أو اسم)	رباني، إلهي، سماوي
Divination (مصدر)	عرافة، تنجيم، تنبؤ - كهانة - حدس، تخمين - بعد نظر
Divinateur (اسم فاعل)	عرافة، منجم، متكهن
Divinatoire (صفة)	تنجيمي، متعلق بالتنجيم
Divinité (اسم)	ألوهية، إله، معبود

وهذه - في الواقع - ترجمة تقريبية فقط، وفيها قصور، ولكن عذر واضعيها معلوم مقبول. والقاعدة التي أحرص ما أمكن على اعتبارها والالتزام بها هو أن لا أترجم كلمة لها حمولة معينة في الفكر والتراث الغربيين بكلمة عربية لها معناها العربي أو الإسلامي الخاص، لأن هذا الخلط مصدر خطأ كثير، وهو أحيانا خطر، بما يؤدي إليه من تشوه وتشوش في إدراك بعض القضايا الكبيرة.

(١) قارن بتعريف الكلمة في: Petit Robert، وبعضهم - مثل الأستاذ توفيق الطويل - ترجم الكلمة بـ: علم الغيب.(ومابين قوسين مني)

ولهذا لا أميل إلى ترجمة كلمة هامة في تاريخ الكهانة الغربية، هي: Oracle بـ: وسيط الوحي، أو الوحي الإلهي، أو مهبط الوحي، أو مكان نزول الوحي[١] لأن للوحي دلالة إسلامية واضحة ومستقلة، ولذلك فضلت أن أترجم الكلمة بـ: معبد الكهانة، أو معبد التنبؤ.

وكذلك يوجد فرق بين المفهوم الوثني القديم: Génie ، والمفهوم - الخاص بالديانات السماوية - للشيطان، رغم أنه منذ زمان طويل طابق بعض المسيحيين بين Génie - وهذا المخلوق نوعان خير وشرير - ، وبين الشياطين والملائكة[٢]. بل حتى ترجمة Génie بالروح غير مناسبة. فهذه كلمة لها معنى خاص في الثقافة اليونانية - مثلها مثل Héros أو «البطل» - وإن كان يشبه - من بعض الوجوه - ما نعرفه نحن عن الجن والملائكة.

ويوجد مصطلح آخر يقصد به حالة عصبية وجسمانية خاصة تحدث للكاهنة أثناء تكهنها، هو Enthousiasme ، وهو قديم. وترجمته تثير أيضا بعض المشاكل، ولذلك لم أجد الكلمة المناسبة في الترجمات الواردة، مثل: الاضطراب. الوجد. الجذب. الجِنَة. المَسُّ. الهذيان.

لكنني أعترف بأنني لا ألتزم - على الدوام - بهذا المنهج، أعني عدم ترجمة كلمة لها معنى خاص في التراث الأوربي بكلمة شبيهة بها في تراثنا نحن فهو - في الواقع - منهج صعب وشديد، وحسبي أنني أحاول ذلك.

الكهانة والعرافة:

يمكن أن نقول بصفة عامة إن الكهانة - التي سندرسها في هذا الفصل - هي ممارسة تتم في الغالب في المعابد، حيث يتم الاتصال بين السماء - حيث الآلهة والأرواح - وبين الأرض. هذه الممارسة ذات طابع ديني، ولذلك تحتاج إلى تقديم القرابين، وهدفها هو المعرفة بصفة عامة، ومعرفة المستقبل واستشارة السماء فيما ينبغي فعله بشأنه.. بصفة خاصة.

أما العرافة فعمل شبيه بالكهانة في الأسلوب والغاية، لكنها تكون خارج المعبد، وتعتمد على المهارة الفردية، ولذلك فاستحضار السماء في العرافة أضعف.

---

(١) انظر المعاجم الفرنسية - العربية، مثل المنهل.

(٢) R.Flacelière : Introduction au livre de Plutarque: sur la disparition des oracles. p, 42 سيأتي التعريف بهذا الكتاب.

تداخل الدين والكهانة عند الإغريق:

وهو أحد أهم أسباب مشاكل الترجمة الخاصة بموضوعنا.

وهذا التداخل يوجد عند أكثر القدماء، والقاعدة أن هؤلاء كلما كانوا متدينين أكثر، إلا و اهتموا بالكهانة وما إليها ـ Divination ـ أكثر، حتى إن بعض الباحثين قالوا: إن الكهانة هي أهم شيء وأشده حيوية كان في ديانات اليونان والرومان[١].

الكهانة والمستقبل:

لقد اعتبر شيشرون في كتابه المعنون بـ: De divinatione بأن الكهانة ـ والطقوس المتصلة بها ـ هي كشف المستقبل، ومعرفة الأشياء المقبلة[٢]. ووافقه على ذلك فلاسلير، لكن الكهانة عنده ليست فقط إدراك المستقبل، بأساليب ميتافيزيقية وغير طبيعية، بل أيضا إدراك الماضي والحاضر بالطرق ذاتها[٣].

ولذلك يفضل هذا الكاتب أن يفسر هذه الكهانة السماوية Divination بأنها المعرفة فوق ـ الطبيعية لكل شيء مجهول[٤]. فهي محاولة لمعرفة شيء نجهله، ولا يمكن أن نعرفه بالأساليب البشرية المعتادة، سواء تعلق بالماضي أم بالحاضر أم بالمستقبل. وهذه المعرفة لا تتم بطريق طبيعي، بل بالاتصال بعالم السماء.

لكن تبقى الوظيفة الأساسية للكهانة السماوية هي: معرفة المستقبل[٥].

---

(١) (ترجمة عنوان الكتاب: الكهان اليونان ومعابدهم) R.Flacelière : Devins et oracles grecs, p.9

(٢) انظر: علم الغيب في العالم القديم، لشيشرون، ص ١٣٥ . Devins et oracles grecs, p.7 .
أما Marcus Cicero فسياسي ومفكر وخطيب روماني. كانت له أدوار سياسية هامة في الجمهورية، وحالف بومبي في حربه ضد قيصر. قتل شيشرون سنة ٤٣ ق.م، بعد اغتيال قيصر واضطراب أوضاع روما. ترك شيشرون كتبا كثيرة. وحاول التوفيق بين المدارس الفلسفية المتعارضة. واسمه في اللاتينية سيسرو، ولكن العرب ترجموه شيشرون، ومازالت هذه الترجمة هي السائدة. (الترجمة عن موسوعة p.Robert، ومنها أخذت معظم تراجم الأعلام الأجنبية).

(٣) Devins et oracles grecs, p 8.

(٤) قال: Devins et oracles grecs, p9. "La divination est la connaissance surnaturelle de l'inconnaissable"

(٥) Devins et oracles grecs, p8.

وهذا الرأي الذي عبر عنه فلاسلبير أقرب إلى الصواب، وما قاله شيشرون كان باعتبار الأكثر والأغلب، وعلى هذا فلا تعارض.

المبحث الأول: الكهانة في بلاد الإغريق

حديث صهيب:

روى صهيب الرومي رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «كان ملك من الملوك، وكان لذلك الملك كاهن يكهن له. فقال الكاهن انظروا لي غلاما فَهِما ـ أو قال فطنا لقنا ـ فأعلمه علمي هذا، فإني أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم ولا يكون فيكم من يعلمه. قال فنظروا له على ما وصف فأمره أن يحضر ذلك الكاهن وأن يختلف إليه فجعل يختلف إليه. وكان على طريق الغلام راهب في صومعة»[(١)] إلى آخر القصة المعروفة بقصة أصحاب الأخدود، والتي أشار القرآن الكريم إلى نهايتها في سورة البروج.

هكذا ـ إذن ـ كانت الكهانة في العالم القديم، كانت شأنا عاما، يتعاطى له حتى الملوك، وكانت أيضا «فنا»، أو بتعبير الكاهن نفسه ـ في الحديث ـ علما، يدرس ويلقن. وكذلك رأى أحد أهم الباحثين المختصين في الحضارة البابلية، فقد اعتقد أوبنهايم، بناء على الأدب البابلي في التنجيم الذي وصل إلينا، أن الكهانة كانت تشكل «علما»[(٢)]، أي موضوعا له أصوله وقواعده وطرائقه.

أساليب الكهانة:

وقد كثرت فنون التنبؤ وتعددت، حتى دعت الحاجة إلى تصنيفها وترتيبها. لكن المختصين في هذا الموضوع وجدوا صعوبة في ذلك، بسبب كثرة أساليب التنبؤ ـ عند

---

(١) هذا لفظ الترمذي في السنن، في كتاب تفسير القرآن، باب ٨٥، حديث رقم ٣٣٥١. وقال: هذا حديث حسن غريب. وأخرجه أيضا الإمام مسلم في الجامع الصحيح، في كتاب الزهد والرقائق، باب ١٧، قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام. ورواه أيضا النسائي وأحمد (عن المعجم المفرس لألفاظ الحديث، لونسنك). غير أن مسلما يقول الساحر، عوض الكاهن. وقوله في الحديث: فأمره أن يحضر أي أُمِر الغلام بالحضور.

(٢) (الموسوعة الكونية) Encyclopaedia Universalis. 7/576, article Divination والباحث المذكور هو . Z.Oppenheim

القدماء ـ وتداخلها فيما بينها فوضعوا تصانيف، منها تصنيف لوسكوزك، الذي حظي بالقبول عند الكثيرين.

يقسم هذا الباحث أساليب التنبؤ إلى خمس مجموعات:

١ ـ التنبؤ بإلهام، وفي حالة يقظة.

٢ ـ كل الأساليب المعتمدة على النوم، أو الهلوسة والهذيان، أي في غير حالة الوعي اليقظ .وهذا يتوصل إليه إما:

أ ـ بالنوم: وهو إما طبيعي (أي أن الشخص ينام بالكيفية العادية)، أو متعمد ومصطنع.

ب ـ بإثارة عصبية وهيجان .Transe وهذه الحالة تكون: بطرق فيزيائية؛ أو باستعمال مادة مهلوسة، تحقن أو تؤكل.. أو عن طريق الحواس باستعمال شيء لامع: بلور، أو ماء، أو مرآة.

٣ ـ التنبؤ الرياضي، الذي يستخدم طرقا «علمية»، وهو أنواع:

أ ـ علم الرمل، أو الخط.

ب ـ التنجيم.

ج ـ العرافة باستعمال الأعداد والأرقام.

٤ ـ التنبؤ بالملاحظة، وهو بدوره أنواع:

أ ـ التنبؤ بدرس حالة الإنسان ـ أو الحيوان ـ وسلوكه وغرائزه.

ب ـ فحص أحشاء الضحية.

ج ـ تأمل البرق.

د ـ استعمال العصا ـ أو عود، أو نحو ذلك ـ في الكشف عن المغيبات، كينابيع الماء الباطنية مثلا

٥ ـ منظومات خاصة لَفّق لها المصنف اسما خاصا، وفيها:

أ ـ السهام أو الأنصبة.

ب ـ النذْر، والمقصود هنا الأشياء التي اعتبرها العرف القديم نذرا، وحدد معناها[1].

هذا تصنيف عام يحاول أن يجمع أنواع التكهن الكثيرة، وهي الكثرة التي حدث

---

(١) عن: (مقال التكهن بالموسوعة) Encyclopaedia Universalis, 7/576, art Divination

ببعض الكتاب إلى أن يضعوا معجما خاصا أو موسوعة مستقلة في أساليب التنبؤ هذه. وبين يدي ـ من هذه الكتب ـ : «موسوعة فنون التنبؤ بالغيب»، لعراف معاصر هو بلين[١]، لكنه لم يذكر فيها بعض أساليب الكهانة التي اندثرت، مثل: فحص الأحشاء، واستنباء الطيور.

ولهذا يقول فلاسلبير: «إن أساليب التنبؤ باستعمال الأشياء هي تقريبا لانهائية من حيث عددها»[٢] فبعض الأنهار أو العيون المقدسة ـ مثلا ـ تستشار أيضا، إذا رمي فيها شيء هدية للنهر فنزل في القاع أول على أنه رفض، فإن طفى كان علامة إيجابية[٣]. وليس الماء فقط الذي يستعمل في التكهن، بل حتى النار أو اللهب[٤].

ولما كانت طرق الكهانة بهذا التعدد، فإنني سأخص بعضها بكلمات زائدة، لأهميتها في كهانة العالم القديم:

١ ـ الاستعانة بالطيور: فلهذه مكانة خاصة ـ بين جميع الحيوان ـ عند القدماء. إنها تسكن السماء، وإذن فهي الأقرب إلى الآلهة. وتعتمد هذه الكهانة على تحديد نوع الطير، فبعضها تحمل دائما خيرا، وأخرى تعتبر نذيرا سيئا، وبعضها يختلف أمره بحسب المشاهِد وبحسب الظروف. وبعدها تأتي دراسة نوع الطيران، وهل يتجه يمينا أو شمالا، وهذا أهم شيء. وكذلك لصوت الطير شأن خاص. والمفروض أن كل أنواع الطيور يمكن أن تفيد بشيء، ولكن مع الزمن أصبح العدد محددا[٥].

وهذه الطريقة كانت جد منتشرة في اليونان القديم، لكنها هجرت ـ إلى حد ما ـ

---

(١) Encyclopédie des arts divinatoires. وبلين Belline عراف فرنسي، وكاتب أيضا. له غير هذه الموسوعة: كيف صرت عرافا. الأذن الثالثة، مترجم إلى ست لغات أوربية. عراف يبحث عن الزمن المستقبل. كبار الملهمين في التاريخ. وغيرها. وهذه الكتب طبعت بين سنتي ١٩٥٩و ١٩٨٣.

(٢) (الكهان ومعابد النبوءة عند اليونان)Robert Flacelière: Devins et oracles grecs, p 23 والكاتب أستاذ سابق بالمدرسة الفرنسية بأثينا، ثم أستاذ بجامعة ليون، وأخيرا بالسوربون بباريز (في الستينيات). مختص في الحضارة اليونانية القديمة، وله أعمال في هذا المجال، واعتنى بالخصوص بكتب فلوطرخس، فترجمها وعلق عليها ودرسها.

(٣) Devins et Oracles grecs, p 24, 25 .

(٤) Devins et Oracles grecs, p 23 .

(٥) Devins et Oracles grecs, p 16-17 .

في المرحلة الكلاسيكية[١]. لكن بعض الأمم الأخرى - مثل الرومان والعرب، كما سيأتي - حافظت على استنباء الطيور إلى زمن متأخر. والعرب يسمون هذه الكهانة بـ: العيافة.

٢ - التكهن بالنظر في الأحشاء: يعتقد أن هذا الأسلوب ظهر بالشرق - في المنطقة حوالي نهري دجلة والفرات -[٢]، فثمة أدلة على ممارسته في العهد السومري، أي في الألفية الثالثة قبل الميلاد[٣].

وهذا الأسلوب من أقدم طرق الكهانة على الإطلاق. وربما - كما يقول بورفوريوس -[٤] كان يمارس في البداية على ضحايا بشرية، أي بقتل إنسان ثم فحص أحشائه، لأنه كان يظن أن المستقبل يبدو بشكل أفضل في أحشاء الإنسان[٥].

وكان الكهان يفحصون بالخصوص: الكبد، والمرارة، والرئتين، والأمعاء. فينظرون تفاصيل كثيرة عن وجود عضو أو غيابه، ووضعه، وحالته، ولونه[٦] وهذا الأسلوب أعقد من الأول، إذ بينما يفترض الأول أن السماء توجه الطير في طيرانها، يفترض الثاني أن الآلهة وضعت في أحشاء الحيوانات الأجوبة الملائمة لأسئلة الناس، وأنها توجِّه أيضا المضحّي نحو اختيار الضحية التي تحمل في أحشائها الجواب المناسب على السؤال المطروح[٧].

---

(١) Devins et Oracles grecs; p 17 .

(٢) وهي التي تسمى في الفرنسية : Mésopotamie، وهي حاليا - على وجه التقريب - العراق وما حواليه من أجزاء من إيران وتركيا وسوريا .

(٣) Ency Uni, art divination 7/577 وقارن بـ: Devins et oracles grecs, p 21

(٤) باليونانية Porphurios، وبالفرنسيةPorphyre، فيلسوف من الأفلاطونية المحدثة، أصله من سوريا. تتلمذ على لونجينوس Longin، ودرس بأثينا، ثم استقر بروما عند أفلوطين، ومات بها سنة ٣٠٥ بعد الميلاد. كتب: حياة فيثاغورس. حياة أفلوطين. الإيساغوجي إضافة إلى شروح على أعمال أفلاطون وأرسطو. والجدير بالذكر أن بورفوريوس هو الذي نشر ورتب العمل الكبير لأفلوطين: التساعيات، والذي كان له تأثيره على الفلسفة عند المسلمين والمسيحيين، على حد سواء.

(٥) في كتابه: De l'abstinence, tome II, livre 2, p 115 (وموضوعه الإمساك عن الملذات، ومنها أكل اللحوم، وكان بورفوريوس نباتيا).

(٦) Encyclopaedia, art divination, 7/577 - 578 وانظر التفاصيل في هذا المقال.

(٧) Devins et oracles grecs, p 21 - 22 .

٣ ـ معابد النبوءة: عرف العالم القديم ـ زمانا بعد الأسلوبين السابقين ـ ظاهرة تخصص بعض المعابد في تقديم الاستشارة للناس والجواب عن أسئلتهم، وكان الكهنة يقومون بذلك باسم الآلهة.

وأول معبد من هذا النوع نعرفه كان في مصر الفرعونية حوالي ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد[١]. ثم تعددت هذه المعابد، ومما اشتهر منها:

أ ـ معبد آمون، في صحراء مصر (انظر الخريطة). وقد زاره الإسكندر الأكبر لشهرته.

ب ـ معبدا دلفي ودودونا باليونان. وسأفصل ـ بعد قليل ـ الحديث عن الأول، وهو مثال لغيره.

الكهانة عند غير اليونان:

ثمة شعوب سبقت اليونان إلى الحضارة، وسبقتها أيضا إلى الكهانة. ولذلك يرى هيرودوت ـ في تاريخه ـ أن التنبؤ اليوناني أصله مصري. ويقول المسعودي: « ولا أمة خلت، إلا وقد كان فيها كهانة»[٢].

إن التكهن ظاهرة موغلة في القدم، بل حتى الأقدمين كانوا يعتقدون بأن الكهانة تضرب بجذورها في أعماق الماضي السحيق. فهذا شيشرون ـ الذي عاش قبل أكثر من ألفي عام ـ يقول: إن الاعتقاد في التنبؤ والكهانة اعتقاد قديم جدا، فمن الشواهد على ذلك الأشوريون الذين لاحظوا حركات الكواكب، وتكهنوا بناء عليها. وقد استفاد منهم الكلدانيون. وكذلك فإن المصريين وسكان أقاليم واسعة من آسيا آمنوا بهذا التنبؤ ومارسوه[٣]. ويقول أيضا: «قد كان يندر أن يقدم أهل العصور القديمة على

---

(١) Encyclopaedia, 7/577, divination.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٢/ ١٧٢ Hérodote . ، مؤرخ يوناني يعتبر أب علم التاريخ ـ بحسب التاريخ الغربي للعلوم ـ ، وذلك بفضل كتابه: «التواريخ». من أصل أرستوقراطي، شارك في الاضطرابات السياسية التي عرفتها أثينا في زمانه، ثم انتقل إلى جنوب إيطاليا، حيث مات هناك ـ فيما يظهر ـ سنة ٤٢٥ ق م. الموضوع الأساسي لكتابه في التاريخ هو الصراع بين العالم اليوناني وغير اليوناني ـ أي البربري في عرف اليونان آنذاك ـ ، واهتم خصوصا بتسجيل الحروب الفارسية ـ اليونانية.أما المسعودي فهو أبو الحسن علي بن الحسين، مؤرخ وإخباري توفي بمصر سنة ٣٤٥هـ. انظر : معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، ٧/ ٨٠.

(٣) علم الغيب في العالم القديم، لشيشرون، ص ٣٥ ـ ٣٦. وعنوانه الأصلي باللاتينية: =

أمرذي خطر ـ ولو اتصل بشؤونهم الخاصة ـ دون أن يستشيروا الطير ليعرفوا إن كان سانحا أو بارحا»(١)

وفعلا، ففي بلاد ما بين النهرين ـ منذ حوالي ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ـ، كان رئيس الجماعة إين ـ Enفي البداية ـ يقوم بدور الملك والكاهن معا، ويسكن في جناح خاص في المعبد. لكن الملك سرعان ما عهد إلى كهنة مختصين ببعض الواجبات الخاصة تحت إشراف رئيس لهم. وكان لبعض المعابد مجموعة من الكاهنات أو الراهبات يعشن في أديرة، وبالمعابد ـ أيضا ـ هيئة إدارية كبيرة من الكتبة وأمناء المخازن والحراس. وكانت الآلهة تحتاج إلى مؤن منتظمة، أفضلها القرابين، فيصب الدم أولا في فناجين، ثم تختار الأجزاء الممتازة كالرئتين والكبد لمعرفة الطالع. وكانت هذه الطريقة هي المستخدمة أكثر من غيرها عندما تكون «الدولة» على وشك إصدار قرارات خاصة كالاتفاقيات مع دول أخرى، أو شن الحرب(٢)

هذا باختصار شديد ما كانت عليه بلاد الأشوريين والسومريين. أما في الصين فيكفي أن نعرف ـ لكي ندرك عمق الاعتقاد في الكهانة وكثرة ممارستها ـ أن هستون تسو(٣)، وهو فيلسوف عقلاني، عرض الكهانة عرضا عقلانيا، وهو وإن أدان بعض الممارسات الدينية معتبرا إياها من الخرافات، مثل طرد المرض بالتعاويذ وقراءة حظ المرء من ملامح وجهه إلا أنه أباح التنبؤ بالغيب، شريطة أن يكون عقلانيا(٤)، أي فنا له قواعد، كالتنجيم ودراسة البرق..

وفي الصين يعتبر كتاب «كنج»، أي التغيرات، تجميعا متأخرا وتنظيما فكريا للكتب القديمة التي موضوعها الكهانة والتنبؤ(٥)

= De divinatione، وهذا الكتاب ترجم إلى اللغات الأوربية الرئيسية. ونقله توفيق الطويل عن ترجمة لويب Loeb الإنجليزية، وهي أدق الترجمات في هذه اللغة. وكان الطويل يرجع إلى الأصل اللاتيني أيضا.

(١) علم الغيب في العالم القديم، ص ٥٥.

(٢) راجع كتاب جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ٣٢ إلى ٣٧. ترجمه عن الإنجليزية الدكتور إمام عبد الفتاح إمام.

(٣) هو العضو الثالث في ثالوث الآباء المؤسسين للكونفوشية، (٣١٢ ـ ٢٣٨ قبل الميلاد).

(٤) المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ٢٩٣، ٢٩٥.

(٥) المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ٣٠٣.

وفي روما القديمة كان الكهنة رؤساء للدين وسادة للمعابد، وكان للكاهن الأكبر ـ أو الحبر الأعظم ـ دور هام في الحياة العامة، حتى إن قيصر فضل أن يتولى بنفسه هذا المنصب. وكانت أعظم طوائف الكهنة نفوذا جماعة العرافين التسعة الذين يدرسون إرادة الآلهة ومقاصدهم بمعرفة اتجاه الطير أثناء تحليقه[١].

التكهن ومعابد النبوءة عند اليونان:

وإذن لم يكن الإغريق بدعا بين الحضارات الإنسانية فيما يخص الاعتقاد في الكهانة والرجوع إلى الكهان واعتبار ذلك دينا أو أهم ما في ديانتهم، بل ـ على العكس ـ حاول اليونان فلسفة هذه الظاهرة وتفسيرها، حتى إن المكتبة اليونانية القديمة تتوفر على عدد لا بأس به من الكتب الخاصة بالكهانة والتنبؤ، وإن كان أكثرها يعتبر اليوم مفقودا[٢].

في المرحلة القديمة ـ archaïque ـ كان في اليونان كهنة يقرأون المستقبل من تحليق الطير، ويفسرون الأحلام ويدعون الكشف ورؤية الحقائق[٣].

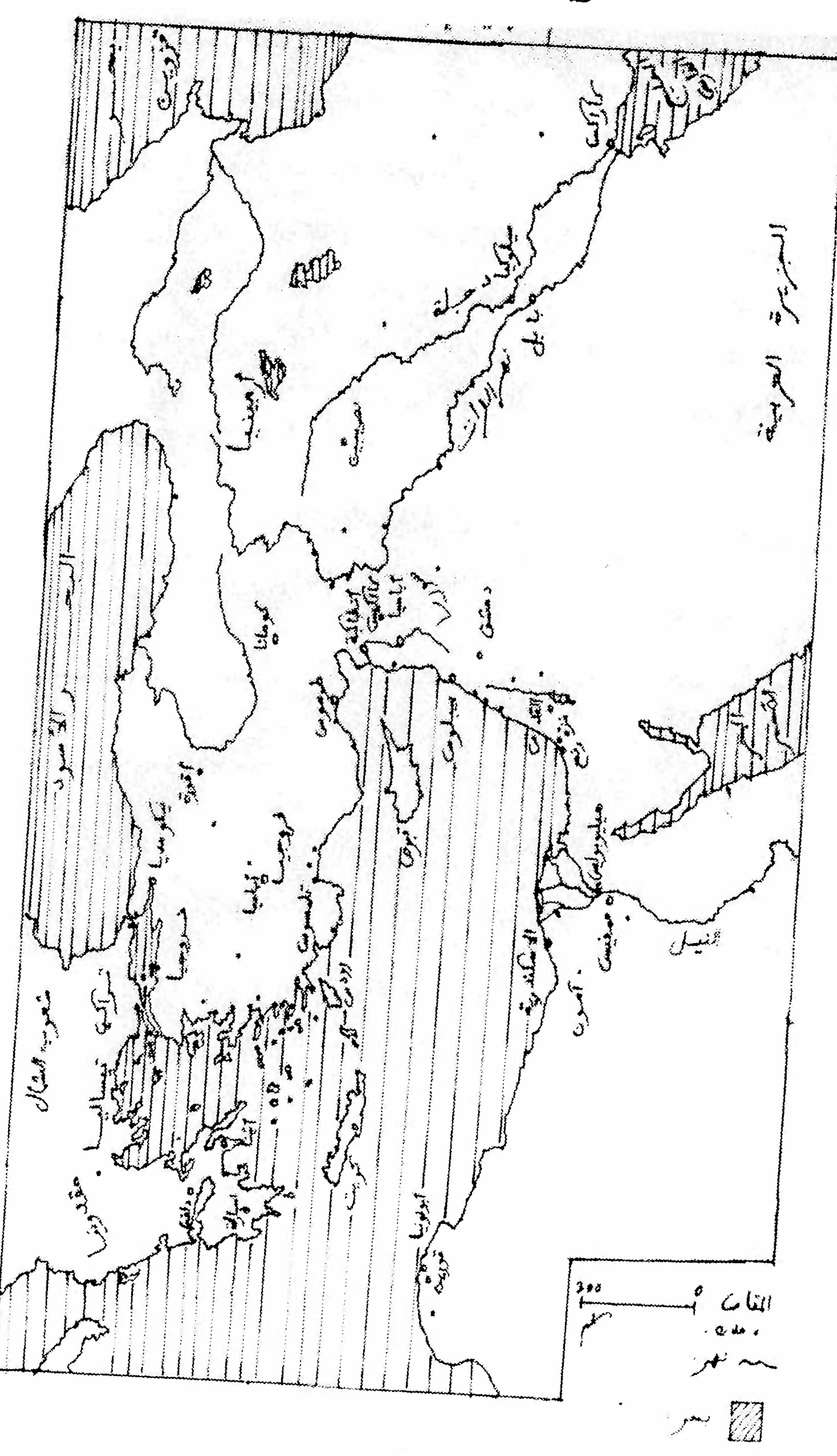
---

(١) المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ٩٧، ٩٨ (هامش المترجم). وقيصر César هو الإمبراطور الروماني الكبير الذي وحد مستعمرات روما ووسعها. وهو الذي قتله خصومه في مجلس الشيوخ الروماني، عام ٤٤ ق.م.

(٢) منها كتاب بورفوريوس: «حول معابد الكهانة». وكتاب جوليانوس الإمبراطور في الموضوع نفسه. ومجموعة رسائل تكون كتاب «معابد النبؤة الكلدانية»، وهو مؤلف في القرن الثاني للميلاد.

(٣) (الأزمنة الأولى لليونان) Moses Finley: les premiers temps de la Grèce, p 159

خريطة: العالم الهليني



ثم انتشرت الكهانة في البلاد حتى عرفت أسر وعشائر كاملة بممارستها وإتقانها. يقول شيشرون، ـ على لسان أخيه كونتوس ـ : «وقد نجد أسرا وقبائل كاملة يقف أبناؤها حياتهم على مزاولة هذا الفن، فمن ذلك أن مدينة تلمسوس في كاريا قد ذاع عن أهلها أن فن العرافة أصيل فيهم. وفي مدينة أليس في بلوبونيسوس توجد أسرتان قد تسامع الناس زمانا طويلا بشهرتهما في هذا الفن وهذا هو السبب الذي من أجله كان مجلس الشيوخ حكيما عندما قرر، وهو في أوج قوته أيام أجدادنا أن يسلم ستة من أبناء البارزين من رجالنا إلى كل قبيلة من القبائل في أترووريا لدراسة التكهن بالغيب، مخافة أن ينتهي الأمر بهذه المهنة الجليلة إلى أن تفقد جلالها الديني بمرور الزمان وتتحول إلى وسيلة للارتزاق»[1]

وكما اشتهرت بالكهانة عائلات وقبائل، فإن مدنا يونانية عرفت بدورها بهذا الأمر، وذلك في الغالب بسبب توفرها على معابد خاصة بالاستشارة المتعلقة بكل غيب مستور. ومن هذه المعابد: معبد سليسي، ومعبد أنتيوش، ومعبد ديديم، ومعبد دودونا[2] وكانت هذه المعابد ـ وأمثالها ـ مقدسة عند اليونان الذين كانوا يشاورونها في كل شاذة أو فاذة نزلت بهم، حتى قال شيشرون : «أية هجرة قام بها الإغريق قبل أن يستشيروا الكاهنة «بيثيا»، أو يتلقوا الوحي من دودونا أو «جوبتر أمون»؟ أو أية حرب خاض الإغريق غمارها قبل أن يلتمسوا نصيحة الآلهة أولا ؟»[3]

لكن من بين كل معابد العالم اليوناني فإن أهمها هي معابد الإله أبولو : سليسي، وأنتيوش، وديديم، ودلفيلا صوت كان يعلو على صوته. ثم إن أهم معابد أبولو هو ـ بلا جدال ـ معبد دلفي، الذي صارت له هذه الريادة منذ القرن السابع قبل الميلاد، وفي كل العالم اليوناني[4]

---

(١) علم الغيب في العالم القديم، ص ٩٧. جعل شيشرون القسم الأول من كتابه في الدفاع عن الكهانة، وأجرى ذلك على لسان كونتوس، وهو أخوه فعلا. أما كاريا وبلوبونيسوس فإقليمان يونانيان. والكلمات في النص هي هكذا، بالحرف اللاتيني : Elis. Caria. Peloponnessus. Telmessus.

(٢) انظر عن المعبدين الأخيرين : Les premiers temps de la Grèce, p 161 والمعابد هي: Dodone. Didyme. Antioche. Cilicie

(٣) علم الغيب في العالم القديم، ص ٣٦.

(٤) Les premiers temps de la Grèce, p 160.

ودلفي مدينة شاطئية صغيرة (انظر الخريطة)، بني فيها هذا المعبد الشهير، والذي كانت تزوره أفواج وأفواج من الإغريق. ولا نعرف بالضبط كيف تحول هذا المعبد إلى وظيفة التنبؤ. وغير هذا، فإن دلفي لم تكن تختلف عن باقي مدن أو قرى اليونان[١].

أسطورة نشأة معبد دلفي:

الأسطورة اليونانية هي إنجيل اللاوعي الغربي[٢]. وهي تفسر أشياء كثيرة، منها كيف نشأت دلفي. ففي زمن غابر أرسل الإله زوس عقابين، كل واحد من أقصى طرف في الأرض، وذلك ليحددا مركز الأرض، فالتقى العقابان - بعد تجوالهما - في مكان يسمى بيتو، وهو الاسم القديم لدلفي[٣]. ثم يحكي لنا فلوطرخس[٤] أسطورة أخرى، مكملة للأولى: ففي عهد غير معروف سقط أحد الرعاة بالصدفة في حفرة - بني عليها فيما بعد معبد دلفي - ، وفجأة بدأ يتلفظ بكلمات ألهمها حول المستقبل. في البداية سخر منه الناس، ولكن بعد ذلك لما لاحظوا تحقق نبوءاته عرفوا أنها هبة سماوية. ويقول أعلم الناس في دلفي إن اسم هذا الراعي لايزال محفوظا، فهو كوريتاس. وإنما أصبح الراعي متنبئا، لأنه كانت تنبعث من الحفرة أبخرة مقدسة، هي التي وهبت له هذه القدرة على كشف المستقبل[٥].

لقد اعتقد اليونان أن التنبؤ بالمجهول أمر جليل ليس في متناول البشر، بل هو شأن الآلهة فقط. ثم تصوروا ثلاثة منها اختصت بمعرفة المغيب وكشفه لمن تريد من الناس، وهي: زوس، وأبولو، وديونيزوس. والأولان بالخصوص هما اللذان يعلمان الإنسان المستقبل ويخبرانه عما يريدان منه فعله[٦].

---

(١) راجع: Finley: Les premiers temps de la Grèce, p160 (التاريخ اليوناني) G - Duchet,M Suchaux: Histoire grecque, p 21

(٢) "Le mythe grec désepéré, devenu la"bible" de l'inconscient occidental" in: Ency. Uni, 7/830, article Echec s . d'Eliane Lévy Valensi (الفشل).

(٣) (حول اندثار معابد الكهانة) Plutarque: Sur la disparition des Oracles, p 109 (زوس . Zeus بيتو Pythô).

(٤) فلوطرخس Plutarque من مصادري الأساسية في هذا الكتاب، انظر تعريفا به وبكتابه في الفصل الثالث.

(٥) Sur la disparition des oracles, p 196 - ١٩٨ وانظر أيضا ص ٢٥٣، تعليق رقم ٢٥٢ (كوريتاس Corétas).

(٦) Devins et oracles grecs; p16 . (أبولو: .Apollon ديونيزوس Dionysos).

وأشهر المعابد التي يتوجه فيها إلى زوس، معبد دودونا[١]. أما ديونيزوس فهو إله تنبؤ من الدرجة الثانية، يعطي النبوءات في أشهر الشتاء خاصة[٢]. ويبقى أن أهم الآلهة التي تكشف لليونان كل مجهول هو أبولو.

أبولو:

نعود مرة أخرى إلى الأسطورة: أبولو هو ابن الإله الكبير زوس، وهو يتحول أحيانا إلى سمك الدلفين[٣].

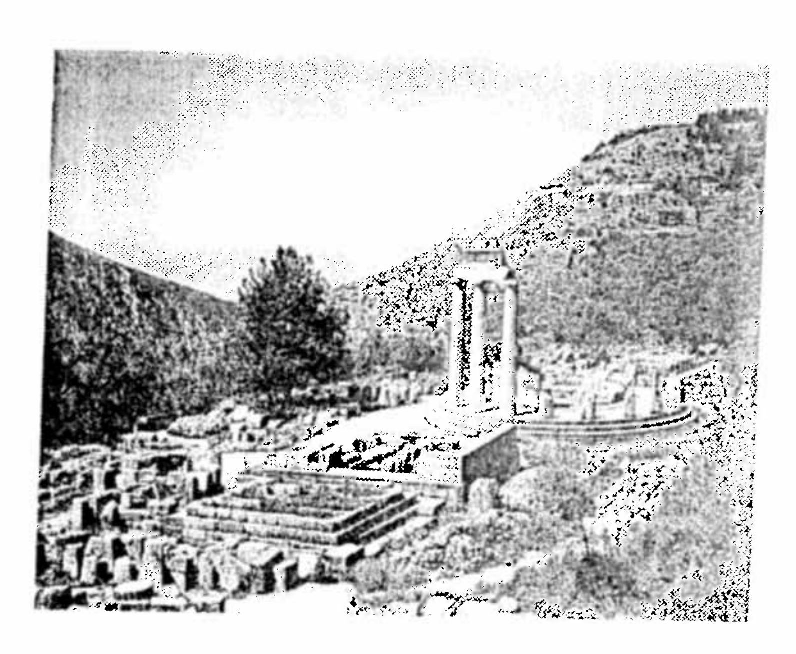
(١) Les premiers temps de la Grèce, p 161 .

(٢) Devins et oracles grecs, p 53 .

(٣) Devins et oracles grecs, p 51 ـ ٥٢ وهذا السمك بالفرنسية هو: dauphin، ومنه جاءت كلمة دلفي.

دلفي ومعبدها (صور)





اختار أبولو المقام بدلفي. ولكنه واجه مقاومة من تنينdragon يدعى «بيتون» كان يحتفظ في الجبل بمعبد «تيميس»، وكان سيء السيرة. وفي النهاية استطاع أبولو أن يقتله، فسيطر على المعبد وجعله خاصا به وبتبليغ أجوبته للناس. وفي كل سنة يحتفل سكان دلفي بعودة أبولو إلى مدينتهم[١]، ويخصصون له أيضا احتفالا رياضيا يسمى بـ «الألعاب البرزخية»[٢] أو ألعاب المضيق، وهي على غرار الألعاب الأولمبية الموضوعة لتمجيد زوس.

وأبولو إله متعدد الوظائف، فهو يكشف الغيب، ويعالج المرضى، وهو أيضا حامي الموسيقى والشعر والشعراء[٣].

وقد اشتهر معبد أبولو بنبوءاته، حتى جذب إليه الزائرين والحجيج من خارج العالم اليوناني[٤]، بما في ذلك أطراف من آسيا وإفريقيا.

الكاهنة «بيثيا»:

البيثيا امرأة تختار من فتيات منطقة دلفي، يخصص لها سكن في المعبد، تعيش فيه أبدا، وتحافظ على طهارتها وعذريتها. ولذلك كان اليونان ينتقونها من بين النساء البدويات السذج، أي أنهم كانوا يبحثون عن امرأة «نقية» قلبا وقالبا فيعزلونها في المعبد ويحرسونها. وأحيانا يكون في المعبد كاهنتان أو ثلاثة[٥].

يقول فلوطرخس: «نحافظ على البيثيا طاهرة من كل ارتباط جسدي، ومعزولة تماما طيلة حياتها عن كل اتصال أو علاقة مع الأجانب»[٦].

وإنما حرص الإغريق على تحقق هذه المواصفات في كاهنة دلفي، لأنهم اعتبروها وسيطا بين الإله أبولو والمستشير من الناس. ولم يكن هذا الإله يلقي بالجواب لفظا إلى الكاهنة، ولكنه ينير عقلها ويلهم قلبها، فتجيب هي بلسانها، وفي

---

(١) (الأسطورة اليونانية) Pierre Grimal: La mythologie grecque, p 41 - 42.

(٢) Histoire grecque : p.21 هذه الألعاب هي : Jeux isthmiques.

(٣) La mythologie grecque, p41.

(٤) Devins et oracles grecs p 78.

(٥) Devins et oracles grecs, p 60 - 61..

(٦) Sur la disparition des oracles, p 216 «ونحافظ» هنا على معنى البناء للمجهول، أي بالمعنى الذي تؤديه الصيغة الفرنسية : On garde.

اللغة اليونانية[١]. وقد تميز دلفي عن غيره من معابد الكهانة بهذا الأسلوب الذي بمقتضاه يتكلم أبولو بلسان امرأة، والغريب أن اليونان ـ بالمقابل ـ كانوا يمنعون على أي امرأة أخرى ـ غير الكاهنة ـ ولوج المعبد[٢].

تتلقى البيثيا هذا الوحي من أبولو في غرفة معزولة، توجد في سراديب تحت الأرض، فيها صنم لأبولو، ومقبرة ديونيزوس، وأشياء أخرى[٣].

وليس واضحا تماما لنا حالة الكاهنة حين تلقيها للنبوءة وإلقائها إلى غيرها، وهل تتذكرها ـ فيما بعد ـ أم لا. ولكن من المؤكد أنها تكون في حالة غير طبيعية من الاضطراب والإثارة العصبية، مع فقدان للوعي أحيانا، واضطراب عام وارتعاد الجسد أحيانا أخرى. وكان صوتها يتغير، وتعاني من حالة من الوهن الشامل. وهذه الحالة تشبه ـ كما يقول دودس ـ ما يحدث للوسيط في حلقات تحضير الأرواح[٤].

وقد عد الإغريق وقوع البيثيا في هذه الحالة غير الطبيعية شرطا ضروريا لإلقائها النبوءة[٥].

تتحول البيثيا إلى هذه الحالة، فتمتلئ بالإله الذي يستخدم أعضاءها الصوتية كأنها أعضاؤه هو، فيجيب عن السؤال[٦].

وقد اختار اليونان لهذه الظاهرة من الإلهام التنبؤي الذي تعرفه المعابد ـ في شخص البيثيا ـ اسما خاصا، هو باللاتينية: enthousiasmos ، وفي الفرنسية: enthousiasme. ولا أعرف له مقابلا في لغتنا، إذ يمكن أن نسميه بـ: هذيان التكهن،

---

(١) (من مقدمة كتاب: نبوءات دلفي) Paul Savignac: Les oracles de Delphes. ـ Jean L'introduction, p 8

(٢) Les premiers temps de la Grèce, p 160. وهذه الظاهرة كانت بالخصوص في اليونان القديم.

(٣) Devins et oracles grecs, p62 - 64 في معتقدات الإغريق بعض الآلهة تموت، مثل ديونيزوس، الإله ـ اللغز، وكانوا يحتفلون بموته كل سنة، في طقوس شيطانية، لا تزال تثير أسئلة الباحثين.

(٤) (الإغريق واللاعقلاني) E.R. Dodds: Les grecs et l'irrationnel, p79 هذا الكتاب ترجم عن الإنجليزية، لصاحبه دودس، وهو أستاذ إنجليزي سابق بجامعة أكسفورد (في الستينيات) ومختص معروف في الحضارة اليونانية القديمة.

(٥) Devins et oracles grecs, p 71.

(٦) Les grecs et l'irrationnel, p 77.

مثلا. لكن يظهر لي أن أقرب الألفاظ في ترجمة هذا المصطلح هو: المسّ، وعليه سأسير في المباحث القادمة.

وهذه الحالة الغريبة للكاهنة كانت تسبقها شعائر وطقوس تقوم بها، رفقة الكهنة المعاونين[1]. والظاهر أن الوضع النفسي والعصبي الذي كانت تسقط فيه البيثيا كان أحيانا شديدا وقويا، بحيث لم تكن تتحمله. ويحكي لنا فلوطرخس قصة كاهنة معاصرة له ماتت في إحدى نوبات «تلقي الوحي»، قال:

«تأثر البيثيا يختلف، مرة هكذا، ومرة بطريقة أخريوهي تعاني من كثير من الاضطرابات والآلام التي تحس بها. أما تلك التي لا تشعر بها، فتسيطر على جسدها وتتسرب إلى روحها، فعددها أكبر. وآنذاك - حين تمتلأ بهذه الاضطرابات - من الأفضل لها، وهي مريضة وقلقة، أن لا تنزل إلى هناك (يعني الغرفة حيث ستتلقى النبوءة)، فهذا خير من أن تهب نفسها للإله، وهي ليست تماما طاهرة كآلة متناغمة ومُعدة جيداكما نعرف عن وقوع هذا للبيثيا التي ماتت منذ فترة جد قصيرة. فقد جاء سائلون من بلاد أجنبية، وكانت الأضحية - بحسب الرواية - (أي الحيوان) قد تلقت الرشات الأولى للماء المقدس بلا حركة. لكن بما أن الكهان ضاعفوا من الطلب واستحثوا حركة الحيوان وأكثروا من صب الماء عليه، فقد انتهت الأضحية بالاستجابة، فماذا حدث للبيثيا؟ إنها لم تنزل إلى المكان الخاص بالتنبؤ، إلا برفض ونفور، كما قيل. وبمجرد تلقي أجوبتها الأولى، وتغير صوتها إلى صوت جش، كان واضحا أنها لم تشف بعد من اضطرابها، وكانت تشبه سفينة تائهة ومعطلة، فكأن الكاهنة امتلأت ببخور خبيثة، تبكم وتخرس. وأخيرا، حين تملكها اضطراب كامل، أسرعت إلى الخروج، وصاحت صيحة عظيمة وغريبة، ثم سقطت أرضا، مما دفع ليس بالسائلين فقط إلى الهروب، بل أيضا بالكاهن (أو المتنبيء) نيكوندر، وكذلك مساعدي المعبد الذين كانوا حاضرين. وحين رجعوا إلى الغرفة - بعد لحظات - وأقاموا الكاهنة، كانت قد عادت لوعيها، ولكنها ماتت أياما قليلة بعد ذلك»[2]

---

(١) Les grecs et l'irrationnel, p80.

(٢) Sur la disparition des oracles. p, 214 - 216 راجع بعض الأدلة على صدق القصة، والشبه بين هذه الحالة وحالة المصروع épileptique، وكذا المسكون بالشيطان: possédé مقدمة فلاسليير لكتاب فلوطرخس، ص ٧٩. وتعني عدم استجابة الحيوان لصب الماء - في منطق الكهانة - أن ظروف طلب الاستشارة غير ملائمة، أي أن أبولو لا يريد أن يجيب. أما امتلاء الكاهنة بالبخور الخبيثة فمعناه أنها حين=

الظروف العامة لاستشارة المعبد:

لم تكن الاستشارة متيسرة في كل وقت، بل لها برنامج زمني محدد يتلاءم - في الغالب - مع الحفلات الدينية الممجدة لأبولو[١].

ولا بد للسائل أن يقدم إتاوة هامة بين يدي طلبه، وأن يدخل في سلسلة من الطقوس للتصفية[٢]. ثم يتأكد الكاهن هل أبولو حاضر وموافق على الإجابة أم لا. وهذا التأكد يتم بذبح حيوان - وهو الماعز في الغالب - ، وملاحظة حركاته، ثم تأويلها. فإذا وجد الكهنة أن علامات الذبيحة إيجابية، ذهبوا إلى البيثيا[٣].

بعد هذا يدخل السائلون إلى غرفة خاصة، قد تسمح برؤية البيثيا للحظات وقد لا تسمح، فيتقدمون للسؤال، إما بحسب الأفضلية، أي بعضهم يكون أولى من بعض، أو بالقرعة[٤].

وبينما تتكلم البيثيا وتذكر جواب أبولو، يقوم كاهن حاضر بتدوين هذا الجواب بسرعة[٥].

ثم يذهب السائل إلى غرفة أخرى يتلقى فيها الجواب الرسمي من الكهنة، وهي أبيات شعرية في الغالب، يحرص الكهنة على أن تكون في أسلوب فخم، ويسلم الجواب للسائل مكتوبا[٦].

ولم تكن الأجوبة دائما شعرا، بل أحيانا كانت تقدم في صيغة نثر. لكن في أكثر الحالات كان بالمعبد مترجمون يحولون أجوبة البيثيا إلى شعر مصنوع[٧].

= دخلت إلى الغرفة الخاصة، والمبنية على الحفرة الأسطورية التي ينبعث منها البخار المقدس، فكأن بخارا آخر سيئا - هذه المرة - هو الذي انبعث عوض البخار الجيد الذي يتيح التنبؤ. وكانت العادة أن يخصص للبيثيا كرسي تجلس عليه يقع فوق الحفرة تماما. (أما نيكوندر فاسمه بالحرف اللاتيني Nicandre).

(١) Devins et oracles grecs, p 54 - 55.

(٢) Les premiers temps de la Grèce, p 160.

(٣) Devins et oracles grecs, p 58 - 59.

(٤) Devins et oracles grecs, p 58 - 59.

(٥) J.P. Savignac: Les oracles de Delphes, p 11.

(٦) Devins et oracles grecs, p 73 - 74.

(٧) Les grecs et l'irrationnel, p81.

ويساهم الكهنة أيضا في تكييف النبوءة بتفسيرهم لكلمات الكاهنة وتأويلهم لحركاتها وصيحاتها في حالة الإثارة العصبية التي تنتابها[(١)].

نماذج من الأسئلة الموجهة إلى معابد النبوءة:

وهي أسئلة مختلفة، سياسية وغير سياسية، عامة وشخصية. فمما وجه إلى معبدي دلفي ودودونا من الأسئلة الشخصية، وبعضها طريف[(٢)]:

كيف أستطيع أن أعالج ابني من مرض الحب.

ليزانياس يسأل ما إذا كان هو والد الطفل الذي كانت تحمله أنيلا.

تسأل نيكوكراتيا إلى مَن مِن الآلهة ينبغي أن تضحي لاكتساب صحة جيدة.

صبي يسأل ما إذا كان عليه أن يمتهن حرفة أبيه في صيد السمك.

ومن الأسئلة الموجهة إلى أبولو، والتي جمعها سافينياك في مختاراته من «نبوءات دلفي»، من مصادر يونانية ولاتينية مختلفة[(٣)]:

رجال «أيجيون» الفخورون بغنم سفينة العدو، يسألون: أي اليونان أفضل؟

سؤال حول مكان تأسيس مستعمرة.

سؤال حول دستور أثينا.

سؤال سكان «أرجي» حول كيفية إنقاذ مدينتهم. وآخر عن أي حلف يختارون إزاء الاجتياح الفارسي.

سؤال حول كيفية العلاج من مرض.

سؤال شعب «أستيبالي» عن مصير شخص مفقود. وسؤال آخر لهم عن حل مشكل اجتياح الأرانب البرية لبلدهم.

---

(١) Devins et oracles grecs, p 73 - 74.

(٢) المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ٧٩. (الأسماء باللاتيني: Nicocratia. Annyla. Lysanias).

(٣) انظر: Les oracles de Delphes. Choisis, traduits de grec, commentés et présentés par Jean Paul Savignac. Entre pages 21et 108. - والكاتب اختصاصي في الحضارتين اليونانية واللاتينية. وله كتب عنها. كما ترجم أعمال الشاعر اليوناني بنداروس.

يسأل الأثينيون عن العمل تجاه غزو الفرس لأرض اليونان.

سؤال ثان لهم طالبين جوابا أفضل.

بعض اليونان يسأل عن طبيعة القرابين اللازم تقديمها بعد انتصارهم في إحدى المعارك.

يسأل فيليب ملك مقدونيا: هل سيسيطر على مملكة فارس.

هوميروس الشاعر يسأل: من هما أبواي؟

شيشرون يقول: كيف أصبح مشهورا؟

سؤال: أين صارت روح أفلوطين؟

ديوجنيس يسأل: هل لن يمرض طفله في المستقبل.

سؤال حول تفسير حلم.

يسأل كريسوس هل سيطول قيام مملكته.

سؤال: هل سينتصرون في الحرب.

أجاممنون يسأل عن مستقبل حرب طروادة. والجواب يفيد انهزام الطرواديين[١]

أسرة تسأل هل نسلها الحالي سيستمر طويلا.

وزمن هذه الأسئلة يمتد من ما قبل سنة ٥٩٠ قبل الميلاد إلى حوالي القرن الثالث بعده.

الطبيعة الغامضة لأجوبة دلفي:

كانت أجوبة المعبد غامضة في كثير من الأحيان[٢]، أو في أكثرها[٣]، وتحتمل معان عدة. ولذلك نشأت الحاجة إلى الشراح والمؤولين الذين يفكون بعض طلاسم الأجوبة، وكانت تفاسيرهم تتناقض أحيانا. ولهذا يسمي الإغريق الإله أبولو بـ: لوكسياس، أي الغامض، أو ذو السلوك الملتوي[٤].

---

(١) الألفاظ المعربة بالحرف اللاتيني: Crésus. Diogénès. Homère. Astypalée. Argie. ógion. Agamemnon. Troie

(٢) Devins et oracles grecs, p 76 - 77.

(٣) Les premiers temps de la Grèce, p 160.

(٤) Devins et oracles grecs, p 76 - 77.

ويعتقد فلوطرخس أن سبب ذلك هو حذر الكهنة وتريثهم، لأن الذين يسألون المعبد لم يكونوا دائما أشخاصا عاديين في مسائل عادية، بل أحيانا كانوا زعماء وملوكا وممثلي مدن وأقاليم، ولم يكن من الحكمة إثارة غضبهم وعداوتهم[١].

ومن الأمثلة الهامة لهذه الأجوبة الملتبسة أن كريسوس لما سأل معبد دلفي هل يمكن أن يشن الحرب على الفرس، كان الجواب: إذا اجتاز كريسوس نهر هلايس، فسوف يدمر ملكا عظيما[٢].

فهم كريسوس أنه سيهزم الفرس ويحطم مملكتهم، لكن الذي وقع أنه بدخوله لهذه الحرب خسر مملكته هو. فكلمة «يدمر ملكا عظيما» تعني ملك الفرس كما يمكن أن تعني ملكه هو[٣].

وكان كريسوس يثق في معبد دلفي، وسبق له أن اختبره في قصة مشهورة[٤].

ثمن الكهانة:

وكان على أي واحد أراد أن يستفسر المعبد ـ شخص واحد أو ممثل مدينة.. ـ أن يقدم بين يدي ذلك عطية أو هبة، تسمى: بِلانوس. فهذه أول خطوة في الاستشارة[٥].

وفي البداية كانت هذه العطية عبارة عن حلوى مقدسة، ثم حولت إلى ما يوازيها من مال يعطى للكهنة. وقيمة ما يلزم للمدينة أن تقدمه يفوق إحدى عشرة مرة عطية الفرد العادي[٦].

أنواع الكهان:

لم يكن التنبؤ أمرا قاصرا على المعابد، فقد كان يوجد خواص تصدوا للكهانة،

---

(١) Devins et oracles grecs, p76 - 77.

(٢) راجع هذه القصة عند هيرودوت: . Hérodote: Histoires, livre1, p 52 à 53 و انظر : علم الغيب في العالم القديم، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.
Les oracles de Delphes, p38.

(٣) كريسوس Crésus ملك ليديا ـ وهي أساسا شرق تركيا الحالية على بحر إيجه ـ من سنة ٥٦١ إلى ٥٤٦ قبل الميلاد. خاض حربا مع قوراش الأكبر (Cyrus) ملك الفرس، بسببها فقد عرشه.

(٤) انظرها في : Hérodote: Histoires, 1/p 45à 48

(٥) Devins et oracles grecs, p 57 والأجرة هي : .Pélanos

(٦) Devins et oracles grecs, p 57.

وأشهرهم جماعة كان الإغريق يعتقدون أن بداخلهم صوتا يحاورهم ويتنبأ لهم بالمستقبل، وهو صوت شيطاني[(١)].

وكان هناك آخرون ينشرون بين الناس تنبؤات شعرية منسوبة إلى معبد ما، أو كاهن بارز، أو مجهولة النسبة وكان لهذه النبوءات أثر قوي على العامة[(٢)].

لكن التنبؤ الرسمي والمقبول هو الذي كانت تمارسه المعابد.

وإلى جوار هذا كله وجدت طبقة أخرى تدعي الكهانة، ولكنها اعتبرت مجرد مجموعة من المرتزقة تبحث عن المال، يقول شيشرون ـ على لسان كونتوس ـ: «ولكني أعلن في نهاية حديثي أني لا أقر الذين يتكهنون بحظوظ الناس، ولا الذين يتنبأون طمعا في المال، ولا الوسطاء، ولا الذين يستدعون أرواح الموتى ويستفسرون منها عن الغيب أعتقد بالتكهن الجدي الصادق الذي خلا من التزييف وبريء من الخداع والاحتيال»[(٣)].

الكهانة والحرب والسياسة:

منذ زمن قديم جدا دخلت الكهانة في شؤون الحرب والسياسة، فقد كان الملوك والقادة العسكريون يستشيرون الكهان. وفي بعض الدول ـ كالإمبراطورية الأشورية في الألفية الأولى قبل الميلاد ـ كان الملك المحاط بعدد من الكهنة والسحرة، يتردد في اتخاذ قراراته ويتعثر، بل قد يسقط في حالة من الشلل والعجز عن الحسم بسبب اعتماده على الكهان[(٤)].

وفي بلاد اليونان تكشف الأسطورة عن أن الالتجاء إلى الكاهن أو العراف أمر طبيعي ومستقر، فالمعابد تُسأل دائما، بدءا من قضايا الحرب إلى شؤون الزواج والأطفالوتكون الأسطورة أحيانا عبارة عن قصة تحقق نبوءة ما للمعبد أو الكاهن[(٥)].

لقد اعتبر الأقدمون أن إتقان فن من فنون التكهن سلاح هام في الحروب، فهذا

---

(١) Les grecs et l'irrationnel,p78 . واسم هؤلاء: Pythons

(٢) Devins et oracles grecs, p 92 وكانوا يسمون بـ: Chresmologues، أي مروجو النبوءات الكاذبة.

(٣) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٤) (مختصر التاريخ القديم): Précis d'histoire ancienne, p 64 Paul Petit .

(٥) La mythologie grecque, p77 à 84 .

مثلا رأي كونتوس الذي يقول: «قرر هوميروس أن كالكاس كان خير أهل العيافة بين الإغريق، وأنه تولى قيادة الأسطول الإغريقي أمام طروادة. وقد كانت قيادته للأسطول - فيما يلوح لي - ترجع إلى مهارته في علم العيافة، لا إلى براعته في فن الملاحة»[١].
والتكهن أيضا مكرمة للملوك: «لقد كانت القاعدة عند القدامى أن الذين يتولون الحكم في الدولة يهيمنون على شؤون العيافة كذلك، لأنهم كانوا يعتبرون التنبؤ بالغيب كالحكمة أمرا يتفق مع كرامة الملوك. وقد قدمت جمهوريتنا الشاهد العدل على صدق هذا، فكان ملوكها من أهل العيافة»[٢].

وحين جاء دور التوسع اليوناني الكبير - في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد -، قامت معابد النبوءة - خصوصا دلفي - بدورها خير قيام، فوجهت المستعمرين والمهاجرين إلى المناطق الفارغة من السكان، وكذا إلى الأقاليم الملائمة للاستقرار، وعلمتهم أيضا أين يقيمون مدنهمفي جنوب إيطاليا، وصقلية، وشواطئ البحر الأبيض المتوسط، وحوالي البحر الأسود[٣].

لقد كان في الحضارة اليونانية - كما يقول فلا سليير - تداخل فعلي بين الدين والسياسة، وهو التداخل الذي كان يتم بالخصوص عن طريق معابد النبوءة، وبشكل طبيعي، وغير قابل للتجاوز[٤].

وكثيرا ما كان يتم الاحتكام إلى هذه المعابد لحل مشكل وراثة الملك، ومعرفة هل ابنه الفلاني منه فعلا أم من غيره[٥].

وبذلك دخلت هذه المعابد في الخلافات السياسية التي لم تكن تنتهي، وفي صراعات المدن والأقاليم اليونانية، وسائر دسائسها السياسية..بل إن بعض المعارك

---

(١) علم الغيب في العالم القديم، ص ٩٤. ويشير شيشرون باستمرار - على لسان أخيه - إلى شخصيات تاريخية وعامة عرفت بالتكهن واشتهرت بالإصابة فيه.

(٢) علم الغيب في العالم القديم، ص ٩٥ - ٩٦ المقصود بالجمهورية: روما.

(٣) Précis d'histoire ancienne, p 72 وقارن بـ: Les premiers temps de la Grèce, p 113,114,160 حيث يرى الكاتب أن اليونان لم يستعينوا بالمعابد في قضايا تأسيس المدن، وأن ذلك نسب إليهم في قرون لاحقة.

(٤) Devins et oracles grecs, p 85 - 86.

(٥) Devins et oracles grecs, p 90.

كانت تتم بتحريض من الكهنة وسدنة المعابد، ولهذا كان هؤلاء - والبيثيا معهم - عرضة للضغط والترهيب، أو للترغيب والإغراء بالمال[١].

لقد كان الدين وما ارتبط به - بالنسبة إلى الإغريق - العامل الأقدر على توحيدهم، فهو الذي قدم الشكل الأقوى من «الوحدة القومية»، ولكنه كان توحيدا نسبيا غير تام، وهذا أبولو نفسه - وكان يستشار دائما قبل خوض حرب ما - ما نصح أبدا بالسلم كفضيلة أعلى ومطلقة[٢].

ويروي المؤرخون أن فيليب ملك مقدونيا لما قرر اجتياح بلاد اليونان وإخضاعها لمملكته، كان ذلك بدعوى مناصرة إله دلفي[٣].

وقد نجح في ذلك. وحين خلفه ابنه الإسكندر الأكبر زار مصر سنة ٣٣٢ ق.م، ودشن على ساحلها مدينة الإسكندرية، ثم ذهب إلى معبد آمون في أعماق الصحراء، وكان اليونان يعرفون جيدا هذا المعبد، فتلقى فيه الوعد بتأسيس إمبراطورية عالمية. ويقول الأستاذ بوتي: من المحتمل أن كهنة آمون أقنعوه صادقين بهذه المهمة السماوية. وقد مضى الإسكندر في تحقيق هذا الوعد السماوي، حتى توقف جنوده بالهند ورفضوا متابعة الغزو وراءها[٤].

ويقول شيشرون عن الرومان: «كان أسلافنا لا يقدمون على تنفيذ مشروع حربي دون أن يستنبؤوا الطيور ليعرفوا فألها وزجرها»[٥] وجاء قيصر فحاز لنفسه منصب كبير الكهنة والسدنة[٦].

وبالطبع فهذا الاحتكام إلى الكهانة لا يمكن أن ينتهي دائما بسلام. ولعل من أشهر الكوارث التي تسبب فيها التكهن هزيمة القائد نيكياس الذي كان إيمانه بالكهانة عميقا[٧].

---

(١) Devins et oracles grecs, p 88 - 89.

(٢) Les premiers temps de la Grèce, p 161.

(٣) Devins et oracles grecs, p 99 - 100.

(٤) Paul Petit: Précis d'histoire ancienne, p 155, 157. ، والكاتب أستاذ سابق بكلية الآداب بغرونوبل ، بفرنسا.

(٥) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٧٤.

(٦) Précis d'histoire ancienne, p 253.

(٧) Nikias، وبالفرنسية Nicias ، قائد عسكري يوناني قتل في حصار سنة ٤١٣ ق م، وهو سياسي أيضا، =

ولذلك يحكي شيشرون عن ماركوس مارسيلوس، القائد الأعلى للجيش الروماني، أنه كان عرافا دقيقا، وأنه كان كثيرا ما يقول : إنه إذا شاء القيام بحركة عسكرية فخشي زجر الطيور في أمرها، فإنه كان يرحل في محفة مغلقة حتى لا يرى زاجرا لا يتفق مع مقصده وخطته[١].

المبحث الثاني: موقف الفلاسفة الإغريق من الكهانة

لعل أول مجهود فكري - وصل إلينا - حاول فهم ظاهرة الكهانة وتفسيرها كان للفلاسفة اليونان. وسنتعرف على بعض آراء هؤلاء في هذه الصفحات المقبلة.

سقراط:

كان سقراط[٢] شديد الاعتقاد في التكهن، وكان يحترم بالخصوص معبد دلفي. يقول تلميذه إكسينوفان[٣] في كتابه «المآثر» : «هذا هو أسلوب سقراط مع أصدقائه : كان يحثهم على أن يقوموا أفضل قيام بالأعمال التي نتيجتها واضحة. أما بالنسبة للقضايا المحتملة، فقد كان يوجههم فيها نحو الاستشارة السماوية .Divination وكان يقول : نحن بحاجة إلى معابد النبوءة لندير جيدا شؤون الحكومات والأسر. كل العلوم البشرية قابلة للتعلم، لكن أهم ما فيها استبقته الآلهة لنفسها، حتى إن الناس لا يرون فيه غير الظلمات»[٤]. ولما كان الإله لا يترك الناس حيارى إزاء المستقبل، فقد أرشدنا إلى

= من كبار رجال أثينا، واشترك في حروب مع الإسبرطيين. كان نيكياس قائدا عسكريا ناجحا، ولكن ميله إلى الكهانة ومراعاة العرافة هما سبب انهزامه. انظر : (الموسوعة التاريخية) Dictionnaire encyclopédique d'histoire, 6/3157.

(١) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٧٥.

(٢) Socrate الفيلسوف اليوناني الذي يعتبره البعض الأب الأول للفلسفة، تتلمذ لأناكساكوراس Anaxagore وللسوفسطائيين، لم يترك سقراط كتبا، بل عددا من التلامذة الذين كان يعتمد معهم على طريقة الحوار وإثارة الأسئلة، ولذلك جعله أفلاطون محاورا رئيسيا في بعض أهم حوارته الفلسفية : في مدح سقراط. فيدون. كريتون أصدرت عليه محكمة أثينا الديمقراطية حكم الإعدام بشرب السم سنة ٣٩٩ ق. م بتهمة الإلحاد والتجديف.

(٣) Xénophon مؤرخ وقائد حربي أثيني، شارك في حروب ضد الفرس، ومع الاسبرطيين ضد أثينا. تلميذ سقراط، كتب عن أستاذه : المآثر . في مدح سقراط. وحاول أن يقدم فلسفة منافسة لأفلاطون في بعض كتبه، لكنه لم يكن فيلسوفا كبيرا، وهو أقرب إلى التاريخ والأدب، حيث له في المجال الأول كتاب هام هو : الهلينيون. توفي حوالي ٣٥٥ ق. م .

(٤) Devins et oracles grecs, p 106 .

استشارة الوحي في الأمور المهمة[١].

والمعروف عن سقراط أنه كان يعتقد أن صوتا إلهيا بداخله يوجهه ويرشده. وقد جمع أنتيباتر مجموعة من النذر المعروفة التي كان سقراط يتلقاها، ووضعها في كتاب، يبدو أنه كان متداولا في عهد شيشرون، على الأقل[٢].

أفلاطون:

أفلاطون[٣] - أب الفلسفة - كان يرى أن فن التكهن هو أجمل الفنون جميعا وأجلها[٤]. وكان يعتقد في أكثر أنواع هذا الفن[٥]. ولذلك وضع لمعبد دلفي دورا مميزا في كتابه الجمهورية[٦].

وبالمقابل رفع المعبد أفلاطون إلى أسمى مرتبة، فهو كائن شبه سماوي، أو شبه إلهي[٧].

ولم يكن أفلاطون يعترف بغير الوحي الرسمي في المعابد - خصوصا دلفي ودودونا وآمون - ، أما غير ذلك من الكهان الخواص فأكثرهم - عنده - مشعوذون[٨].

أنواع التكهن:

فرق أفلاطون بين نوعين رئيسيين من الكهانة، وهو أقدم تصنيف وصل إلينا، فيما يبدو، ولا يزال صالحا ومعتمدا للآن : فهناك التنبؤ الاستنتاجي أو التكهن الصنعي. وهناك التنبؤ الحدسي الإلهامي، أو التكهن الطبيعي.

---

(١) من تعليق أبون على : علم الغيب في العالم القديم، ص ٤٠. الهامش.

(٢) انظر : علم الغيب في العالم القديم، ص ١١٧ .(Antipater)

(٣) Platon من أصل أرستوقراطي، اتجه في البداية إلى العمل السياسي ؛ لكن ديكتاتورية «الثلاثين» وإعدام أستاذه سقراط صرفه عن ذلك، فسافر حتى استقر به المقام في سيراكوس بصقلية. ولما فشل في تطبيق أفكاره بهذا البلد، عاد إلى أثينا فأسس الأكاديمية حيث تفرغ للتدريس وتأليف المحاورات الفلسفية التي اشتهر بها وضمنها نسقه الفلسفي. توفي أفلاطون سنة ٣٤٨ ق.م.

(٤) نقله توفيق الطويل في : علم الغيب في العالم القديم، ص ٤١، الهامش. وراجع أيضا محاورة فيدروس : Platon: Phèdre, p 243

(٥) Plutarque: Opinions des philosophes, livre 5, p 167 (آراء الفلاسفة).

(٦) Les grecs et l'irrationnel, p 83. . Devins et oracles grecs, p108 (في الكتاب الخامس من القوانين).

(٧) Devins et oracles grecs, p 109.

(٨) Devins et oracles grecs, p 107.

١ ـ التكهن الصنعي عمل بشري يستخدم تقنيات متعقلة، ومنه التنجيم والعيافة (أي ملاحظة الطير) وفحص الأحشاء. فهذه الكهانة سليمة وعقلانية في طرائقها وتنبني على الملاحظة، وإن كانت تعتمد على مسلمات غير عقلانية.

٢ ـ أما التكهن الحدسي، فهو إلهي، يتم بالوحي المباشر، أو في المنام عن طريق الأحلام. وهذه الكهانة ـ بالوحي المباشر ـ عبارة عن نوع من الجنون أو الجذب Extase يسميه الإغريق «مانيا» Mania، والرومان «فورور» Furor[١]

وقد أخذ شيشرون هذا الفرق وتبناه فقسم التنبؤ إلى: تنبؤ راجع إلى الفن، وآخر يعود إلى الطبيعة[٢]: «إن التكهن بالغيب ضربان: يعتمد أولهما على الصناعة، ويستند ثانيهما إلى الطبيعة»[٣].

ويقول على لسان كونتوس: «أنا إذن متفق مع هؤلاء الذين قرروا وجود ضربين من التكهن بالغيب، يتصل أحدهما بالصناعة ويبتعد الثاني عنها، وهؤلاء العرافون الذين يستخدمون الصناعة، ينزعون ـ وقد عرفوا المعلوم عن طريق المشاهدة ـ إلى اكتشاف المجهول عن طريق الاستنباط، أما الذين يستغنون عن الصناعة، ولا يستعينون بالعقل أو الاستنباط، ولا يهتمون بملاحظة الشواهد التي سجلت بعد مشاهدات أجريت، فإنهم يكشفون المستقبل وهم في حالة تهيج عقلي ـ جذب ـ أو انفعال حر غير مقيد، وكثيرا ما تقع هذه الحال في أحلامهم وهم نيام، وقد تقع للذين ينبئون بالغيب وهم في حالة جنة»[٤].

إن التنبؤ الصنعي يشمل النظر في فحص الأحشاء وفنون العيافة وتعبير الرؤياوبعض هذه الطرق قائم على معلومات مسجلة ومتعاقبة..على مدى طويل. والبعض الآخر يقوم على الحدس المفاجيء والسريع[٥]. والمقصود بالحدس هنا ظهور علامة ما يفهم الكاهن مغزاها بسرعة، فيتكهن بحسبها.

---

(١) Ency. Uni, art divination 7/575. Devins et oracles grecs; p 11 - 12.

(٢) علم الغيب في العالم القديم، ص .

(٣) علم الغيب في العالم القديم، ص ٤٧.

(٤) علم الغيب في العالم القديم، ص ٦٠

(٥) علم الغيب في العالم القديم، ص ٨٣.

أما التنبؤ الطبيعي، فهو بدوره ضربان: النبوءة إبان المس، أو الإلهام. والرؤيا أثناء النوم[1].

ولما كانت طرق التكهن الصنعي دون الكمال المطلوب، لأنه ليس من السهولة بمكان أن نلاحظ العلامات السماوية ونحسن قراءة النذر الإلهية، وأيضا لاحتمال الخطأ في التكهن حتى وجدنا أحيانا أن الكهان يتناقضون فيما بينهم لما كان الأمر كذلك، لا ريب اعتقد الإغريق أن الإلهام السماوي المباشرأعلى وآمن[2]. ولهذا نظر إليه أفلاطون باحترام خاص. وفي بعض الحضارات الأخرى ـ كالبابلية، وبالأخص الصينية ـ كان الاعتماد على التكهن الصنعي والرجوع إليه أكثر وأهم[3].

والجدير بالذكر أن هذا الفيلسوف الكبير كان يعتقد أن الكبد هو مستقر الأفكار الواردة من العقل، وهو الذي يعكس حالة الروح. ولكل تشكل أو أثر في هذا العضو معنى خاص. وفي الليل يعمل الكبد على تهدئة الروح، وبذلك تكون قادرة ـ أثناء النوم ـ على تلقي الوحي السماوي الذي لا علاقة له بالتفكير[4]. فوظيفة الكبد إذن هو التنبؤ وتوفير عناصره. وهذا في كبد الحي، في حين لا يفيد كبد الميت شيئا[5].

نظرية أفلاطون في تفسير كهانة البيثيا:

يعتقد أفلاطون أن حالة الهذيان والتهيج العاطفي والعقلي ـ أو المس ـ الذي ترسله الآلهة أربعة أنواع: نوع يكون أثناء مسارة أعضاء جدد وإدماجهم في الديانات الباطنية ذات الأسرار. ونوع هو الإلهام الشعري. ونوع يتعلق بالحب. ونوع أخير خاص بالمتنبئين والمتنبئات. كما يوجد مس آخر لا يكون في البشر بفعل إلهي مباشر، بل عن طريق خلق ثالث هم الشياطين[6].

ثم يشرح أفلاطون هذه الحالة التي اشتهرت بها معابد الكهانة، فيقول في

---

(١) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٨٩، ٤٧.

(٢) Devins et oracles grecs, p33.

(٣) Encyclopaedia Universalis, art divination, 7/577.

(٤) Platon: Timée, p 71 (محاورة طيماوس).

(٥) Platon: Timée, p 71

(٦) Devins et oracles grecs, p 108. الحالة هي Délire والنوع الأول هو: Initiations aux cultes à mystères.

«محاورة طيماوس» : لا يوجد إنسان يصل إلى الكشف السماوي والحقيقي أثناء حالة ذهنية عادية. إن إضعاف سلطة العقل بالنوم أو المرض أو أزمة مسهو الذي يفتح الطريق لتلقي النبوءة. وبعد هذا التلقي تكون مهمة الإنسان الواعي ـ في حالته العقلية العادية ـ هي تفسير الكلمات المسموعة أو الصور المرئية ، في الحالة السابقة. وهؤلاء المفسرون ـ عند أفلاطون ـ هم المتنبؤون، وهم غير الكهنة[1].

وفي محاورة فيدروس : «ليس هذا «الهذيان» شرا. إن أفضل شيء نحصل عليه يأتي عن طريق هذه الحالة، فهو هبة سماوية. إن كاهنة دلفي وكاهنات دودوناهؤلاء نفعن اليونان بحالة المس هذه، في الحياة العامة والخاصة. وحين يكنَّ في حالة عادية لا ينطقن بشيء مفيد. لم يكن القدماء يعتبرون «المس» (المانيا) شيئا مخجلاً. ولولا هذا ما استعملوا هذه الكلمة في التعبير عن أفضل الفنون : فن التنبؤ بالمستقبل»[2] وبطبيعة الحال فإن «المس الذي مصدره الإله أعلى من الحكمة والعقل اللذين مصدرهما البشر»[3].

وقد تلقى كثير من العلماء والفلاسفة هذه النظرية بالقبول، ونقحوها وزادوا فيها، يقول شيشرون ـ على لسان كونتوس ـ : «وقد ظن أجدادنا بأن العقل البشري عندما يكون في حالة يغيب فيها الوعي، ويخمد فيها الفكر، ويتحرك بدوافع من ذاته حرة لا يعوقها عائق، فإن هذا العقل يصبح مهبطا للإلهام بإحدى طريقتين: الجنة أو الرؤيا. وقد ظنوا بأن التكهن الذي يكون في الحال الأولى قد تضمنته على وجه الخصوص أشعار سيبايل. لهذا كله سنوا تشريعا يقضي بأن يختار عشرة من رجال الدولة ليتولوا تأويل هذه الأشعار»[4] «ومن المحقق أن النفس الإنسانية لا يمكن أن تتكهن بالغيب تكهنا طبيعيا إلا إذا كانت من الحرية وعدم التقيد بحيث لا تتصل بالجسم إطلاقا، كما يقع ذلك في حالتي المس والأحلام. ولهذا يقرر هذين النوعين من التكهن ديكياركوس وكذلك صديقنا كراتيبوس. فلنسلم بأن هاتين الطريقتين أسمى ما عرف من ضروب التكهن بالغيب، لأنهما تصدران عن الطبيعة رأسا»[5]

---

(١) Timée, p 71.

(٢) Platon: Phèdre, p 243 .

(٣) Phèdre, p 244 و انظر : Opinions des philosophes, livre 5, p 167

(٤) علم الغيب في العالم القديم، ص ٣٩. سيبايل Sibyle مثل البيثيا، امرأة قادرة على التنبؤ بالغيب.

(٥) علم الغيب في العالم القديم، ص ١١٠. وفي الصفحة نفسها إشارة إلى الكهان «الذين تتجرد =

ولهذه النظرية عناصر سابقة في المجتمع اليوناني. ففي البداية ـ يقول دودس ـ اعتبر الإغريق أن مرض الصرع العصبي هو تملك شيطاني للمريض[١]. لكنهم ـ مع الزمن ـ أرجعوا كل اضطراب عقلي، بل حتى ظواهر عادية مثل السرنمة (أي المشي والتكلم في النوم (somnambulisme وهذيان الحمى، إلى تأثير ميتافيزيقي، هو في الغالب شيطاني[٢] لكن فيما بعد ـ في المرحلة الكلاسيكية ـ قلص أهل العلم والفلسفة من ماصدقات «الجنون المقدس»، فأصبح قاصرا على أنواع محددة[٣].

وكان الإغريق يتجنبون المرضى العقليين ـ أو المجانين ـ ، ولكنهم بالمقابل كانوا يحترمونهم، بل وكانوا يخافون منهم، لأنهم على علاقة بعالم ما وراء الطبيعة، ولذلك هم يملكون موهبة التنبؤ. ويقول دودس إن هذا الاعتقاد لا يزال حيا إلى اليوم في بلاد اليونان[٤].

هذا كله يفسر لماذا اعتبر أفلاطون المرض من الأسباب التي تمهد لظهور قدرات ميتافيزيقية[٥].

ورغم أن اليونان يفرقون بين الجنون المرضي والجنون السماوي الذي يسمح بالتنبؤ، فإنه من الصعوبة بمكان أن نحدد بدقة الحدود بينهما[٦].

أرسطو:

من رأي أرسطو أنه لا يجدر بالفلاسفة أن يهتموا بالتكهن القائم على ملاحظة بعض الظواهر، كتحليق الطيور وحالة الأحشاءولكنه ـ من جهة أخرى ـ اعترف

= نفوسهم من علائق أجسادهم، يحلقون بأجنحتهم خارج أبدانهم، وقد اضطرمت نفوسهم واهتاجت بنوع من العاطفة.. وهي تضطرم بكثير من مختلف التأثيرات». (ترجمة المذكورين بعد قليل)

(١) . Les grecs et l'irrationnel, p 72 - 73 الصرع épilepsie مرض عصبي خالص، لكن شعوبا كثيرة اعتبرته من قبيل المس الشيطاني possession، لما بينهما من التشابه، فمريض الصرع يكون عرضة لنوبات مفاجئة يفقد فيها وعيه بينما يتحرك جسمه كله بعنف وفي حركات تشنجية ولا إرادية.

(٢) Les grecs et l'irrationnel, p 73 - 74 .

(٣) Les grecs et l'irrationnel, p 74.

(٤) Les grecs et l'irrationnel p 75.

(٥) Les grecs et l'irrationnel, p 75.

(٦) Les grecs et l'irrationnel, p 72,75.

بالكهانة والتنبؤ من طريقين: الأول: المس. والثاني: الأحلام. وأرسطو، وإن لم يقل بخلود الروح، إلا أن أصلها عنده سماوي[(١)]

وقد وافقه على هذا الرأي ديكياركوس[(٢)]

ولذلك يقول شيشرون: «وقد ذهب أرسطو إلى القول بأن الذين يهذون من جراء المرض، والمصابين بالسوداء تقوم في باطن نفوسهم قوة تمكنهم من سبق النظر والتنبؤ بالمستقبل»[(٣)] وهذا - كما يقول المشاؤون - «متى ألهمها مس إلهي أو تجردت بالنوم من علائق البدن، فأضحت حرة تتحرك متى شاءت»[(٤)] ومن الواضح أن أرسطو تأثر - في هذه المسألة - بآراء أستاذه أفلاطون.

فلاسفة آخرون:

وبعد هذا العرض السريع لموقف الفلاسفة الثلاثة الكبار من هذا الموضوع، أنتقل إلى تقديم آخر لغيرهم من فلاسفة الإغريق. وقد تصورت - لأجل الإحاطة المختصرة بالموضوع، والكافية أيضا - الخطة التالية:

١ - **الفلاسفة الأقدمون**: كل هؤلاء آمنوا بالكهانة وبأساليبها السماوية، حتى كاد يتحقق إجماع في الموضوع. ولذلك حاول ديموقريطس تفسير الكهانة[(٥)]، بينما اقتصر فيثاغورس على رد طريقة تقديم القرابين[(٦)].

---

(١) Opinions des philosophes, livre 5, p 167.

(٢) Opinions des philosophes, p167.. بالفرنسية Dicéarque، وهو تلميذ أرسطو، فيلسوف ومؤرخ وجغرافي له عدد من المحاورات الفلسفية، وكتب في التاريخ. توفي سنة ٢٨٥ ق. م.

(٣) علم الغيب في العالم القديم، ص ٩١.

(٤) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٩٠.

(٥) Devins et oracles grecs, p 104. (Démocrite). فيلسوف يوناني متقدم (٤٦٠ إلى ٣٧٠ ق. م) صاحب نظرية الذرة «والفيزياء» المادية. وهو في الأخلاق يدعو إلى الاعتدال في الرغبات الذاتية. كانت له كتب ضاعت كلها تقريبا. وفلسفته مناقضة لأفلاطون، في أكثرها.

(٦) Opinions des philosophes, livre 5, p 167.. و Pythagore فيلسوف ورياضي عاش في القرن السادس قبل الميلاد. أسس مدرسة بإيطاليا. وطور علم الحساب، واستفاد أوقليدس من نظرياته. كانت لفيثاغورس اعتقادات دينية مبنية على الأرقام وتناغمها وتعبيرها عن الوجود.

ويعد إكسينوفانس الوحيد بين القدماء الذي أنكر التكهن بحذافيره، مع تسليمه بوجود الآلهة(١).

٢ - **الفلاسفة المتأخرون**: وهم أصناف ثلاثة بحسب موقفهم من أنواع التكهن المختلفة:

أ - **الرافضون للكهانة أصلا**: ومن هؤلاء: أنتستانس وديوجانس الكلبي وستيلبون، وبعض القورنيائيين(٢) ومنهم: بانياتيوس وكارنيادس(٣) على أن أهم هؤلاء هو أبيقور ومدرسته(٤)، فالأبيقوريون لا يعترفون بالكهانة على اختلاف أساليبها، ولا بإمكان التنبؤ بالمستقبل(٥) وهم - في هذا الموضوع - على طرف نقيض تام من الرواقيين:

---

(١) علم الغيب في العالم القديم، ص ٤٠. أما Xenophane - وهو غير تلميذ سقراط السابق Xénophon - ففيلسوف يوناني من آسيا الصغرى، عاش في القرن السادس ق.م. ثم هاجر إلى إيطاليا وصقلية، فاليونان، بعد غزو الفرس لبلاده. يعتبر مؤسس مدرسة إيليا Elée. انتقد تشبيه الآلهة بالبشر عند هوميروس وغيره

(٢) علم الغيب ص ٤١، من هامش المعلقAntisthène. فيلسوف يوناني. تلميذ سقراط، ومؤسس المدرسة الكلبية cynisme. وهو أستاذ ديوجانس الآتي، توفي سنة ٣٦٥ ق.م. أما Diogène ففيلسوف كلبي - هو الآخر - عاش حياة متقشفة ومنعزلة، وهو الذي يحكى عنه أنه أخذ فانوسا وبدأ يتجول في أزقة أثينا بالنهار، فلما سئل عن ذلك، قال: أبحث عن رجل أو إنسان (أي يحقق فعلا إنسانيته). توفي سنة ٣٢٧ ق.م. أما القورنيائيون فهم فلاسفة ينسبون إلى منطقة معينة - وهي حاليا أقصى شمال شرق ليبيا، على الحدود مع مصر -، وهي من أولى مستعمرات اليونان، منذ القرن السابع قبل الميلاد.بالفرنسية Cyrénaique. وقد تأسست بها مدرسة فلسفية في القرن الرابع قبل الميلاد على يد أريستيبوسAristippe تلميذ سقراط. و ستيلبون باللاتيني Stilpon.

(٣) علم الغيب، ص ٤٣ - ٤٤Panetius . فيلسوف رواقي درس بأثينا، وخالط مثقفي روما، قبل أن يدير مدرسة البورتيك - المدرسة التي أسسها زينون الرواقي - ، توفي بأثينا سنة ١١٠ ق.م. أما Carnéade ففيلسوف يوناني وخطيب مفوه، تولى رئاسة الأكاديمية زمانا، وتوفي سنة ١٢٩ ق.م (عن موسوعة Alpha)

(٤) علم الغيب.. ص ٤٠ . Epicure . Opinions des philosophes, livre 5 p, 167 مؤسس المدرسة المشهورة بأثينا. كان كثير التآليف، لكن أكثرها ضاع. مبادىء فلسفته: نظرية حسية في المعرفة. فيزياء كونية ذرية ومادية. تطابق اللذة والخير في الأخلاقتوفي سنة ٢٧٠ ق.م. وفلسفته واحدة من أهم الفلسفات القديمة.

(٥) Devins et oracles grecs, p 113.

ب ـ المعترفون بكل أصناف التكهن، أو أغلبها : وهم الرواقيون الذين «تولوا الدفاع عن كافة ضروب التكهن بالغيب على وجه التقريب»[١] ومن هؤلاء كونتوس، أخ شيشرون، والذي جعله ناطقا بلسان الدفاع عن الكهانة، في كتابه.

يقول بوشي لوكليرك : « لا أحد ـ مثل الرواقيين ـ كتب في هذا الموضوع، ولا مدرسة ـ مثل الرواقية ـ بذلت جهدا كبيرا لتركيز الإيمان بالغيب إلى الأبد»[٢].

فقد كان كثير من الفلاسفة ـ السابقين على الرواقية ـ يؤمنون بهذا الإلهام التنبؤي، أو المس.Enthousiasme ولكنهم طرحوا التكهن الذي يعتمد على العلامات ـ كاستنباء الطير مثلا ـ .. أما الرواقيون فقد احترموا كل هذه الأساليب، وآمنوا بجميعها[٣]

وقد حاول الرواقيون الاستدلال على مذهبهم بالدليل العقلي والمنطقي، وقد نقله لنا شيشرون: قالوا : «إذا استقام وجود الآلهة من غير أن يكشفوا للإنسان عن المستقبل المحجب، كان هذا دليلا ينهض على أنهم لا يحبون بني البشر، أو أنهم هم أنفسهم لا يعرفون ماذا يخفي المستقبل المغيب عنا، أو أنهم يظنون أن ليس للإنسان مصلحة في معرفة ما ينطوي عليه عالم الغيب، أو أنهم يظنون أن هذه النذر التي يرسلونها إلى الإنسان عن المستقبل، أمر لا يتفق مع كرامة الآلهة، أو أنهم ـ أخيرا ـ وإن كانوا آلهة فإنهم لا يستطيعون أن يقدموا شواهد معقولة على الحوادث المقبلة. ولكن ليس صحيحا أن الآلهة لا تحبنا، لأنهم أصدقاء الجنس البشري والمنعمون عليه، وليس صحيحا أنهم يجهلون ما أصدروا من أوامر وما رسموا من خطط ـ بشأن المستقبل ـ ، وليس صحيحا أن ليس لنا مصلحة في معرفة ما ينتظر أن يقع لنا، ما دام العلم يمكننا من اتخاذ الحيطة له، وليس صحيحا أن الآلهة يظنون أن الكشف عن النذر السابقة لما ينطوي عليه المستقبل، أمر لا يتفق مع كرامتهم، إذ

---

(١) علم الغيب..ص ٤٣. الرواقية مدرسة فلسفية تأسست في القرن الثالث ق.م. وهي تدعو إلى مجاراة حركة الطبيعة، والخضوع التام للقدر، وتصورها للزمن دائري. ولها فيزياء خاصة (النار التي تحرك الطبيعة وتحقق التناغم الكوني)، ومنطق مختلف عن منطق أرسطو. والرواقية مدرسة فلسفية كبيرة، أثرت في الفكر الغربي كثيرا، فقد رجع إليها كل من باسكال وهيجل ونيتشه وجيل دولوزبالنقد أو الاستفادة.

(٢) Devins et oracles grecs, p 110. و Leclercq ـ Bouché كاتب فرنسي من القرن ١٩، مختص في الكهانة اليونانية.

(٣) Devins et oracles grecs, p 110 - 111 .

ليس ثمة سجية أفضل من خدمة الإنسانية، وليس صحيحا أنهم لم يؤتوا القدرة على معرفة المستقبل المغيب، وإذن فليس صحيحا أن هناك آلهة، ورغم وجودهم فإنهم لا يكشفون للإنسان عن شواهد تنبيء عن المستقبل. ولكن هناك آلهة، فهم إذن يقدمون مثل هذه الشواهد، وما داموا يقدمونها فليس صحيحا أنهم يضنون علينا بطرق فهمها، وإلا كانت شواهدهم عديمة المنفعة، وإذا هم أرشدوا إلى طرق فهمها، فإن القول بعدم وجود التكهن بالغيب لا يستقيم، وإذن فالتكهن بالغيب قائم فعلا»[١].

ج ـ **موقف التفصيل**: وهؤلاء يعترفون ببعض أنواع الكهانة دون بعض. ثم هم يختلفون فيما بينهم فما لا يعترف به هذا يقره ذاك، والعكس صحيح. وكثير من هؤلاء من أتباع: فيثاغورس، وسقراط، وزينون، وأفلاطون، وأرسطوومن المشائين وأصحاب الأكاديمية القديمة[٢].

وربما كان أهم رأي في مذهب التفصيل هو التسليم بصحة التنبؤ عن طريقي المس الإلهي والأحلام، كما ذهب إلى ذلك جماعة منهم دكياركوس وكراتيبوس[٣] أي الاعتراف بالتكهن الطبيعي دون الصنعي.

وهذا الاختلاف في الموقف بين الفلاسفة الأقدمين والمتأخرين يشير إلى حدوث تطور فلسفي كبير، هو ـ بالنسبة إلى شيشرون ـ ظهور مذهب الشك. ويعتبر هذا المفكر الروماني أحد أهم المؤلفين القدماء الذين كتبوا في هذا الموضوع، ولذلك لا يكتمل بحث في الكهانة لا يتعرض فيه صاحبه إلى كتاب شيشرون. فهذه مناسبة للتعرف على الكتاب، و ـ من خلاله ـ على أنواع أخرى من التكهن غير الذي يجري في المعابد، وعلى طبيعة الحوار الفلسفي الذي كان يدور حول هذا الموضوع.

---

(١) علم الغيب في العالم القديم، ص ٩١ ـ ٩٢.

(٢) انظر: علم الغيب في العالم القديم، ص ٤٠، ٤٢. Opinions des philosophes p 167.
أما Zénon de Citium فيلسوف من أصل فينيقي وأحد أهم مؤسسي الرواقية. من أسرة تجارية غنية. جاء إلى أثينا وتعلم بها، ثم أسس بها مدرسة البورتيك. لم يصل إلينا شيء من كتبه. توفي سنة ٢٦٤ ق.م. وهو غير Zénon d'Eléé الذي توفي سنة ٤٨٥ ق.م، والذي اشتهر بوضعه لبعض التناقضات.

(٣) علم الغيب في العالم القديم، ص ٤٢ Cratippus . فيلسوف معاصر لشيشرون، وأستاذ بأثينا، وكان من تلامذته ابن لشيشرون.

المبحث الثالث : الكهانة موضوعا للحوار الفلسفي.

كتب شيشرون كتابا مستقلا في موضوع التنبؤ بالغيب عند القدماء، خصوصا اليونان، وعند معاصريه الرومان كذلك. وقد قسم هذا الكتاب إلى قسمين: الكتاب الأول جعله في عرض ضروب التكهن والدفاع عنها والاستدلال على صحتها. و كان الرواقيون ـ كما رأينا ـ أشد الناس إيمانا بالكهانة، وكان أخوه كونتوس منهم[(١)]، ولذلك أجرى حججهم على لسانه، فالكتاب الأول كله باسم كونتوس.

أما الكتاب الثاني فقد جعله باسمه الخاص، وهو في دحض الكهانة، وكان شيشرون لا يؤمن بشيء منها.

ويجدر بنا أن نعرف شيئا، وهو أن شيشرون الروماني ينتمي ثقافيا إلى الحضارة اليونانية.

استعان الكاتب في تأييد التكهن بكتابات بوسيدونيوس الرواقي، واستند في إبطاله على آراء كارنيادس. كما استفاد أيضا من بانياتيوس[(٢)]. وقد كان شيشرون ـ كما يقول الأستاذ الطويل ـ نزيها في تأريخه لفنون التنبؤ، وفي عرضه لأدلة من يدافعون عنه[(٣)].

ولما كانت الإحاطة بكل مضامين الكتاب أمرا متعذرا، وهو في الواقع غير ضروري، لأن كثيرا منها إما مضى في كتابي هذا أو هو آت، وذلك في كثير من الأحيان بالاستناد إلى مصادر أخرى غير شيشرون..لما كان الأمر كذلك، فقد رأيت أن أعرض لبعض مناقشة شيشرون للرواقيين، وهي مفيدة جدا في التمثيل لروح العصر بما فيه من اعتقادات وعادات وأنماط عقلية ونفسية مختلفة، خصوصا ما يتعلق بموضوعنا هذا. وفي الأكثر أفضل أن لا أتدخل في كلام شيشرون، لأنه كان حقا خطيبا مفوها وكاتبا مجودا، كما ستراه بعد قليل، رغم الترجمة وآثارها:

---

(١) مقدمة توفيق الطويل ل: علم الغيب ص ١١.

(٢) مقدمة الطويل ل: علم الغيبص ١٩ Posidonius. تلميذ بانياتيوس، سافر إلى شمال إفريقيا وإسبانيا وبلاد الغال وروما، وأسس مدرسة بجزيرة رودس. استفاد منه شيشرون مباشرة. وكان بوسيدونيوس كثير التأليف، وفي مختلف العلوم. توفي سنة ٥١ ق.م بروما.

(٣) مقدمة الطويل ل: علم الغيب..ص ٥، ١٠ ـ ١١.

كونتوس يدافع عن النذر الزاجرة:

من أنواع الكهانة ملاحظة الوقائع غير المعتادة، فلهذه - في منطق التكهن - معنى خاص، وهي رسائل إلى البشر. ويجب الإيمان بهذا، لأن «الاستخفاف بالشواهد التي ترسلها الآلهة للناس، ليس أقل من عدم الاعتقاد في وجود الآلهة»[1]، يقول كونتوس.

ويواصل الرواقي كلامه قائلا: «وبإهمال النذر الزاجرة التي لا تلائم مطالبنا نعاني ضررا بليغا، ومن أمثلة هذا أن كلوديوسوزميله جونيوس قد فقدا أسطولين ضخمين لأنهما أبحرا على كره من زجر البارح من الطيور. وقد كان هذا نفسه مصير أجاممنون.. ولكن لماذا نستشهد بهذه الأحداث القديمة؟ إنا نرى ما أصاب.. كراسوس عندما استخف بنبوءات الطيرة التي زجرته عما يقصد»[2] ثم ألم يؤد استخفاف فلامينيوس بالشواهد الزاجرة إلى نكبة فادحة أصابت الجمهورية في الحرب البونية الثانية. إذ بعد أن استعرض جيشه، نقل معسكره ومضى إلى أريتيوم ليلتقي بهنيبعل، فكبا به حصانه فجأة أمام تمثال جوبتر، لغير ما سبب ظاهر. وقد اعتبر العرافون هذا نذيرا إلهيا زاجرا عن الاشتراك في المعركة..فلما استنبأوا الفأل لم يعبأ به أيضا وكانت النتيجة أن تمزق جيشه إربا إربا في ثلاث ساعات، وذبح هو نفسه[3]

---

(١) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٠٥.

(٢) علم الغيب في العالم القديم، ص ٥٦ - ٥٧. فقد الأسطولين كان في الحرب البونية الأولى سنة ٢٤٩ ق.م(Publius Claudius, Lucuis Junuis). ويقصد بالحروب البونية Guerres puniques حروب روما وقرطاجنة. أما المصير الآخر فكان بعد غزو طروادة. (Agamemnon) وحين رحل كراسوس Marcus Crassus من روما ليحارب البارثيين، اعترض على رحيله أتيوس زعيم الشعب الروماني وتمنى له السوء. فهذه هي الطيرة المقصودة. وكراسوس قائد سياسي وعسكري روماني، وأحد أعضاء الحلف الثلاثي مع قيصر وبومبي. كان حاكما على سوريا، ثم دخل في حروب مع الإمبراطورية البارثية - شمال غرب إيران الحالية وشمال العراق - قتل في بعضها سنة ٥٣ ق.م.

(٣) علم الغيب في العالم القديم، ص ٨٦ - ٨٧. قتل C Flaminius سنة ٢١٧ ق.م. عند بحيرة ترازمين، وفقد خمس عشرة ألف فرقة. وكان هنيبعل قائد جيش قرطاجنة، واستطاع أن يدخل إلى إيطاليا ويهدد روما نفسها. و كانت الحروب البونية طويلة، وعلى ثلاث فترات: من ٢٦٤ إلى ٢٤١. ومن ٢١٨ إلى ٢٠١. ومن ١٤٩ إلى ١٤٦ ق.م. و Arietium منطقة بإيطاليا.

وكم من النذر تلقاها الإسبرطيون قبيل هزيمتهم الفادحة في معركة ليوكترا، فقد قعقع السلاح في معبد هرقل، وتصبب تمثاله عرقا..وانفتحت أبواب المعبد من تلقاء نفسهاوظهر فجأة تاج من الحشائش البرية ذات الشوك الكثير على رأس تمثال مقام في دلفي تكريما لأشهر الإسبرطيين، وهو ليزاندر[1].

رأي شيشرون: الاعتقاد في النذر لا يستقيم مع المنطق.

«ما طبيعة هذه الدلالات الخفية، أو هذه الأنباء السابقة التي يلقيها إلينا الآلهة لكي ينبئونا عن مقبل النكبات؟ ولماذا - قبل كل شيء - يرى الآلهة المخلدون أن من الخير زجرنا بنذر لا نستطيع فهمها، دون أن نستعين بمؤوّلين؟ ولماذا - من جهة أخرى - يحذرنا الآلهة من أحداث لا نملك اتقاء شرها؟ إن الإنسان نفسه - وهو كائن فان غير مخلد - متى أوتي الإحساس بالواجب، يكف عن تحذير أصدقائه من المصائب التي توشك أن تقع، إن كان من المستحيل الهرب من مواجهتها، فمن ذلك أن الأطباء يعرفون في كثير من الحالات أن مرضاهم يشرفون على الموت من جراء مرضهم، ولكنهم لا ينبئون هؤلاء المرضى بذلك أبدا، لأن التحذير السابق من شر مقبل، لا مبرر له، إلا إذا اقترن ببيان الطريق الذي يؤدي إلى اتقاء هذا الشر، وإذن فكيف أفاد الإسبرطيون من نذر الزجر ومؤوليها منذ زمان طويل؟ وكيف انتفع بها أصدقاؤنا أتباع «بومبي» بعد هذا الزمان؟ إذا كان لا بد من اعتبار هذه الشواهد التي نتحدث عنها كنذر أوحت بها الآلهة، فلماذا شابها الغموض على هذا النحو؟ فلو كان من حقنا أن نعرف الأحداث التي توشك أن تقع، لوجب أن يبدو لنا ذلك في وضوح وجلاء، أو إذا كان الآلهة لا يريدون أن يمكنونا من معرفة ذلك، لما أخبرونا به، لا جليا ولا خفيا كامنا في أحجية وألغاز»[2].

---

(١) علم الغيب في العالم القديم، ص ٨٥ . و Leuctra مدينة صغيرة في إقليم بيوتيا اشتهرت بانتصار الطيبيين - سكان طيباThèbes - على الإسبرطيين، سنة ٣٧١ ق.م. وبذلك سيطرت طيبا على اليونان زمانا.

(٢) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٦١ -١٦٢Pompée . عسكري وسياسي روماني استطاع تهدئة كثير من الثورات وتوسيع مستعمرات روما. وهو أحد أعضاء الحلف الثلاثي الذي سيطر على الجمهورية، لكن بعد مقتل كراسوس دخل في صراع مع قيصر الذي كان حاكما على الغال، وهذه الحرب الأهلية التي استمرت سنتين انتهت بهزيمة بومبي ومقتله بمصر هاربا، سنة ٤٨ ق.م.

أما النذر المتعلقة بالطير:

فيقول عنها شيشرون: «ما هي إذن طبيعة فن يستمد نبوءاته من طيور تتجول على غير هدى هنا وهناك، ويجعل إقدام الناس على عمل ما أو إمساكهم عنه رهنا بتغريد الطيور أو سبحها في فضاء الجو؟ ولماذا وهبت بعض الطيور قدرة تمكنها من إعطاء الفأل الميمون إذاطارت يسرة، بينما يعطي غيرها هذا الفأل إن تيامن في طيرانه؟ ثم كيف ومتى وإلى من نستطيع أن نعزو ابتكار هذا النظام؟»[1].

ثم يتوجه شيشرون بالكلام إلى كونتوس:

«إنك تعتقد أن شعراء «بيوتيا» في «لباديا» قد تنبئوا بانتصار الطيبيين، استنادا إلى الديكة، لأن الديكة - فيما تقول - من عادتها أن تلزم الصمت إذا أدركتها الهزيمة، وتنزع إلى الصياح متى كانت منتصرة. فهل تعتقد حقا أن «جوبتر» كان يستخدم الكتاكيت في حمل مثل هذه الرسالة إلى دولة عظيمة كهذه الدولة؟ وهل صحيح أن هذا الطير لم يتعود الصياح إلا إذا كان منتصرا.؟ ولكن الديكة قد صاحت في هذه المرة دون أن تكون منتصرة إذ ذاك، ولكنك تقول: «إن هذا كان نذيرا زاجرا»، إنه نذير بديع حقا. إنك تتكلم كما لو كان الصائح سمكة وليس ديكا من عادته أن يصيح! ولكن خبرني، هل ثمة وقت ما - في ليل أو نهار - لا تكون فيه الديكة عرضة للصياح؟ وإذا كان الإحساس السار - أو سمه المرح إن شئت - ذلك الذي ينشأ عن الانتصار، هو الذي يحملها على الصياح، فإن من الممكن على هذا أن يكون للمرح الذي ينشأ عن مصدر آخر نفس هذا الأثر»[2].

ثم ألا يدل اختلاف الأمم في أسلوب التكهن بالطيور - إلى درجة التناقض حول تفاصيل شتى - على فساد هذا الطريق من أصله: إن الأجانب «يستخدمون كافة أنواع الطيور على وجه التقريب، أما نحن معاشر الرومان، فإننا لا نستخدم إلا القليل منها، والميمون من الشواهد عندهم قد لا يكون ميمونا في عرفنا، وقد كان الملك «ديوتاروس» كثيرا ما يستفسر مني عن النظام الذي نتبعه - نحن الرومان - في فن العيافة، وقد كنت أستفسر منه بدوري عن النظام الذي تتبعه أمته بصدد هذا الفن. أيها

---

(١) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٧٧.

(٢) علم الغيب في العالم القديم، ص١٦٣ Jupiter . هو أكبر آلهة الرومان، وهو إله السماء، مثل زوس عند الإغريق.

الآلهة ! كم تتباين طرق العيافة بين شعب وشعب؟ إنها لتختلف اختلافا بينا حتى ليحمل الشاهد عند شعب عكس المعنى الذي يحمله عند شعب آخر»[١].

إبطال الكهانة التي تعتمد على النذر:

يقول لكونتوس : «هل تظن أن تاجا من الحشيش يظهر إلى الوجود قبل أن تتكون بذوره. إني أعتقد ـ فوق هذا ـ أن هذا الحشيش قد نبت من بذور حملتها الطيوروتقول إن النجوم الذهبية..اختفت حتى لم يعثر عليها أحد. يخيل إلي أن الأحرى أن تقول إن هذا عمل لصوص وليس عمل آلهة»[٢].

وينبه شيشرون على أن الظروف التي تعرف اضطرابا عاما ـ مثل الحروب والأوبئة.. ـ تكون مؤاتية جدا لانتشار الخرافة والاعتقاد فيها ، فيقول في أسلوبه المعروف الذي يمزج بين قوة الإقناع والسخرية اللاذعة :

«مثل هذه الأحداث التي تبدو للخائف الوجل أيام الحرب مألوفة صحيحة إلى أقصى الحدود، قلما تلاحظ أيام السلام. ثم إن القصص التي تروى عن نذر الزجر ليست سهلة الاعتقاد في الفترات التي يشيع فيها الخوف ويفشو الخطر فحسب، بل إنها كثيرا ما تختلق في جو كله أمن وطمأنينة. ولكن هل بلغت بك السذاجة وعدم التبصر إلى حد أن تظن أن قرض الجرذان لشيء، يعتبر نذيرا زاجرا..؟ مع أن الجرذان لا عمل لها في الحياة إلا قرض ما يصادفها من أشياء. وتقول : ولكن العرافين قد أعلنوا كنذير مروع للزجر، أن الجرذان قد قرضت التروس في «الأنوفيوم» قبل حرب المارسي. كما لو كان هناك فارق ما، بين قرض الجرذان للتروس أو للغرابيل، وهي التي لا تكف عن القرض ليلا ونهارا !

وقد وقع هذا النذير نفسه لي، إذ قرضت الفيران في بيتي كتابي «جمهورية أفلاطون» منذ عهد قريب، فيجب أن أمتلئ روعا من أجل الجمهورية الرومانية»![٣].

---

(١) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٧٤.

(٢) علم الغيب، ص ١٦٩.

(٣) علم الغيب، ص ١٦٤. المارسيون شعب إيطالي قديم، تحالفوا مع روما سنة ٣٤٠ ق.م. وحين رفضت منحهم حق المواطنة حاربوها فيما يعرف بحرب المارسي، من سنة ٩٠ إلى ٨٨ ق.م.

ويتساءل شيشرون: كيف نعتبر الصواعق شواهد تنبىء عن مقبل الأحداث؟ «إنه من الغريب أن يزجرنا جوبتر بالصواعق يرسلها في سخاء لغير ما سبب! فماذا يقصد مثلا من إلقائها في عباب البحار؟ أو على قنن الجبال الشماء، كما يفعل في غالب الأحوال؟ ثم خبرني لماذا يلقيها عبثا في رحاب الصحاري المنعزلة عن كل نطاق معمور، ولماذا يرمي بها على شواطىء شعوب لا تلقي لها بالا؟»[1].

إن رأي الرواقيين في التنبؤ بالغيب - يقول شيشرون - تحتويه الخرافة ويستوعبه الوهم،[2] ولذلك تمنى لو أن «الله قد وهب الرواقيين حكمة تبرئ تفكيرهم من الخرافة، حتى لا يكونوا مثارا للشفقة والرثاء معا، وتنزع منهم الميل إلى الاعتقاد في كل شيء يسمعونه»[3].

الجهل بالعلة مثار الاعتقاد في هذه النذر

ثم يقول لكونتوس: «لقد تحدثت عن بغلة تلد فلوا، مثل هذا الحادث يثير العجب لأن وقوعه نادرإذا وقعت حادثة جديدة كان الجهل بعلتها مثار دهشتنا، بينما لا يثير هذا الجهل بالأشياء التي يتكرر وقوعها دهشة ما»[4].

فلا معنى خاصا للندور، ولذلك يقرر شيشرون هذه القاعدة: «حسبنا أن نقول في إيجاز إن كافة نذر الزجر لها تأويل واحد لا ثاني له، وهو: إن كل ما تكشف عنه الوجود أيا ما كان نوعه، يجب أن نلتمس سببه في رحاب الطبيعة، وليس من الممكن أن يكون على خلاف مع الطبيعة حتى ولو لم يتفق مع تجاربنا في الحياة»[5].

ويذكر شيشرون لدعم هذه الرؤية القياس التالي الذي قدمه كريسبوس: «إن الشيء الذي لم يكن في الإمكان حدوثه، لا يمكن أن يكون قد وقع، والشيء الذي كان يمكن وقوعه، لا يعتبر نذيرا زاجرا، وإذن فليس هناك شيء اسمه نذير زاجر بأي وجه من الوجوه. وهذا تفسره الإجابة الموفقة التي أجابها أحد الكهان ومؤولي نذير

---

(١) علم الغيب، ص ١٥٤.
(٢) علم الغيب، ص ١٨٩.
(٣) علم الغيب، ص ١٨٢.
(٤) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٥٨.
(٥) علم الغيب، ص ١٦٥.

الزجر. فقد طلب إليه رجل أن يفسر له قصة ثعبان باعتبارها نذير سوء، وقال له إن هذا الثعبان قد ظهر في بيته، وقد التف حول أسطوانة خشبية. فقال الكاهن: «ليس هذا نذير سوء، وقد كان من الممكن أن يكون نذير سوء لو وجدت الأسطوانة الخشبية ملتفة حول الثعبان» ! فكشفت هذه الإجابة في وضوح مقنع عن «أن ما يمكن وقوعه لا يعتبر نذير سوء أبدا»[1].

ثم يقول كريسبوس في لهجة ساخرة وظريفة: «ليس ثمة شيء اسمه نذير زاجر، ولكن إذا كان ثمة شيء يعتبر نذير سوء لأنه نادر الظهور، لكان ينبغي أن يكون الرجل الحكيم نذير سوء، لأن المرات التي تلد فيها البغلة فلوا أكثر - فيما أظن - من تلك التي تنتج فيها الطبيعة حكيما..!»[2].

رأي شيشرون في نظرية التكهن الطبيعي:

«أي وزن يمكن أن نقيمه لهذا «المس» الذي تسميه «إلهيا»، والذي يمكّن المعتوه الذي اختل عقله من أن يدرك ما لا يقوى على إدراكه الرجل الحكيم، والذي يخلع على من فقد العقل البشري عقلا إلهيا؟»[3].

الرد على الدليل المنطقي للرواقيين:

يعتبر شيشرون أن الرواقيين « يسلمون بمقدمات ظنية تحوطها الشكوك، ويعتنقونها مفترضين أنها قضايا يقينية مسلم بها عند جميع الناس»[4]. ثم يقول - على سبيل المثال - : إنكم - معشر الرواقيين - تبدأون بهذا الافتراض: إذا استقام وجود الآلهة للزم عن هذا التسليم بأنهم يلتزمون الرفق في تصرفاتهم إزاء الإنسان. من ذا الذي يسلم لكم بهذا.

---

(١) علم الغيبص١٦٦. Chrysippe الفيلسوف اليوناني الذي توفي بأثينا سنة ٢٠٥ ق.م. وهو الذي قعد الفكر الرواقي ونظمه. اتصل في البداية بالأكاديمية الجديدة، ثم تحول إلى الرواقية، وتكلف بالبورتيك. أعاد للدياليكتيك قيمته، على خلاف أرسطو. وحدد بدقة مفاهيم الفيزياء الرواقية، كما اعتنى بمشكلة التوفيق بين القدر وحرية الإنسان. لم يصلنا من كتبه الكثيرة غير أجزاء محدودة. ويبدو أن هذا الفيلسوف لم يكن يقر بالكهانة المعتمدة على النذر. وقد ترجمه توفيق الطويل هكذا: كريسبوس، وهو في اليونانية: كروسيبوس.

(٢) علم الغيب، ص ١٦٥ - ١٦٦.

(٣) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٩٦.

(٤) علم الغيب في العالم القديم ، ص ١٩٣.

أبيقور يقول: الآلهة لا تعبأ بنفسها ولا بغيرها. وأتيوس يصرح: «كنت أعتقد على الدوام في وجود آلهة في العلا، ولم أتردد في إعلان ذلك، ولكني أرى أنهم لا يعبؤون بما يصيب البشر من أقدار»[1].

الكهانة باعتماد القرابين:

يتساءل شيشرون - في البداية - عن العلاقة تربط بين هذه الشواهد التي نقرؤها في الأحشاء والكبد، وبين قوانين الطبيعة، كيف يدل شق في كبد حيوان على زلزال مقبل أو على زيادة في ثروتي مثلا؟[2]

«أيمكنك أن تغري امرءا بالاعتقاد بأن النبوءات التي قيل إنها نتيجة فحص أحشاء الضحايا، قد اهتدى إليها العرافون، بعد ملاحظات تكررت خلال زمان مديد؟ خبرني، كم من الزمن استغرقته هذه الملاحظات؟ وكيف أمكن أن تستمر زمانا طويلا؟ وكيف اتفق العرافون فيما بينهم على جزء الأحشاء الذي يعتبر بشير خير، وجزئها الذي يعد نذير شر؟ أو أي شق في الكبد يحمل دلالة الخطر، وأيه ينبيء عن خير مقبل؟ وهل بين عرافي «أتروريا» و «إليس» و «مصر» و «قرطاجنة» اتفاق بصدد هذه المسائل؟ إن مثل هذا الاتفاق مستحيل على وجه التأكيد، وفوق هذا فإن من المستحيل أن يتصوره الإنسان. والملحوظ أن بعض الشعوب يفسر الأحشاء بطريقة ما، وبعضها يلتزم في تأويلها طريقة أخرى، وإذن فليس ثم اطراد في طريقة التأويل فيما بينهم»[3].

ثم تعرض شيشرون لديموقريطس - أحد أقدم الفلاسفة الذين آمنوا بهذا الأسلوب في التنبؤ[4] - ، فذكر أنه كان يعتقد بأن حالة الأحشاء ولونها ينبئ بالكلأ والغلات، من حيث مدى وفرتها أو مبلغ غلتها، بل يذهب به الظن إلى أن الأحشاء تحمل الدلالة على الصحة أو المرض في مقبل الأيام. ويتساءل شيشرون متعجبا: أكان ديموقريطس يتلهى بهذه السفاسف إلى حد أن فاته أن يدرك أن نظريته لا تكون معقولة

---

(١) علم الغيب، ص ١٩٢.

(٢) علم الغيب، ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٣) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٤٥.

(٤) حاول الفلاسفة الماديون في العصر الحديث أن يعودوا بالمذهب المادي إلى جذور يونانية، وبالضبط إلى ديموقريطس! وكان ماركس قدم أطروحته الجامعية حول هذا الفيلسوف.

إلا إذا فرضنا أن أحشاء جميع المواشي كانت تتخذ لونا واحدا وحالة واحدة في وقت واحد. أي حتى إذا أخذنا أي حيوان أعطانا النتيجة نفسها .[١]

لكن كونتوس يقول إن تدخل الآلهة في الإنذار لا يلزم أن يقع قبل التضحية بالحيوان، بل يكون ـ مثلا ـ عند تقديم القربان، فتتغير أحشاؤه في اللحظة التي يقدم فيها للذبح[٢].

ويرد شيشرون: وتقولون إن تغيرا يطرأ على الأحشاء في اللحظة التي تقدم فيها الضحية، فتظهر أشياء كانت في طي العدم، وتختفي أخرى كانت في عالم الوجود، ذلك لأن كل شيء في الكون يخضع للإرادة الإلهية.

هل من المعقول أن يظهر رأس الكبد فجأة، وأن يختفي على غير انتظار، حتى تتلاءم الأحشاء مع مطلب الشخص الذي يقدم الضحية؟ إنكم بذلك تهدمون الطب وعلومه. يكون كون الأشياء وفسادها جميعا لا يرجع إلى نواميس الطبيعة، فإن في الوجود أشياء تظهر من العدم، أو تصبح بعد كونها عدما، فجأة وعلى غير انتظار، فهل ذهب إلى هذا الرأي فيلسوف طبيعي؟ إنك تقول إن العرافين قد قالوا به، فهل تظن أن العرافين أجدر بالثقة والتقدير من الفلاسفة الطبيعيين؟[٣]

الإيمان بالقدر لا يجتمع مع الاعتقاد في الكهانة:

وهذا الاعتراض هو ـ في الواقع ـ وجيه جدا، وهو يحيل على مشكلة أعم وأخطر، هي مشكلة القدر، وموقع الحرية الإنسانية بالنسبة إليه وإنما ذكر شيشرون هذا السؤال لأن الرواقيين يقررون القدر، بل يذهبون إلى ما يشبه الجبرية.

يقول: «ماذا تكون حقيقة هذا التكهن الذي تفاخرون به أيها الرواقيون؟ فإن القدر إذا كان يتحكم في جميع الأشياء، لما أدى لنا التكهن بها خيرا بتحذيرنا منها، لنتقي شرها، ما دامت الأحداث التي ستقع، لا مناص من وقوعها، أيا ما كان موقفنا حيالها، ثم إذا كان من الممكن تغيير وجه الأحداث التي ستقع، لما كان هناك شيء اسمه قدر ، وبالتالي فليس ثمة شيء اسمه تنبؤ بالغيب»[٤].

---

(١) علم الغيب، ص ١٤٦.

(٢) علم الغيب ، ص ١١٤.

(٣) علم الغيب، ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٤) علم الغيب، ص ١٤٠.

إذن: ما نفع التكهن بالغيب إذا كان القدر يتحكم في كل شيء. وعلى هذا الفرض تكون تكهنات الكاهن لا مناص من وقوعها. ولهذا فلست أدري ما قيمة الزعم القائل بأن نسرا قد أعاد صديقنا الحميم ديوتاروس من رحلته، وأنه لو لم يعد منها لكان من المؤكد أنه سينام في الحجرة التي تداعت في الليلة التالية، ويسحق بهذا في الأنقاض. مع هذا، لو أن القدر أراد ذلك لما نجا صديقنا من هذه النكبة[1].

أخطاء العرافين:

«عندما حذر عراف طائر الصيت قيصر نفسه بألا يعبر أفريقيا قبل بدء الشتاء، ألم يعبرها قيصر؟ ولو أنه أحجم عن ذلك، لمكن قوات العدو من أن تتجمع للقائه في مكان واحد إن من المحقق أني أستطيع أن أقدم من الأمثلة ما لا يحصيه العد، لكي أدلل به على أن نبوءات العرافين كانت لا تنتهي إلى نتيجة، أو أن النتيجة فيها كانت على عكس ما تقول النبوءة. كم من مرة ـ أيها الآلهة ـ أخطأ العرافون في الحرب الأهلية الأخيرة؟ أية نبوءة هبط بها الوحي وبعث بها أهل العرافة من روما إلينا ـ نحن أعضاء حزب بومبي ـ وأرسلوها إلى بلاد الإغريق؟ وكم من التأكيدات قدموها إلى بومبي؟ فقد كان «بومبي» يسرف في الاعتماد على نبوءات الأحشاء ونذر الزجر، لست أريد أن أعيد إلى الذهن هذه الأحداث، فليس وراء ذلك جدوى، ولا سيما وأنك على علم يقين بأمرها، ومع هذا فأنت تعلم أن النتيجة كانت على وجه التقريب عكس النبوءة دواما»[2].

العرافة ـ إذن ـ عند شيشرون مجرد دجل، أو في أحسن الأحوال ممارسة فاسدة الأصول، وكثيرة الخطأ: «لقد كانت ملاحظة بديعة قيمة تلك التي لاحظها « كاتو» منذ سنين طويلة عندما قال: «إني لأعجب من عراف لا يضحك إذا رأى عرافا آخر». إذ كم من النبوءات التي تكهن بها العرافون قد تحققت فعلا؟»[3].

---

(١) علم الغيب، ص ١٣٩ (Deiotarus)

(٢) علم الغيب، ص ١٦٠ ـ ١٦١، الحرب الأهلية الأخيرة هي حرب بومبي وقيصر.

(٣) علم الغيب، ص ١٦٠. سياسيان رومانيان معروفان بهذا الاسم كاتو القديم، وحفيده الذي عاصر شيشرون، ويظهر لي أن المقصود هو الأول Caton l'ancien، كان مراقبا بروما، واشتهر بنقده المتكرر للثقافة الهلينية وإفسادها لأخلاق الرومان. وكان له دور هام في إشعال الحرب البونية الثالثة. مات سنة ١٤٩ ق.م.

الاستغلال السياسي لعقيدة الكهانة:

وقد بين شيشرون هذا الأمر جيدا، وهو من أفضل الجوانب في الموضوع التي عالجها كتابه. قال عن العرافة: « قيامها ـ فيما انتهى إليه بحثي وتفكيري ـ تبرره دواع سياسية، وتدعو إليه الرغبة في أن يكون للحكومة دين تمكن له في نفوس الناس»[(١)].

يعود شيشرون إلى الوراء قليلا فيلاحظ أن « من الواضح كل الوضوح أن من الدهشة والخوف الذي يثيره البرق والصواعق في نفس الرجل البدائي، قد نبعت عقيدته في أن هذه الظواهر أنشأها إلاله «جوف» القادر على كل شيء. ولهذا تقول أساطيرنا في فن العرافة: إن جوف إذا أرعد أو أبرق، كان من الشطط إجراء الانتخابات. وربما كانت الأسباب السياسية التي قضت بذلك، لأن أسلافنا كانوا يلتمسون الأعذار لإلغاء الانتخابات أحيانا، فكان البرق في عرفهم نذير سوء في حالة الانتخابات وحدها، أما في سائر الحالات الأخرى فقد اعتبر البرق عندهم طالعا (فألا) ميمونا متى التمع يسارا»[(٢)].

وكذلك سائر فنون التنبؤ، مثل العيافة التي تدرس سلوك الطير في تحليقه وكيفية إقلاعه، وأكله وهل يسقط من منقاره، وكيف قال: « أظن أن قانون العيافة وإن كان قد قام في أول أمره على عقيدة في التكهن بالغيب، فإن الدوافع التي أدت إلى حفظه وصيانته بعد ذلك، إنما ترجع إلى اعتبارات سياسية »[(٣)].

وشيشرون نفسه كان لا يؤمن بالعيافة، ومع ذلك مارسها، بل كان عضوا بديوانها ـ في الجمهورية الرومانية ـ، وكان ذلك ـ كما أشار إليه ـ لدواع سياسية، فقد كان يتظاهر بالاعتقاد في صحة التكهن، ويستغله في تحقيق غايات يراها، ولم يكن يود ـ لأجل ذلك ـ الاصطدام مع الرأي السائد آنذاك[(٤)].

---

(١) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٤٤.

(٢) علم الغيب، ص ١٥٣.

(٣) علم الغيب، ص ١٧٤.

(٤) انظر: علم الغيب، ص ١٧٠ فما بعدها، كان شيشرون يرى أن العيافة فن له قواعده ومبادؤه، ولكنه فن فاسد لا حقيقة له. وقد كتب شيشرون كتابه هذا (علم الغيب) في المرحلة الأخيرة من حياته، حيث كاد يعتزل الحياة السياسية.

شيشرون المؤمن:

على أن شيشرون ـ وهو الذي ينكر جميع أنواع الكهانة ـ لم يكن ملحدا يرد كل دين واعتقاد: «لنقل في صراحة: إن الخرافة التي ذاعت بين الشعوب ذيوعا واسع المدى، قد استغلت الضعف الإنساني وهيمنت على أكثر العقول البشرية. وقد أبنت عن هذا الرأي في البحث الذي وضعته حول« طبيعة الآلهة»، وجعلت التدليل على صحته الغرض الرئيسي من بحثنا الراهن، فأكبر الظن أني أؤدي خدمة جليلة لنفسي ولأهل وطني معا، إذا استطعت أن أجتث الخرافة من جذورها، ولكني أريد أن تفهم في وضوح وتميز أن القضاء على الخرافة ليس تحطيما لكيان الدين، لأني أعتبر من الحكمة أن نحتفظ برسوم أجدادنا، وأن نتمسك بشعائرهم الدينية وطقوسهم المقدسة، فإن النظام الذي يتبدى في رحاب السماء، والجمال الذي يشيع في فضاء الكون، يضطرني إلى الاعتراف بوجود كائن أبدي يسمو فوق شتى الكائنات، ويستحق من بني البشر التقدير والإكرام»[١].

لقد استطاع شيشرون أن يفرق بين الإيمان والكهانة[٢]، وهو الفرق الذي لم يكن واضحا عند الإغريق، خصوصا في العصر الأول، حيث كانت الكهانة هي روح الدين عند اليونان.

رأي كونتوس :

يرى كونتوس ـ بكل بساطة واختصار ـ أن علينا أن نقتنع بالتنبؤ رغم غموض أسبابه، ولذلك قال: « أظن أنه ينبغي عند البحث في طرق التكهن بالغيب أن نهتم بنتائجها لا أن نعنى بأسبابها»[٣]. وهؤلاء الأطباء جربوا أنواعا من الأعشاب تنفع في علاجات معينة، ورغم أن العقل لم يفسر لنا قوتها وطبيعتها، إلا أن نفعها ثابت[٤].

---

(١) علم الغيب، ص ٢٢١.

(٢) بين شيشرون وبعض فلاسفة الأنوار شبه في هذه الناحية، كلهم يؤمن بإله واحد له جميع صفات الكمال، ولكنهم لم يؤمنوا بدين محدد ولم يمارسوا شعائر أو طقوسا خاصة. فولتير ـ مثلا ـ مع شدة عدائه للكنيسة لم يكن ملحدا. ويسمى هذا المذهب أحيانا بـ : Diésme .

(٣) علم الغيب ، ص ٤٧.

(٤) علم الغيب في العالم القديم، ص ٤٨.

ويواصل كونتوس كلامه: «إني أعرف أثر جذع «المحمودة» Scammony كمسهل، وأجد ترياقا للدغة الثعبان في نبات «أرستولوكيا»، واسمه مشتق من كاشفه الذي عرفه في حلم وقع له؛ إني أرى ما لهذه الأشياء من قوة، وحسبي ما أرى، أما لماذا تهيأت لها هذه القوة، فإني لا أعلم عن هذا شيئا، وهكذا الحال فيما يختص بشواهد الرياح والأمطار التي أسلفت القول بأنها تنذر بما ينتظر أن يقع، فإني لست على يقين من أمرها، ولكني أعرف قوتها وتأثيرها، وأدرك هذا وأشهد به، وكذلك الحال فيما يختص بشقوق الأحشاء أو خيوطها الرفيعة، إني أسلم بالمعنى الذي تحمله، ولا أعرف عن سبب هذا شيئا، وكم في الدنيا من أفراد يقفون موقفي هذا تماما، إذ يكاد كل فرد يستخدم الأحشاء في التنبؤ بالغيب - وهو يجهل تفسير هذه الظاهرة في ضوء منطقه -»[1].

ثم إن بعض الحيوانات تتحرك حركات غريبة، فيما يشبه «النذر».. فكأنها تحذر من شر قادم، فهذه « لها بطبيعتها ملكة ما، بها تشعر بما ينتظر أن يقع. وهذه الملكة واضحة في ذاتها وضوحا ملحوظا، ولكنها غامضة أشد الغموض أمام العقل الإنساني»[2].

وكثير من ظواهر الوجود الأخرى لا نعرف أسبابها ولا نفهمها، ولذلك يتوجه إلى شيشرون بقوله: « إنك تسأل عن السبب الذي من أجله يحدث كل شيء، ولك مطلق الحق في توجيه هذا السؤال. ولكن ليس هذا هو موضوع بحثنا، فإن المسألة هي: هل تحدث فعلا هذه الأشياء أو لا تحدث؟ ولنقل على سبيل المثال إني إذا أقررت بأن المغناطيس قد جذب الحديد وسحبه نحوه، ولم أستطع أن أكشف لك عن سر هذا الجذب، فإنك تنكر كل الإنكار - فيما يخيل إلي - أن في المغناطيس مثل هذه القوة»[3]. ولذلك نلاحظ أن القدماء كانوا « أكثر تأثرا بالنتائج العملية منهم بالاقتناع المنطقي، بيد أن الفلاسفة قد قدموا أدلة (لبقة) دقيقة على صدق التنبؤ بالغيب»[4].

إن ما يريد كونتوس قوله هو أنه يجب أن نفرق بين الظواهر وأسبابها، وأن معرفة الأسباب علم زائد على معرفة الظواهر مجردة. ولذلك فإدراك العلل أو جهلها لا يؤثر على صدق الظاهرة نفسها. فليس جهل السبب دليلا على عدم وجود الظاهرة أصلا.

---

(١) علم الغيب ، ص ٥٠.

(٢) علم الغيب، ص ٤٩.

(٣) علم الغيب، ص ٩٢ - ٩٣.

(٤) علم الغيب ، ص ٤٠.

وأخيرا يلخص كونتوس موقفه العام في هذه الكلمات: «إني أستند في هذا الموقف إلى منطق وحقائق وشعوب وأجناس، وأعتمد على رأي الإغريق والبرابرة وأسلافنا من الرومان معا، وتؤيدني فيه تلك العقيدة الثابتة التي اعتنقتها الأجيال، ويبرره عندي ما دان به أعظم الفلاسفة والشعراء، وأحكم الناس، وبناة المدن ومؤسسو الجمهوريات. ألا يكفي لإقناعنا هذا الذي انعقد عنده إجماع الناس. وهل تنتظر الحيوانات لتضيف شهادتها إلى الموضوع كذلك؟

في الحق ليس ثمة أي دليل يمكن أن يقدم للكشف عن بطلان ما أسلفنا الحديث عنه من مختلف أنواع التكهن بالغيب، إلا أن يقال إن من العسير أن نقدم سببا أو نكشف علة لكل ضرب من ضروب التكهن»[1].

وبعد،

لقد نبه شيشرون، وربما دون أن يقصد، في الكلام الذي نسبه إلى كونتوس، وحاصله أن الكهانة تقيم بنتائجها لا بأسبابها نبه على أمر هام كان سببا رئيسيا - في نظري - في استمرار الكهانة كل هذا التاريخ الطويل، وهو أن تنبؤاتها كانت أحيانا تصيب. وكونتوس يلاحظ هذه الإصابات، ولا يهمه أن يعرف سببها بالضبط.

وتلك إحدى المشاكل الكبرى التي يثيرها تاريخ الكهانة.

وبينما يكتب شيشرون كتابه هذا كان زمان رسالة جديدة قد أظل واقترب، فبعد وفاة شيشرون بسبعة وخمسين سنة ولد المسيح بن مريم عليهما السلام. لقد استطاع الدين الجديد - إلى جوار عوامل أخرى - أن يحد من انتشار الكهانة دون أن يقضي عليها. لكن قبل ظهور هذا الدين كان قد بدأ تحول هام في تاريخ الكهانة: لقد صمتت أكثر معابد النبوءة عن إلقاء «الوحي»، وسقطت، وبذلك كاد ينتهي الشكل الأرقى والأقوى من التكهن الرسمي.

لم يصيب الكهان أحيانا، ولم سكتت هذه المعابد. ما حقيقتها وحقيقة نبوءاتها وما علاقة هذا كله بالدين الجديد: المسيحية؟

هذا ما سأبحثه في المطلب الآتي، وبالاعتماد على مؤلف حديث هو من أهم ما كتب في هذا الموضوع، وبهذا سننتقل مدى ستة عشر قرنا بعد شيشرون:

---

(١) علم الغيب، ص ٩٢.

الفصل الثاني :

الكهانة في عصر بزوغ المسيحية

وسأعتمد في هذا الفصل على كتاب في الموضوع، أجعله أساسا لدراسة مآل الكهانة حين ظهر هذا الدين الجديد.

التعريف بالكتاب وصاحبه:

فان دال طبيب هولندي، ولكنه واسع الاطلاع على التراث القديم، اللاتيني منه خاصة. وقد نشر سنة ١٦٨٣ رسالتين باللاتينية جعل عنوانهما واحدا : حول أصحاب معابد التنبؤ : الفاعلون الحقيقيون فيها، وسبب سكوتها وزمانه، وموقف بابوات الكنيسة في هذا الموضوع[1]. ويسمى كتابه هذا اختصارا بـ : معابد التنبؤ.

وغاية فان دال من وراء هذا التأليف هي أن يثبت خطأ فكرة كانت شائعة، وهي أن الشياطين هي التي كانت تلقي النبوءات وتجيب السائلين، وأن ذلك انتهى مع ظهور المسيح عليه السلام[2].

لكن عمل فان دال كان علميا وجافا، تتداخل فيه الاستشهادات وتكثر فيه الأفكار الاستطرادية، والنصوص والمناقشات ولذلك كان صعب القراءة.

فلما أراد عصريّه فونتونيل أن يقدمه للقارئ الفرنسي اختصره وهذبه ونسقه، فجاء في حلة جديدة واضحة ومنظمة. هذا الكتاب - إذن - الذي عنونه فونتونيل بـ: تاريخ معابد النبوءة ، هو ترجمة وتهذيب لرسالتي فان دال الذي رحب - على العموم - بعمل فونتونيل. وقد لقي هذا الكتاب قبولا واسعا لدى جمهور القراء، واستمر تداوله إلى بداية القرن العشرين[3].

---

(١) (من مقدمة ميكرون «محقق»: تاريخ معابد الكهانة، لفونتونيل) I ntroduction de Maigron au livre de Fontenelle : Histoire des Oracles , p : a, h . (هو Antoine Van Dale وقد نشر بعد هذا كتابا آخر عن « أصل عبادة الأصنام وتطورها، وما تسرب منها إلى اليهودية، وعن التطير، والنبوة الصادقة والكاذبة»، وذلك سنة ١٦٩٦. لكن الأول أشهر، وبه عرف فان دال).

(٢) (مقدمة فونتونيل لكتابه) Fontenelle : Histoire des Oracles, L'introduction, p I

(٣) Introduction de Fontenelle, pIII. Introduction de Maigron, Histoire des Oracles , p : a. =

لكن بعض الأقوال والآراء في الكتاب هي لفونتونيل لا لفان دال. وقد اخترت أن أنسب مضامين الكتاب إلى فونتونيل، لأنه لا أهمية - بالنسبة لموضوعنا - للتمييز بين آراء الرجلين، والقاعدة أن فان دال أوسع اطلاعا على تراث اللاتين، بينما فونتونيل أكثر استفادة منه في الدفاع عن أفكاره وأكثر تنظيما لمادته[1].

الرأي العام لفان دال وفونتونيل:

وهو يتلخص في الأفكار الأساسية التالية[2]:

١ - إن الكهانة أمر لا علاقة له بتاتا بالشياطين، بخلاف السحر.

٢ - إن كل تنبؤات المعابد - على اختلاف أنواعها - لم تكن من وحي الشياطين.

٣ - وهذه المعابد - وماتنبأ به - لم تنته بظهور المسيح، بل استمرت بعده.

وقد خصص فونتونيل لكل من الدعوى الثانية - ومعها الأولى - ، والثالثة، رسالة مستقلة.

موقف الكنيسة من الموضوع:

إن الكهانة من أهم معالم الوثنية وركائزها، والله سبحانه لما بعث المسيح مهد لذلك بعدد من الآيات والمعجزات، من أكبرها وأهمها ضعف التكهن في المعابد[3].

= هذا واضح من خلال بعض طبعاته الهامة: الطبعة الأولى سنة ١٦٨٦، ثم: ١٧٠٧ - ١٧٠١ - ١٦٩٨ - ١٦٨٧ - ١٧١١ - ١٧١٣ - ١٧١٦ - ١٧٢٤ - ١٧٢٨ - ١٧٤٢ - ١٧٦٦ - ١٧٦٤ - ١٧٦٧ - ١٧٩٠ - ١٨١٨ - ١٨٢٤ - ١٩٠٨. وقد اعتمد ميكرون على طبعة ١٦٨٦ الأولى، وأضاف إليها زيادات الطبعات اللاحقة. أما Bernard de Fontenelle ففيلسوف وأديب وشاعر فرنسي معمر (١٦٥٧ - ١٧٥٧)، وكان ذا قدم في العلوم البحتة، لذا اختير في الأكاديميتين: العامة ١٦٩١، وأكاديمية العلوم سنة ١٦٩٧. وهو بتبسيطه لعلوم عصره، وثقته في الإنسان وفي التقدم العلمي والتقني يبدو ممهدا لفلاسفة التنوير في القرن ١٨. من كتبه: رسالة حول القدماء والمحدثين (أي من الكتاب، أيهما أفضل). محاورات الموتى (في الفلسفة). محادثات حول تعدد العوالم.

(١) يمكن للقارئ الذي يرغب في معرفة «زوائد» فونتونيل على فان دال والتعديلات التي قام بها بالنسبة إلى الكتاب الأصل أن يراجع تعليقات الأستاذ ميكرون الذي نشر الكتاب واهتم به، وكانت هذه المقارنة المستمرة بين الأصل والتعديل أحد أهم مواضيع تعليقاته بالهامش.

(٢) Histoire des Oracles, p VII,IX. p, 6.

(٣) (من تعليقات ميكرون) Note de Maigron in : Histoire des Oracles, p6 .

ولذلك فإن رأي الكنيسة - كما صوره بالتوس - هو : إن جميع بابوات الكنيسة يقولون إن الشياطين هي من يوحي بالنبوءات، في المعابد الخاصة بذلك عند الوثنيين. وهذه المعابد صمتت ولم تعد تتنبأ منذ مجيء المسيح وبقوته وقوة كلمته[١].

وكان الكهنة ممسوسين - أو متملكين - بالشياطين التي تلقي على ألسنتهم بالنبوءات.

وهذا كله عندهم يقتضيه الكتاب المقدس[٢]. ولذلك فلا وجود لأبولو، إنما هو شيطان ينسب نفسه إليه، ويتنبأ باسمه على لسان الكاهنة البيثيا[٣].

على أنه كان لبعض العلماء المسيحيين رأي يختلف قليلا عن الظاهر المتقدم. فطوماسان - مثلا - يقول: لقد انتهت الكهانة - فعلا - مع مجيء المسيح، لكن ليس بطرد الشياطين، فإن معابد التنبؤ لم تكن تقوم عليهم، إنما الحقيقة والنور أظلا على العالم وأنارا الطريق للإنسان، فاكتشف الناس الغش والألاعيب في هذه المعابد، فتركوها[٤]. بينما سلم موبيوس استمرار معابد التنبؤ بعد المسيح، ولكنه تمسك بأن أصحابها هم الشياطين حقيقة[٥].

ويبدو لي أن الموقف الكنسي الأصيل والذي كان عليه الأكثر هو الأول، وما بعده جاء استجابة لنقد أمثال فان دال، ولفلسفة الأنوار، ولسائر التطورات اللادينية التي عرفتها أوربا في تلك الفترة.

الخصومة الفكرية التي تسبب فيها فونتونيل:

ومن الواضح أن فان دال وفونتونيل يقفان على طرف نقيض تام من المذهب

---

(١) Maigron : Introduction, Histoire des Oracles , p : d, e.
Baltus أحد رجال الدين اليسوعيين بفرنسا، عاصر فونتونيل.

(٢) نقله ميكرون من رد بالتوس على فونتونيل : Histoire des Oracles, pVI,VII (Baltus: Réponse, p95)

(٣) Note de Maigron, Histoire des Oracles , p III.

(٤) Histoire des Oracles , p VIII, IX.
أما R.Père Thomassin فرجل دين من القرن ١٧م، ومؤلف فرنسي. ولعله لويس أستاذ الدين الذي كان يميل إلى الجنسينية - Jansénisme - مات سنة ١٦٩٥.

(٥) Histoire des Oracles, p V. . و Géorgi Moebius عميد أساتذة الإلهيات بجامعة ليبسيك Leipsic ، من أهل القرن ١٧.

الرسمي للكنيسة الذي حافظت عليه قرونا. ولهذا انزعج الوسط الديني الفرنسي من هذا الكتاب الذي تسبب في خصومة قوية تضاف إلى سلسلة الخصومات الفكرية التي عرف بها القرن السابع عشر، قرن الخصومات، أو القرن الكبير في اصطلاح الفرنسيين. واعتبر بعضهم أن صدور كتاب فونتونيل فضيحة للوطن، وأنه كتاب ضد المسيحية. ولذلك اتهم لوتوليي صاحبه ـ وأمام الملك لويس الرابع عشر ـ بالإلحاد[١].

واختار آخرون سبيل مناقشة الكتاب ودحضه. فرد موبيوس على كتاب فان دال مباشرة، وسماه « حول أصل معابد النبوءة عند الوثنيين، وتطورها، ومدة استمرارها»[٢]. وكتب الأب طوماسان كتابا في الدين، تضمن فصولا في هذا الموضوع، مما يدل على انشغال الوسط الديني والفكري به، وإن كان هو لم يشر إلى فونتونيل[٣]. اشتهر بالخصوص كتاب بالتوس: الرد على « تاريخ معابد النبوءة».

وقد رفض فونتونيل أن يدخل في هذه الخصومة، حتى إنه لم يقرأ إلا جزءا بسيطا من رد بالتوس[٤]. لكنه لم يعدم أنصارا ينوبون عنه في هذه المهمة، فها هو لوكليرك يكتب في الدفاع عنه ردا على بالتوس، عنوانه : المكتبة المختارة[٥]. وسرعان ما دبج بالتوس ردا ثانيا هو: تكملة الرد على تاريخ معابد النبوءة[٦].

ثم تدخل مفكر شاب في هذه المعركة، وهو دومارسيه الذي كتب: الرد على نقد كتاب تاريخ معابد النبوءة. إلا أنه منع من طبع كتابه هذا، في فرنسا أو خارجها[٧].

---

(١) Introduction de Maigron, pages : c,f,g,i. .. المقصود هنا (١٦٤٣ ـ ١٧١٩) Charles Maurice le Tellier ابن السياسي الفرنسي .Michel le Tellier وكان مرشد confesseur الملك لويس الرابع عشر، وعمل أيضا رئيسا لأساقفة مدينة ريمس Reims شرق باريس. وهو الذي دفع الملك إلى اضطهاد البروتستانت الفرنسيين والجنسينيين (Jansénistesهدم بور ـ روايال). ترك لصالح دير بباريس مكتبته التي تبلغ خمسين ألف كتاب. وهو يسوعي.

(٢) Histoire des Oracles, p V .

(٣) "La Méthode d'étudier et d'enseigner chrétiennement et solidement les lettres humaines par rapport aux lettres divines et aux Ecritures" . وهو عنوان طويل كما ترى .

(٤) Introduction de Maigron, p,f.

(٥) Introduction de Maigron, p,h. (eclerc: Bibliothèque choisie) tome 13.

(٦) Introduction de Maigron, p,h.

(٧) Introduction de Maigron , p,h. (Du Marsais) .

وقد انشغل فلاسفة التنوير بدورسم بهذا الجدل، فدافع فولتير عن فونتونيل. بينما وضع داليمبير كتابا: « في مدح دومارسيه»، وقدم فيه ملخصا للكتاب المحظور[(١)].

ولنكتف بهذا القدر في التعريف بهذا الجدل، ولننصرف الآن إلى التعرف على مضامين كتاب فونتونيل الذي أثار هذه الزوبعة، وفي هذا سأتتبع ترتيب فونتونيل نفسه لأنه جيد ومنسق كما ستلاحظ ذلك:

أولا: حول مصدر الكهانة في المعابد.

يقول فونتونيل: أنا أومن بوجود الشياطين، وبأنها قادرة على تقديم تنبؤات، لو أن الله تعالى أباح لها ذلك. المسألة هي هل تحققت فعلا هذه الإباحة؟

ومن جهة أخرى ليس في الكتابات المقدسة أن هذه التكهنات هي من عمل الشياطين. فهذا الموضوع - إذن - تُرك لنا لنكوّن فيه رأيا[(٢)].

لكن لماذا اعتقد المسيحيون - خلال القرون الأولى للميلاد - أن الشياطين هم أصحاب النبوءات، كما اعترف بذلك فونتونيل نفسه؟[(٣)].

في تعليل إيمان المسيحيين القدماء بأن الشياطين وراء الكهانة:

١ - السبب الأول: هو كثرة الحكايات والقصص التاريخية عن الشياطين ومعابد النبوءة، فتلقفها المسيحيون ومالوا إلى تصديقها[(٤)].

---

(١) يغلب على ظني أن المعني هنا هو César Chesneau Du Marsais نحوي وفيلسوف فرنسي، ولد سنة ١٦٧٦ ومات بباريس سنة ١٧٥٦. في البداية درس القانون ومارس المحاماة ثم تحول إلى التدريس في العائلات الكبيرة. اشتهر بكتابيه: الأول في طريقة لتعليم اللاتينية.والثاني حول الاستعارة في قضايا البلاغة. وقد استعان به داليمبير في «الموسوعة». و Jean d'Alembert فيزيائي ورياضي فرنسي، وفيلسوف أيضا، تعاون مع ديدرو في كتابه «الموسوعة»، وكتب لها مقدمة شهيرة. وهو معدود ضمن فلاسفة التنوير. توفي بباريس سنة ١٧٨٣م. و Voltaire رأس التنوير في القرن ١٨، كاتب فرنسي، سافر كثيرا في أوربا، وكانت له خصومات مع الحكام والكنيسة. كتب في الأدب والشعر والتاريخ والفلسفة والمسرح ودعا إلى التسامح واحترام العقل أهم أعماله رواياته الفلسفية. توفي سنة ١٧٧٨م.
وقد كنت أرغب في الاطلاع على هذه الكتب، ولكنني لم أجدها فيما وصلت إليه من المكتبات.

(٢) Histoire des Oracles , p 7 - 8.

(٣) Histoire des Oracles , p. 9.

(٤) راجع بعض هذه القصص في: Histoire des Oracles, p 10 et après

ويضيف الأستاذ ميكرون بأن بعض أعيان المسيحيين - أو كبارهم - كانوا يحتجون على الوثنيين - لبيان فساد دينهم - بضمور الكهانة، وأن ذلك معروف عندهم، مذكور في قصصهم ومن أهم هؤلاء الذين سلكوا هذه الطريقة: أوزبيوس في كتابه: الإعداد الإنجيلي[١].

٢ - **السبب الثاني**: توافق هذا الرأي مع النسق الديني المسيحي. وذلك لأن المسيحية تقول بوجود الشياطين وبفعاليتهم، وبأنه قد كانت لهم سيطرة على العالم والناس، فلما ظهر المسيح نزع عنهم هذه الهيمنة[٢].

٣ - **السبب الثالث**: وجود توافق معين بين فلسفة أفلاطون واعتقاد قدماء المسيحيين. فقد كان هؤلاء - يحدثنا فونتونيل - معجبين بأفلاطون، فتأثروا بفلسفته التي كان فيها عناصر قريبة مما اعتقدوه وملائمة له[٣].

وقد قرر أفلاطون أن الشياطين خلق وسيط بين الآلهة والبشر، ومن طبيعة ثالثة، وهي قريبة منا، ولكننا لا نراها، ومع ذلك تتسرب إلى أفكارنا[٤].

ولذلك نقل أوزبيوس كثيرا عن بورفوريوس - هذا العدو الممتاز للمسيحية -[٥]، والذي يؤكد على أن الشياطين هم أصحاب أعمال السحر، وأنهم يظهرون على شكل أشباح، ويكذبون على الناس بحكم طبيعتهم، وأنهم يدخلون المعابد ويلقون فيها النبوءات والأجوبة. وكذلك يقول جومبليكوس، الأفلاطوني الآخر[٦].

---

(١) Louis Maigron. Note de Maigron, Histoire des Oracles, p 14. كاتب فرنسي من آخر القرن ١٩، وهو يميل كثيرا إلى آراء فونتونيل، وله دراسة عنه. أما Eusèbe المعروف بأوزبيوس سيزاري Césarée نسبة إلى مدينة ساحلية بفلسطين، فقد ولد بهذا البلد وتوفي به سنة ٣٤٠م، وأصله من اليونان. عمل في البداية في المكتبة التي تركها أورجينوس Origène، ثم تولى أسقفية مدينة سيزاري. أهم أعماله تأريخه الديني. وكان يميل إلى التصالح مع أريوس ومذهبه. وهذه الفترة التي عاش فيها أوزبيوس تميزت بالصراع الفكري بين الوثنية - الرومانية واليونانية paganisme - وبين المسيحية.

(٢) انظر: Histoire des Oracles , p. 18 à 20

(٣) Histoire des Oracles , p 21 et après.

(٤) Histoire des Oracles , p 24.

(٥) Histoire des Oracles , p15.

(٦) Jamblique . Histoire des Oracles, p25 فيلسوف من سوريا، و بها أسس مدرسة فلسفية. يعتقد أن جومبليكوس كان عضوا في الباطنية المصرية والكلدانية، ولذلك تحولت الأفلاطونية المحدثة - التي =

لكن بالتوس - في نقده لفونتونيل - رفض أن تكون الأفلاطونية تتمتع بكل هذا الاحترام المسيحي، وإن كان اعترف بأن أفلاطون من أقرب الفلاسفة إلى المسيحية، بالنظر إلى قضايا محددة[١].

والخلاصة أن فونتونيل يريد أن يقول: إن المسيحيين تأثروا بالأفلاطونية، وهذه كانت تؤمن بالشياطين، فوجدوا - من خلال كتابات الفلاسفة الوثنيين، الأفلاطونيين خاصة - تفسيرا مقبولا لخطأ الوثنية، وفساد معابدها ونبوءاتها، وهو اعتبار الشياطين أصل ذلك كله[٢].

٤ - **السبب الرابع**: هو حب الإنسان لكل غريب عجيب، مخالف للمعتاد. وفي هذا التفسير - بالأصل الشيطاني - يوجد العنصر العجائبي[٣].

نقد الاستدلال بالفلاسفة الوثنيين في الموضوع:

انتقد فونتونيل اعتماد المؤلفين المسيحيين - في القرون الأولى - على كتب اليونان والرومان الوثنيين.. لاستخلاص ما يدعم - في نظرهم - المسيحية[٤].

فمن ذلك - مثلا - أن بورفوريوس سجل صمت المعابد وانتهاءها المفاجئ عن إعطاء النبوءات، وفسر ذلك بطول الزمن، مما أدى إلى اندثار الأبخرة المقدسة التي كانت تحدث حالة الهيجان والاضطراب الضرورية للتكهن. وتعجب فونتونيل كيف لفيلسوف وثني وخصم عنيد للمسيحية أن يذكر أشياء تدل على اندثار معابد الكهانة، رغم أن هذا لا يخدم اعتقاده الوثني بقدر ما يخدم الديانة السماوية الجديدة[٥].

يقول فونتونيل: ليس بأيدينا النص الأصلي الكامل لبورفوريوس، فقد وصل إلينا كلامه عن طريق أوزيبيوس، ويحتمل أن الناقل تصرف فيه، أو أن بورفوريوس نفسه نقل إلينا ما يفيد اضمحلال معابد الكهانة ثم رد ذلك وأبطله[٦].

= اعتنقها على المستوى الفلسفي - إلى ديانة مضادة للمسيحية. كتب: حياة فيثاغورس. رسالة حول الأسرار الغامضة .Mystères توفي سنة ٣٣٠م . وهو غير جومبليكوس الأديب المتوفى سنة ١٢٥م.

(١) نقله ميكرون عن بالتوس في الهامش Histoire des Oracles, p 22 - . ٢٣، note.

(٢) Histoire des Oracles, p 26 - 27.

(٣) Histoire des Oracles , p 29.

(٤) Histoire des Oracles , p 36 - 37.

(٥) Histoire des Oracles , p 45 - 46.

(٦) Histoire des Oracles , p 47.

ويمضي فونتونيل في تصور الاحتمالات، فيقول: يحتمل أن بورفوريوس وضع من عند نفسه حكايات التنبؤ التي هي لصالح المسيحية، أعني أجوبة المعابد التي تشير إلى الدين الجديد وتنذر به على لسان الكهان والكاهنات حتى إذا تقبلها المسيحيون بسذاجة، استغل بورفوريوس هذا التقبل للوصول إلى نتائج أهم من قضية الكهانة هذه، نتائج تخص هذه المرة أسس الدين الجديد نفسها. ذلك لأن بورفوريوس الذي يذكر هذه النبوءات التي تبشر بالمسيحية، يقول في موضع آخر: إن نبوءات الكهان مصدرها شياطين من طبيعتها الكذب وبذلك فإن هذه المبشرات مصدرها كاذب، فلا قيمة لها إذن[١].

وبطبيعة الحال، فإن بالتوس لا يتفق مع هذا التحليل الذي رده بقوله: إن المسيحيين لم يقيموا دينهم على نبوءات المعابد التي يحكيها الوثنيون، هم فقط استعانوا بها للاستئناس والاحتجاج على الخصوم[٢].

روايات التنبؤ بالمعابد:

وهذا الكم من الروايات والقصص الذي نجده في التراث اليوناني واللاتيني - وحتى المسيحي - ، والذي يدور حول معابد الكهانة وسيطرة الشياطين عليها وتقديمها للأجوبة.. هذا الكم يتعامل معه فونتونيل وفان دال وفق القاعدة الآتية:

ينبغي أن تكون هذه القصص غير ثابتة ومشكوكا فيها. ولهذا قبل أن نبحث عن تفسيرها وعن كشف أسبابها يجب أولا أن نتأكد هل وقعت فعلا. فإذا لم يكن بد من قبول حكاية ما لجأنا إلى تأويلها. فهذه الطريقة وإن كانت بطيئة في البحث، إلا أنها أصح وأثبت[٣].

فكأن فونتونيل يقول: إن هذه المسألة ـ معابد الكهانة ـ موضوع تاريخي. وأول خطوة في التاريخ هي تمحيص الأحداث وتمييز المنحول من الصادق. بعدها يأتي تعليل ما ثبت منها.

---

(١) Histoire des Oracles , p 47 - 48.

(٢) نقله ميكرون .Histoire des Oracles, note , p 48

(٣) Histoire des Oracles , p 29 à 31 والجدير بالذكر أن لفونتونيل مؤلفا عنوانه: أصول الحكايات الخرافية (Origines des fables).

ولذلك تجد أن المسيحيين ينقلون قصصا عن شخصيات لم يكن لها وجود تاريخي، مثل هرمس(١). وفلوطرخس نفسه الذي ينقل بعض الروايات التي يستدل بها على أن الشياطين تلقي بالنبوءات ينقل أيضا حكايات ضعيفة لا يصدقها أحد(٢). ولذلك كثيرا ما يرد فونتونيل بعض الحكايات، في حين يكشف عن تناقض الباقي وما يحمله من أخطاء(٣).

نموذج من نقد فونتونيل:

تقول القصة : إن الإمبراطور الروماني أغسطس في شيخوخته زار معبد دلفي ليستشيره حول خلفه في الحكم. في البداية لم يجب المعبد، رغم كل الذبائح المقدمة له. وأخيرا أجاب قائلا : « الطفل اليهودي، الذي تطيعه كل الآلهة، يطردني من هنا ويرسلني إلى جهنم. اخرج من هنا ولا تتكلم»(٤).

والطفل المعني هو عيسى بن مريم، وكان قد ولد في عهد أغسطس.

يقول فونتونيل: هذه الحكاية أوردها سيدرينوس عن أوزبيوس. وهنا احتمالات ثلاثة(٥):

أ ـ يجوز أن يخطئ سيدرينوس في سرد الحكاية.

ب ـ يجوز أن يكون سيدرينوس قد نقلها عن كتاب منحول ومكذوب على أوزبيوس، خصوصا أن الأول عاش في قرن يغلب عليه الجهل والخرافة.

ج ـ إذا كان أوزبيوس نفسه هو الذي روى القصة، فيجوز عليه هو أيضا الخطأ. ذلك لأن المفكرين الأوائل الذين دافعوا عن المسيحية، أمثال: جوستنوس،

---

(١) Hermès في الأصل إله يوناني. ثم اعتبر أنه «الإله» المصري ثوت. وهذا أصله ملك مصري قديم هو الذي أبدع كل العلوم، وصار اسمه . Hermès Trismégiste ثم ظهرت العقيدة الهرمسية وهي غنوصية باطنية تدعي الاتصال بهذه الشخصية الأسطورية، وذلك في القرنين ٢ و ٣م. ولها كتب.

(٢) Histoire des Oracles , p 38.

(٣) Histoire des Oracles, p 40 - 41 .

(٤) Histoire des Oracles , p 36 عاش أغسطس بين سنتي ٦٣ ق.م و ١٤م، قضى منها حوالي أربعين سنة في الحكم. وفي عهده وصلت الإمبراطورية الرومانية إلى أوجها. والمسيح عليه السلام ولد في عهد هذا الإمبراطور، ثم عاصر بعده تبريوس، وفي عهده رفع إلى السماء.

(٥) (Cedrenus). Histoire des Oracles, p 42 - 43 .

وتيرتوليانوس، وتيوفيل، وتاتيانوس[١] لم يذكروا هذه الحكاية، رغم فائدتها في التبشير بالمسيحية.

بل إن الذين ذكروا هذه النبوءة أوردوا فيها ما يكشف عن زيفها، فإن أغسطس حين زار اليونان تسعة عشر سنة قبل ميلاد المسيح، لم يرجع إليها أبدا [٢]. يعني أنه زارها وعمره أربعة وأربعون عاما، فلم يكن شيخا، كما تذكر الرواية.

رد كهانة المعابد إلى الشياطين قول لا يلائم الدين:

إذ لو كانت التنبؤات من الشياطين لأخبرنا الله تعالى بذلك حتى لا نعتقد أنها من عند الله، أو أن الشياطين والأصنام تعرف المستقبل، وبذلك نعتقد أن شيئا غيبيا وميتافيزيقيا يوجد في الديانات الخاطئة، وهذا قد يزعزع إيماننا[٣].

ولو كانت الشياطين هي من يجيب في المعابد ويكشف عن المستقبل، لكان الوثنيون معذورين في شركهم، لأنهم يشاهدون آثار قوة سماوية ـ أو على الأقل قوة فوق الإنسان ـ في هذه المعابد، فيعذرون في الخوف منها والذبح لها. ولذلك لا يمكن للشياطين أن تقوم بخوارق تضل الناس دون أن يتصدى لها بشيء يبطل أعمالها.

---

(١) جوستنوس القديس Justin تحول من الفلسفة الوثنية إلى المسيحية، وكان مناظرا عن الدين الجديد ضد اليهود، له: «حوار مع تريفون»، وله «ضد الوثنيين»: كتابان في الدفاع عن المسيحية. قتل بروما سنة ١٦٥، في الحملة الدموية التي قادتها روما ضد أتباع عيسى عليه السلام. وجوستنوس يكتب باليونانية. أما Tertullien فكاتب لاتيني، ولد بقرطاجنة، وتوفي سنة ٢٢٥م. يعتبر مؤسس علم الإلهيات المسيحي Théologie في اللغة اللاتينية. ناظر بالخصوص الغنوصيين. وساهم في تثبيت الرهبانية المتطرفة في المسيحية. وكان متأثرا بالرواقية. وهو أول كاتب لاتيني حاول التوفيق بين المسيحية والثقافة الوثنية. وأثره على الغرب المسيحي كبير ومستمر. من أهم كتبه: ضد الأمم. ضد مارسيون. حول الهروب من القتل والتصفية.

Théophile السوري، القديس. كان وثنيا ثم تمسح. وتولى أسقفية مدينة أنطاكية Antioche ـ على الساحل المتوسطي، بين حدود سوريا وتركيا حاليا ـ، توفي سنة ١٩٥ م. وله: دفاع مهدى إلى أوتوليكوس.

Tatien تلميذ جوستنوس السابق أثناء مقامه بروما. ولد ببلاد الرافدين، وأسس مذهبا بسوريا. له: خطاب إلى الإغريق، وهو نقد قوي للوثنية. توفيق بين الأناجيل الأربعة. مات بعد سنة ١٧٣م.

(٢) Histoire des Oracles, p 44.

(٣) Histoire des Oracles, p 50 - 51 .

فهذا فرعون حين «غالطه» السحرة بسحرهم جاء موسى عليه السلام بعمل أقوى دحض به سحرهم. وهذا لا يمنع أن «الوثنية» paganisme كانت تسمى بديانة الشياطين أو عبادة الأرواح أو الشياطين، لغلبة هذه الناحية عليها[١].

ويحتمل أن الله تعالى ترك الشياطين أحيانا تحرك الأصنام، أو تتكلم من داخلها. فإذا وقع هذا لاشك كان لحكمة عالية. لكن هذا السماح استثناء، والقاعدة العامة تقتضي عدم حدوث مثل هذه الأمور[٢].

وقد أيد لوكليرك رأي الكاتبين، وذكر أنه مما لا يوافق فضل الله تعالى ورحمته أن يعرض الناس لتحكم الشياطين وألاعيبهم، من خلال معابد الكهانة وأجيب بأن الوثنيين استحقوا ذلك بكثرة فسادهم، وبأنهم هم الذين يستدعون الشياطين ويطلبونها بالسحر، وبأنه كان من المتيسر لهم أن يدركوا أن الأرواح الشريرة هي التي تلقي إليهم بالنبوءات[٣].

ثم نبه فونتونيل على أن فكرة أفلاطون عن الشياطين لا تنسجم مع المسيحية، لأن الذي اضطر أفلاطون إلى تصور وجود الشياطين هو أنه وجد فرقا شاسعا بين الإله والبشر، فقرر أنه لابد من خلق آخر يكون وسيطا بينهما، ويملأ بعض هذا الفراغ الممتد، والشياطين بعض هذا الخلق[٤].

هذا البحث كله يفترض أن شيئا خارقا للعادة، وغير طبيعي، يوجد حقيقة في المعابد. والآن سيهاجم الكاتبان هذا الافتراض من أصله:

أصل معابد الكهانة:

كانت بعض المعابد تبنى من جديد، وفي وقت متأخر أي تحدث من لا شيء. وهذا كالمعبد الذي وضعه الإسكندر، والمسمى: إيفيستيون[٥]. فالمعابد تبنى، ثم تنسب إليها النبوءات ويخصص لها الكهنة ويوجه إليها بالذبائح، فلا ينقضي زمن - يطول أو يقصر - حتى تصبح هذه المعابد قبلة للناس ومزارا ومكانا مقدسا. وكانت المعابد تشيد لتخليد ذكرى ملك أو صديق ملك أو شخصية عامة.

---

(١) Histoire des Oracles, p 52 à 54.

(٢) Histoire des Oracles , p 55.

(٣) نقله ميكرون : Histoire des Oracles, p 50, note

(٤) Histoire des Oracles , p 58 .

(٥) Histoire des Oracles , p 97 - 98 . المعبد Ephestion

ولذلك فمعبد دلفي ـ الذي يظن الناس أنه مهبط لوحي السماء ـ ، ربما أحدث هو بدوره في الظروف نفسها(١).

وهذا ـ عند بالتوس ـ لا يعني شيئا، لأنه لا شيء يمنع أن نتصور أن الشياطين تلقي النبوءات في المعابد الجديدة أيضا(٢).

كثير من فلاسفة الوثنية يؤمنوا بوجود أمر خارق في المعابد :

وهذا أوزبيوس نفسه يلاحظ أن عددا كبيرا من غير المسيحيين انتقدوا معابد التنبؤ وهاجموها(٣). بل إن نصف فلاسفة اليونان لم يعتقدوا فيها، مثل : الكلبيين، والأرسطيين، والأبيقوريين. في حين آمن النصف الآخر بكهانة المعابد، وهم : الأفلاطونيون، والرواقيون(٤).

ومن غير الفلاسفة أيضا :

فعامة الناس كانت تذهب إلى المعابد وتستشيرها بحكم العادة، ولأنه فقط عليها أن تذهب، بينما لم يكونوا ـ في أعماق نفوسهم ـ شديدي الإيمان(٥).

وقد لاحظ فونتونيل ـ وأصل الملاحظة في ظني لفان دال ـ أنه ليس سهلا أن نعرف بدقة كيف كان الوثنيون ينظرون إلى دياناتهم. فهذا ـ مثلا ـ أرسطوفانيس في مسرحيته الكوميدية «الطيور»، يتصور أن الطيور بنت مدينة بين السماء والأرض، وبذلك انقطعت الصلات بين الآلهة والبشر، وهذا الوضع الجديد جعل من الطيور سادة للعالم، في حين صارت الآلهة مفلسة تعاني الجوع والمسغبة.

ولكن أرسطوفانيس بعينه هو الذي بدأ بتحريض الناس ضد سقراط متهما إياه بالكفر والتجديف(٦).

---

(١) Histoire des Oracles , p 91 à 93 .

(٢) Histoire des Oracles ,note de Maigron, p 92 .

(٣) Histoire des Oracles , p 62.

(٤) Histoire des Oracles , p 63 .

(٥) Histoire des Oracles , p 74 . ـ ٧٥

(٦) Histoire des Oracles , p 73 - 74. Aristophane مؤسس الكوميديا اليونانية. كتب ٤٤ مسرحية، بين أيدينا منها إحدى عشر، منها : السلام. بلوتوس. اجتماع النساء. توفي سنة ٣٨٦ ق.م.

وهذا شيشرون استهزأ بفنون الكهانة في ديانات الرومان واليونان جميعا، ومع ذلك لم يحاكمه أحد على هذا « الإلحاد». يستنتج الكاتبان من ذلك بأن الديانات الوثنية قبل كل شيء هي أعمال وشعائر، أي ممارسة أكثر منها اعتقاد؛ وأن القاعدة تقول: افعل مثلما يفعل الناس جميعا، واعتقد ما شئت.. وهذه القاعدة ناسبت العامة والفلاسفة جميعا[١].

والمسيحيون الأوائل أيضاً يؤمنوا كثيراً بأن النبوءات من وحي الشياطين:

فهذا كليمون الإسكندري يتهجم على الكهانة ويهزأ منها ويشير إلى أنها ألاعيب بشرية[٢].

أما الذين سلموا بمصدرها الشيطاني، فإن فونتونيل يرجع ذلك إلى ضرورات الجدل المسيحي - الوثني، إذ وجد الكتاب المسيحيون أنه من الأولى تسليم ما يقوله الوثنيون عن معابدهم وأن يبينوا لهم أن ذلك من إضلال الشياطين إياهم عن طريق الحق[٣].

بينما تمسك بالتوس - في رده - بالقول إن هؤلاء الكتاب اعتقدوا فعلا أن أصل هذه النبوءات شيطاني[٤].

وإذا كان الأمر كما يقول فونتونيل، فما حقيقة هذه الكهانة، وحقيقة ما اشتهرت به هذه المعابد طيلة قرون من التنبؤ وكشف المغيبات؟

إن الجواب عن هذا السؤال مناسبة للتعرف على إحدى أهم النظريات في الموضوع، وهي ما أسميه بـ: « نظرية التدليس». وخلاصتها أن الكهانة مجرد مجموعة

---

(١) Histoire des Oracles , p 68 à 70 في الموسوعة أن أحد الحكام الرومان - Dioclétien - أحرق كتاب شيشرون حول الكهانة سنة ٣٠٢، مع كتب أخرى للمسيحيين. انظر : Ency. Uni. Art Oracle, 16/1025

(٢) Histoire des Oracles , p 80 - ٨١. وذلك في كتابه الأوراق أو الديباجات Clément Alexandrin, (Les Tapisseries) كاتب يوناني اعتنق المسيحية واستقر به المقام بالإسكندرية، ويعتقد أنه أستاذ أورجينوس. توفي سنة ٢١٥م. من كتبه: المربي.

(٣) انظر : Histoire des Oracles , p 81 à 84

(٤) نقله ميكرون : Histoire des Oracles , p 84, note

من الحيل والألاعيب يستخدمها الكهان للتلبيس على الناس وإيهامهم بأنهم يتلقون الأجوبة فعلا عن الآلهة أو الشياطين، بينما هي في الواقع أجوبة صاغها الكهنة بأنفسهم.

وقد أرجأت تفصيل الكلام في هذه النظرية إلى مبحث الإشكالات الرئيسية في تاريخ معابد الكهانة.

ثانيا : في استمرار معابد الكهانة بعد المسيح .

أراد فان دال وفونتونيل في هذه الرسالة الثانية أن يثبتا أن هذه المعابد لم تنقرض مع ولادة عيسى عليه السلام، بل استمرت عشرات السنين بعده.

ويقولان إن السبب في الاعتقاد بانتهاء المعابد هو وجود روايات عن نبوءات بعض المعابد التي أشارت بنفسها إلى هذا الانتهاء وقربه. وكذلك لأن الوثنيين اعترفوا بأنه حوالي زمن المسيح اندثرت هذه المعابد[١]. فأوزبيوس مثلا يذكر عن بورفوريوس أن أبولو قال للكاهن إن الأرض لم تعد تخرج البخور والنافورات التي تتيح التنبؤ[٢].

طريقة فونتونيل في الانتصار لرأيه هي أن يثبت وجود بعض المعابد بعد المسيح بزمان طويل. ويكفيه في ذلك ولو استمرار معبد واحد، إذ لو كانت النبوءات من فعل الشياطين وكان ظهور المسيح قد طردها، فلم أبقى على بعض المعابد؟[٣].

إن أحد أهم المؤلفين الوثنيين الذين استند إليهم المسيحيون للقول بانتهاء كهانة المعابد هو فلوطرخس، ولكنه لم يقل إن كل المعابد سكتت. بل ها هو - في كتاب آخر - يقول إن معبد دلفي في عهده كان رائعا وهائلا، وإنه جُدد وزيد في بنائه، وتأسست قريبا منه مدينة تتوسع شيئا فشيئا. وأشار أيضا - في كتابه عن اندثار المعابد - بأن معابد موبسوس وأمفيلوكوس كانت مزدهرة[٤].

وقد عاش فلوطرخس إلى سنة ١٢٥، بعد الميلاد.

---

(١) Histoire des Oracles , p 143 .

(٢) Histoire des Oracles , p 144 .

(٣) Histoire des Oracles, p 145.

(٤) Histoire des Oracles, p 147 - 148 . (Mopsus - (Amphilochus

تعليل تناقض القدماء - من الكتاب - حول زمن صمت المعابد.

التناقض ثابت. فهذه نصوص أوردها فونتونيل عن لوكانوس وجوفيناليس[١] تفيد أن معبد دلفي سكت عن إعطاء النبوءة من زمان. بينما يذكر آخرون أنه لا يزال يؤدي مهمته. بل الكاتب الواحد أحيانا يتناقض في موضعين من تأليفه[٢].

وقد ذكر فان دال وفونتونيل تفسيرا جيدا لهذه المسألة: لم تعد هذه المعابد تتمتع بتلك الدرجة العالية من الازدهار والمكانة والتأثير التي كانت عليها في الماضي. ولكنها أيضا لم تندثر تماما وتصبح مجرد أطلال. إذن فهذه المعابد - بالنسبة إلى ماضيها - لم تعد شيئا يذكر، وبالنظر إلى حاضرها هي على كل حال مازالت معابد قائمة تزار وتستشار[٣].

فهذه مسألة الكأس المملوء إلى نصفه، هل هو فارغ لأن فيه مجرد النصف، أم مليء لأن فيه النصف.

وشيشرون - مثلا - زار معبد دلفي في شبابه، واستنبأه، كما يحكي فلوطرخس في حياته. ثم هو في كتابه عن التكهن أشار إلى انتهاء هذا المعبد. تفسيره - عند فونتونيل - أن شيشرون زار دلفي في شبابه، ثم أثناء حرب قيصر وبومبي والفوضى العامة التي ترتبت عليها آنذاك.. سكت المعبد. ثم حين كتب شيشرون كتبه الفلسفية، تجدد المعبد بما يكفي ليقول كونتوس الرواقي: إنه مازال حيا حاضرا، وبدرجة أضعف جعلت شيشرون يقول إنه انتهى[٤].

إن وضع المعابد يتأثر بالظروف العامة للبلاد، فتزدهر حينا، وتخبو حينا آخر.. وقد

---

(١) كلاهما من شعراء اللاتين. أما Lucanus - أو Lucain - فقريب الفيلسوف سينيك. ثم بعد اشتراكه في بعض الاضطرابات السياسية قتله نيرون سنة ٦٥م. أما Juvenalis - وبالفرنسية Juvénal - فقد اشتهر بـ «الهجائيات»، وهي نقد لروما الكبيرة والمتفككة. توفي سنة ١٤٠م.

(٢) انظر مثلا Histoire des Oracles, p 151 «علم الغيب».. لشيشرون، صفحات ٦٣ - ٦٤، وقارن بـ: ص٢٠٠ - ٢٠١. ثم اقرأ لفونتونيل صفحات ١٤٨ إلى ١٥٠.

(٣) Histoire des Oracles, p 151 - ١٥٢.

(٤) Histoire des Oracles, p 150,154 وقد كتب شيشرون عامة كتبه الفلسفية في آخر عمره، بما في ذلك «علم الغيب في العالم القديم». أما هذه الحرب الأهلية بين السياسيين والقائدين العسكريين - قيصر وبومبي - فقد كانت بين سنتي ٥٠ و ٤٨ ق.م، وانتصر فيها قيصر.

تعرض معبد دلفي مرارا للهجوم والنهب من طرف الجيوش والغزاة، ثم أسهم الاضطراب السياسي والاجتماعي وتراجع عدد المدن وحجمها.. في اندثاره وسكوته[١].

لقد سأل نيرون ـ ذات مرة ـ معبد دلفي، فلما أجابه بجواب لم يعجبه، انتزع أراضي المعبد وفرقها على الجنود، ثم نهب منه خمسمائة تمثال من البرونز، ولم يكفه ذلك فذبح ناسا عند مدخل الكهف المقدس الذي منه يخرج الروح السماوي.. تحديا للمعبد وإمعانا في الكفر به.. من الطبيعي بعدها أن يسكت المعبد زمانا[٢].

انتهاء معابد الكهانة تم مع انتهاء الوثنية:

على العموم لم تندثر هذه المعابد إلا حين اندثرت الديانات اليونانية والرومانية الوثنية.. وهذه الأديان لم تنته مع مجيء المسيح كما هو معلوم[٣].

وهكذا توجد شواهد على استمرار إجابة بعض المعابد على عهد الأباطرة: دوميتيانوس، وتراجانوس، وأدريانوس والأنطونيين[٤]. وقد أجاب دلفي حول مَن مِن الثلاثة الذين يتصارعون على الحكم ـ بعد الأنطونيين ـ سينتصر في النهاية، فقال إنه سيفيروس[٥].

---

(١) Histoire des Oracles, p 152 ـ ١٥٣.

(٢) Histoire des Oracles, p 156 حكم نيرون روما بين سنتي ٥٤ و ٦٨م، وهي السنة التي انتحر فيها. كانت السنوات الأولى من حكمه هادئة، ثم تحول إلى طغيان دموي ضحيته الأولى هي حاشيته. أحرق نيرون روما ثم تفرج عليها، واتهم بذلك المسيحيين الذين عاقبهم بلا رحمة. كان نيرون يعاني من اضطراب نفسي أو عقلي.

(٣) Histoire des Oracles, p 164.

(٤) Histoire des Oracles, p 156 ـ ١٥٧. الإمبراطور Domitien حكم من سنة ٨١ إلى ٩٦. ثم بسبب استفراده بالحكم، وإضعافه للأرستقراطية الرومانية.. قتل في مؤامرة. كان قاسيا على المسيحيين. أما تراجانوس فقد كانت سنوات حكمه بين ٩٨ و ١١٧ مرحلة خصبة من الغزو وتوسيع الإمبراطورية (خصوصا بسيطرته على الشام والعراق) وكذا البناء وتطوير الاقتصاد. وقد منع تراجانوس اضطهاد المسيحيين. وجاء بعده أدريانوس ـ Hadrien ou Adrien ـ فأوقف التوسع، وتفرغ لتنظيم الإمبراطورية وتحصينها وتطوير الآداب والفنون فيها، حتى وفاته سنة ١٣٨م. والأنطونيون سلسلة من أباطرة الرومان تبدأ بنيرفا Nerva الذي حكم ابتداء من سنة ٩٦م، وتنتهي بكومود Commode سنة ١٩٢م.

(٥) Histoire des Oracles, p 158. بعد الأنطونيين حكمت أسرة أخرى تحمل اسم سيفيروس Sévère، بين سنتي ١٩٣ و ٢٢٥م. وأولهم سيبتيميوس الذي وضع حكما مركزيا بروما، وقلص من نفوذ مجلس الشيوخ، ودخل في حروب لا تنتهي مع الفرس.

وفي زمن قسطنطين نهب معبد دلفي كله، وأخرجت منه الأصنام[١]. فلما جاء جوليانوس، وكان مائلا إلى الديانات القديمة، أعاد فتح عدد من معابد الكهانة وأصلح بعضها. وكان هذا الإمبراطور يريد إحياء الوثنية بتطعيمها بعناصر من المسيحية وأخلاقها[٢].

وبعده جاء جوفيانوس الذي اختار تدمير الوثنية. أما إمبراطور الشرق فالونس فقد فضل إعطاء الحرية لكل أحد أن يعبد ما يشاء، وكان هو شخصيا يميل إلى مذهب آريوس[٣].

ولذلك فإن القضاء النهائي على الوثنية الرومانية لم يتحقق إلا في زمن متأخر، في عهد ثيودوس وأبنائه، وهذا بدأ بمصر، فأغلق أهم معابدها: سيرابيس. لكنه حين ذهب إلى روما لإقناع مجلس الشيوخ بالمسيحية، فشل في ذلك، وقالوا له بأنهم جربوا الوثنية مدة ألف ومائتي سنة فوجدوها ديانة ناجحة. لقد كان في روما ـ على الدوام ـ حنين عميق إلى وثنيتها القديمة[٤].

وأخيرا أصدر فالونتنيانوس سنة ٤٥١م قانونا بمقتضاه يعاقب بالإعدام على ممارسة الوثنية[٥].

---

(١) Histoire des Oracles , p 158 في عهد هذا الإمبراطور ـ Constantin 1er ـ تم الاعتراف بالمسيحية الكنسية، غير الأرثذوكسية والآرية. وقد حكم طويلا من ٣٠٦ إلى ٣٣٧، وكان حكمه مطلقا، وهو الذي أسس القسطنطينية.

(٢) راجع: Histoire des Oracles , p 159, p166 à 168. درس جوليانوس Julien ـ الإمبراطور المثقف ـ كتب الأفلاطونية المحدثة، ووضع مؤلفات أحدها في الرد على المسيحية. حاول جوليانوس إحياء وثنية تقوم على عبادة الشمس، ونظمها ـ على غرار المسيحية ـ فأصبح لها كنيسة وهيئة من رجال الدين كان هو على رأسها. مات سنة ٣٦٣م، في إحدى معاركه مع الفرس.

(٣) Histoire des Oracles, p 168. كان جوفيانوس ـ Jovian ـ حاكما سنتي ٣٦٣ و ٣٦٤م. وبعده فالونس Valens من ٣٦٤ إلى ٣٧٨. أما آريوس فهو صاحب المذهب الذي ينكر أن يكون جوهر الأقانيم الثلاثة واحدا. فهو لذلك أقرب إلى التوحيد الخالص. ولد آريوس بليبيا سنة ٢٥٦م. وكان أسقف الإسكندرية.

(٤) Histoire des Oracles, p 170 à 173 . Théodose 1er حكم بين ٣٧٩ و ٣٩٥، في عهده أصبحت المسيحية ديانة الدولة.

(٥) Histoire des Oracles, p 175.. وهذا قانون فالونتنيانوس الثالث ومارتيان ـ Valentinien III, Martien ـ ، وفي عهد هذا الإمبراطور بدأ تفكك الإمبراطورية تحت ضغط البرابرة. وبعد وفاته سنة ٤٥٥، وبالضبط عام ٤٧٦م دخل الجرمان إلى روما وأنهوا إمبراطورية الغرب، في حين استمرت إمبراطورية الشرق، والتي تسمى بالبيزنطية.

إن ما يريد فونتونيل أن يقوله هو أن معابد النبوءة من أهم مكونات الوثنية وأسسها، فاندثار الوثنية معناه اندثار هذه المعابد أيضا، وطالما كانت الوثنية مستمرة فإن معابدها قائمة(١).

وقد اضطر بالتوس إلى بعض التراجع عن رأيه الأول، فموقف الكنيسة الآن هو أن« هذه المعابد اندثرت عند ولادة المسيح منقذ العالم، وعند تعليم إنجيله وتبليغه، وهذا ليس فجأة وفي مرة واحدة، ولكنه تم مع تقدم معرفة الناس له وانتشار عقيدته وقبولها من طرف العامة». إذن فـ « هذا الحدث المعجز (أي سكوت المعابد) ينبغي نسبته إلى المسيح، وإلى هيمنته على الشياطين، وإلى القدرة التي وهبها للمسيحيين بطرد الشياطين»(٢).

ثم إن فونتونيل ذكر اعتراضا محتملا للخصم الذي يمكن أن يقول: يجوز أن تتوقف المعابد عن التكهن فعلا بمجرد مجيء المسيح، ولكن الكهنة يستمرون في اختلاق النبوءات ونسبتها إلى المعبد وقد أجاب عنه بأن هذا مجرد احتمال، ونحن لم نلاحظ فرقا بين معابد النبوءة قبل المسيح وبعده. وإذا كان الكهنة قد دلسوا وكذبوا بعد عيسى عليه السلام، فما المانع أن يفعلوا الشيء نفسه قبله؟(٣).

إنه من الواضح أن آراء فان دال وفونتونيل لا تخلو من وجاهة، ولها فوائد محققة في التنبيه على بعض القضايا التي تحتاج إلى تريث ومعالجة. وتم لهما ذلك بحكم روح النقد التي تحلوا بها ولكنني لا أعتقد أنها تجيب نهائيا عن كل القضايا الشائكة في موضوع الكهانة. والمطلب الآتي يوضح جيدا قيمة هذه الآراء، وحدودها أيضا:

---

(١) Histoire des Oracles , p 179.

(٢) نقله ميكرون عن كتاب بالتوس: «الرد على تاريخ معابد الكهانة» Histoire des Oracles, p 142, note 1.

(٣) Histoire des Oracles, p 145 - 146 .

الفصل الثالث:

الإشكالات الرئيسية في تاريخ معابد الكهانة

بعد هذا العرض العام لظاهرة التكهن - بالمعبد - عند اليونان، وبعد هذا التقديم المفصل لكتاب فان دال.. ربما بدا واضحا للقارئ أن هذا الموضوع يثير إشكالات تاريخية اختلف حولها الفلاسفة والكتاب وعلماء الدين، وكتبوا فيها وتجادلوا ولم يصلوا إلى رأي نهائي يرفع الإشكال ويزيل اللبس.

ويمكننا أن نقول - بناء على الدراسة السابقة - إن في الموضوع إشكالين اثنين:

الأول - يخص حقيقة معابد الكهانة، ما هي، وما الذي كان يجري فيها فعلا. خصوصا في ضوء القبول العام - في الماضي - لتكهنات هذه المعابد، وكذا في ضوء الصدق التاريخي لبعض نبوءاتها.

الثاني - يتعلق بلغز اندثار هذه المعابد، فلم سكتت ولم تعد تتنبأ بشيء. لقد سجل الأقدمون هذه الظاهرة، وتفرقوا في تعليلها طرائق بددا. فما هي حقيقة هذا الموضوع؟

وكثير مما يتعلق بذين الإشكالين مرَّ في الصفحات السابقة من هذا البحث فلا أعيده هنا، وما يلي هو جمع لأطراف ما سبق ولمٌّ لشتاته، وتوسع في بحث جوانب جديدة في هذين الإشكالين. فإليك التفصيل:

المبحث الأول: حقيقة معابد الكهانة

مشكلة صدق بعض النبوءات:

لم يجادل أحد - فيما انتهى إليه علمي - في أن بعض تنبؤات المعابد صدقت فعلا، ووقعت بعض الأحداث كما أوحى بها الكهنة. فالمشكلة ليست في صدق هذه التنبؤات، بل في تفسير هذا الصدق.

بل يقول كونتوس: لقد صدرت عن معبد دلفي نبوءات صادقة مئات كثيرة من السنين[1]. ولذلك فإن « مهبط الوحي في دلفي ما كان يكثر زواره على هذا النحو، ويشتهر إلى هذا الحد، ويزدحم بالقرابين تقدمها الشعوب والملوك من كل صوب، لو

---

(١) علم الغيب في العالم القديم، ص ٦٤.

أن الناس في مختلف العصور لم يضعوا صدق نبوءاته موضع اختبار»[1] وفي هذا الكلام درجة من الوجاهة لا تخفى.

ويحكي كونتوس قصصا كثيرة عن بعض التكهنات التي تحققت فعلا، ويستشهد عليها بشيشرون الذي يعرفها جيدا[2]. وكتب التاريخ القديم - على العموم - مليئة بهذه القصص.

وهذه المشكلة تحيلنا على نظرية خاصة في تفسير صدق هذه التكهنات، بعدها أعرض لسائر النظريات التي تحصلت عندي:

١ - نظرية الصدفة:

وقد حمل لواءها الأبيقوريون ودافعوا عنها[3]. وقال بها غيرهم مثل شيشرون الذي اعتبر أنه من الممكن أن يصيب التكهن على سبيل المصادفة. إذ ما دام أن السحاب - مثلا - يمكن أن يأخذ شكل أسد أو صورة طير، فما المانع أن تحدث بعض التنبؤات فعلا[4]، و«ليس العرافون من نكد الطالع بحيث لا تصدق نبوءاتهم أبدا، حتى على سبيل المصادفات»[5].

وهذا يسري على جميع أنواع الكهانة، ففي التكهن بالأنصبة تكون الغلبة للمجازفة والحظ، أكثر مما تكون للروية والحكم السديد وهذا مثل لعب النرد[6].

وأحيانا يفسر الناس أحداثا سابقة في ضوء ما تحقق في الحاضر، فيكتشفون فيها نذرا يقنعون بها أنفسهم[7].

٢ - نظرية التدليس:

ومؤداها أن الكهانة - خصوصا ذات الصلة بالمعابد - مجرد وهم صنعته أياد بشرية ورعته حيل الكهنة، وساعد على بقائه ضعف الناس وجهلهم.

---

(١) علم الغيب، ص ٦٣

(٢) علم الغيب، ص ٨١ - ٨٢.

(٣) انظر: Devins et Oracles grecs, p 113

(٤) علم الغيب ، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٥) علم الغيب ، ص ١٨١.

(٦) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٨١.

(٧) علم الغيب ، ص ١٦٧.

يلاحظ فونتونيل أن هذه المعابد كانت تبنى في الأكثر فوق مرتفعات، فيها عدد من الكهوف التي تضاف إلى المعبد فتشكل جزء منه. ولم يكن يسمح لأحد ـ إلا نادرا ـ بالدخول إلى هذه الكهوف، وإلى الممرات السرية التي كانت تحت أرض المعبد[١]. ولذلك يتساءل فونتونيل لماذا لا تنطلق النبوءة إلا من الكهوف والحفر والأماكن المظلمة[٢].

ومع تقدم المسيحية وانتشارها اكتشف الناس ـ في حملات هدم المعابد الوثنية ـ أن بعض الأصنام كانت خاوية من الداخل، وأنها موصولة بممرات خاصة تسمح بالدخول فيها والكلام منها، من المعبد ـ بالطبع ـ، ودون أن يحس الجمهور بذلك[٣]. وهاهو أوزبيوس يروي كيف أرغم أشهر المتنبئين ـ في زمانه ـ على كشف حيلهم التي يلبسون بها على الناس[٤].

وقد تصور فان دال وفونتونيل تواطؤا عاما بين الكهنة وسكان مدينة دلفي الذين كانوا يستفيدون من الرواج التجاري والاقتصادي الذي يعود إلى المعبد، وأن الذين اطلعوا على الأسرار الخفية للمعبد التزموا بعدم إفشائها[٥].

ومن عجائب هذه المعابد أنه لم يكن يسمح باستشارتها في بعض الأيام، وهذا له تفسيران عند فونتونيل وفان دال[٦]:

١ ـ وضع الكهنة هذا النظام للتخلص من الناس والسائلين بسهولة، حين تكون لهم أسباب خاصة توجب عدم تلقي الاستشارة.

٢ ـ إعداد الحيل وأعمال المكر والكذب.

وكان الكهنة يستعملون بعض الآلات في التحايل على الناس، ومنها الأبواق التي تكبر صوت النبوءة[٧]. يعني لإضفاء هالة من القداسة والعظمة عليها.

---

(١) انظر: Histoire des Oracles, p 103 à 107

(٢) Histoire des Oracles, p 122 - 123 .

(٣) Histoire des Oracles, p 132.

(٤) Histoire des Oracles, p 133 - 134 .

(٥) Histoire des Oracles, p 122 - 123 .

(٦) Histoire des Oracles, p 110.

(٧) Histoire des Oracles, p 109.

ومن مظاهر فساد هذه المعابد أيضا ما كان يلجأ إليه بعض الحكام أو الملوك، بل وحتى من غيرهم، من إرشاء الكهنة أو إرغامهم على أن يسمعونهم الجواب الذي يحبون[(١)].

ويواصل فونتونيل بسط عجائب هذه المعابد، ومنها أجوبتها الذكية، التي بسبب غموضها يمكن تكييفها مع الأحداث اللاحقة حين تقع فعلا[(٢)]. ويروي الجواب الذي اخترعه كهان سوريا، والذي يصلح لكل سؤال: الثيران المقرونة تحرث الأرض، لكي تنتج الحقول ثمراتها.

فهذا يمكن أن تقوله جوابا عن سؤال يتعلق بالزواج، أو بأرض تود زرعها، أو بسفر تريد إنشاءه.. وحتى بالحرب (أعداؤك مثل الثيران التي تسيطر عليها وتستخدمها)[(٣)].

وأحيانا الذين يتلقون النبوءة هم أنفسهم يفسرونها في ضوء الأحداث الواقعة ويكيفونها معها، فحين سأل روتيليان الكاهن الإسكندر عن أي الأساتذة يجب أن يخصص لابنه. أجاب ينبغي أن يدرس ابنك الفلسفة والآداب، أي فيثاغورس وهوميروس. فلما مات الولد بعد قليل، ورأت حاشية روتيليان أن للكاهن دخلا في ذلك وحرضوه عليه، أجابهم بأنه قد وجد في نبوءة المعبد ما يفيد وفاة ابنه، لأن الإسكندر ـ الكاهن ـ نصحه بأستاذين ميتين من زمان[(٤)].

أما فيما يخص بعض الأساليب الخاصة في التكهن، مثل الأحلام، فقد نقل فان دال عن بوسانياس وصفا دقيقا لطقوس معينة تهيء المرء لرؤية شيء أو سماعه أو الحلم به في المنام. وكانت هذه الطقوس تمارس في معبد تروفونيوس، حيث يجتاز السائل مجموعة من الكهوف والممرات المظلمة.. فلا يبعد أن يتعرض فيها لتلبيس الكهنة، كأن يسمعوه شيئا، أو يظن أنه رأى شيئا، ويكون ذلك مجرد إيحاء ذاتي[(٥)].

---

(١) راجع الفصل العاشر : Histoire des Oracles, chapitre X

(٢) Histoire des Oracles, p 127.

(٣) Histoire des Oracles, p 130 .

(٤) Histoire des Oracles, p 131 .

(٥) Histoire des Oracles, p 122 - 123 . معبد Trophonius. أما Pausanias المقصود هنا فهو الجغرافي اليوناني الذي عاش في القرن الثاني للميلاد. سافر كثيرا، وسجل ملاحظاته في كتابه «وصف اليونان». واستقر أخيرا بروما سنة ١٧٤م. وهو غير القائد الحربي بوسانياس الذي واجه الفرس في عدد من الحروب، أثناء القرن الخامس ق.م.

وبالنسبة لأسلوب الورقة المختومة، حيث كان طالب الاستشارة يرسل رسالة مغلقة إلى المعبد مع مبعوث خاص، فيضعها هذا في المعبد أو يتوسدها ليرى الجواب في نومه.. فقد كانت للكهنة أساليبهم لمعرفة القضية التي من أجلها جاء المستشير، واستخدام هذه المعرفة في إعداد الجواب[١]. بل كان لبعضهم جواسيس يأتونهم بالأخبار، ولذلك كانوا يعرفون الكثير عن شؤون الناس[٢].

والذي ساعد على نجاح هذا التدليس غلبة الجهل والتطير على الناس، في وقت لم توجد فيه الفلسفة بعد[٣].

٣ ـ نظرية ملكة التنبؤ عند الإنسان:

هل يملك الإنسان قدرة خاصة تسمح له بالكشف عن المغيبات والاطلاع على بعض ما خفي من الأزمنة الثلاثة: الماضي، والحاضر، والمستقبل[٤]؟.

يحكي لنا شيشرون دليلا ذكره صديقه كراتيبوس على وجود هذه الملكة: الإنسان يبصر بالعيون، وهي أحيانا تعجز عن أداء وظيفتها. لكن الإنسان الذي استخدم عينه ولو مرة واحدة فيرى الأشياء على حقيقتها يعرف ما هي الرؤية. كذلك التكهن، فإن التنبؤ لا يقوم بغير ملكة التكهن، والمرء الذي أوتي هذه الملكة قد يخطئ أحيانا في نبوءاته. إلا أن تنبؤ الكاهن ـ إذا صدق ولو في حالة واحدة ـ كفيل بأن يثبت وجود التكهن، ويستبعد افتراض الصدفة فيه. والتكهن صدق في مرات، وفي حالات كثيرة. وهذا يوجب التسليم بصحته[٥].

وقد ذكر فلوطرخس هذه النظرية باعتبارها إحدى نظريتين تفسران قضية التكهن، والثانية هي الأصل الشيطاني للكهانة.

إن الروح تملك عددا من القدرات تكون دائما ضعيفة واهنة حين تتصل هذه الروح بالجسد، ولذلك لا تظهر للعيان. ومن هذه القدرات التنبؤ، ففي باطن كل

---

(١) Histoire des Oracles, p 118 - 119.

(٢) Histoire des Oracles, p 120.

(٣) Histoire des Oracles, p 99.

(٤) تناولت هذه القضية بالدرس في كتابي عن: «الغيب والمستقبل»، في ضوء علم معاصر هو: الباراسيكولوجيا. أما هنا ففضلت الاقتصار على ذكر آراء الأقدمين.

(٥) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

إنسان هذه الموهبة، وسواء أكانت روحه داخل جسده أم خارجه. فالروح لا تكسب هذه القدرة باستقلالها عن البدن والخروج منه، فهي موجودة حتى ولو كانت الروح أسيرة للجسد، ولكنها ـ أي هذه القدرة ـ تكون خامدة وضعيفة.

الذاكرة قدرة أخرى للروح، وهي ـ إلى حد ما ـ نقيض المقدرة التنبؤية. فكما تستعيد الروح أشياء مضت، تتوصل أيضا إلى إدراك أمور قادمة إنها تنطلق نحو المستقبل، وهي تتحرر من الماضي الذي لا تحتفظ بعلاقة معه، غير الذكرى[١].

والكاهن إنسان عاقل يسترشد دوما بالجانب المفكر والواعي من روحه. أما قدرته التنبؤية فمستقلة تماما عن العقل والفكر، وهي مستعدة لتلقي انطباعات المخيلة والإحساس المبكر، ولذلك هي تسيطر على المستقبل بمقدار استقلالها عن الحاضر وانفكاكها منه. آنذاك يحدث نوع من الاضطراب الخاص، بسبب المزاج والاستعداد الذاتي أو بتهييء سابق للبدن. هذا الاضطراب هو الذي نسميه بـ: المس Enthousiasme[٢].

لكن هنا سؤال: مادام الإنسان يملك هذه القدرة على رؤية المستور وإدراك المستقبل فلم لا تظهر وتبرز إلا في معابد الكهانة خاصة، وقلما تعمل خارجها؟

يعود فلوطرخس إلى الإرث الشفهي والحكائي[٣] الذي يرجع بأصل ظهور معبد دلفي إلى الأبخرة المتصاعدة من حفرة هناك، حيث مازالت البيثيا تذهب إليها وتجلس عندها مدة كافية لتلقي الوحي. و«لا ينبغي التعجب من أن مثل أبخرة دلفي هي الوحيدة التي تهيء الأرواح للمس وكشف المستقبل»[٤].

فدور هذه الأبخرة ـ إذن ـ هو إيقاظ هذه الملكة الخامدة في أعماق النفس الإنسانية، ودفعها للظهور والعمل، فهي التي تحدث ذلك الاضطراب الخاص ـ أي المس ـ الذي يسمح باتصال النفس بالمستقبل[٥].

---

(١) Plutarque: Sur la disparition des Oracles, p 192.

(٢) Sur la disparition des Oracles, p 194.

(٣) بالتعبير الفرنسي Tradition، وهو يعني مجموع الروايات والنصوص والعادات المتوارثة جيلا عن جيل.

(٤) Sur la disparition des Oracles, p 196.

(٥) Sur la disparition des Oracles, p 194.

وهذه البخور هي - بالطبع - من خلق أبولو، فبها يوقظ موهبة التنبؤ في الروح، كما توقظ الشمس حاسة الرؤية وتفتحها. لا جرم اعتقد أكثر الناس - في الماضي - بأن أبولو والشمس إله واحد[1].

وحين تخطئ ملكة التكهن ؟

إن شيشرون - على خلاف فلوطرخس - لا يؤمن أصلا بوجود هذه الملكة، والقياس السابق لكراتيبوس فاسد، «لأن العيون حين ترى الأشياء رؤية صحيحة صادقة، تستخدم في ذلك حسا منحته الطبيعة. أما النفس فإنها إن استطاعت أن ترى المستقبل في حالة الوجد (الجنة أو المس)، أو خلال الرؤيا، فإنها تستند في ذلك إلى الحظ أو المصادفة. ويجب أن تسلم بهذا»[2].

ولذلك فالخطأ في الكهانة لا يعني شيئا بالنسبة إلى كونتوس: إذا استطاع المرء أن يتنبأ في بعض الحالات، فإننا حتى حين نراه يخطئ في تكهناته، يجب أن نسلم بأنه أوتي القدرة على التكهن بالغيب[3].

وبالنسبة لشيشرون فللخطأ معنى آخر: مادام أن ما يثبت بطلانه من هذه النبوءات أكثر مما يصدق.. فعلينا أن نرد ما صدق إلى الحظ فقط، لا إلى قانون من قوانين الطبيعة.. ولو صح دليل كراتيبوس السابق للزم تأييد جميع ضروب التكهن التي يمارسها العرافون والعيافون والكلدانيون ومؤولو البرق ونذر الزجر والأنصبة لأنك ستجد في كل هذه الأنواع مثالا يشهد بصدق نبوءة واحدة على أقل تقدير[4].

وهذا لا يفيد شيئا في المنطق الخاص لكونتوس الذي يقول: «.. ولكن معذرة، أي فن - وأقصد بالفن هذا الذي يعتمد على الحدس والاستنباط -، أقول أي فن ليس عرضة لهذا الخطأ نفسه ؟ إن مزاولة الطب فن لا محالة، ومع ذلك فكم من الأخطاء يتعرض لها أهل هذا الفن وهل لا تكون الملاحة فنا، لمجرد أن الكثيرين من الممتازين من قباطنة السفن وأرباب الملك قد تحطمت سفنهم وابتلعتهم المياه؟ وهل يفقد العلم العسكري قيمته، لأن قائدا طائر الصيت قد فقد جيشه..؟

---

(١) Sur la disparition des Oracles, p 198.

(٢) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٩٥.

(٣) علم الغيب .. ص ١٩٤ - ١٩٥.

(٤) علم الغيب.. ص ١٩٥ - ١٩٦.

كذلك الحال مع تنبؤات العرافين، بل مع سائر ضروب التكهن الذي لا تكون استنباطاته إلا على سبيل الاحتمال، لأن مثل هذا التنبؤ يعتمد على الاستدلال ولا يتجاوز نطاقه، وقد يؤدي إلى الضلال أحيانا، ولكنه مع ذلك يهدينا للحق في أكثر الحالات، لأن هذا التكهن الذي يقوم على الحدس وليد الأزل الذي يمتد في قدمه إلى غير نهاية، وقد أدركه النمو على مر الزمن حتى أضحى فنا يقوم على تكرر المشاهدات وتسجيل الحوادث التي لايكاد يحصيها العد، والتي كانت نفس الشواهد تسبق فيها نفس النتائج»[1].

إن أخطاء الكهانة لا تنفي القاعدة بقدر ما تثبتها، وهي تدل على قصور في كفاءة ممارسيها لا على فساد هذه الممارسات من أصلها: إن النذر وفحص الأحشاء.. وسائر «الشواهد في أغلب حالاتها لا تخدع الذين يلتزمون الدقة في ملاحظتها. فإذا تحقق كذب النبوءات التي تستند إلى استدلالات فاسدة وتأويلات باطلة، فإن الخطأ في هذا لا يعزى إلى الشواهد، ولكنه يرجع إلى نقص في مهارة المؤول»[2] ومن أمثلة ذلك أنه « قد يحدث أن يقبل الكاهن شاهدا مشكوكا في أمره، باعتباره شاهدا يقينيا، ومن الممكن كذلك أن تفوت الكاهن ملاحظة الشاهد، أو إهمال شاهد آخر يلغي الشاهد الذي كان قد لاحظه»[3].

ولذلك ففي حرب « البلوبنيز» الطويلة، حيث كان لمعابد الكهانة دور كبير وأحيانا حاسم، وكانت الخطط الحربية تتم باستشارة الآلهة.. كان الجمهور - بمجرد وقوع كارثة غير متوقعة - يلوم الكهنة، أو يحمل الذين كلفوا بالاستشارة مسؤولية ما حدث[4].

٤ - نظرية الأصل الشيطاني للكهانة:

وهذه مناسبة للتعرف على فلوطرخس وكتابه، خصوصا أنني اعتمدت عليه كثيرا في بيان هاتين النظريتين الثالثة والرابعة. ويعتبر فلوطرخس أحد أهم مصادر موضوع الكهانة القديمة، على الإطلاق.

---

(١) علم الغيب.. ص ٥٣ - ٥٤.

(٢) علم الغيب في العالم القديم، ص ١١٣.

(٣) علم الغيب .. ص ١١٨.

(٤) انظر: . Devins et Oracles grecs, p 92 à 95 حرب Péloponnèse دامت من سنة ٤٣١ إلى ٤٠٤ ق.م.

من هو فلوطرخس؟

كذا عرفه العرب، وهو كذلك في اليونانية (فَلُوَطْرخُسْ)، وفي الفرنسية يسمى: بلوتارك.

ولد هذا الكاتب اليوناني بين سنتي ٤٦ و ٤٩ بعد ميلاد المسيح عليه السلام، وتوفي باليونان سنة ١٢٥، بعد أن عمر حوالي ثمانين سنة. درس بأثينا البلاغة والرياضيات، ثم سافر إلى روما ومصر. وحين عاد إلى بلده عين بصفته كاهن معبد دلفي، وهي المهمة التي شغلها حوالي أربعين سنة، حتى نهاية عمره.

كان فلوطرخس كثير التصنيف، وأكثر مؤلفاته ضاعت. وما وصل إلينا جمع في كتابين أساسيين: حياة مشاهير الشخصيات، والأعمال الأخلاقية. يتضمن الأول رسائل متفرقة في حياة زعماء من الإغريق والرومان، مثل: الإسكندر، وقيصر، وشيشرون.. والثاني فيه مجموعة من الرسائل في الإلهيات والفلسفة والأخلاق والسياسة والتربية والتاريخ.. كان فلوطرخس في الفلسفة انتقائيا، وحاول أن يستعير منها ما يَدعم الفكر والدين الإغريقيين اللذين شهد انحطاطهما وتراجعهما[١].

يوصف فلوطرخس بالاعتدال والنزاهة الفكرية والتواضع العلمي. وفي عصر النهضة الأوربية استعاد قيمته بين مفكري النهضة بفضل ترجمة أميوت لكتبه إلى الفرنسية (سنة ١٥٥٩)، وأعجب به أناس مختلفو المشارب، مثل: ماكيافيلي، وإرازموس، ومونتيني، وروسو وحتى نابليون[٢].

---

(١) اعتمدت على الترجمة الواردة بموسوعة: Le petit Robert . (Plutarque)

(٢) Jacques Amyot إنساني فرنسي ـ أي من التيار الفكري المعروف بالإنسانوية Humanisme في بداية النهضة ـ معلم أولاد الملك هنري الثاني، وتولى لاحقا منصب الأسقفية. ترجم عددا من الكتب عن اليونانية. وهو مترجم أكثر منه مفكر.

Nicolas Machiavel سياسي ومفكر إيطالي، توفي بفلورنسا سنة ١٥٢٧. عمل مستشارا سياسيا وسفيرا لفلورنسا إلى عدد من الدول. ثم سجن ومنع ـ بعد تحريره ـ من دخول المدينة. أهم كتبه: الأمير. وله أيضا: تاريخ فلورنسا. فن الحرب. مسرحيات كوميدية.

Erasme إنساني هولندي توفي سنة ١٥٣٦م. درس علوم الديانة المسيحية واللغة اليونانية. وسافر كثيرا. كتب حول مشكلة القدر، ورد عليه لوثر. حاول إرازموس التوفيق بين القدماء وتعاليم الإنجيل. واشتهر بكتابه: في مدح الحمق، أو الجنون، وهو في نقد طبقات من المجتمع والفلاسفة وعلماء الدين.

Jean — Jacques Rousseau الفيلسوف والكاتب السويسري ـ من القسم الفرنسي من هذا البلد ـ ، =

ويظهر أن العرب لم يعتنوا بفلوطرخس، ولم يعرفوا أكثر كتبه. وفي «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان(١) أن قسطا بن لوقا(٢) ترجم إلى العربية كتابا له عن آراء الفلاسفة في الطبيعيات ومزاولة الفضيلة.

كتابه «حول اندثار معابد الكهانة»:

هذا الكتاب ـ مثل كثير من الكتب الفلسفية القديمة ـ عبارة عن محاورات بين أشخاص مختلفي الميول والاعتقادات حول موضوع اندثار المعابد.

وأهم شخصيات الحوار: كليومبروت، الفيلسوف الذي سافر إلى مصر وبحر إريتريا.. بحثا عن التعلم. وديمتريوس، الذي زار بلادا بعيدة هي جزائر بريطانيا. وأمونيوس، الذي كان أستاذا فعليا لفلوطرخس أيام دراسته بأثينا، ثم أصبح صديقا له. ولومبرياس، أخ فلوطرخس.

والمحاورون الأقل أهمية: ديديم الكلبي، وهيراكليون الشاب، والمؤرخ فيليب(٣).

وأغلب هؤلاء شخصيات تاريخية حقيقية، كما يقول فلاسليير. ويعبر فلوطرخس عن رأيه باسم لومبرياس، وعلى لسانه، وأحيانا باسم ديمتريوس(٤).

= درس فلوطرخس جيدا. وهو مفكر كبير صاحب نظريات ومؤلفات في التاريخ والاجتماع والفلسفة والتربية والأدب. توفي سنة ١٧٧٨.

أما نابوليون فهو بونابارت القائد العسكري ثم الإمبراطور الفرنسي الذي أشعل الحرب في كامل أوربا في بداية القرن ١٩.

(١) تاريخ الأدب العربي، ٤/ ١٠١ (طبعة دار الكتاب الإسلامي). كارل بروكلمان مستشرق ألماني معاصر، له هذا التاريخ، وكتاب آخر: «تاريخ الشعوب الإسلامية».

(٢) قسطا بن لوقا البعلبكي النصراني. جال في آسيا الصغرى دارسا، ثم استقر به المقام ببغداد حيث عمل في التأليف والترجمة ـ في الطب والفلسفة والفلك ـ لدى بعض الخلفاء والوزراء والشخصيات العامة. وفي شيخوخته انتقل إلى أرمينيا، ربما بدعوة من أميرها، ومات بها سنة ٣٠٠هـ. عن تاريخ بروكلمان المذكور، ٤/ ٩٧.

(٣) بحر إريتريا عند القدماء يشمل البحر الأحمر، والخليج الفارسي، وبحر عمان كما نبه عليه فلاسليير: p222, note 7. الأسماء باللاتيني:

Cléombrote. Démétrios. Ammonios. Didyme le cynique. Héracléon. Philippe.

(٤) Introduction de Flacelière, Sur la disparition des Oracles, p 26, 48.

ولفلوطرخس كتاب آخر عن « معابد كهانة البيثيا »، لكن الكتاب الأول عن اندثار المعابد هو أهم مؤلفاته في هذا المجال[(١)].

ويعتقد فلاسليير - المتخصص في دراسة فلوطرخس - أن كتاب «اندثار المعابد» هو مرحلة في بحث الكاتب اليوناني وتفكيره حول الكهانة، وما يتصل بها من قضايا دينية. وكان قد شغله هذا الموضوع واستأثر بقسط وافر من تفكيره وكتاباته. ولذلك يرجح فلاسليير أن يكون فلوطرخس قد وضع هذا الكتاب في بداية ممارسته للكهانة في معبد دلفي، باعتباره الكاهن الأكبر لأبولو، وقبل أن يكتب « معابد كهانة البيثيا » بأكثر من عشرين سنة[(٢)].

وكان كثير من الناس - مثل الأبيقوريين - يرون في ضعف معابد التنبؤ دليلا على تراجع إيمان العامة ووعيهم بزيف تكهنات المعابد. ومن هذه الناحية، فإن هذين الكتابين مدح للكهانة عامة، ولكهانة معبد دلفي خاصة[(٣)].

يقول فلاسليير - عن قيمة هذا الكتاب - : « أعتقد .. أن فلوطرخس - وقد كان واسع الاطلاع كثير القراءة - يقدم لنا في هذا الكتاب خلاصة مركزة لكل ما كتبه الفلاسفة اليونان - باستثناء الذين لا يعتقدون في الكهانة - حول هذا الموضوع الذي كان العالم القديم يعتبره من الأهمية بمكان»[(٤)].

والجدير بالذكر أن فلوطرخس - كما يقول فلاسليير - ظل طول عمره يتأرجح بين الوثنية والاعتقاد في تعدد الآلهة، وبين الإيمان برب واحد. ومن جهة أخرى لا يوجد دليل من كتب فلوطرخس يشير إلى أنه كان يعرف المسيحية. ولذلك يعتقد أكثر الدارسين أنه لم يكن على علم بالدين الجديد، سيما أن المسيحية في تلك الفترة -

---

(١) راجع المقدمة الطويلة لفلاسليير لكتاب «اندثار المعابد»، وهي في الواقع دراسة واسعة في حجم الكتاب المدروس نفسه:

Introduction de Flacelière de : "Sur la disparition des Oracles" , de Plutarque, p 38..

والكتاب الآخر هو "Sur les Oracles de la Pythie"

(٢) راجع: Introduction de Flacelière de : "Sur la disparition des Oracles", de Plutarque, p 13 - 14 , 17 , 50 , 114 , 115

(٣) Introduction de Flacelière, p 38. Devins et Oracles grecs, p 115.

(٤) Flacelière : Introduction, p 50.

سنوات ٤٥ إلى ١٢٥ - كانت ضعيفة وغير معروفة[١].

ولعله قد اتضح الآن أن شهادة فلوطرخس هامة في موضوعنا هذا، فهو إلى جانب اضطلاعه بمهمة كهانة دلفي، كان فيلسوفا ومفكرا أيضاً.

النظرية:

اختار فلوطرخس أن يبسط نظرية ملكة التنبؤ على لسان لومبرياس. وبعدها عاد فنقضها واعترض عليها باسم أمونيوس الذي يقول:

لا أدري كيف نزعنا - منذ برهة قصيرة - قضية الكهانة عن اختصاص الآلهة، فأرجعناها إلى بعض الأرواح أو الشياطين.. والآن ها نحن ننزعها عن هؤلاء أيضا لنضيفها إلى الإنسان مباشرة.. ولا يبقى للآلهة من تدخل في الكهانة إلا بتوفير الأبخرة والروائح.. هذا كله يبعد الآلهة كثيرا عن تفكيرنا وحياتنا.

إننا نتقدم بالأضحيات والصلوات لأجل الحصول على أجوبة المعابد. ولذلك نحرص على طقوس خاصة ونراعي تفاصيل معينة في تقديم الضحية وذبحها، وندرس حركاتها.. لنعرف هل يمكننا الحصول على جواب أم لا. ترى لم نفعل هذا كله لو كان بداخل الناس - فعلا - هذه الموهبة التنبؤية؟

إن القرابين والطقوس المصاحبة لها لا تعقل أبدا، إلا إذا اعترفنا بأننا نتوجه بها إلى إله ما، أو إلى شيطان أو روح génie، يكون هو من يتلقى الأضحية ويتقبلها، وهو من يسمع الاستشارة، ويجيب عنها[٢].

ويتابع أمونيوس قائلا: إنني حين أتأمل كل الخير الذي استفاده الإغريق من هذه المعابد، في حروبهم وتأسيس مدنهم، في الأوبئة التي كانت تضربهم وفترات الجفاف التي كانت تعقم أراضيهم.. حين أتأمل هذا كله يظهر لي أنه لا يليق أن ننزع عن المعابد أصلها السماوي ورعاية الآلهة لها.. لنفسرها بالصدفة ونحوها[٣].

وقد اعترف لومبرياس بأن اعتراضات أمونيوس بلبلت أفكاره جيدا، وحاول جاهدا التخلص منها، فهو إذا فسر الكهانة بملكة ذاتية لا يلغي الطابع الروحي

---

(١) Flacelière : Introduction à "Sur la disparition des Oracles", p 72, 83, note 1.

(٢) انظر : Sur la disparition des Oracles, p 204

(٣) Plutarque : Sur la disparition des Oracles , p 206.

والديني لها ـ أي للكهانة ـ . إن الأرض التي منها تنبعث هذه الأبخرة المقدسة، والشمس التي ترعاها وتهيؤها للكهان.. كلاهما كوكبان إلهيان، فهما «آلهة» أو « شبه آلهة» Divinités، بحسب اعتقاد أجدادنا. وكذلك فللشياطين دور في الكهانة، فهي تحرس مكان انبعاث الأبخرة، وتضبط نسبها ونسب خروجها، وتكيفها للكاهن أو للكاهنة[١].

فالخلاف ـ كما يلاحظ فلاسليير ـ يتعلق بطريق هذا الإلهام، أما أصله السماوي والميتافيزيقي فهو محل اتفاق[٢].

على أن فلوطرخس عاد في كتابه الآخر ـ « معابد كهانة البيثيا » ـ ، والذي ألفه بعد كتابه هذا بمدة طويلة إلى رأي أمونيوس بأن أصل الكهانة فعل إلهي أو شيطاني[٣].

وقد اختار فلوطرخس أن يبسط نظرية المصدر الشيطاني هذه باسم كليومبروت الذي انطلق من ملاحظة للومبرياس مفادها أن علينا أن نبحث عن تعليل الكهانة في المادة والطبيعة وأفعال الإنسان، لأن الآلهة لا تنزل إلى مستوى البشر الهابط حتى تشتغل بشؤونهم الصغيرة.

ولذلك قدم كليومبروت بديلا وسطا للرأي الذي لا يعترف للآلهة بعمل ـ وهو رأي الأبيقوريين ـ وللرأي الذي ينسب إليها كل شيء، مثل أمونيوس فقدم فكرة الشياطين، وهي مخلوقات وسيطة بين الآلهة والبشر، ترعى المعابد، وحين تموت أو تهاجر تنتهي هذه المعابد بدورها وتموت[٤].

ماهي الشياطين:

لقد قسم هيزيودس العقلاء إلى أربعة أنواع:

---

(١) Sur la disparition des Oracles, p 210.

(٢) Flacelière : Introduction, Sur la disparition .., p 52.

(٣) Flacelière : Introduction, p 52. يعتقد فلاسليير أن كتاب «اندثار المعابد» ـ رغم كونه أهم ما كتب المؤلف في هذا المجال ـ هو مرحلة في بحث فلوطرخس وتفكيره حول مشكلة الكهانة، وليس بالكتاب الذي يتضمن رأيه النهائي في قضايا مثل أصل التكهن(Introduction p 50) . وقد رجع في كتبه الأخرى إلى رأي كليومبروت الذي بسطه في «اندثار المعابد»، والذي تجد ملخصا له بالصلب أعلاه. راجع في تحليل نظرية فلوطرخس حول الأرواح الطيبة والشريرة، وحول مصدرها من الأديان والفلسفات: دراسة فلاسليير، ص ٥٣ إلى ٦٢.

(٤) Flacelière : Introduction, p 40.

١ ـ الآلهة .

٢ ـ الشياطين، أو الأرواح .génies

٣ ـ الأبطال، Héros وهي أنصاف آلهة.

٤ ـ البشر[١] .

ولذلك ـ يقول كليومبروت ـ فإن الشياطين هي عرق ـ أوجنس ـ وسيط يربط بين السماء والناس. وهذه الشياطين تعيش طويلا ، ولكنها في النهاية تموت[٢]. ومسكنها هو ـ عند فلوطرخس وغيره ـ هذا الفضاء بين الأرض والقمر[٣] .

دورها في الكهانة:

إن الشياطين هي بمثابة خدم ومعاونين للآلهة. وهي تجري في العالم، وتراقب ما يحدث فيه، فبعضها يفحص القرابين المقدمة إلى الآلهة، ويشارك في الاحتفالات الباطنية للمسارة، وآخرون يعاقبون جرائم الإنسان وكبرياءه.. والشياطين نوعان[٤] .

ويواصل كليومبروت تفصيل النظرية، فيقول: إن كثيرا من الطقوس في الاحتفالات التي تقام في معابد النبوءة هي في الحقيقة موجَّهة إلى الشياطين الشريرة، لتهدئتها وترضيتها. بل إن التضحية ـ قديما ـ بالبشر كانت غايتها إرضاء الشياطين وليس الآلهة. فقد كانت الشياطين شريرة وعنيفة، ترسل الأوبئة على المدن[٥]، وتعقم

---

(١) Sur la disparition des Oracles, p 128.. أما Hésiode فشاعر يوناني كبير، عاش بين القرنين السابع والثامن، قبل الميلاد. استفاد من أشعار هوميروس، ولكنه كان أكثر واقعية منه. «الديوان» الذي وصل إلينا من أعماله هو : الأعمال والأيام. وآخر عن : أصول الآلهة.

(٢) Plutarque : Sur la disparition des Oracles, p 128,130.

(٣) Sur la disparition des Oracles, p 232, note 86.

(٤) Sur la disparition des Oracles, p 136.

(٥) في حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ: الطاعون وخز أعدائكم من الجن، وهو لكم شهادة. رواه الحاكم في المستدرك، ورمز السيوطي لصحته. انظر «الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير»، لعبد الرحمن السيوطي، ٢/ ١٤١. وقال العلامة عبد الرؤوف المناوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير»، ٤/ ٢٨٨ : «الوخز، وهو طعن غير نافذ، ووصف طعن الجن بأنه وخز، لأنه يقع من الباطن إلى الظاهر فيؤثر في الباطن أولا ، ثم يؤثر في الظاهر، وقد لا ينفذ». وهذا الحديث هو أيضا جزء خبر رواه الطبراني في المعجم الأوسط، وأبو نعيم في فوائد أبي بكر بن خلاد عن عائشة. وحسنه السيوطي في الجامع الصغير، ٢/ ١٤١.

التربة، وتشعل الحرب.. حتى يحصلوا على الإنسان الذي يريدونه أضحية وقربانا لهم[١].

إن كهانة دلفي إذن هي من عمل الشياطين. بل إن فلوطرخس نفسه أشار إلى احتمال أن يكون أبولو في الأصل شيطانا، لكنه بسبب فضيلته ونبله ترقى إلى مصاف الآلهة[٢] ولذلك يلاحظ أن بعض الشياطين لها أسماء الآلهة[٣].

كيف يوحي الشياطين بالشيء إلى الكهان؟

إن الشياطين قادرة على إدراك المستقبل وكشفه للناس[٤].

وليس من المستغرب أن هذه الشياطين - حين تتصل أرواحها بأرواح الكهنة - تكون قادرة على إحداث صور المستقبل في نفوس الكهان. كما نكشف نحن كثيرا من أحداث الماضي والمستقبل لبشر غيرنا، بالكتابة أو الإشارة[٥].

كثرة القائلين بهذه النظرية:

وهؤلاء كثر يوجد على رأسهم الرواقيون[٦].

وقد ذهب أفلاطون بدوره إلى وجود الشياطين، وأنها جنس من خدم الآلهة ومترجمة عنها، ومنها الشريرة[٧].

وممن قال بهذا المذهب أيضا: إكزينوكراتيس، وديموقريطس، وكروسيبوس، وأومبدوكلس[٨].

---

(١) Sur la disparition des Oracles, p 138.

(٢) Sur la disparition des Oracles, p 152, et p 241, note 154.

(٣) Sur la disparition des Oracles, p 154. : Plutarque

(٤) Sur la disparition des Oracles, p 190.

(٥) Sur la disparition des Oracles, p 188 - 190 .

(٦) Sur la disparition des Oracles, p 142,148.

(٧) Sur la disparition des Oracles, p 135.

(٨) Sur la disparition des Oracles, p 144.. الفيلسوف اليوناني Xénocrate هو تلميذ وصديق لأفلاطون، حاول التوفيق بين نظرية المثل الأفلاطونية والفيثاغورية. توفي سنة ٣١٤ ق.م. أما Chrysippe فقد سبقت ترجمته، وهو كروسيبوس أو كريسبوس. و Empédocle فيلسوف يوناني قديم، توفي سنة ٤٣٥ ق.م، وفلسفته انتقائية. وهو شاعر أيضا.

أما بورفوريوس فيؤمن بوجود شياطين شريرين، يكذبون ويدلسون على الناس ويضحكون عليهم، ويحبون القرابين التي تقدم إليهم. كما يؤمن أيضا بمسألة صرع الشياطين للإنس[١].

على أنه، في حال الضرورة، يمكن استشارة الشياطين الطيبة التي تستطيع أن تهدي الإنسان وتعلمه بالأحداث القادمة وبالاحتياطات اللازمة، عن طريق المنامات، أو العلامات، أو الأصوات[٢].

المبحث الثاني: لماذا اندثرت معابد الكهانة؟

في إثبات هذه الظاهرة:

وهذا السؤال قديم، طرحه شيشرون في القرن الأول قبل الميلاد، فقال: « السؤال الجوهري هو هذا: لماذا لا تقال في الوقت الحاضر نبوءات دلفي ولا يتلقاها أحد منذ زمان مديد. ولماذا ينظر الناس إليها الآن باحتقار بالغ؟»[٣].

ويظهر أن هذا الضعف لم يصب المعابد فقط، بل كثيرا من أساليب التكهن. فقد سجل شيشرون قلة استعمال طريقة فحص أحشاء القرابين في عهده، قال: « ولانزال في أيامنا الراهنة نستخدم في المناسبات الهامة النظر في فحص الأحشاء في التنبؤ بالغيب، وإن كانت اليوم أقل مما كانت في الماضي شيوعا»[٤] كما سجل أيضا تراجع استخدام العيافة، خصوصا في شؤون الحرب[٥]، وكذا التكهن بالأنصبة[٦]. وهذا التراجع استمر بعد شيشرون.

لقد لاحظ فلوطرخس بدوره ظاهرة صمت المعابد، وتأسف عليها وعلى ماضيها الكبير. وهي - رغم استمرار قيام بعضها - قد غدت مجرد أماكن للتعبد والزيارة،

---

(١) عن مقدمة المترجمين لكتابه: عن الزهد في الملذات Porphyre : De l'Abstinence, 2/ p39 à 45, Introduction.

(٢) Porphyre : De l'Abstinence, Tome 2, livre 2, p 116.

(٣) علم الغيب في العالم القديم، ص ٢٠١.

(٤) علم الغيب .. ص ٥٥ - ٥٦.

(٥) علم الغيب .. ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٦) علم الغيب .. ص ١٨٢.

وفقدت وظيفتها في الكهانة ووصل الأرض بالسماء. ولذلك يقول فلوطرخس: إن معابدنا ـ معشر الإغريق ـ فقدت عظمتها، واندثرت كلها، باستثناء معبد واحد أو اثنين. في كل مكان من المعابد القائمة يسود الصمت والخراب الموحش. هذا رغم أنه في زمن الحروب الفارسية ـ اليونانية، كان كثير من هذه المعابد يتمتع بصيت كبير في مجال النبوءة، وكانت أجوبتها ونبوءاتها تصيب[١].

يلاحظ فلوطرخس هذا كله بحرقة وألم ـ وهو الكاهن اليوناني المخلص ـ، ويتساءل على لسان ديمتريوس عن السبب في هذا التحول الطارئ[٢]. وهو موضوع كتابه كما تقدم.

ومن هذه المعابد التي ذكر فلوطرخس أنها صمتت وفقدت قيمتها: معبد آمون الكبير، الذي لم يعد أحد يهتم به ـ في زمن الشاهد ـ، ومعبد ترزياس بإقليم البيوتيا[٣].

وبين يدي كتاب «نبوءات معبد دلفي» اختار فيه صاحبه مجموعة من أجوبة المعبد، خصوصا الهامة أو المشهورة، ورتبها وفق الزمن. وقد شغلت هذه الأجوبة منذ العصور الأولى المعروفة إلى حوالي سنة ٣٠ قبل الميلاد حوالي ستة وثمانين صفحة. ومنذ هذه السنة إلى نهاية المعبد سبع صفحات فقط[٤].

وفي تعليلها:

ولنبدأ أولا بما وصل إليه اجتهاد فلوطرخس، قبل أن ننتقل إلى غيره. وسيلاحظ القارئ أن التعليل يختلف باختلاف النظرية المعتمدة في كشف حقيقة معابد الكهانة:

فلوطرخس:

اتفق المتحاورون على أن أصل المعابد وبدايتها من عمل السماء، ثم اختلفوا في تفسير انحطاطها: هل هو من عمل الآلهة، أم هو مسؤولية بشرية[٥] فذهب ديديم

---

(١) Sur la disparition des Oracles, p 117.

(٢) Sur la disparition des Oracles, p 118.

(٣) Sur la disparition des Oracles, p 115,200. (Oracle de Tirésias à Orchomène المعبد هو de Boétie:)

(٤) راجع: J.P. Savignac : Les Oracles de Delphes.

(٥) Flacelière : Introduction, Sur la disparition p 38 - 39 .

وأمونيوس إلى التعليل الأول، في حين اختار لومبرياس وكليومبروت الاحتمال الثاني.

١ ـ أول تعليل ذكره فلوطرخس كان على لسان ديديم الكلبي، فعنده أن فساد الناس وفعلهم للشر هو الذي جعل السماء تنسحب من حياتهم، وكان مما أخذته معها هبة التنبؤ، فلم تعد الآلهة تجيب على أسئلة الناس(١). ولم يرض سائر المتحاورين هذا التفسير، لأنه لا ينسجم مع خيرية الآلهة وطيبتها، ولأن الأشرار كانوا دائما هم الأكثرية، حتى أثناء العصر الذهبي لمعابد الكهانة(٢).

٢ ـ ثم أضاف أمونيوس بأن هذا التعليل لا يستقيم مادام أن بعض المعابد مستمر في العمل، ولا يمكن أن تغلق الآلهة بعضها دون بعض، لأن الأشرار في كل مكان. على أن منطلق ديديم صحيح، فإننا لو أرجعنا اندثار المعابد إلى سبب غير الإرادة الإلهية، يمكن لإنسان ما أن يعود بأصل هذه المعابد وأصل ظهورها إلى سبب آخر غير إلهي. إذن، إذا كانت معابد النبوءة من عمل إله ما، فلن توجد قوة قادرة على القضاء عليها(٣).

إن التفسير الذي أراه ـ يقول أمونيوس ـ هو قلة السكان في اليونان، فهذا البلد عرف تناقصا حادا في الكثافة البشرية، فلم تكن السماء لتترك هذا العدد الكبير من المعابد لسكان قلائل، فقلصت من عددها. ولذلك فبينما الآن ـ أي في زمن فلوطرخس ـ تكفي كاهنة واحدة للمعبد، كان في الماضي ثلاث كاهنات بدلفي يتناوبن على العمل(٤).

٣ ـ أما لومبرياس فيقول: إن البخار الأرضي هو فعلا هبة سماوية، لكنه لا يمكن أن يقاوم ـ إلى ما لا نهاية ـ الزمن وعوامل التعرية والفساد، وتغير سطح الأرض، والمطر والرعود.. ونحو ذلك من الظواهر الطبيعية. فليست قوة هذه الأبخرة خالدة. ولذلك حين ضعفت هذه الأبخرة المقدسة واندثرت ترتب على ذلك انتهاء كهانة المعابد(٥)

---

(١) Plutarque : Sur la disparition des Oracles, p 120.

(٢) Sur la disparition des Oracles, p 122.

(٣) Sur la disparition des Oracles, p 122 - 124 .

(٤) Sur la disparition des Oracles, p 124.

(٥) Sur la disparition des Oracles , p 200 , 216.

ويستشهد فلوطرخس على هذا بأن الأنهار والبحيرات والمناجم.. قد تنتهي أو تضمحل مع طول الزمن. ثم أشار أيضا إلى الزلزال الكبير الذي دمَّر دلفي[١]. وقد رجح فلاسليير أن يكون الزلزال المقصود هو الذي حدث سنة ٣٧٣ ق.م، والذي أتى ـ من جملة ما أتى عليه ـ على معبد أبولو[٢].

وشيشرون لا يقبل هذا الدفاع، بأن « مرور الزمان الطويل قد لاشى بالتدريج ميزة المكان الذي صدر عنه هذا البخار الأرضي الذي ألهم الكاهنة»، ويقول: أنتم تتحدثون عن قوة إلهية، فكيف تذبل؟[٣].

٤ ـ أما لو قلنا بنظرية الأصل الشيطاني فإن التفسير يختلف: إن الشياطين قادرة على إدراك المستقبل وإخبار الناس به. ولكنها ليست خالدة، فهي تموت، وأحيانا تهاجر إلى مكان آخر. ينبني على هذا أنه إذا ماتت الشياطين المكلفة بالكهانة في المعابد، أو هاجرت، فإن هذه المعابد بدورها تصمت وتندثر. فإذا عادت الشياطين إليها استأنفت كهانتها[٤].

وفلوطرخس ـ كما يبدو ـ يشعر بأن شيئا ما قد حدث لهذه الشياطين، شيء مثل الموت العام. وسبب هذا الشعور قصة موت بان الأكبر Pan، إضافة إلى قرائن أخرى مشابهة.

وفي الحقيقة ليس لي رأي في هذه القصة الغريبة، لا بالسلب ولا بالإيجاب، ولكنني وجدت أنه لا يليق ببحث في موضوع الكهانة كهذا، يعتمد كثيرا على كتاب فلوطرخس أن يهمل أشهر صفحة فيه وأدعاها للعجب والسؤال[٥]:

موت بان الأكبر:

يروي فلوطرخس مباشرة عن إيميليان الذي يحكي هذه القصة عن أبيه إبتيرسيس، قال:

---

(١) Sur la disparition des Oracles , p 200 . : Plutarque

(٢) (Flacelière : note 263, p 254 (Sur la disparition

(٣) علم الغيب في العالم القديم، ص ٢٠١.

(٤) Sur la disparition des Oracles, p 142.

(٥) راجع: Flacelière : Introduction, Sur la disparition des Oracles, p 37,79

كنت في سفينة تبحر بنا من اليونان إلى إيطاليا، بها كثير من التجار والمسافرين. وفي المساء هبت ريح قوية جرّت السفينة إلى شواطئ جزيرة باكسوس. كان المسافرون قد انتهوا من العشاء، فجلسوا على ظهر السفينة يشربون شيئا، حين انطلق فجأة صوت من الجزيرة ينادي: تاموس! وقد كان معنا فعلا رجل يقال له تاموس، وهو قائد السفينة، ومن أصل مصري، ولكن قلة فقط من المسافرين كانت تعرف اسمه هذا. وفي النداء الثالث، أجاب تاموس. وهنا جاء الصوت أقوى، وقال: حين تمر بمنطقة بالوديس، أعلن بصوتك أن بان الأكبر قد مات.

دهش لذلك جميع الحاضرين وتملكهم الرعب وتشاوروا فيما ينبغي عمله. وأخيرا قرر تاموس أنه لن ينفذ هذا الأمر العجيب، إلا إذا هدأ البحر وتوقفت الرياح. وفعلا تحقق ذلك عند اقترابنا من شواطئ بالوديس. فوقف تاموس وصاح: قد مات بان الأكبر. وبمجرد ما أعلن ذلك انطلقت من الأرض صيحات المفاجأة وصراخ هائل وعويل شديد، ومن «أشخاص» كثيرين.

سمع الإمبراطور تيبريوس بهذه الحادثة، فاهتم بها، واستدعى تاموس، وطلب من علماء اللغة وكانوا كثيرين في حاشيته - أن يفسروا له هذا اللغز، فاعتبروا أن المعني ببان هو ابن هرمس وبنيلوب[1].

هذه هي القصة التي لم يفسرها أحد - إلى الآن - تفسيرا مقبولا، كما يقول فلاسلير. فإذا كان بعض الباحثين اعتبروها مجرد حكاية من نسج الخيال، فإن الأكثر صدقوها بناء على شواهد مختلفة، ثم تفرقوا في تفسيرها على آراء متباعدة جدا أحيانا. مثلا، بينما يرى بعضهم أن القصة إشارة إلى ظهور المسيح وقضائه على الشياطين وعلى كبيرهم «بان»، يرى آخرون أن المقصود ببان هو المسيح نفسه الذي

---

(١) انظر: Sur la disparition des Oracles, p 144 - 146 والجزر هي: . Paxos, Palodès والأسماء: . . Epithersès , Emilien , Pénélope. Hermès, Thamous, Le grand Pan وعلماء اللغة طمأنوا الإمبراطور، لأن الأله بان كان ابنا من بنيلوب التي تموت، فهي غير خالدة، ولذلك ليس بان إلاها كبيرا، فهو بطل فقط Héros، يمكن أن يموت دون أن يختل نظام العالم. من تعليق فلاسلير، ص ٢٣٧، هامش ١٢٨. وإيميليان شخصية تاريخية، وكان أبوه أستاذا لفلوطرخس. انظر: Flacelière : p 36, note 1, p 237, note 123.

وفي الأسطورة اليونانية يعتبر بان إله الرعاة والأنعام، وهم يشبهونه بشيطان له لحية وقرون، وساقان كثيفا الشعر، وأذنا تيس. عن موسوعة Alpha.

غاب ـ بالصلب عند المسيحيين، وبرفعه إلى السماء عندنا نحن المسلمين ـ في فترة حكم الإمبراطور تيبريوس والآراء ـ غير هذين ـ كثيرة[1]. والأكثر رأوا في قصة بان وموته إعلان انتهاء عصر الوثنية وبدء عصر جديد.

شيشرون:

وقد رد اندثار المعابد إلى نمو نزعة الشك العامة بين الناس، وبين النخبة خاصة.. وهي النزعة التي رعاها كثير من الفلاسفة وغذوها.. ما أدى إلى إضعاف الاعتقاد في مقدرة هذه المعابد على التنبؤ بالمستقبل وكشف المغيب.

فان دال وفونتونيل :

وهذان ذكرا مجموعة أسباب في تعليل توقف المعابد عن التنبؤ:

١ ـ من بينها سبب استنتجاه من نص لفلوطرخس الذي لاحظ أن أول أمارات انحطاط المعابد هو تحول أجوبتها من أسلوب الشعر إلى صيغة النثر، ورد ذلك إلى أن المعابد ـ في الماضي ـ كانت تسأل عن شؤون كبيرة تهم المدن والحرب والسلم، بينما الآن ـ أي في عهده ـ يسألها الأفراد في الأكثر، وعن شؤون عادية وشخصية[2].

وقد رأى فونتونيل في ذلك أن الرومان حين سيطروا على بلاد الإغريق وحكموها انتشر السلم والأمن، وتراجعت صراعات المدن والأقاليم اليونانية وحروبها الأهلية التي لم تكن تنتهي، والتي كانت تقدم مادة جيدة وخصبة للمعابد واستشاراتها. لقد استطاع الأسياد الجدد تهدئة الكل، ولم يعد لليونان أي أمل في الخروج من قبضة الرومان المحكمة، فعادوا إلى الحياة اليومية وإلى انشغالاتها البسيطة[3].

٢ ـ لكن فونتونيل عاد فقال: لكن «هنا صعوبة لا أخفيها. إذ منذ زمن بوروس أصبح أبولو يجيب نثرا فقط، أي أن معابد النبوءة أخذت تضعف وتذبل. ومن جانب

---

(١) راجع التفاصيل في: Flacelière : Introduction, p 37, p 79 à 87. وانظر أيضا: Devins et Oracles grecs, p 115 ـ ١١٦. ففيها تجد أهم ما قيل في تفسير هذه القصة. ومن أسباب أهمية هذه الحكاية أنها وقعت في حياة عيسى عليه السلام، أو لنقل في حياة الإمبراطور Tibère ـ حكم بين ١٤ و ٣٧م ـ الذي عاصر المسيح، وفي عهده رفع إلى السماء، حوالي ٣٣م.

(٢) Histoire des Oracles , p 185. وقارن بـ: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ٧٨ ـ ٧٩.

(٣) Histoire des Oracles, p 185 - 186 .

آخر فإن الرومان لم يصبحوا حكاما لليونان إلا بعد زمان بعد بوروس، ومن عهده هذا إلى الهيمنة الرومانية يوجد زمان ممتد عرف فيه بلد اليونان حروبا واضطرابات غير مسبوقة، وكثيرا من الأحداث الهامة، وهذا يفترض الذهاب إلى دلفي»[١] يعني: واستشارته بشأنها.

فما هو الجواب إذن، يقول فونتونيل: هنا تعليل آخر، فلقد تكونت في اليونان مدارس فلسفية كبيرة كانت تعادي الكهانة وتهزأ بمعابدها: الكلبيون، والأرسطيون، والأبيقوريون.. وكان أتباع أبيقور - بالخصوص - يتهجمون على هذه المعابد، ولاحظوا أن شعر أبولو - في الجودة - دون شعر هوميروس بمراحل، برغم أن الأول هو الذي ألهم الثاني. وقالوا: إن أبولو - إله الشعر - لا يحترم قواعد هذا الفن[٢].

فهؤلاء الفلاسفة كان لهم دور في توعية طبقات من الناس بخطأ هذه المعابد وفسادها[٣].

٣ - وسبب آخر، وهو أن الرومان لم يكونوا يقدرون معابد التكهن اليونانية، وهم لم يحتقروها، ولكنهم تحولوا نحو أساليب أخرى في التنبؤ بسطها شيشرون في كتابه، مثل العيافة والنذر الزاجرة.. وقد كان مسموحا للخواص بارتياد معابد الكهانة إذا شاؤوا، حيث كان بإيطاليا بعض المعابد الخاصة، أما الدولة الرومانية فلا. لقد كان الاعتماد - هنا - على أشعار الكاهنات Sibylles ، وفحص الأحشاء[٤].

٤ - ثم إن الغش والتدليس الذي مارسه الكهنة انتهى بانكشافه للناس[٥].

٥ - ومن الأسباب أيضا جرائم الكهان وانحطاط أخلاقهم[٦].

---

(١) Pyrrhus. Histoire des Oracles, p 190. ملك إقليم يوناني توفي سنة ٢٧٢ ق.م، سيطر على مقدونيا، وكانت له حروب في إيطاليا والشرق، كما واجه الرومان الذين لم يحكموا سيطرتهم على كامل بلاد اليونان إلا بعد حوالي قرنين من وفاة بوروس.

(٢) Histoire des Oracles , p 191 à 193.

(٣) Histoire des Oracles , p 193.

(٤) راجع: Histoire des Oracles , p 186 à 190

(٥) Histoire des Oracles , p 193 .

(٦) Histoire des Oracles , p 196.

٦ ـ وأخيرا فإن المسيحيين بدورهم ساهموا في تدهور معابد الكهانة، لهجومهم المتكرر عليها وتسفيههم وتخطئتهم للمعتقدين فيها[١].

المبحث الثالث: رأيي في الموضوع

وعندي كلام في بعض أهم الإشكالات التي يثيرها موضوع الكهانة في العالم اليوناني القديم، وهو بلا شك نموذج لما يمكن أن تكون عليه الكهانة وفنونها في سائر العالم المعروف آنذاك. وقد تختلف أوضاع التكهن وأساليبه وأهميته من شعب إلى شعب، وبين حضارة وأخرى، ولكن «الأصول العامة» للكهانة ـ إذا صح التعبير ـ واحدة ومتشابهة في أغلب الحضارات القديمة، خصوصا تلك التي اتصل بعضها ببعض، كحضارات اليونان والرومان وجنوب أوربا، وشمال إفريقيا ـ بما في ذلك مصر ـ والشرق ـ وبالأخص بلاد الرافدين ـ إلى حدود الهند، والأناضول، وجنوب غرب آسيا..

وقد اخترت أن أبسط هذا الرأي في الفقرات الآتية:

الخلاف موضوعي:

هناك سبب موضوعي للاختلاف الواقع حول تعليل ظاهرة اندثار المعابد. وذلك لأن معابد الكهانة توقفت فعلا عن إلقاء النبوءات في الفترة قبل ظهور المسيح عليه السلام.. وانعدام هذه التكهنات في بعض المعابد، وقلتها في معابد أخرى، هو حقيقة لغز تضاربت الآراء في فهمه وتفسيره.

وقد سجل كثير من الكتاب ـ حتى الوثنيون منهم ـ هذا التراجع الكبير في معابد التكهن. منهم بورفوريوس الذي فسره بطول الزمن، ما أدى إلى اضمحلال الأبخرة المقدسة الضرورية للكهانة[٢].

وقد حاول كل من فان دال وفونتونيل التشكيك في ملاحظات بورفوريوس. وهما في هذه المسألة يتناقضان، لأنهما في مواضع أخرى يعترفان بهذا التراجع العام في معابد التكهن، ويجتهدان في البحث عن أسبابه.

---

(١) Histoire des Oracles , p 180.

(٢) راجع ما نقله ميكرون عن بالتوس في جوابه على فونتونيل: Histoire des Oracles, note de Maigron, p 44.

ثم إن هذا التراجع واقع تاريخي نصَّ عليه آخرون مثل شيشرون وفلوطرخس..
ذ حوالي ألفي سنة . وهذا كله تقدم فيما سلف من هذا المبحث. إذن فهذا التشكيك
يصح.

على أنه من الصعوبة بمكان أن نحدد بدقة متى حدث اندثار هذه المعابد، ولذلك
كتفي بعض الباحثين بالقول إن ذلك كان ـ على وجه الإجمال ـ في المرحلة الرومانية
ن تاريخ بلاد اليونان[١] .

يتعلق الأمر بضعف معابد الكهانة لا باندثارها:

وغالب الظن أن فان دال وفونتونيل مصيبان ـ من هذه الناحية ـ ، وأن الرأي
لكنسي الذي يقول باندثار هذه المعابد تماما.. رأي غير مسلم.

لقد سجل فلوطرخس استمرار بعض المعابد في تقديم التكهنات والإجابة على
الاستشارات، منها : معبد موبسوس، ومعبد دلفي الذي كان فلوطرخس نفسه كاهنه
الأكبر[٢] .

صحيح أن الناس ـ في الأغلب ـ أصبحوا يستشيرون المعابد الباقية في قضاياهم
الشخصية، ولم يعد للمعابد ذلك الدور السياسي والاجتماعي السابق.. لكن ما يهمنا
هنا هو أنها كانت معابد قائمة، على أية حال، تمارس فيها الكهانة وتقدم فيها
القرابين للآلهة ذاتها.

وقد لاحظ فونتونيل قلة احتفال الرومان بمعابد الكهانة، بالممارنة مع اليونان[٣] .
ولكن بالتوس نفسه ـ في الرد عليه ـ خالفه، وذكر خمسة عشر معبدا تنبؤيا، واستنتج
من ذلك أن الرومان أيضا أولعوا بهذا النوع من الكهانة[٤] .

---

(١) Devins et Oracles grecs, p 114. والسيطرة الرومانية على اليونان بدأت في بداية القرن الثاني (١٩٦ ـ)، واستمرت طوال القرن الأول، حيث سقطت أثينا بأيدي الرومان سنة ٨٦ ق.م، وانهزمت آخر مقاومة سنة ٣١ ق.م.

(٢) Sur La disparition des Oracles, p 122 (et 228, note 48), p 202. (L'oracle de Mapsos en Cilicie)

(٣) Histoire des Oracles , p 190.

(٤) نقله ميكرون من كتاب بالتوس «الرد على كتاب تاريخ معابد الكهانة» Histoire des Oracles , p 189, note 2.

إذن فمعابد الكهانة لم تندثر تماما، حتى بعد أن رفع المسيح إلى السماء، وإنما تراجعت من نواح عدة، هي كالآتي:

١ ـ تقلص عددها، وأصبح أكثرها مجرد خراب أو ذكرى من التاريخ.

٢ ـ والذي بقي منها لم يكن يسأل بتلك الكثرة والاحتفالية كما في الماضي، فالاستشارة ـ الأقل عددا ـ تتم في ظروف بسيطة تفتقد إلى مواصفات البهرجة و«الجلال» والأهمية .. السابقة.

٣ ـ ثم هي في الأكثر استشارات فردية في شؤون شخصية، وما عادت الدول والمدن تلجأ إلى هذه المعابد إلا قليلا.

حدوث تحول عام في ظروف الكهانة:

هذا الضعف البارز في معابد التكهن لا يعني أن ممارسة الكهانة بأنواعها تراجعت هي أيضا وبالدرجة نفسها. يشبه أن يكون ما حدث هو تحول في أسلوب التكهن، فالمعابد اندثرت، لكن «مؤسسات» جديدة تقوم مقامها برزت واحتلت الصدارة. فقد كان للرومان مثلا ديوان العيافة الذي يتكون من شخصيات كبيرة في الحياة الرومانية العامة، وهو يعين الجمهورية ـ أو الإمبراطورية ـ على اتخاذ قراراتها بدراسة الطيور وملاحظتها، تمهيدا لاستكشاف المستقبل. وقد سجل شيشرون ـ الذي كان عضوا في هذا الديوان ـ الشيء الكثير مما يتعلق بالعيافة عند الرومان. وواضح أنهم كانوا يفضلون هذا الأسلوب على غيره، فقد كان هو الأسلوب الرسمي عندهم.

ومن مظاهر هذا التحول أيضا اعتماد الكهانة أكثر فأكثر على أشخاص أو أفراد معزولين، عوض الاعتماد السابق على معبد أو هيئة.. أو نحو ذلك. أعني ـ بالتعبير الحديث ـ أن «مؤسسة» الكهانة تفككت، لا لتندثر، ولكن لتصبح بالدرجة الأولى ممارسة فردية أما إقبال الناس على الكهانة ـ وعلى رأسهم الملوك والزعماء ـ فأمر استمر، وما انتهى.

هذا التحول العام ـ في نظري ـ هو الذي يمكن أن يفسر ما لاحظه بعض مؤرخي الفكر الإنساني ـ مثل بريهيي[1] ـ من كثرة أساليب الكهانة وتنوع طرق استكشاف

---

(١) Histoire de la philosophie, 2/240. والكاتب Emile Bréhier مؤرخ فرنسي بارز للفلسفة، توفي بباريس سنة ١٩٥٢.

المستقبل وتكاثر المتنبئين والكهنة والمشعوذين وانتشارهم في كل مكان في القرن الثاني والثالث والرابع، بعد ميلاد المسيح.

وقد ذكر دودس ـ في الرد على شيشرون الذي يفسر انحطاط المعابد بتنامي نزعة الشك والارتياب ـ أن السبب الحقيقي هو أن الإغريق ـ أصحاب النفوس القلقة ـ كانوا بحاجة دائمة إلى الإيمان وإلى الاعتقاد في عالم غيبي ما، وأنهم بدون هذا الاعتقاد ما كان بالإمكان أن يشعروا بالطمأنينة والهدوء النفسيين، وكان معبد أبولو يقدم لهم هذه الخدمة. ولذلك ـ يقول دودس ـ حين ظهرت أشكال أخرى من الاعتقادات والتعبدات والطقوس تؤدي الدور نفسه الذي كان لمعبد أبولو، تحول إليها اليونان وتركوا الشكل السابق[(١)].

ويظهر لي أن العكس هو الأقرب والأصح، فلم لا نقول: إن تدهور معابد الكهانة واندثارها هو الذي دفع بالإغريق إلى البحث عن أشكال أخرى من التدين والتكهن. وهذا ما يفسر ملاحظة بريهيي حول ازدهار طرق الكهانة الأخرى.

تحليل الأسباب المذكورة في التراجع الكبير لمعابد النبوءة ونقدها:

يظهر أن مجموعة مركبة من الأسباب هي المسؤولة عن هذا التراجع. وفيما سبق جملة صالحة منها، وبعضها قادر ـ جزئيا ـ على تعليل ظاهرة صمت المعابد:

١ ـ لا أظن أنه يمكن لأحد أن يصدق فعلا نظرية البخار الأرضي، وأن اضمحلاله هو سبب خراب المعابد. يجوز أن يكون لهذا البخار وجود فعلي، في زمن ما، في معبد دلفي. ويجوز أنه كانت له خصيصة كالتخدير مثلا. أما أن يكون أصله إلهيا، وأن يتيح التنبؤ، فلا دليل عليه، والأقرب أن قصة البخار مجرد أسطورة تذكر لتفسير ظهور المعبد[(٢)].

٢ ـ أما تراجع ساكنة اليونان فسبب وارد، والمؤرخون يعتقدون فعلا في صدق هذه الملاحظة التي ذكرها فلوطرخس، فثمة أدلة وشهادات متعددة تشير إلى أن الكثافة البشرية ـ في بلاد الإغريق ـ

---

(١) Les Grecs et l'irrationnel, p 82.

(٢) في مقال «دلفي» بالموسوعة أن الحفريات التي أجريت في المعبد كشفت عن عدم إمكان وجود أبخرة Enc. Uni, 7/138 .

ضعفت جدا عند نهاية القرن الأول الميلادي، وبداية الثاني، حتى إن كثيرا من المدن والقرى خربت وماتت[١]. ولا شك أنه كلما ازدهرت الحضارة وتوسع العمران كثرت المعابد وتنوعت، فلا يبعد أن يندثر بعضها إذا لم يهتم بها أحد ولم يقصدها أحد.

لكن هذا التفسير قاصر لوحده عن تعليل هذه الظاهرة، لأن سكوت المعابد كان قد بدأ قبل التاريخ المذكور، بل قبل الميلاد. ثم إن اليونان بلد هجرة من زمن قديم، وأول مرة يتوقف فيه هذا البلد عن «تصدير» سكانه، بل يستقبل مهاجرين من بلاد أخرى.. كان بدءا من سنة ١٩٨٠م !فإذا ترك اليونان بلادهم واستوطنوا أراضي أخرى فلم لم يقيموا فيها معابد جديدة.

ثم ما دام مجموع سكان العالم القديم في ازدياد مستمر، في الحساب النهائي، فبم نفسر اندثار معابد أخرى في مصر وليبيا وأطراف من أوربا؟

٣ ـ وقريب من هذا التعليل ما ذكره فونتونيل من تعرض هذه المعابد للهجوم والنهب من الغزاة، وأن ذلك ـ إضافة إلى الاضطراب السياسي والحروب وقلة المدن ـ ساهم في خراب هذه المعابد وتوقفها عن العمل.

ويقول بالتوس في الرد على هذا الرأي: «لو كان هذا التعليل صحيحا، لكان خطأ الوثنيين كبيرا، وهم الذين فوجئوا بصمت المعابد. هل هو حقا أمر مستغرب أن لا تكون أجوبة وتكهنات حيث لا وجود للمعابد ولا للمدن، وحيث كل شيء تعرض للتدمير وأصبح خرابا. لماذا يدع الوثنيون جانبا هذا السبب الواضح والملموس في تعليل هذه الظاهرة، ويذهبون بعيدا في التفتيش عن سبب آخر، بكل حرص، وفي حالة من القلق الفكري؟ لماذا يبحث فلوطرخس تارة عن السبب في الآلهة، وتارة في الشياطين، وتارة أخرى في اضمحلال الأبخرة المقدسة.. تماما كما يفعل بورفوريوس وجوليانوس المرتد[٢]؟ لو أن حادثا عرضيا واضحا كان هو المسؤول عن انتهاء المعابد، ما لجأ فلوطرخس إلى وضع كتاب فلسفي في هذا الموضوع»[٣]

---

(١) انظر تعليق فلاسليير : Sur la disparition des Oracles, p 228, note 50

(٢) Julien l'Apostat يسمى بالمرتد لأنه هو الذي قام بأهم محاولة لإحياء الوثنية الرومانية، بعد أن مالت الإمبراطورية الرومانية زمانا إلى مهادنة المسيحية والتصالح معها. له كتاب حول معابد الكهانة. وقد سبق أن ترجمت لهذا الإمبراطور، وباختصار شديد.

(٣) نقله ميكرون من كتاب بالتوس: Histoire des Oracles, note 2, p 152 - 153 .

إن اعتراض بالتوس - في الواقع - وجيه: لقد اهتم الكتاب والفلاسفة الوثنيون بأمر توقف المعابد عن الكهانة، وانطلقوا يبحثون عن السبب هنا وهناك، ولم يقنعهم التعليل بالاضطراب السياسي والاجتماعي وتناقص السكان وهم الذين نبهوا عليه. وهذا التعليل - لو صح - كان سيفسر هذه الظاهرة جيدا، بالنسبة إليهم، ويجنبهم التفسير المسيحي لها، وهو تفسير واضح الخطر على العقائد الوثنية.

فلابد - إذن - أن يوجد سبب آخر لصمت المعابد غير الاضطراب الشامل أو نقص عدد السكان.

٤ - كذلك نستطيع أن نفسر جزئيا هذه الظاهرة بحالة السلام الشامل الذي فرضه الرومان على بلاد الإغريق. وفي الواقع يوجد تناقض - ربما انتبه إليه القارئ - في تحليل فونتونيل وفان دال، فهما يقولان إن الاضطراب العام - السياسي والاجتماعي والسكاني - مسؤول عن تدهور المعابد. وفي موضع آخر يقولان إن الحروب الأهلية وتناطح المدن اليونانية وصراعاتها كان عاملا مساعدا على ازدهار المعابد، لأنها - في تلك الظروف - تقصد وتستشار وتزار من مختلف المناطق.. ولذلك قالا إن الرومان لما فرضا السلام على اليونان، تراجعت هذه المعابد أي أن البيئة الطبيعية لازدهار المعابد وحيويتها هو الاضطراب السياسي والاجتماعي، لا الاستقرار.

ولكي يكون كلام الكاتبين منسجما - بعضه مع بعض - يجب أن يجيبا بجواب واحد على هذا السؤال: أيهما يساعد على ازدهار المعابد وأيهما يتسبب في انحطاطها: السلام والاستقرار الاجتماعي، أم الحروب والاضطراب؟

وقد رأينا كيف عاد فونتونيل نفسه بالنقض على هذا التفسير مرجحا عليه التعليل التالي.

٥ - بروز الفلسفة وما نشرته من الوعي والتساؤل بين الناس هو الذي أدى إلى اضمحلال كهانة المعابد. وهذا أيضا - عندي - تفسير قاصر عن ضبط حقيقة ما حدث، وذلك للسببين الآتيين:

أ - إن فريقا واسعا من الفلاسفة لم يساهموا في تراجع الكهانة، بل - على العكس من ذلك تماما - هم أعانوا على تثبيتها والدفاع عنها. ويكفي أن نتذكر آراء: سقراط، وأفلاطون، وأرسطو (بالنسبة للتكهن الطبيعي)، والرواقيين..

وإذا كان للفلسفة من أثر في إيقاف تقدم الكهانة، فينبغي أن يحال على تنامي النزعة الشكية عموما، كما لاحظ ذلك شيشرون، والسوفسطائية على الخصوص.

ب ـ لكننا نعرف أن الجمهور اليوناني الواسع لم يكن يرحب بالسوفسطائيين، ولم يكن راضيا على طريقتهم أو مقتنعا بأفكارهم، وهي التي لا تثبت شيئا وتنفي كل شيء.

والظاهر ـ فيما يتعلق بالكهانة ـ أن الفلسفة ـ والسوفسطائية بالأخص ـ أثرت على قسم من النخبة المتعلمة والمثقفة التي اعتادت الاشتغال بأسئلة التفلسف. فهذا سبب قد يفسر تراجع الإيمان بالمعبد عند طبقة ضيقة من الناس، لا عند العامة.

٦ ـ وهناك سبب آخر يذكره بعض الباحثين المحدثين، وهو أن المعابد فقدت مصداقيتها مع الزمن بفعل أخطاء نبوءاتها وتناقضاتها وتدخلها في صراعات المدن، حتى كان المعبد يتهم بالانحياز لمدينة ما، كأثينا أو اسبارطة[١].

فهذا سبب: فقدان المعابد لاحترام الناس واقتناعهم بها وإيمانهم بصدقها، مما نزع عن هذه المعابد المصداقية الضرورية لاستمرارها. وهذا بدوره له أسباب:

أ ـ تدخل معابد الكهانة في الحياة السياسية اليونانية، التي كان يطبعها عدم الاستقرار، وتقلب التحالفات، وكثرة الحروب هذا التدخل لاشك أكسب المعابد كثيرا من الأعداء، ووجه نظر الناس إلى الجانب الإنساني ـ غير الغيبي ـ من ظاهرة الكهانة. فمثلا كان ديموستين يقول: إن كاهنة البيثيا كانت تحابي فيليب ـ ملك مقدونيا ـ في نبوءاتها وأجوبتها. بمعنى آخر كانت حليفته. وهو يقصد بهذا أن فيليب كان يرشيها بالمال[٢].

ب ـ أخطاء الكهنة في أجوبتهم، وتناقضات المعابد فيما بينها حول السؤال الواحد، خصوصا أن بعض الملوك والحكام، وبعض الأقاليم، كانوا أحيانا يتوجهون بالاستشارة إلى أكثر من معبد.

ج ـ تدليس الكهان وكذبهم وحيلهم وسلوكهم الجشع في جمع المال ونحو ذلك مما يمس بأخلاقهم كل هذا ساهم في انحطاط المعابد. وهذا الجانب بينه فان دال وفونتونيل جيدا فيما أطلقت عليه « نظرية التدليس».

وهذا التفسير ـ فقدان المصداقية ـ سائغ، ولكنه يفسر جانبا من الإشكال لا

---

(١) Devins et Oracles grecs, p 96.

(٢) علم الغيب في العالم القديم، ص ٢٠١.

جميعه. لقد عمرت معابد النبوءة كثيرا، فهل احتاج الناس ليكتشفوا أخطاء الكهانة وتدليس الكهنة إلى عشرة قرون؟ وقد كان في الحضارات التي عرفت بهذه المعابد أمم كبيرة، وبعضها بلغ شأوا هاما من الرقي الفكري والفلسفي لو كانت المعابد على هذه الدرجة المتصورة من التلبيس والكذب والخطأ والخبط ما استغرق أمر انكشافها للناس كل هذه القرون.

وقبل أن أختم هذه الفقرات علي أن أقول: إن هذا النقد لهذه الأسباب والعلل ليس هو بإبطال لها ورد لها جميعا، بل هو بيان لحدودها. فأكثرها أسباب صحيحة وقائمة، لكنها قاصرة ـ ولو بمجموعها ـ عن تقديم تفسير نهائي ـ شاف وواف ـ لهذه المشكلة.

إبطال نظرية التدليس:

أود في البداية أن أقرر أمرا، وهو أن استعمال الحيلة في مجال الدين، وفي المعابد، وإيهام الناس بنبوءات بشرية ليس لها أي أصل غيبي.. هذا كله وارد، بل حادث وواقع، والكذب من طبيعة كثير من الناس. وهذا تراه حتى في بعض المتدينين، فطالما ادعى بعض المسيحيين المخلصين أنهم اتصلوا بالمسيح وتبركوا به وشفوا من أمراض كانت قد أصابتهم. كما كان عندنا ـ في التاريخ الإسلامي ـ جماعة من الوعاظ يضعون أحاديث وينسبونها إلى النبي ﷺ، يرغبون بها الناس في الدين والقرآن؛ فإذا قيل لهم في ذلك، وأن الكذب على النبي الكريم لا يصح، قالوا: نحن نكذب له، لا عليه.

وعلى العموم كان التحايل كثيرا في القديم، وهذا الكتاب الكريم يحكي عن السامري كيف صنع لليهود عجلا، صنما يعبدونه، واحتال في الصناعة حتى جعل له خوارا وصوتا، وما هو إلا صفير الريح، ليوهم الناس وضعاف العقول بأن في العجل شيئا سماويا خارقا للعادة: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ . . .﴾ [طه: ٨٧ ـ ٨٨].

هذا كله حق. لكنني أعتقد أن ما ذهب إليه بعض الكتاب ـ كفونتونيل وفان دال ـ من أن كهانة المعابد مجرد صناعة محكمة قائمة على الحيلة والغش.. كلام مبالغ فيه ولا يصح بهذا الإطلاق.

لقد تصور فونتونيل أن الكهنة تفوقوا في بناء نظام محكم وسري في التلبيس على الناس جميعا، على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم.. وأن هذا البناء المنظم دام قرونا، وانتقل من جيل إلى جيل، من الكهنة وهذا كله غلو لا مسوغ له.

فهذا ـ أولا ـ مردود بحكم طبيعة الأشياء وطبيعة الاجتماع البشري، لأنه يبعد أن يتوافق الكهنة طوال أكثر من ألف عام على الاحتفاظ بنظام معقد من الحيل والأسرار والآلات لا يكشفه أحد.. ولم يكشفه أحد، حتى جاء فونتونيل في القرن السابع عشر الميلادي ففعل.

وهو ـ ثانيا ـ كلام لا دليل عليه من نصوص أو كتابات أو شهادات للقدماء فليس في التراث القديم صدى لهذا التحايل ـ الواسع والمحكم ـ المزعوم. لقد لاحظ بالتوس ـ بحق ـ أن فونتونيل يعتمد على خياله الخاص في التصور، ولا يستند إلى شهادات قديمة[1]. ولذلك يقول بالتوس : إن فونتونيل ـ وسواه ـ يعتمد على الاحتمال والافتراض، فهو يقدم تصورا لتدليس ممكن في المعابد، ثم يعود فيتساءل : ما الذي يمنع من وقوع هذا الاحتمال وقيامه، إذن فقد كان. ولا يرجع إلى قرائن تاريخية ثابتة[2].

فلاشك أن فونتونيل يسرف في تصور مؤامرة الكهان على الشعب، وفي تخيل أساليبهم وحيلهم. وهذا الإسراف جره إلى أن يتخيل توطؤا عاما بين كهنة معبد أبولو وسكان مدينة دلفي، وأن الآلاف منهم حافظوا على السر المزعوم، لأنهم يستفيدون من الرواج التجاري الذي يوفره المعبد ! بينما كم من واحد نراه لا يستطيع أن يكتم حتى سرَّه الشخصي.

إن التدليس ممكن، بل واقع، ولكن ليس على هذه الدرجة من السعة، وبهذا الإحكام والنظام المتصورين، وفي هذه الحقبة الطويلة التي تقارب الألفي سنة.

إذن فهذه النظرية لا تفسر قيام معابد الكهانة، ولا استمرارها، ولا دورها في العالم القديم ومكانتها فيه.

---

(١) نقله ميكرون عن كتاب بالتوس : Histoire des Oracles, p 124, note de Maigron

(٢) نقلا عن : Histoire des Oracles, note , p 126

نظرية الصدفة:

وإنما اقتصرت على نقد نظرية التدليس، لأن نظرية الصدفة ظاهرة البطلان، فيما أعتقد. فقد نفسر بالصدفة لعبة نرد مثلا، أما أن تصدق نبوءة محددة بحدث محدد في ظروف معينة وموصوفة فلا.

وفي الناس - قديما وحديثا - من يفزع إلى تفسير كل شيء بالصدفة أو الاتفاق، وذلك متى عجز عن إدراك السبب الحقيقي للظاهرة، حتى إن بعض علماء الإبستيمولوجيا - في مبحث التفسير العلمي - يضع التفسير بالصدفة إلى جانب التفاسير بالسبب والغاية والوظيفة[1]. وهكذا عوض أن يعترف هؤلاء - بكل صراحة أخلاقية وتواضع علمي - بأننا لا نعرف تفسير الظاهرة الفلانية، ونصنفها ضمن خانة الظواهر المجهولة التفسير، وبذلك نترك المجال لغيرنا وللأجيال بعدنا كي تكتشف التعليل المناسب.. عوض ذلك نكذب على أنفسنا - أولا -، وعلى الناس - ثانيا -، ونقول: هذه الظواهر تفسر بالاتفاق، وتلك الحوادث نعللها بالصدفة.

ولذلك فإن نظريتي التدليس والصدفة لا تفسران صدق بعض نبوءات الكهان تفسيرا مقبولا، رغم أن هذا الصدق هو أحد الأسباب الرئيسية التي تشرح لنا لم كانت الكهانة قوية وراسخة في العالم القديم.

مشكلة الخبر التاريخي:

ومن جهة أخرى يكشف نقد فان دال وفونتونيل في موضوع الكهانة عن وجود مشكلة حقيقية في التراث الأوربي - القديم والوسيط - تأخذ أحيانا أبعادا كبيرة، وهي قضية الحدث التاريخي وكيفية إثباته.

لقد رأينا كيف يشكك الكاتبان في كثير من الروايات المتعلقة بالموضوع، وهذا الشك - من حيث الأصل - سليم، بل هو من شروط البحث العلمي الذي لا يتقبل شيئا إلا بعد فحصه والتثبت منه. لكن الاستمرار في هذا الطريق، والبلوغ به إلى النهاية أمر غير سليم، وهو قمين بتدمير أكثر المعرفة التاريخية المتوفرة لدينا.

وخطورة هذا المنهج تكمن - فيما يبدو لي - في سهولته، لأنه ما أيسر أن ترد

---

(١) راجع مقال (الوصف والتفسير)، أي في العلم، في : Encyclopaedia Universalis, article Description et explication.

خبرا، بدعوى أنه مشكوك فيه، أو أنه خرافي، أو مختلق.. ونحو ذلك. وردّ الأخبار وإن كان هو أيسر المناهج، إلا أنه ليس بالضرورة أسلمها من الناحية العلمية.

وأضرب لذلك مثلا: هذا القصص الكثير في التراثين اليوناني واللاتيني عن دور الشياطين في الكهانة..[1] نحن لا نجده فقط عند الوثنيين وكتابهم وفلاسفتهم، بل أيضا في الديانات السماوية، ونجده أيضا عند كثير من الشعوب: العرب، والأفارقة، وبعض الشعوب الأوربية يبعد - إذن - أن يكون هذا كله اتفاقا تاريخيا على الخطأ أو الكذب. والمفروض أن يكون لهذه الحكايات أصل صحيح. قد لا نعرف - وربما لن نعرف أبدا، لأن التاريخ انقضى - هل الحكاية الفلانية صحيحة أم مكذوبة، لكن شيئا في مجموع الحكايات، شيئا مشتركا بينها، يجب أن يكون ثابتا.

وهناك وجه آخر لخطورة منهج الرد الكلي للأخبار، وهي الخطورة التي ترجع أيضا إلى سهولته. وذلك أن تكذيب الخبر يعفيك من تفسيره، ويريحك من تعليله.. أما تصديقه، أو التوقف فيه، أو القول باحتماله.. فعمل أصعب، وفيه معاناة فكرية، لأنه يترتب على هذا الموقف الإيجابي ظهور مشكلة أخرى، هي غالبا أكثر تعقيدا من المشكلة الأولى، وهي فهم هذا الخبر وتفسيره. وقد رأينا كيف استشكل الباحثون والمؤرخون قصة «بان الأكبر»، وحاروا في تفسيرها وتحليلها، ولا تزال هذه الحيرة قائمة.

ولست أدري كيف يمكن للباحث الغربي أو الصيني تجاوز مشكلة صدق الخبر التاريخي، وربما ساعدهم على ذلك بعض المساعدة نمو العلوم الإنسانية الحديثة وبروز بعض مناهج البحث المتطورة، كالأنثروبولوجيا - بأنواعها -، ومقارنة الأديان، ودراسة النصوص التاريخية من الناحية الفيلولوجية.. ونحو ذلك. ولذلك أمكن أن نجد لفونتونيل عذرا في رده الثابت والمتكرر لأغلب الروايات، مع كونه مخطئا في الاسترسال في هذا الطريق.

لكن الذي أعرفه أن هذه المشكلة ليست مطروحة - على الأقل بهذه الحدة - عندنا معشر المسلمين، فنحن نملك منهجا واضحا في التعامل مع الأخبار والروايات،

---

(١) هذا عن دور الشياطين في التكهن. أما ما يتعلق بوجود الشيطان نفسه، وباختلاطه بحياة البشر.. فتلك عقيدة يندر أن تجد من الأمم من يجحدها في التاريخ. راجع مقالة الشيطان Encyclopaedia Universalis, art Satin , 20/604 :

وهو منهج علم الحديث القائم على دراسة سلسلة الرواة التي تشكل السند ـ وهو ما يعرف بعلم الجرح والتعديل ـ ، بالموازاة مع دراسة المتن، وهي قضايا العلة والشذوذ ومقارنة الروايات بعضها ببعض، وتحكيم طبائع العمران والحقائق الاجتماعية والنفسية المستقرة.. وما إلى ذلك مما بسطه المحدثون في كتب مصطلح الحديث.

احتمال قوي بوجود عنصر غيبي في معابد الكهانة:

وهذا الذي أذكره الآن احتمالا ، كان الكل يسلم بأنه حقيقة، كما يخبرنا بذلك فونتونيل[١].

يقول الأستاذ دودس: « من اللافت جدا للانتباه أن الشكوك حول دلفي ونبوءاته كانت نادرة قبل المرحلة الرومانية»[٢] فقد كان الاعتقاد في الأصل الإلهي أو الشيطاني عاما في اليونان، وحتى بين الفلاسفة. ولذلك يلاحظ دودس بأنه إذا صح ما قيل من أن إكسينوفانس أنكر التكهن بأنواعه جميعها ، فهذا معناه أنه الوحيد ـ من بين المفكرين الإغريق الكلاسيكيين ـ الذي لم ينكر فقط « علم» النذر والكهانة، بل أيضا كل هذه السلسلة من الأفكار المتعلقة بالإلهام والوحي والمس، والتي تجذرت عميقا في اليونان[٣].

وتوجد ـ عدا هذا القبول العام لكهانة المعابد ـ أدلة أخرى على أن شيئا غير طبيعي كان يحدث في هذه المعابد. مثلا كانت البيثيا أحيانا تجيب بنفسها شعرا، وفي سهولة غريبة، وباسترسال تام، رغم أميتها وجهلها[٤]. ولهذا يعتبر دودس أن الشكوك في تكهنات دلفي ، وتصويرها على أنها حيل محكمة للكهان..أمر مبالغ فيه جدا. وهو يحيل ـ لفهم بعض الظواهر الغامضة في المعابد

---

(١) Histoire des Oracles, p 7 - 8 .

(٢) Les Grecs et l'irrationnel, p 81.

(٣) Les Grecs et l'irrationnel, p 176 - 177 .

(٤) انظر : Les Grecs et l'irrationnel, p 81 et p 97 - 98, note 71 وراجع أيضا في موضوع الغيبيات وعلاقتها بالعقل والإيمان كتابي الذي خصصته لهذا الموضوع ، وعنوانه : الغيب والعقل. دراسة في حدود المعرفة البشرية.

ـ على التاريخ الحديث «لاستحضار الأرواح»، فثمة تشابه بيِّن بين كثير من ظواهرهما[1].

ولهذا يميل دودس إلى أنه فعلا كانت في معبد دلفي عناصر ميتافيزيقية أو غيبية. وأظن أن نظريات مثل التدليس والصدفة هي ـ في الواقع ـ نوع من الهروب من هذا الاحتمال القوي، وهو بطبيعته ليس له تفسير مادي واضح.

وعنصر الغرابة واقع أيضا في مسألة توقف المعابد عن التكهن، ولا يمكننا أن نفسرها بأسباب لم يعول عليها الوثنيون أنفسهم، اقتناعا منهم بقصورها عن تعليل صمت معابدهم. هناك عنصر غير طبيعي في هذا الموضوع، ونحن أمام خيارين: إما أن نتوقف رأسا عن تعليل هذه الظاهرة، فتبقى معلقة بلا تعليل، أي بلا فهم ولا حل. وإما أن نفسرها بعامل غيبي، كما يفعل المسيحيون مثلا.

رأي لوكليرك:

ولعله أمر بالغ الدلالة تلك النتيجة التي ختم بها لوكليرك كتابه في الدفاع عن فونتونيل، لقد بدأ بالانتصار لهذا الكاتب ثم انتهى إلى موقف وسط بين المتخاصمين فونتونيل وبالتوس، فقال ـ في كلام نقله ميكرون واستغربه ـ : « أعتقد أنه من الممكن أنه كانت توجد فعلا تنبؤات تلقيها الشياطين، أو مخلوقات أخرى عاقلة، من غير الطبيعة البشرية؛ رغم أنني لا أشك أن الناس كثيرا ما كانوا هم أصحاب النبوءات التي ينسبونها إلى هذه المخلوقات غير البشرية. وأعتقد في الوقت نفسه أنه من المتعذر ـ بالنسبة إلينا ـ أن نميز بين التكهنات الملقاة من طرف الشياطين، وبين تلك التي يعود أصلها إلى التدليس الإنساني. وهذا إما لأن الحكايات التي تروى لنا غير مؤكدة، وإما لأنها غير مفصلة جيدا ولا تستصحب الظروف الكاملة، لكي نستطيع أن نحكم هل هي نبوءات حقيقية أم حيل. يبدو لي أن هذا المعتقَد يحتل الوسط بين رأيي فونتونيل والكاتب الآخر الذي هاجمه، فكلاهما ذهب بعيدا في موقفه، وتطرف»[2].

والذي لا يعرفه ميكرون ولا لوكليرك نفسه أن رأيه هذا هو أقرب الآراء إلى ما ينبغي أن يكون: النظرية الإسلامية للكهانة.

---

(١) Les Grecs et l'irrationnel , p 80 - 81 .

(٢) نقله ميكرون من كتاب لوكليرك: «المكتبة المختارة» الكتاب ـ أي الفصل ـ الثالث عشر ، ص ١٨٠ Histoire des Oracles, 135, note : ويعني بالكاتب الآخر: بالتوس.

وهذا أوان التعرف على موقف الإسلام من الكهانة ورؤيته لهذه الظاهرة القديمة الجديدة، وكذا على جهود علمائه في تفسيرها. وسيجد القارئ أن في هذا الدين الخاتم نظرية حقيقية في الموضوع. وسأمهد لذلك ببحث مقتضب في وضع الكهانة بالجزيرة العربية قبيل ظهور الدين الجديد.

الفصل الرابع:

الكهانــة عنـد العـرب

في تعريف الكهانة عند العرب:

يتأرجح استعمال لفظ الكهانة في التراث العربي ـ الإسلامي بين طريقين:

الأول: تعميم اللفظ على أسلوب غير شرعي يبغي التنبؤ بالمستقبل على الخصوص، وبالغيب عموما. فالتفتازاني ـ مثلا ـ يقول: «الكاهن هو الذي يخبر عن الكوائن في مستقبل الزمان، ويدعي معرفة الأسرار ومطالعة علم الغيب»[(١)]. ولذلك أطلق ابن حجر التعريف، فقال: «الكاهن من يخبر بما سيكون عن غير دليل شرعي»[(٢)].

الثاني: يقصر صفة التكهن على أعمال معينة وأساليب محددة في استطلاع الغيب، فهذا المعنى أضيق.

وأشهر التعاريف الاصطلاحية للكاهن، على هذا الطريق، والتي رددها أكثر من تعرض لهذا الموضوع، إما في تفسير الآيات المتعلقة به أو خلال شرح الأحاديث الواردة في الكهانة.. هي لكل من العالمين الجليلين: أبو سليمان الخطابي، والقاضي عياض السبتي، والأول أقدم[(٣)].

---

(١) شرح العقائد النسفية، ص ١٠٨، لمسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، أبو عمر، عالم مشارك في علوم اللغة والفلسفة والدين، ولد بنواحي نسا وأخذ عن العضد الإيجي، وتوفي بسمرقند سنة ٧٩١هـ. له: شرح تلخيص المفتاح. حاشية على كشاف الزمخشري. المقاصد في علم الكلام. شرح التنقيح.. انظر معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، ١٢/ ٢٢٨.

(٢) فتح الباري، ٧/ ٥٤٠، في ثنايا شرحه لحديث غلام أبي بكر الصديق الذي تكهن، في كتاب مناقب الأنصار. والمؤلف هو أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني، المعروف بابن حجر، ولد بمصر وتوفي بها سنة ٨١٩هـ. محدث كبير، أخذ عن الفضل العراقي وغيره. أكثر تصانيفه في الحديث والتاريخ، أهمها: فتح الباري بشرح صحيح البخاري. الإصابة في تمييز الصحابة. تهذيب التهذيب. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة معجم المؤلفين ٢/ ٢١.

(٣) أحمد بن إبراهيم الخطابي البستي، من ولد زيد بن الخطاب أخو عمر، محدث ولغوي وفقيه. توفي سنة ٣٨٨هـ. من تصانيفه: شرح سنن أبي داود. شرح البخاري. أعلام الحديث. إصلاح الغلط.. عن معجم المؤلفين، ٢/ ٦١.

=

قال الشيخ الخطابي: «الكاهن هو الذي يدعي مطالعة علم الغيب، ويخبر الناس عن الكوائن، وكان في العرب كهنة يدعون أنهم يعرفون كثيرا من الأمور، فمنهم من كان يزعم أن له رئيا من الجن وتابعة تلقي إليه الأخبار. ومنهم من كان يدعي أنه يستدرك الأمور بفهم أعطيه. وكان منهم من يسمى عرافاً، وهو الذي يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها، كالشيء يسرق فيعرف المظنون به السرقة، وتتهم المرأة بالزنية فيعرف من صاحبها، ونحو ذلك من الأمور. ومنهم من كان يسمي المنجم كاهناً»[1].

فالكهانة ـ إذن ـ أربعة أنواع:

١ ـ تلقي أخبار الغيب عن الجن.

٢ ـ معرفة الغيب بقدرة خاصة موهوبة.

٣ ـ معرفة الغيب بنوع من الاستدلال والظن.

التنجيم.

وهذه الأنواع يجمع بينها دعوى مطالعة الغيب ومعرفته، ولذلك أطلق أبو العباس القرطبي أن «الكهانة ادعاء علم الغيب»[2].

= والقاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي. سكن سبتة وتوفي بمراكش سنة ٥٤٤هـ، أخذ عن أبي علي الغساني، وأبي محمد بن عتاب، والقاضي أبي علي الصدفي.. وبرز في العلم، واشتهرت تصانيفه، ومنها: الشفا. ترتيب المدارك، في طبقات المالكية. مشارق الأنوار. جامع التاريخ وقد غلب على القاضي عياض الاشتغال بالحديث وعلومه، فروى عنه أقوام، منهم الحافظ ابن بشكوال، وعبد الله الأشيري.. راجع سير أعلام النبلاء، ٢٠/٢١٢ فما بعدها.

(١) معالم السنن، شرح سنن أبي داود، ٤/٢١١ ـ ٢١٢. كتاب الطب، باب النهي عن إتيان الكاهن، حديث أبي هريرة من أتى كاهنا فصدقه والشرح للخطابي.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ٥/٦٣٢، باب النهي عن الكهانة. وهذا الشرح لأحمد بن عمر الأنصاري القرطبي، ضياء الدين أبو العباس. ولد سنة ٥٧٨هـ بقرطبة، وبها سمع الحديث، ثم هاجر إلى الإسكندرية بمصر، وبها ـ وبالشرق عامة ـ استكمل تكوينه العلمي. فقيه ومحدث، له تصانيف حسنة: أصول الفقه. شرح التلقين للقاضي عبد الوهاب. حكم الطلاق ثلاثا. كشف القناع عن حكم مسائل الوجد والسماع.. ويعرف أيضا أبو العباس بابن المزين. أما أبو عبد الله بن فرح القرطبي صاحب التفسير، فهو تلميذه. توفي الشيخ سنة ٦٥٦هـ. عن مقدمة تحقيق المفهم، ١/٣١.

وحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد بريء مما أنزل الله على محمد»...[١] هذا «الحديث يشتمل على النهي عن إتيان هؤلاء كلهم والرجوع إلى قولهم وتصديقهم على ما يدعونه من هذه الأمور»[٢].

أما القاضي عياض فقد قال:

«**كانت الكهانة في العرب ثلاثة أضرب:**

أحدها: أن يكون للإنسان رَئِيٌّ من الجن يخبره بما يسترق من السمع. وهذا القسم قد بطل منذ بعث الله محمدا ﷺ.

الثاني: أن يخبره بما يطرأ ويكون في أقطار الأرض، وما يخفى مما قرب أو بعد، وهذا لا يبعد وجوده. ونفت المعتزلة وبعض المتكلمين هذين الضربين وأحالوهما، ولا استحالة في ذلك، ولا بعد في وجوده، لكنهم يصدقون ويكذبون، والنهي عن تصديقهم والسماع منهم عام.

الثالث: الحزر والتخمين، وهذا يخلق الله تعالى لبعض الناس فيه قوة، ولكن الكذب فيه أغلب.

ومن هذا الفن العرافة». وبعضهم يجعل في الثالث: المنجمين، بدل الحزر والتخمين، في تقسيم القاضي عياض هذا[٣].

---

(١) رواه بهذا اللفظ أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب ٢١ (بترقيم المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، أو معجم الحديث لونسنك، طبعة ليدن). ورواه أيضا البزار عن جابر بن عبد الله، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، خلا عقبة بن سنان، وهو ضعيف. عن: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٥/١١٧ لنور الدين الهيثمي. وهو أيضا بداية حديث رواه الطبراني في المعجم الأوسط، قال الهيثمي: «وفيه رشدين بن سعيد، وهو ضعيف، وفيه توثيق في أحاديث الرقاق، وبقية رجاله ثقات». مجمع الزوائد، ٥/١١٨. يريد أن ضعف رشدين يحتمل في باب المواعظ والرقائق، أما في الأحكام وما ينبني عليه الحلال والحرام، فلا.
وللحديث روايات أخرى مخالفة بعض الشيء لهذا اللفظ، أو زائدة عليه، مما ستراه في محله. ولذلك فأقل درجات هذا الحديث أنه حسن.

(٢) معالم السنن ٤/٢١٢.

(٣) ذكر هذا النص عن القاضي عياض: محيي الدين النووي في: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ١٤/١٨٦ ـ ١٨٧. وأبو العباس القرطبي في: المفهم، ٥/٦٣٢ ـ ٦٣٣. وعلي الشوكاني في نيل الأوطار ٧/٣٦٧. وصديق خان في: السراج الوهاج من كشف مطالب =

وبالمقارنة بين تقسيمي الشيخين، نجد أنهم يقسمون الكهانة على ثلاثة أنواع:

فنوع يتم بالاتصال بالجن، ونوع يعود إلى قدرة يدعيها الكاهن بمقتضاها ينكشف له الغيب المستور، ونوع أخير هو التنجيم بعينه.

والتنجيم ممارسة خاصة، فهي نظر في الكواكب ومنازلها وحركاتها وسائر أحوالها، واستدلال بذلك على الحوادث الأرضية ومستقبلها، فهو «فن» مستقل، وإن كان يجوز عده ضربا من الكهانة، بما أنها تعني ادعاء معرفة الغيب. لكنني أفضل التمييز بين اللفظين، لأنهما تمايزا من قديم، وأصبح كل لفظ يدل على ممارسة خاصة وعمل خاص، وقد يوجد كاهن لا يعرف شيئا عن التنجيم، كما قد يوجد منجم لا علاقة له بالكهانة، فهذان عالمان منفصلان، كثيرا ما يتقاطعان، ولكنهما مختلفان.

وعلى هذا تكون الكهانة قسمين:

الأول ـ الاتصال بالشياطين، وأخذ الأخبار عنهم. وهذا ينقسم بدوره إلى نوعين:

أ ـ أن يكون هذا الخبر، مما يزعم الجني أنه استرقه من السماء. وعامة هذا يتعلق بالمستقبل.

ب ـ أن يكون هذا الخبر عن شيء وقع أو يقع الآن، في مكان بعيد أو قريب. وهذا إخبار عن الماضي والحاضر.

الثاني ـ قسم آخر من الكهانة، أصله ظن الكاهن أو تخمينه، فهذا نوع من الحدس.

فإن قلت ما هي الدلالة الأعم للكهانة، وعلى أي شيء تطلق في الأكثر، قلت: تعني الكهانة في الأكثر النوع الأول، الذي له علاقة بعالم الجن. ولذلك قال المازري: «الكهان قوم يزعمون أنهم يعلمون الغيب بأمور تلقى في نفوسهم»[(1)].

= صحيح مسلم بن الحجاج، ٨/ ٣٩٦ـ ٣٩٧. والأبي في إكمال إكمال المعلم، ٦/ ٤٥ بتفاوت قليل في الألفاظ، كلهم في باب الكهانة. والحزر ـ كما في لسان العرب ـ: التقدير والحدس والخرص.

(١) المعلم بفوائد مسلم، ٣/ ١٠٥، عند شرحه حديث معاوية بن الحكم السلمي في الكهانة. والمازري هو أبو عبد الله محمد بن علي التميمي، نسبته إلى مازر بصقلية، وتوفي بإفريقية عام ٥٣٦هـ. عن الأعلام، لخير الدين الزركلي، ٧/ ١٦٤.

وقال ابن حجر والعيني عن الكهان: كانوا في الجاهلية كثيرا، ومعظمهم كان يعتمد على تابعه من الجن[1]. وقال جلبي في تعريف ما أسماه بعلم الكهانة: «المراد منه مناسبة الأرواح البشرية مع الأرواح المجردة، أي الجن والشياطين، والاستعلام بهم عن الأحوال الجزئية الحادثة في عالم الكون والفساد، المخصوصة بالمستقبل»[2].

وانقسام النوع الأول بدوره إلى ضربين من التكهن يحيلنا على شكل آخر من أشكال التنبؤ، وهو العرافة، ولذلك يمكن أن نتساءل عن:

الفرق بين الكاهن والعراف:

ثمة ألفاظ كثيرة في العربية تطلق على الذين يشتغلون باستكشاف الغيب، مثل الكاهن والعراف والحازي والمنجم، ونحوهافهؤلاء كلهم يدعون معرفة غيب محجوب عنا، فهذا هو ما يجمع بينهم، ثم بعد ذلك يختلف العلماء في الفروق المحتملة بين هذه الأصناف.

وأكثر ما يقع الاضطراب في هذا الباب في التمييز بين الكاهن والعراف.

في لسان العرب، ومختار الصحاح: «العراف: الكاهن»[3]، على وجه التسوية بينهما. ويطلق الكاهن أحيانا على من يشتغل بالغيب، هكذا على الإطلاق، ففي القاموس: «تكهن تكهنا: قضى له بالغيب، فهو كاهن»[4].

وقال ابن تيمية: العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال..ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق[5]. فجعل اسم العراف أعم.

---

(١) فتح الباري ٧/ ١٧٩ (طبعة ابن باز)، عمدة القارئ، ١٧/ ٧ ، كلاهما في كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام عمر.

(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ٢/ ١٥٢٥. لمؤلفه: مصطفى حاجي خليفة، المشهور بكاتب جلبي (١٠١٧ ـ ١٠٦٧هـ)، مؤرخ، وعارف بالكتب ومؤلفيها، ومشارك في بعض العلوم. تولى أعمالا كتابية بالجيش العثماني، زار الخزائن الكبرى، وتفرغ آخر عمره للعلم. توفي بالقسطنطينية. وترك أيضا: تحفة الكبار في أسفار البحار. سلم الوصول إلى طبقات الفحول، في التراجم. ميزان الحق في التصوف. عن معجم المؤلفين، ١٢/ ٢٦٢.

(٣) لسان العرب، لابن منظور، مادة عرف. مختار الصحاح، لإسماعيل الجوهري، مادة عرف.

(٤) القاموس المحيط، مادة كهن. وانظر: لسان العرب، الكلمة نفسها.

(٥) الفتاوى ٣٥/ ١٧٥. كتاب التوحيد، لمحمد بن عبد الوهاب، ص ٢٨٦. وابن تيمية هو تقي =

والظاهر أن مذهب التفريق بين الاصطلاحين أولى من غيره، لأن النبي ﷺ فرق بينهما في قوله: من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد[1].

وقد رأيت الراغب الأصفهاني[2] يفرق بين الكلمتين على نحو خاص، فالكاهن - عنده - يخبر عن الغيب الماضي، والعراف يتنبأ بالغيب المستقبل، يقول: «العراف كالكاهن، إلا أن العراف يختص بمن يخبر بالأحوال المستقبلة، والكاهن بمن يخبر عن الأحوال الماضية»[3] والإخبار يخص أمورا خفية، ويكون على سبيل الظن والتخمين[4]. وقد تبعه على هذا الاصطلاح أبو البقاء الكفوي[5].

ويظهر لي أن أكثر من تعرض لهذه المسألة عكس هذا التقسيم، فالكهانة ضرب من التنبؤ بالمستقبل، بينما العرافة تختص بالغيب الماضي أو الحاضر الخفي. يقول ابن الأثير - في حديث النهي عن حلوان الكاهن -[6]: «الكاهن الذي يتعاطى الخبر

= الدين أحمد بن عبد الحليم، عالم الشام وأحد أئمة الإسلام، وصاحب التصانيف المفيدة. توفي بسجن قلعة دمشق سنة ٧٢٨، كما في الأعلام، ١/ ١٤٠.

(١) أورده السيوطي في كتابه: «الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير»، عن أحمد والحاكم، ورمز إلى أنه حسن، ٢/ ٥٤٩. وقال شارحه عبد الرؤوف المناوي: قال الحاكم الحديث على شرط الشيخين - البخاري ومسلم - ، وقال الحافظ العراقي في أماليه: حديث صحيح. ورواه البيهقي في السنن، وقال الذهبي إسناده قوي. عن: فيض القدير، ٦/ ٢٣، للمناوي. وروي قريب من هذا اللفظ عن ابن مسعود، وذلك عند البزار والطبراني في الكبير، وصحح ذلك الهيثمي. مجمع الزوائد ٥/ ١١٨. فالخلاصة أن الحديث يدور بين الصحة والحسن.

(٢) هو الحسين بن محمد أبو القاسم، المعروف بالراغب الأصفهاني، توفي سنة ٥٠٢هـ. أديب ومفسر وحكيم. له: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين. الذريعة إلى مكارم الشريعة. محاضرات الأدباء معجم المؤلفين ٤/ ٥٩.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، ٣/ ١٠٥. كلمة عرف، للراغب الأصفهاني. ويقال للكتاب أحيانا: مفردات غريب القرآن.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن، ٤/ ٦٥. مادة كهن.

(٥) الكليات، له. ص ٧٧٣. والكفوي هو أيوب بن موسى، القاضي الحنفي، توفي بالقدس سنة ١٠٩٤هـ.

(٦) انظر آخر هذا الفصل.

عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعي معرفة الأسرار. وقد كان في العرب كهنة كشق وسطيح وغيرهما؛ فمنهم من كان يزعم أن له تابعا من الجن ورئيا يلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله، وهذا يخصونه باسم العراف كالذي يدعي معرفة الشيء المسروق ومكان الضالة ونحوهما»[١] وقد نقل ابن منظور هذا الكلام في معجمه وسلمه[٢].

وأصل هذه التفرقة نجدها عند الخطابي في «معالم السنن»[٣]، وكان هذا المحدث الجليل فقيها فمهد للناس التصنيف في الأحاديث وغريبها وفقهها. وقد تبع كثير من أهل العلم الخطابي على التفرقة السابقة، فقد أوردها النووي[٤]، وذكرها

---

(١) النهاية في غريب الحديث، ٤/٤٣، مادة كهن. لصاحبه: أبو السعادات، مجد الدين، المبارك بن الأثير الجزري (٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ). أديب مشارك. مر ببغداد، وتوفي بالموصل. من تصانيفه: جامع الأصول في أحاديث الرسول. الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف، أي تفسيري الثعلبي والزمخشري. البديع في شرح الفصول لابن الدهان في النحو.. معجم المؤلفين، ٨/ ١٧٤. وهو غير أبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن الأثير، توفي سنة ٦٣٧هـ. صاحب الكتاب المعروف: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر.
وهو أيضا غير أبي الحسن عز الدين علي بن الأثير، توفي سنة ٦٣٠هـ، صاحب الكامل في التاريخ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة.

(٢) لسان العرب، مادة كهن. لجمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الإفريقي المصري المعروف بابن منظور. أديب ولغوي ولد بمصر وخدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة. ثم ولي القضاء في طرابلس، وعاد إلى مصر وتوفي بها سنة ٧١١هـ. من آثاره المتعددة: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر. نثار الأزهار في الليل والنهار. مختار الأغاني في الأخبار والتهاني. معجم المؤلفين، ١٢/٤٦.

(٣) معالم السنن، ٤/٢١١ ـ ٢١٢.

(٤) محيي الدين أبو زكرياء، يحيى بن شرف النووي (٦٣١ ـ ٦٧٧)، فقيه محدث حافظ. قرأ بدمشق، ولازم كمال الدين إسحاق المغربي، وسمع من الرضي بن البرهان وعبد العزيز الحموي. ولي مشيخة دار الحديث بعد شهاب الدين أبي شامة. من تصانيفه الكثيرة: روضة الطالبين وعمدة المفتين، في فروع الفقه الشافعي. تهذيب الأسماء واللغات. رياض الصالحين. المجموع شرح المهذب. عن معجم المؤلفين، ١٣/٢٠٢.

عبد الحي الكتاني[1]، وقال العزيزي: «الكاهن يتعاطى الأخبار عن الكائنات في مستقبل الزمان، والعراف هو الذي يدعي معرفة الشيء المسروق ومكان الضالة، ونحوهما»[2]. وقال الحفني: العراف «هو من يخبر عن الأمور الماضية كمال سرق، بواسطة حساب عنده، ونحو ذلك. أما الكاهن فهو من يخبر بما يحدث في المستقبل لزعمه ذلك لسر عنده»[3] وقال العيني - في عبارة محكمة - : «الكاهن الذي يخبر بالغيب المستقبل، والعراف الذي يخبر بما خفي وقد حصل في الوجود»[4].

---

(١) في كتابه المخطوط: تبليغ الأمانة في مضار الإسراف والتبرج والكهانة، ص ١٩٧. وفي التقديم لفهرس الفهارس، للكتاني: هو محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، من علماء المغرب بالقرن ١٤ الهجري، محدث ومؤرخ، رحل وسمع كثيرا بمصر والشام والحجاز. كثير التصنيف، له: أجوبة فقهية. النور الساري على صحيح البخاري. تاريخ جامعة القرويين. تعليقة على جامع الترمذي ولكنه اشتهر بكتابين: التراتيب الإدارية. فهرس الفهارس.(من المقدمة باختصار).

(٢) السراج المنير بشرح الجامع الصغير، ٣/ ٣١٤، لعلي بن أحمد العزيزي البولاقي، الشافعي، نور الدين. توفي بمصر سنة ١٠٧٠هـ. فقيه ومحدث، من تصانيفه الكثيرة: حاشية على شرح التحرير لزكريا الأنصاري. الفوائد العزيزية، وهي حاشية على شرح الغاية لابن قاسم. معجم المؤلفين، ٧/ ٢٤.

(٣) حاشية الحفني على السراج المنير، ٣/ ٣١٣ . وهو محمد بن سالم الحفني، الشافعي، الخلوتي، أبو المكارم، نجم الدين، عالم مشارك في علوم الدين والرياضيات واللغة ولد بقرية حفنة بمصر، تعلم بالأزهر، ثم تولى التدريس به، وولي مشيخته. توفي بالقاهرة سنة ١١٨١هـ. له حاشية على شرح الأشموني على الألفية. حاشية في الجبر والمقابلة. حاشية على شرح التلخيص في الفرائض.. معجم المؤلفين، ١٠/ ١٦.

(٤) عمدة القاري، شرح صحيح البخاري، ١٢/ ٥٨. حديث النهي عن حلوان الكاهن، في كتاب البيوع، باب ثمن الكلب. وانظر عمدة القاري - أيضا - : ٢٥/ ٣٠١، كتاب التوحيد، باب قراءة الفاجر وفي الأصل «بما أخفى»، وينبغي أن تكون «بما خفي» أو بما أخفي» على البناء للمجهول. أما العيني فهو محمود بن أحمد الحلبي ثم القاهري، الحنفي، بدر الدين أبو الثناء. عالم مشارك في علوم من الدين واللغة. تعلم بحلب والقدس، ثم صحب العلاء السيرافي إلى القاهرة ولازمه، وولي حسبة القاهرة، وعزل عنها مرارا وأعيد إليها، ثم ولي التدريس ونظارة الأحباس، فقاضي الحنفية بمصر. توفي بالقاهرة سنة ٨٥٥ هـ. له عمدة القاري. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. رمز الحقائق شرح كنز الدقائق. المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية معجم المؤلفين ١٢/ ١٥٠.

والذي يبدو لي - والعلم لله وحده - أن تفرقة الجمهور أقرب إلى الصواب، وذلك للاعتبارات التالية:

أ - في الأحاديث الصحيحة أن الملائكة تتحدث فيما بينها عن قضاء الله تعالى بما سيكون في الأرض، وأن الشياطين تتسمع ذلك فتلقيه إلى الكهنة، فالظاهر أن الأمر يتعلق بالمستقبل، أي بأحداث ستكون، والملأ الأعلى يعرفها بما أوحى الله سبحانه به إليها، أي هو يعرفها قبل تنفيذ القضاء.

ب - إن قصص العرب عن الكهان وشؤونهم أكثرها يتعلق بتنبؤات تخص المستقبل، وهذا واضح لمن اطلع على شيء منها، ويكفيك ما يورده الأخباريون من كلام الكهنة قبيل البعثة النبوية وإشارتهم إلى قربها.

ولهذا كان الكاهن أشرف عند العرب من العراف، يقول الجاحظ: العراف دون الكاهن[1]. وكذلك قال المسعودي[2]. وذلك عندي أنه لما كان علم المستقبل أهم وأصعب وأكثر احتمالا، بينما علم الماضي أسهل، لأنه شيء واحد حدث وانقضى، وقد توجد علامات تدل عليه أو تشير إلى طريقهكان الذي يدعي معرفة المستقبل أهم وأشرف عندهم. وكذلك لأن للكاهن اتصالا بعالم الجن، والعرب تعظم هذا العالم، بينما العراف يرجع إلى قدرة ذاتية يدعيها.

ولا ينفي هذا أن الكهانة والعرافة عملان متداخلان، وأن الكاهن قد يخبر أيضا عن الغيب الماضي أو الحاضر، كما يقع في الكهانة اليونانية، ولذلك نجد في بعض التعاريف إطلاق لفظ الكهانة على أكثر أنواع التنبؤ بالغيب، أو على جميعها. فـ «كهن له.. قضى له بالغيب»[3]. و «الكهان الذين يدعون علم المغيبات»[4] وذكر القاضي

---

(١) كتاب الحيوان، للجاحظ، ٦/ ٢٠٤. وذكره عنه أيضا الزمخشري في «أساس البلاغة»، مادة عرف، ص ٤١٦. والجاحظ هو أبو عثمان عمرو بن بحر البصري، أديب ومتكلم، من رؤوس المعتزلة. ولد بالبصرة، وأقام ببغداد، وتوفي سنة ٢٥٥هـ. تتلمذ على أبي عبيدة والأصمعي والأخفش والنظام له: البيان والتبيين. الطبائع. النبيء والمتنبئ. سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف.. معجم المؤلفين، ٨/ ٧.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٢/ ١٧٤. لصاحبه أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مؤرخ، وكتب أيضا في الأديان والفرق، بغدادي وتوفي بمصر سنة ٣٤٦هـ، كما في الأعلام، ٥/ ٨٧.

(٣) لسان العرب، أول مادة كهن.

(٤) السراج المنير بشرح الجامع الصغير، ٣/ ٤٥٤.

عياض بعض فنون التنبؤ عند العرب، ثم قال: «وكلها ينطلق عليها اسم الكهانة في كتبهم»[1].

ولهذا يقول الجرجاني: «الكاهن هو الذي يخبر عن الكوائن في مستقبل الزمان، ويدعي معرفة الأسرار ومطالعة علم الغيب»[2] فعرفه - أولا - بما يغلب عليه أو يختص به، ثم نبه - ثانيا - على ادعائه علم الغيب على العموم.

وهذا التداخل بين هذه الاصطلاحات عام، ولذلك كان من العرب «من يدعو الطبيب كاهنا، وربما دعوه أيضا عرافا»[3].

يقول ابن الأثير - في حديث من أتى عرافا أو كاهنا - : «أراد بالعراف المنجم أو الحازي الذي يدعي علم الغيب، وقد استأثر الله تعالى به»[4] وكذلك يقال للحازي عرافوللطبيب عراف، لمعرفة كل منهم بعلمه. قال الشاعر عروة بن حزام:

فقلت لعراف اليمامة: داوني *** فإنك - إن أبرأتني - لطبيب[5]

إلا أن المنجم اختص - في العصور اللاحقة بوجه خاص - بادعاء معرفة الغيب استنادا إلى أوضاع الأفلاك وحركاتها.

وسبب هذا التداخل بين هذه الألفاظ أن «العرب تسمي كل من يتعاطى علما دقيقا كاهنا، ومنهم من كان يسمي المنجم والطبيب كاهنا»[6] كذا ذكره ابن الأثير، وابن منظور[7].

وقد كانت العرب أحيانا تسمي كل من آذن بشيء قبل وقوعه كاهنا.

وللأستاذ جواد علي رأي في هذا الموضوع، قال: «وخلاصة ما يفهم عن الكهانة والعرافة في روايات الأخباريين أن الكهانة هي التنبؤ بواسطة تابع، وأن

---

(١) انظر شروح صحيح مسلم: المنهاج ١٤/ ١٨٧. المفهم ٥/ ٦٣٣. إكمال الإكمال ٦/ ٤٥.

(٢) التعريفات ، ص ٧٩. الجرجاني هو علي بن محمد المعروف بالشريف، عالم ومتكلم ومنطقي ولغوي . توفي بشيراز سنة ٨١٦ هـ. عن الأعلام، ٥/ ١٥٩.

(٣) معالم السنن، ٤/ ٢١٢.

(٤) النهاية في غريب الحديث، ٣/ ٩٨.

(٥) لسان العرب ، مادة عرف.

(٦) النهاية في غريب الحديث ، ٤/ ٤٣.

(٧) لسان العرب، كلمة كهن.

العرافة تكون بالملاحظات وبالاستنتاجات وبمراقبة الأشياء لاستنتاج أمور منها، يخبر بها السائلين على سبيل التنبؤ. وهي على ما يظهر من تلك الروايات دون الكهانة في المنزلة، ولم يكن للعرافين اتصال ببيوت العبادة والأصنام، ولم يكن لهم رئي، أي تابع، وإنما كانوا يستنبطون ما يقولونه بذكائهم وعلى القياس، فيأخذون بالمشابهة وبالارتباط بين الحوادث، ويحكمون بما سيحدث بموجب ذلك»[1].

فالأمر على كل حال محتمل، ويجوز أن نقول كما قال عبد الرحمن آل الشيخ: «المقصود من هذا معرفة أن من يدعي معرفة علم الشيء من المغيبات فهو إما داخل في اسم الكاهن، وإما مشارك له في المعنى، فيلحق به. وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف، ومنه ما هو من الشياطين، ويكون بالفأل والزجر والطيرة والضرب بالحصى والخط في الأرض والتنجيم والكهانة والسحر، ونحو هذا من علوم الجاهلية وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهنا أو عرافا أو في معناهما»[2].

وقد قدمت أن استعمال كلمة الكهانة كان يختلف على طريقتين، فهي تطلق على أساليب التنبؤ بالغيب على اختلافها، وكذلك تطلق على ادعاء معرفة المستقبل بالخصوص، إما بواسطة رئي أو بقوة نفسية ذاتية. على حين تعتمد العرافة على التفرس والاستنتاج.. ولعله إذا اتضح المراد لا يضر هذا الاختلاف في الأسماء. على أنني سأسير في هذا البحث على اصطلاح ما يبدو لي أنه رأي الجمهور، والذي بمقتضاه يطلق الكاهن على من يخبر عن المستقبل بطريق غير معتاد، بادعاء اتصال بالشياطين، أو بقدرة خاصة وذاتية.

وقد رأيت أن أعرف بمصطلحات أخرى تذكر مع الكهانة.

العيافة:

هي فن التنبؤ عن طريق ملاحظة حركات الطيور وجهة طيرانها وطبيعة أصواتها.. فتتسعد أو تتشاءم. وكانوا يتشاءمون من بعض الطيور كالغراب، وربما لاحظوا طيران

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦/ ٧٧٢.

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧، لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، المتوفى سنة ١٢٨٥هـ وهو عالم من الجزيرة العربية، من ذرية محمد بن عبد الوهاب.

الطير، فإن اتجه يمينا أقبلوا على ما نووا، وإن اتجه يسارا تركوا ما كانوا مقبلين عليه. وتسمى هذه الطيور بالسوانح.

والعائف المتكهن، الذي يعيف الطير ويزجرها. ويطلق أحيانا على الذي يقول شيئا بمجرد حدسه[١]

الحازي:

حزا حزوا وتحزى تحزوا: زجر وتكهن[٢]. وحزى النخل خرصه[٣].وحزى الطير زجرها وساقها، وهو عندهم أن ينعق الغراب مُستقبَل رَجل وهو يريد حاجة، فيقول هو خير فيخرج؛ أو ينعق مستدبره فيقول هذا شر فلا يخرج[٤].

والحازي الذي يحزر الأشياء ويقدرها بظنه[٥]، أو الذي ينظر في الأعضاء وفي خيلان الوجه يتكهن[٦]. ولذلك يقال الحازي الكاهن[٧]. وبعضهم يجعل الحازي دون الكاهن[٨]. ويقال أيضا للمنجم الحازي أو الحزاء[٩]. والظاهر أن الحازي أقرب إلى طريقة التفرس والحدس.

أهمية عالم الأرواح عند العرب:

يقول الدكتور جواد علي ـ أحد أفضل المختصين في الحياة العربية قبل الإسلام ـ: «للعالم الخفي، وأقصد به عالم الأرواح وكل ما لا تراه العين ويدركه

(١) راجع مادة «عيف» في: لسان العرب. تاج العروس. النهاية في غريب الحديث، ٣/ ١٦٣.

(٢) تاج العروس شرح القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي، التاج للمرتضى الزبيدي. مادة حزى.

(٣) تاج العروس . مادة حزى.

(٤) تاج العروس . مادة حزى.

(٥) النهاية لابن الأثير، ١/ ٢٧٥. لسان العرب، كلمة حزى.

(٦) تاج العروس، كلمة حزى.

(٧) لسان العرب. كلمة حزى.

(٨) تاج العروس، مادة حزى.

(٩) النهاية، ١/ ٢٥٧. لسان العرب، مادة حزى. وفي الحديث كان هرقل حزاء ينظر في النجوم، انظر كتاب بدء الوحي في صحيح البخاري.

الحس من قوى طيبة أو خبيثة، أثر خطير في عقائد أهل الجاهلية، وفي عقائد الشعوب القديمةإذ يشغل ذلك العالم في الواقع جزءا خطيرا من الدين ومن حياة الناس عامة. فهناك صلوات وشعائر وأدعية مكتوبة وغير مكتوبة تتلى وتقال وتقرأ للسيطرة على ذلك العالم، وللانتفاع منه، ولتسخيره في سبيل خير الإنسان ومصلحته، ولتجنب أذى النوع الخبيث منه. وإذا تتبعنا هذه الاعتقادات عند الجاهليين، وجدنا أنها قد كونت الجزء الأكبر من عقيدتهم وديانتهم، وأنها والذبائح من الأصول التي ارتكزت عليها ديانات العرب قبل الإسلام. والواقع أن الاعتقاد بالأرواح يشغل حيزا كبيرا من فناء الدين عند الجاهليين، وإن بدا لنا أنه شيء لا علاقة له بالدينكانت الأرواح في نظرها (أي جماعة الجاهليين) أكثر أثرا في حياة الفرد من أثر الآلهة فيه، فتقربه وتوسله إليها أكثر من تقربه وتوسله إلى آلهته التي كان يرى أن بيدها مفتاح سعادته وشقائه. وآية ذلك كثرة الكلمات والمصطلحات الجاهلية المتعلقة بها، وما ورد في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي والأخبار من أثر الجن في نفوس القوم، حتى تصوروهم آلهة وشركاء للأرباب في إدارة دفة هذا الكونوطبيعة الأرواح طبيعة غير مرئية ولا منظورة، هي لطيفة خفية مستورة. إنما يجوز لبعضها الظهور في صورة أشباح، والتجسم على هيأة الأجساد. ثم إنها على طبيعتين: شريرة وخيرة، خبيثة وصالحة. من الطبيعة الأولى الشياطين وبعض أنواع الجن، ومن الطبيعة الثانية الملائكة والشطر الثاني من الجن. وأثر الخبيث من الأرواح أوضح وأكثر في عقلية أهل الجاهلية من أثر الفريق الصالح»[1]

ولم يكن العرب بين الأمم بدعا في هذا الاعتقاد، فأكثر الناس قديما آمنوا بوجود عوالم أخرى غير دنيا الإنسان، وآمنوا خصوصا بخلق خاص اسمه الجن[2]. يقول ابن تيمية: «جماهير الأمم يقر بالجن، ولهم معهم وقائع يطول وصفها. ولم ينكر الجن إلا شرذمة قليلة من جهال المتفلسفة والأطباء ونحوهم، وأما أكابر القوم فالمأثور عنهم: إما الإقرار بها، وإما أنه لا يحكى عنهم في ذلك قول»[3]

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦/ ٧٠٥ ـ ٧٠٦.

(٢) راجع حول أصل كلمة «الجن»، هل هو عربي أم إيراني أم سامي: المفصل، لجواد علي، ٦/٧٠٧ ـ ٧٠٨.

(٣) الفتاوى ١٩/ ٣٢.

بل حاول الناس ـ منذ حقب بعيدة ـ الاستعانة بالجن لصالحهم، قال ابن تيمية: «جماهير الطوائف تقر بوجود الجن، بل يقرون بما يستجلبون به معاونة الجن من العزائم والطلاسم، سواء أكان ذلك سائغا عند أهل الإيمان أو كان شركا فإن المشركين يقرأون من العزائم والطلاسم والرقى ما فيه، عبادة للجن وتعظيم لهم»[1].

والكهانة هي أحد أهم المجالات التي وقع فيها استعانة الناس ـ ومنهم العرب ـ بالجن وبعالمهم.

تعظيم العرب للجن خاصة:

وقد كان من شأن بعض الأمم تعظيم الجن وإجلالهم، وكان ذلك فاشيا في العرب أيام الجاهلية. قال ابن تيمية: «كان الرجل من الإنس ينزل بالوادي ـ والأودية مظان الجن، فإنهم يكونون بالأودية أكثر مما يكونون بأعالي الأرض ـ، فكان الإنسي يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه، فلما رأت الجن أن الإنس تستعيذ بها زادهم طغيانهم وغَيَّرهم، وبهذا يجيبون المعزم والراقي بأسمائهم وأسماء ملوكهم، فإنه يقسم عليهم بأسماء من يعظمونه، فيحصل لهم بذلك من الرئاسة والشرف على الإنس ما يحملهم على أن يعطوهم بعض سؤلهم، لاسيما وهم يعلمون أن الإنسان أشرف منهم وأعظم قدرا. فإذا خضعت الإنس لهم واستعاذت بهم كان بمنزلة أكابر الناس إذا خضع لأصاغرهم ليقضي له حاجته»[2].

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الاعتقاد الفاسد، فهؤلاء الجن الذين استمعوا إلى قراءة النبي ﷺ يقولون: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سورة الجن: ٦]. وكذلك شرح كثير من المفسرين هذه الآية، وهو قول جماعة من السلف كابن عباس والحسن البصري وقتادة وإبراهيم وغيرهم. قالوا: كانوا يقولون فلان من الجن رب هذا الوادي، فكان أحدهم إذا دخل الوادي يعوذ برب الوادي من دون اللهأو نحوا من هذا[3]. وقال ابن كثير: معنى الآية «أي كنا نرى أن لنا فضلا على الإنسان، لأنهم كانوا يعوذون بنا، أي: إذا نزلوا واديا أو مكانا موحشا من البراري

---

(١) الفتاوى ١٩/ ١٣.

(٢) الفتاوى ١٩/ ٣٤.

(٣) راجع: جامع البيان للطبري، ٢٩/ ٥٩. المقصود بإبراهيم: النخعي من تلامذة أصحاب ابن مسعود.

وغيرها، كما كان عادة العرب في جاهليتها، يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقا»[1] وهذه الكلمة «رهقا» فسرت بألفاظ مختلفة ولكنها متقاربة، فقيل رهقا إثما، قال الطبري: «معنى ذلك فزاد الإنس الجن بفعلهم ذلك إثما، وذلك زادوهم به استحلالا لمحارم الله. والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم»[2].

وقيل المعنى ازدادت الجن جراءة عليهم أو طغيانا أو شرا أو عظمة، وذلك أنهم كانوا يزدادون بهذا التعوذ طغيانا، يقولون سدنا الجن والإنس[3].

وبعض العلماء يورد الخبر التالي باعتباره سبب نزول الآية[4]: عن كردم بن أبي السائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي من المدينة في حاجة، وذلك أوّل ما ذُكر رسول الله بمكة، فآوانا المبيت إلى راعي غنم. فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم، فوثب الراعي فقال: يا عامر هذا الوادي، جارك! فنادى مناد لا نراه يقول: يا سِرحان، أرسله. فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة. وأنزل الله على رسوله بمكة: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾. قال ابن كثير: «قد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل، وهو ولد الشاة، كان جنيا حتى يرهب الإنسي ويخاف منه، ثم رده عليه لما استجار به ليضله ويهينه، ويخرجه عن دينه، والله أعلم»[5].

---

(1) تفسير القرآن لابن كثير، ٤/٥٠٦. عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البصروي ثم الدمشقي. ولد ببصرى ثم انتقل إلى دمشق، ونشأ بها. ودفن بمقبرة الصوفية إلى جوار شيخه ابن تيمية عام ٧٧٤ هـ. من تصانيفه: مختصر علوم الحديث لابن الصلاح. البداية والنهاية، في التاريخ. السيرة النبوية. جامع المسانيد. معجم المؤلفين ٢/ ٢٨٣.

(2) جامع البيان من تأويل آي القرآن، ٢٩/ ٥٩. والمصنف هو أبو جعفر محمد بن جرير بن زيد، رحل كثيرا وجد في طلب العلم، وأكثر من التأليف. أحد أئمة الاجتهاد. توفي ببغداد، ٣١٠هـ. وانظر التفاصيل في: سير أعلام النبلاء، للذهبي، ١٤/ ٢٦٧.

(3) معالم التنزيل للبغوي، ٨/ ٢٣٩. تفسير ابن كثير، ٤/ ٥٠٦. وانظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ٢٩ / ٢٢٥.

(4) مثل البغوي في معالم التنزيل، ٨/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩. ابن كثير في تفسيره، ٤/ ٥٠٦.

(5) تفسير ابن كثير، ٤/ ٥٠٦.

والظاهر أن هذا الأثر ضعيف، لأن فيه عبد الرحمن بن إسحاق الكوفي[1]، ولكنه مثال لهذه العلاقة التي كانت تجمع العربي بالجن، والقائمة على التعظيم والرغبة في الاستفادة مما عندهم، أي قائمة على الرهبة والرغبة[2].

هذا شأن العرب في الأكثر، وبعضهم جعل الجن شركاء لله سبحانه ـ بشكل ما ـ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]. وقال: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨].

وكان بعض العرب يرفع هذه العلاقة مع الجن إلى درجة العبادة، ويروى ذلك بالخصوص عن بني مليح من قبائل خزاعة. ويشير الكتاب الكريم إلى ذلك، ففي سورة سبأ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [آيات ٤٠ ـ ٤١]. قال ابن عطية: «والقول للملائكة، وهو توقيف تقوم منه الحجة على الكفاروهذا نحو قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي﴾ .. (ف) قالت الملائكة سبحانك أي تنزيها لك عما فعل هؤلاء الكفرة، ثم برءوا أنفسهم بقولهم: أنت ولينا من دونهم، يريدون البراءة من أن يكون لهم رضى أو علم أو مشاركة في أن يعبدهم البشر. ثم قرروا أن البشر إنما عبدت الجن برضى الجن وبإغوائها للبشر، فلم تنف الملائكة عبادة البشر إياها وإنما قررت أنها لم تكن لها في ذلك مشاركة، ثم ذنّبت الجن»[3].

---

(١) قال ابن حجر: ويقال له أيضا الواسطي الأنصاري، اتفق النقاد على تضعيفه، وقال جمع منهم: يكتب حديثه. انظر تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، ٦/ ٢٨٢. لكن ابن حجر ذكر لهذا الحديث شواهد تقويه، منها ما أخرجه ابن مردويه في التفسير. راجع كتابه الإصابة في تمييز الصحابة، ٥/ ٥٧٨، ترجمة ٧٣٩٤. وكردم صحابي. وعزا الهيثمي خبر كردم إلى الطبراني، انظر المجمع ٧/ ١٢٩. وعزاه السيوطي أيضا إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والعقيلي في كتابه عن الضعفاء والطبراني وأبي الشيخ في العظمة وابن عساكر. انظر الدر المنثور، للسيوطي، ٦/ ٢٧١..

(٢) انظر مثلا آخر في: هواتف الجنان، للخرائطي، ص ٥٧ إلى ٦٠، وهي قصة رافع بن عمير، صحابي من بني تميم.

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ١٣/ ١٤٦. وابن عطية هو أبو محمد عبد الحق بن =

ثم لفظ العبادة يحتمل معنيين: «وعبادة البشر للجن هي فيما نعرفه نحن بطاعتهم إياهم وسماعهم من وسوستهم وإغوائهم، فهذا نوع من العبادة. وقد يجوز أن كان في الأمم الكافرة من عبد الجن، وفي القرآن آيات يظهر منها أن الجن عُبدت»[1]. كاللتي قدمت قبل قليل، في الأنعام والصافات. ويرى المستشرق نولدكه أن المعنى الأول هو المقصود، وأن الجاهليين لم يتخذوا الجن آلهة على نحو ما نفهم نحن من معنى الآلهة[2].

وكلا الرأيين محتمل، ولكن ظاهر القرآن يشهد للرأي الثاني، أي أن في العرب من عبد الجن حقا، ويعضده ما ذكره الرواة عن خزاعة وغيرها، وهذا لا يستبعد في بيئة عظمت الجن جدا.

أثر هذا التعظيم في التراث العربي:

ولما كان الاعتقاد في الجن وفي تدخلها في حياة البشر..يحتل مكانة هامة في نفوس العرب وعقولهم، فقد كثرت الأخبار التي يقصها الرواة عن هذا العالم..في تفاصيل كثيرة وعجيبة، يقول المسعودي: «وقد كانت العرب قبل ظهور الإسلام تقول إن من الجن من هو على صورة نصف إنسان، وإنه كان يظهر لها في أسفارها وحين خلواتها وتسميه شِقّا»[3]. وتذكر العرب رجالا تزعم أن الجن قتلتها[4]، بل هي تروي عنهم شعرا، ولا عجب في ذلك فقد كلف العرب بالشعر حتى رووه عن الجن، بل حتى عن الموتى في قبورهم[5].

ولبعض الدارسين رأي في كثرة الأدب المتعلق بالجن عند العرب، قالوا: «وقد كان لأهل اليمن قصص وأساطير، بدليل ما نلاحظه من أن معظم رواة القصص

= غالب الغرناطي، تولى قضاء ألمرية، وبرع في التفسير والعربية والفقه. توفي سنة ٥٤١ هـ، كما في سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٥٨٨.

(١) المحرر الوجيز، ١٣/ ١٤٦. وانظر التحرير والتنوير، ٢٢ / ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٢) عن: المفصل: ٦/ ٧١٠ ـ ٧١١.

(٣) مروج الذهب، ٢/ ١٦٠ ـ ١٦١.

(٤) مروج الذهب، ٢/ ١٦٢.

(٥) مروج الذهب، ٢/ ١٦١. وانظر في ص ١٦٣ شعر حاتم طيء أنشده لابنه لما زاره في المنام بعد وفاته.

القديم كانوا من أهل اليمن في صدر الإسلام. ويظهر أنهم حذقوا به وتفوقوا به على بقية العرب الذين نسميهم العدنانيين بسبب دخول كثير

منهم في اليهودية والنصرانية وشرائهم الكتب، وفيها قصص من قصص أهل الكتاب والأساطير القديمة، فمزجوه مع ما كان لهم من قصص وثني قديم»[1] «وقد مون القصص الإسرائيلي أهل الجاهلية بشيء مما كان ينقصهم من أساطير الجن، وتوسع وزاد هذا القصص في الإسلام، حتى ولد منه هذا الذي نجده مدونا عن أخبار الجن في المؤلفات الإسلامية»[2].

والذي أميل إليه هو أن جزءا - غير متعين - مما يذكره الأخباريون عن الجن والعرب في الجاهلية..صحيح. وقد كان في العالم - قبل الإسلام - عجائب، يكفيك منها ما كان في بني إسرائيل.

ومن أفضل الكتب في الباب - وأعني بالأفضل بالنسبة إلى غيره - ما جمعه الحافظ الخرائطي[3] من أحاديث وآثار في «هواتف الجِنَّان». وأكثر الأخبار في هذا الكتاب ضعيف، وقد نقلت منه ما يصلح للنقل أو الاحتجاج.

وبعد هذا لا ريب أن خيال العرب كان واسعا وعريضا حتى إنهم جعلوا من حياة الجن صورة لحياتهم هم ودنياهم هم، فالجن - مثل أهل الجاهلية - قبائل متصارعة، بينها أحلاف وعصبية، يغير بعضها على بعض، ينشدون الأشعار ويحركهم الثأر[4].

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦/ ٧١٥.

(٢) المفصل، ٦/ ٧٢٢.

(٣) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء، ١٥/ ٢٦٧: «الإمام الحافظ الصدوق المصنف، أبو بكر، محمد بن جعفر السامري الخرائطي. صاحب كتاب «مكارم الأخلاق»، وكتاب «مساوئ الأخلاق»، وكتاب «اعتلال القلوب»، وغير ذلك حدث بدمشق وبعسقلان. قال ابن ماكولا: صنف الكثير، وكان من الأعيان الثقات. وقال الخطيب كان حسن الأخبار، مليح التصانيف. قيل مات بيافا في ربيع الأول سنة ٣٢٧هـ» باختصار. قلت: وفي «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان تسمية الكتاب بـ «هواتف الجنان وعجيب ما يحكى عن الكهان» ٣/ ١٣٩، (طبعة دار الكتاب).

(٤) اقرأ نماذج لهذا الخيال في: المفصل ٦/ ٧١١ فما بعدها، وفي كتب التاريخ كمروج الذهب، وكتب الأدب كموسوعات القلقشندي والنويري والأصفهاني صاحب الأغاني

ولكن الاهتمام بهذا العالم الخفي كان أمرا جديا بالنسبة للعرب، يقول جواد علي: «لقد لعب الإيمان بالجن عند بعض الجاهليين دورا فاق الدور الذي لعبته الآلهة في مخيلتهم، فنسبوا إليها أعمالا لم ينسبوها إلى الأرباب، وتقربوا إليها لاسترضائها أكثر من تقربهم إلى الآلهة. إنها عناصر مخيفة راعبة، تؤذي من يؤذيها وتلحق به الأذى والأمراض، ولذلك كان استرضاؤها لازما لأمن تلك الآفات. وهذه العقيدة جعلت الجن في الواقع آلهة، بل أكثر سلطة ونفوذا منها، وصيَّرت عمل الآلهة سهلا يسيرا تجاه الأعمال التي يقوم بها الجن»[١].

الرئي:

اعتقد العرب أن هناك وحيا يوحي إلى الكاهن بما يقوله، وقالوا لذلك المصدر الذي يوحي: شيطان الكاهن، كما قالوا للمصدر الذي يوحي إلى الشاعر بشعره: شيطان الشاعر[٢]. وكانوا يرون أن في الكاهن قوة خارقة وقابلية خاصة لتلقي الوحي من هذا الشيطان، الذي يتصورونه على هيأة شخص غير منظور يطلقون عليه اسم التابع أو الصاحب أو الرئي، لأنه يكون تابعا وصاحبا للكاهن، يتبعه ويصاحبه ويلقي إليه بكلام الكهانة[٣]

قال الجاحظ: «وكانوا يقولون: إذا ألف الجني إنسانا وتعطف عليه، وخبره ببعض الأخبار، وجد حسه ورأى خياله، فإذا كان عندهم كذلك قالوا: مع فلان رئي من الجن»[٤] يخبره بما وقع ويقع من الأسرار.

«والكهان يرون تابعهم، وقد يتجلى لهم في صورة إنسانفقد كان للغيطلة، وهي كاهنة..تابع يفد إليها، ويدخل غرفتها..كما كان لفاطمة بنت النعمان النجارية، وهي كاهنة كذلك، تابع من الجن..فالكاهن إذن هو الذي يتنبأ بواسطة تابع، ولا يستطيع غير الكاهن رؤية التابع. وتكون الكهانة كلاما يلقيه الكاهن نفسه، أو تابعه»[٥].

---

(١) المفصل، ٦/٧٠٩.

(٢) المفصل، ٦/٧٥٨.

(٣) المفصل، ٦/٧٥٧.

(٤) الحيوان، ٦/٢٠٣.

(٥) المفصل، ٦/٧٦٠ ـ ٧٦١.

الهاتف:

والهاتف شيء آخر غير الرئي، فهو صوت تسمعه ولا ترى قائله، وأكثر الهواتف من الجن. وقد كان الأعراب يؤمنون بالهاتف، ويتعجبون ممن يرده[1]. قال جواد علي: «تتردد في الأخبار كلمة هاتف والهاتف، بمعنى صوت صادر من مصدر غير مرئي، وردت في مواضع عديدة من القصص الجاهلي، ووردت بعدها الجمل التي قالها الهاتف لمن وجه خطابه إليه. وهي تكهن وإخبار، عن أمر وقع وحدث، أو لتحذير من القيام بعمل ما، أو بإرشاد إلى عمل أو جهة أو ما شابه ذلك من الأمور. وقد تستعمل بمعنى الرئي الذي يهتف للكاهن، أو الصوت الذي يزعم أنه يخرج من جوف الصنم»[2].

والأخبار عن الهواتف قبل الإسلام كثيرة، قال المسعودي: «فأما الهواتف فقد كانت كثرت في العرب واتصلت بديارهم، وكان أكثرها أيام مولد النبي ﷺ، وفي أولية مبعثه، ومن حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئي»[3].

منزلة الكهانة والكهان عند العرب:

وقد كان للكهانة ـ وما إليها من فنون التنبؤ ـ مكانة عظيمة بين العرب، وكثر بينهم من يتعاطاها ويدعيها، حتى قيل إنهم كانوا بين متكهن وحداس وراق ومنجس ومتنجم[4]. ويقول الأستاذ جواد علي: « كان للكهان على ما يتبين من قصص الأخباريين أثر كبير في حياة العرب قبل الإسلام. فقد كان الناس يستشيرونهم في إبرام مهمات الأمور، كإعلان حرب أو كشف عن جريمة أو بحث عن شيء مفقود وما شاكل ذلك. لقد كانوا يستشيرونهم في الحروب، يتنبؤون للناس بقرب حدوث غزو أو نزول كارثة أو خير سيقع قريبا. لقد كان هجوم بني أسد على حجر بمشورة الكاهن

---

(١) الحيوان، ٦/ ٢٠٢.

(٢) المفصل ، ٦/ ٧٣٧.

(٣) مروج الذهب، ٢/ ١٦٠. وانظر في أخبار الهواتف: السيرة النبوية، لابن كثير، ١/ ٣٥٥ فما بعدها. ولأبي بكر عبد الله بن أبي الدنيا المتوفى سنة ٢٨١هـ كتاب في الهواتف، ذكره بروكلمان في «تاريخ الأدب العربي». طبعة دار الكتاب الإسلامي، ٣/ ١٣١.

(٤) المفصل، ٦/ ٧٥٥.

وبرأيه، وكان تركهم تميما وافتراقهم عنهم في يوم جبلة بتحذير من الكاهن كذلك. وقد استعان النعمان أو يزيد ابن عمرو الغساني بالكاهن الخمس التغلبي، لإخباره عمن تجاسر على ناقته فقتلها، كما استعان عتبة بن ربيعة به في إثبات نسب ابنته هند منه[1]».

ومن أشهر الكهان في العرب سطيح وشق بن صعب. ولهما ـ كما قال المسعودي ـ أخبار عجيبة، قال: «وكان أول ما تكهن به سطيح الغساني أنه كان نائما في ليلة سهاكية مظلمة مع إخوته في لحاف، والحي خلوف، إذ زعق من بينهم ورن وتأوه، وقال: والضياء والشفق، والظلام والغسق، ليطرقنكم ما طرق، قالوا: ما طرق يا سطيح؟ قال: ما طرق إلا الأجلح، حين سرى الليل البهيم الأفلح، وولاهم بسردح. قالوا: وما علامة ذلك يا سطيح؟ قال: أمر يسد النقرة، ذو حبسة في الوجرة، وحرة بعد حرة، في ليلة قرة. فانصرفوا عن قوله، واستهانوا بأمره، وتعاصفت مدود من أودية هناك، ففاجأتهم في ليلة باردة قرة كما ذكر، فساقت الأنعام والمواشي، وكادت أن تذهب بعامتهم»[2].

وكذلك يروي المؤرخون أن بعض الكهنة ـ ومنهم طريفة الخير ـ أخبروا بانهيار سد مأرب في مملكة سبأ، فوقع ذلك كما أخبروا[3].

بل وصلت شهرة بعض الكهان العرب إلى بلدان مجاورة كفارس، وكان بعضهم ضمن حاشية كسرى الضخمة من الكهنة والسحرة والمنجمين[4]. ويزعم أهل التواريخ أن شهرة سطيح بالإصابة ذكرت لكسرى زمانه، وأنه فسر له أمورا أزعجته، فأخبره عنها وتكهن له ببعض الحوادث، وكان ذلك حين مولد النبي ﷺ. وكان سطيح من أهل القرن السادس للميلاد[5].

ويروى أحيانا أن النبي ﷺ سئل عن سطيح، فقال: نبي ضيعه قومه. والظاهر أن هذا الخبر يشبه أن يكون موضوعا، وحيث عاش سطيح لم يكن يبعث نبي، بل كان

---

(١) المفصل، ٧٦٣/٢.
(٢) مروج الذهب، ١٩٢/٢.
(٣) مروج الذهب، ١٨٥/٢ إلى ١٨٨.
(٤) المفصل، ٧٦٦/٦.
(٥) راجع: هواتف الجنان، للخرائطي، ص ٧٣ فما بعدها.

ن فترة، وهي أكثر قليلا من خمسة قرون، ما بين رسالة عيسى عليه السلام ومبعث مد ﷺ. والأولى أن سطيحا كان كاهنا، وأنه فاق غيره في درجة الإصابة، وبذلك تهر، ولذلك اشتهر. ولهذا قال الحافظ ابن كثير: «أما هذا الحديث فلا أصل له في يء من كتب الإسلام المعهودة، ولم أره بإسناد أصلا»[1].

ولما اقترب زمن بعثة النبي ﷺ أخبر كثير من الكهنة بذلك، وكان هذا من الأشياء تي أتى بها الكهان على وجهها، قال ابن إسحاق: «كانت الأحبار من اليهود، الرهبان من النصارى، والكهان من العرب، قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل بعثه، لما تقارب من زمانه. أما الأحبار من يهود، والرهبان من النصارى، فعما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه. وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع، إذ كانت وهي لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره، لا تلقي العرب لذلك فيه بالا، حتى بعثه الله تعالى، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون فعرفوها»[2].

وتكثر في كتب السيرة وأخبار العرب وآدابها ذكر الروايات عن الكهان والهواتف التي سمعها بعض الناس والأصوات التي تخرج من الأصنام..كلها تتحدث عن مبعث النبي ﷺ أو تشير إلى اقترابه[3]. من ذلك ـ على سبيل التمثيل ـ أن «أبا ثور عمرو بن معدي كرب رضي الله تعالى عنه قال: والله لقد علمت أن محمدا رسول الله ﷺ قبل أن يبعث. فقيل له: وكيف ذاك؟ قال: فزعنا إلى كاهن لنا في أمر نزل بنا، فقال

---

(1) السيرة النبوية، ١/ ٢٢٠.

(2) سيرة ابن هشام، ١/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥، وهي تهذيب لسيرة ابن إسحاق. وهو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي، المدني، أبو بكر. محدث، غلب عليه الاشتغال بأيام العرب وأخبارهم، واشتهر خصوصا بالسيرة النبوية التي جمعها. له أيضا: الخلفاء. المبدأ. توفي ببغداد سنة ١٥١هـ. عن معجم المؤلفين، ٩/ ٤٤.

(3) راجع الباب الرابع: في بعض ما سمع من الهواتف وتنكس الأصنام، في «سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد»، ٢/ ٢٠٧ إلى ٢٢٤، لمحمد الصالحي. وقد جمع كثيرا من هذه الأخبار حجة الدين محمد بن عبد الله بن ظفر الصقلي، المتوفى سنة ٥٦٥هـ، في كتابه: خير البشر بخير البشر، عن التبشير بظهور محمد. كما في «تاريخ الأدب العربي»، ٦/ ١٦٢. وهو مخطوط.

الكاهن: أقسم بالسماء ذات الأبراج والأرض ذات الأدراج والريح ذات العجاج إن هذا لإمْراج ولقاح ذي نتاج. قالوا: وما نتاجه؟ قال: ظهور نبي صادق بكتاب ناطق وحسام ذالق. قالوا: أين يظهر وإلام يدعو؟ قال: يظهر بصلاح ويدعو إلى فلاح ويعطل الأقداح، وينهى عن الراح والسفاح وعن كل أمر قَباح. قالوا: ممن هو؟ قال من ولد الشيخ الأكرم حافر زمزم ومطعم الطير المحوم والسباع الضرم. قالوا: وما اسمه؟ قال: محمد، وعزه سرمد، وخصمه مكمد»[1].

ومن المؤكد أن قسما كبيرا من قصص العرب عن الكهان - وربما أكثره كما يقول العلامة ابن عاشور -[2] منتحل مكذوب، مثل ما رواه ابن عساكر[3] في تاريخه عن ابن عباس يروي قصة سطيح الكاهن وتنبؤاته الدقيقة التي شملت مراحل النبوة والخلافة الراشدة وملك بني أمية، وتوقفت عند أيام بني العباس[4]، أي عند زمن الانتحال ووضع القصة! فالكاهن أبدا لا يستطيع التكهن بهذه التفاصيل، إنما هي كلمات يلقيهن شيئا فشيئا، يصيب في بعضهن ويخطىء في أكثرهن. لكن تبقى من هذه الأخبار جملة صالحة لها أصل، خصوصا فيما حوته كتب السيرة وبعض مصنفات الحديث، وهي أخبار مسندة، أعني مذكورة بأسانيدها.

الكاهن حكم أيضا:

ولم يكن الكاهن - في العرب - مجرد متنبيء بالغيبيات فقط، بل إلى ذلك كان يقوم بدور القضاء والتحكيم بين الأفراد، وأحيانا بين القبائل المتنازعة. يقول الأستاذ جواد: «ولم يكن الكاهن كاهنا، بمعنى المخبر عن المغيبات فقط، بل كان حاكما

---

(١) سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ١٩٢. وصلاح من أسماء مكة.

(٢) التحرير والتنوير، ١٤/ ٣٤. والطاهر بن عاشور من علماء تونس المحدثين، بل من كبار علماء الإسلام في القرن ١٤ الهجري. له كتب أخرى: مقاصد الشريعة. أليس الصبح بقريب. حاشية على الموطأ...

(٣) هو علي بن الحسن، أبو القاسم ثقة الدين، المعروف بابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١هـ). محدث وصاحب تاريخ. رحل كثيرا في طلب الحديث حتى صار يرجع إليه. أهم تصانيفه: تاريخ مدينة دمشق، في ثمانين مجلدا. وله أيضا الإشراف على معرفة الأطراف. تهذيب الملتمس. تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري. عن معجم المؤلفين ٧/ ٦٩.

(٤) السيرة النبوية، لابن كثير، ١/ ٢١٨ - ٢١٩.

حكم بين الناس فيما يقع بينهم من خلاف. فالكاهن حاكم يفصل في الخصومات. وقد كان أكثر حكام العرب كهانا، يقصدهم المتخاصمون من مواضع بعيدة لما عرفوا به من أصالة الرأي وصحة الحكم»[1]. ويقول في موضع آخر: «لاستشارة الناس هؤلاء الكهان في الأمور وطلبهم منهم الفصل فيها صارت كلمة (حكم) مرادفة لكلمة (كاهن) في بعض الأحايين. وقد روى الأخباريون أمثلة عديدة من حكم هؤلاء الكهان بين الناس وطريقة فصلهم في الأمور، فهم في هذه الحالة حكام يفصلون في القضايا التي يتفق الجانبان المتخاصمان فيها على إحالتها عليهم. ولم تكن لنفوذ أحكامهم مناطق وحدود. لقد كان حدود أحكامهم المدى الذي وصلت شهرة الكاهن إليه، لذلك كان الناس يقصدون الكاهن من مناطق بعيدة في بعض الأحيان لشهرته الواسعة التي يتمتع بها بين الناس. وتتوقف هذه الشهرة بالطبع على مبلغ ذكاء ذلك الكاهن وقدرته في فهم طبيعة المتخاصمين أو السائلين، ليتمكن من إصدار حكم معقول مقبول. وتكون أحكامهم قطعية، على الطرفين إطاعتها والامتثال لها، وليس لأحد أن يعترض عليها. ولذلك يأخذ الكاهن من الطرفين المتخاصمين قبل سماعه الشكوى عهدا بوجوب الامتثال لحكمه وعدم رده مهما كان نوع الحكم»[2].

وقصة عبد المطلب - جد النبي ﷺ - تقدم لنا فكرة جيدة عن الأدوار المتعددة للكهان: «قال ابن إسحاق: وكان عبد المطلب، فيما يزعمون، نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم، لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة.

فلما تكامل بنوه عشرة، وعرف أنهم سيمنعونه، وهم: الحارث، والزبير، وحجل، وضرار، والمقوم، وأبو لهب، والعباس، وحمزة، وأبو طالب، وعبد الله، جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله عز وجل بذلك. فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتوني.

ففعلوا ثم أتوه، فدخل بهم على هبل في جوف الكعبة، وكانت تلك البئر هي التي يجمع فيها ما يهدى للكعبة، وكان عند هبل قداح سبعة، وهي الأزلام التي يتحاكمون إليها إذا أعضل عليهم أمر من عقل أو نسب أو أمر من الأمور، جاؤوه فاستقسموا بها فما أمرتهم به أو نهتهم عنه امتثلوه.

---

(١) المفصل، ٦/ ٧٦٤.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦/ ٧٧١.

والمقصود أن عبد المطلب لما جاء يستقسم بالقداح عند هبل خرج القدح على ابنه عبد الله وكان أصغر ولده وأحبهم إليه، فأخذ عبد المطلب بيد ابنه عبد الله وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها، فقالوا: ما تريد يا عبد المطلب؟ قال أذبحه، فقالت له: قريش وبنوه إخوة عبد الله: والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يجيء بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا ؟!

ثم أشارت قريش على عبد المطلب أن يذهب إلى الحجاز فإن بها عرَّافة لها تابع، فيسألها عن ذلك، ثم أنت على رأس أمرك، إن أمرتك بذبحه فاذبحه، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه مخرج قبلته.

فانطلقوا حتى أتوا المدينة فوجدوا العرافة وهي سجاح، فيما ذكره يونس بن بكير عن ابن إسحاق، بخيبر، فركبوا حتى جاءوها فسألوها وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه، فقالت لهم: ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله.

فرجعوا من عندها، فلما خرجوا قام عبد المطلب يدعو الله، ثم غدوا عليها. فقالت لهم قد جاءني الخبر، كم الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل. وكانت كذلك. قالت: فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم.

فخرجوا حتى قدموا مكة، فلما أجمعوا على ذلك الأمر قام عبد المطلب يدعو الله، ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل، ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرا ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله؛ فزادوا عشرا فلم يزالوا يزيدون عشرا ويخرج القدح على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل، فقالت عند ذلك قريش لعبد المطلب، وهو قائم عند هبل يدعو الله: قد انتهى رضى ربك يا عبد المطلب. فعندها زعموا أنه قال: لا حتى أضرب عليها بالقداح ثلاث مرات. فضربوا ثلاثا ويقع القدح فيها على الإبل، فنحرت ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا يمنع...

وقد روي أنه لما بلغت الإبل مائة خرج القدح على عبد الله أيضا، فزادوا مائة أخرى حتى بلغت مائتين، فخرج القدح على عبد الله، فزادوا مائة أخرى فصارت

الإبل ثلاثمائة، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل فنحرها عند ذلك عبد المطلب. والصحيح الأول. والله أعلم»[1].

وقصة عبد المطلب ونذره مثال للأعمال المتعددة التي كان يقوم بها الكاهن، من الإخبار عن المجهول والخفي، والفصل بين الخصوم، وتقديم الاستشارةولهذا كان للكاهن دور اجتماعي علاوة على عمله الديني، والكهنة - من هذه الزاوية - يختلفون عن سدنة المعابد ورعاة الأصنام، وإن كانوا في بعض الحضارات شيئا واحدا، وطبقة واحدة، أي أن رجلا واحدا يكون كاهنا وسادنا في آن.

الظروف العامة للتكهن:

يقول الأستاذ جواد: «يدخل في التكهن التنبؤ بواسطة وسيط: مكالمة صنم، أو تابع، أي رئي، وقراءة كبد الشاة وقراءة أعضائها كما كان عند البابليين وعند المصريين. والتكهن بحركات الطيور وتفسير الأحلام، وتفسير بعض الظواهر

---

(1) السيرة النبوية، لابن كثير، ١/ ١٧٤ إلى ١٧٦. هذا الخبر تذكره كثير من كتب السيرة، ولم أجد - فيما راجعته منها - كلاما عن أسانيده ودرجته. فقد ذكره ابن إسحاق، ولم يعلق عليه لا هو ولا السهيلي في روض الأنف، ولا ابن كثير في سيرته. وذكره البيهقي في دلائل النبوة، ١/ ٨١، بسنده عن ابن إسحاق. واكتفى الكلاعي في الاكتفاء بقوله: قالوا فيما يزعمون والله أعلم، ثم ذكر الخبر. لكن ابن سعد أورده في الطبقات هكذا: أخبرنا محمد ابن عمر - أي الواقدي - أخبرنا محمد بن عبد الله عن الزهري عن قبيصة بن ذويب عن ابن عباس. ثم قال الواقدي أيضا: وحدثنا أبو بكر بن أبي سبرة عن شيبة بن نصاح عن الأعرج عن محمد بن ربيعة بن الحارث وغيرهم، قالوا ثم ذكر الخبر، ١/ ٨٨. ولعله مذكور أيضا في دلائل النبوة لأبي نعيم. لكن من الواضح أن هذا الخبر ضعيف من حيث السند، ولو كان صحيحا ما اختلف العلماء منذ عهد الصحابة في تعيين الذبيح هل هو إسحاق أم إسماعيل. وقد أورد السيوطي في رسالته» القول الفصيح في تعيين الذبيح «حديثا عن الحاكم في المستدرك وابن جرير في تفسيره والأموي في مغازيه والخلعي في فوائده، وفيه أن أعرابيا قال للنبي ﷺ يا ابن الذبيحين، فتبسم النبي. وفيه أيضا أن معاوية الصحابي ذكر قصة نذر عبد المطلب مختصرة والمقصود أن السيوطي قال بعدها: هذا حديث غريب، وفي إسناده من لا يعرف حاله. انظر «الحاوي للفتاوي» للسيوطي، ٢/ ٤٩٣. ثم إنني بعد هذا وجدت في مصنف عبد الرزاق الحديث الطويل في حفر زمزم، وفيه قصة النذر. وهو مرسل، رواه الزهري. انظر المصنف ٥/ ٣١٣، ٣١٦. حديث رقم ٩٧١٨.

الطبيعية، وما شابه ذلك، وكل هذه كانت معروفة عند الجاهليين. وليس من الضروري أن يكون التكهن بتكليم الصنم حتما، وفي المعبد بالضرورة، فقد كان من الكهان من يقيم في بيته ويتكهن مع ذلك للناس، ينطق بما يوحى إليه وبما يشعر به. وقاصدوه يرون أن فيه قوة خارقة وقابلية لتلقي الوحي من تلك القوة التي يتصورونها على هيأة شخص غير منظور يلقي إلى الكاهن الوحي، فينطق بما يناسب المقام وبما يكون جوابا على الأسئلة التي توجه إليه»[١].

«ويكون الكاهن في أثناء تكهنه في غيبوبة أو شبه غيبوبة في الغالب، ذلك لأنه متصل في هذه الأثناء بعالم مجهد صعب لا يتحمله كل إنسان... واتصال الروح بجسم الكاهن شيء جد عسير، يتصبب العرق منه. خاصة إذا كان المتكلم الكاهن نفسه.

ويكون التكهن، في الغالب، في مكان هادئ تكتنفه ظلمة أو عتمة، لأن للهدوء والظلام أثرا عظيما في النفوس، ويسبقه حرق بخور في الأكثر يستمر إلى ما بعد انتهاء التنبؤ، لأن البخور من الروائح الطيبة التي تؤثر في الأرواح، فتجلبها إلى المكان بسرعة. ثم إن له تأثيرا خاصا في الأعصاب، وهو بذلك مادة صالحة في الإيحاء لمن يقصد استشارة الكهان»[٢].

«وقد ذكر أن الكاهن كان لا يلبس المصبغ. أما العراف فإنه لا يدع تذييل قميصه وسحب ردائه، ويدل ذلك على أنهما كانا يميزان أنفسهما بمميزات وعلامات وأنهما كانا يتجنبان بعض الأمور»[٣].

امتحان الكهان:

«ويروي الأخباريون أن الناس كانوا إذا قدموا على الكهان امتحنوهم ليتأكدوا من صدق تكهنهم ومقدار علمهم. وذلك بإخفاء شيء إخفاء لا يمكن الاهتداء إليه، أو بوضع لغز، أو ما شابه ذلك، فيبدؤون الكاهن بالسؤال عنه. فإذا أجاب جوابا دل على معرفة وسعة علم، سألوه عن الأمر الذي عندهم والذي من أجله قصدوه. ويكون لهؤلاء الكهان أجر يدفع إليهم»[٤].

---

(١) المفصل، ٦/ ٧٥٧.

(٢) المفصل، ٦/ ٧٦١.

(٣) المفصل، ٦/ ٧٦٤.

(٤) المفصل، ٦/ ٧٦١.

أجرة الكهانة:

«العرف الغالب أن الكهانة لا تكون ولا تصح إلا بتقديم شيء للكاهن، لأن التابع لا يرضى بالتنبؤ إلا إذا رأى حلاوة التنبؤوما يعطاه الكاهن ويجعل له على كهانته، يقال له (الحلوان) و (حلوان الكاهن)، وهو شيء غير معين ولا ثابت، إنما يتفق عليه، والرأي الشائع بين العامة حتى الآن أن الكهانة لا تصدق إذا لم يعط الكاهن أو الساحر (حلوانه)؛ لأن ما يقدم إلى الكاهن لا يخصه ولا يكون له؛ إنما هو للرئي، والرئي لا يقوم بعمله ولا يحسن أداءه إلا بحلوان، يقبله مهما كان، وعلى الكاهن استشارة (التابع) ومراجعته فيه حتى يقنع، ويوافق على الأجر»[1].

وقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوما بشيء فأكل منه أبو بكر. فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسن الكهانة، إلا أني خدعته فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلتَ منه. فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه»[2].

الكهانة موهبة أم وراثة:

لم يكن الكهان من طبقة واحدة، فبعضهم من العامة، وآخرون من الأشراف أو

---

(١) المفصل، ٦/ ٧٦١ ـ ٧٦٢.

(٢) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، حديث رقم ٣٨٤٢، باب أيام الجاهلية، ٢٦. وقد انفرد البخاري بهذا الحديث عن باقي الستة. وروى عبد الرزاق في مصنفه، في باب الكاهن، أن أصحاب رسول الله نزلوا بأهل ماء، وفيهم أبو بكر، فانطلق النعيمان يخط لهم ـ أو قال يتكهن لهم ـ ، ويقول: يكون كذا وكذا، وجعلوا يأتونه بالطعام واللبن، وجعل يرسل إلى أصحابه.. فلما علم ذلك أبو بكر استقاءه. المصنف ١١/ ٢٠٩. وقد صحح الحافظ في الفتح هذا السند، ٧/ ٥٤٠. والقصتان متغايرتان، لأن التكهن ـ الذي في البخاري ـ كان في الجاهلية، أما هذا الذي ذكره الحافظ عبد الرزاق فكان بعدها. كذا نبه عليه ابن حجر في كتابه: الإصابة، ٦/ ٤٦٦، في ترجمة النعيمان بن عمرو، أحد الأحرار من الصحابة. وهذا يشير إلى استمرار بعض الممارسات الجاهلية في الإسلام ـ ومنها التكهن ـ ، وهذا مفهوم لأن القضاء على هذه الممارسات تطلب زمنا ووقتا.

علية القوم، وحكم هؤلاء أنفذ، وكان منهم زهير بن جناب زعيم قبيلة كليب. وكان لكل قبيلة كاهن أو أكثر تستشيره في النوازل[1].

على أن الكهانة لم تكن في العرب امتيازا يتوارث، بل كانت شيئا يكتسب، ولذلك قال صاحب المفصل:

«وتقدم الكهانة على القدرة الشخصية وعلى ذكاء الكاهن، لذلك لم تكن كالسدانة مثلا إرثا ينتقل من الآباء إلى الأبناء، بل كان في إمكان كل شخص يرى في نفسه القدرة على التنبؤ بالغيب والتحدث عما سيحدث للسائلين أن يدعي الكهانة، وأن يعد نفسه كاهنا يتكلم باسم الأرباب، وينطق بالقوة الخفية التي توحي إليه بالتنبؤات، فيتخذ له مكانا في معبد أو في موضع آخر أو في بيته ليقصده من يريد استشارته في عظائم الأمور مهما اختلفت وتنوعت، عن المستقبل وعن الأخبار وعن الأسرار والمغيبات وعن القيام بعمل من الأعمال»[2].

الكهانة في النساء:

ولم يشترط العرب في الكاهن أن يكون رجلا، فقد كان بينهم نساء كثيرات ادعين الكهانة، وبعضهن تفوقن فيها واشتهرن، منهن: الغيطلة الكاهنة، وسوداء بنت زهرة بن كلاب كاهنة قريش[3]. بل يترشح من الأخبار أن النساء اللواتي تكهن كن كثيرات في الجزيرة، وهذا يتفق مع ما هو ملاحظ من شدة إقبال المرأة على فنون العرافة والسحر والتنبؤ.

---

(١) المفصل، ٢/ ٧٦٤.

(٢) المفصل، ٦/ ٧٦٢.

(٣) راجع: سيرة ابن هشام ١/ ٢٦٠ ـ ٢٦١. الروض الأنف شرح سيرة ابن هشام، للسهيلي، ١/ ٢٦٠، ٣٦٩.

الباب الثاني

النظرية الإسلامية للكهانة

الفصل الأول: في اطلاع الشياطين على بعض الغيوب، وكيفيته

الفصل الثاني: في حراسة السماء والقذف بالشهب

الفصل الثالث: عن النبوة والكهانة

الفصل الرابع: كهان على عهد النبوة: ابن صياد؟ وغيره

الفصل الخامس: في استمرار الكهانة وانقطاعها

لعل القارئ الكريم لاحظ أن التأليف الغربي حول ظاهرة الكهانة ـ خصوصا اليونانية ـ كثير ومتنوع.

وليس في تراثنا ما يماثل هذا الغنى في التأليف، وهذا الاهتمام بالظاهرة. لهذا رأيت أن أجمع شتات الموضوع عندنا، وأن أعرض لقضية الكهانة بما أمكن من الشمول، عسى كل ذلك يشكل ما يجوز تسميته بالنظرية الإسلامية للكهانة. وسنرى أن من ميزات هذه النظرية كشفها عن حقائق لا يعرفها البحث الغربي في الموضوع، وإجابتها عن إشكالات تخص الكهانة القديمة، اختلف فيها الباحثون وتخبطت فيها آراؤهم، حتى صار لكثير منها حكم السؤال المعلق، والنظرية الإسلامية تفصل في كثير مما أشكل على هؤلاء.

لقد كان البحث السابق في الكهانة عند القدماء توطئة ضرورية لدراسة الموضوع في الإسلام، وأنا شخصيا ما فهمت جيدا كلام الوحي عن الكهانة حتى قرأت في التاريخ القديم، واطلعت على أهميتها عند القدماء، واختلافهم في حقيقتها وانقطاعها، وفي تفسير هذا الانقطاع، وما أثاره كل ذلك من جدل واختلاف بين الفلاسفة والكتاب وعلماء الدين، المسيحي بالخصوص.

لقد جاء الدين الحق بيانا للناس وهدى، جاء ليفسر لهم ما غمض عليهم وما اختلفوا فيه..ومن ضمن ذلك حقيقة الكهانة.

وهذه الكهانة نوعان كما تقدم، وأسمي النوع الأول الذي فيه اتصال بالشياطين بـ: الكهانة بوسيط، بينما الثاني ـ المعتمد على قدرة ذاتية ـ هو الكهانة بلا وسيط.

ويكاد هذا الباب يخص النوع الأول فقط، لأنه الأهم والأكثر شيوعا في العالم القديم، ولأنه هو الذي وقع فيه الالتباس والغموض.

وهذا النوع ـ أعني الكهانة بوسيط ـ هو الذي ذكره الوحي، واشتهر عند العرب. والوسيط هنا هو الجن أو الشياطين، والإسلام ـ كأكثر الأديان والعقائد في العالم ـ يعترف بوجود هذا النوع من المخلوقات، وأنه في بعض الأحوال النادرة يمكن أن يكون لها اتصال مباشر وواضح بدنيا الناس، لكنه ينفي أن يكون لها قدرة على معرفة المستقبل:

الفصل الأول:

في اطلاع الشياطين على بعض الغيوب، وكيفيته

الجن والغيب:

وأكثر ما عظم الناس الجن لسببين اثنين:

الأول - اتقاء شر الشياطين، والطمع في الحصول على بعض ما يقدرون عليه مما يعجز الإنسان عنه في العادة، كما هو الشأن في السحر.

الثاني - استطلاع ما عند الجن من أخبار الغيب، وقد كان الاعتقاد فاشيا في كثير من الأمم - بما فيها العرب - بأن الجن تعرف الغيب.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في معرض حديثه عن النبي سليمان عليه السلام واستخدامه للجان في أعمال كثيرة..قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ ، غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ، وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ، وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ، وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ، يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ، ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ، فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٢ - ١٤].

ويفيد القصص المذكور في تفسير الآية أن سليمان عليه السلام توفي وهو متكيء على عصى له، ولكن الجن لم يعرفوا بموته إلا بعد زمان، حين سقط أرضا بعد أن أكلت الأرضة طرف العصى التي كان يستند إليها النبي الكريم. فلما تحقق الجن من موته عليه السلام عادوا إلى تمردهم ورفضوا ما كانوا فيه من السخرة، وهو المقصود بـ «العذاب المهين» في الآية[1].

هذا القدر في القصة صحيح، ولا حاجة هنا إلى ذكر تفاصيل ما أورده بعض المفسرين من الآثار والأخبار على هامش الآية، لأنه - كما يقول ابن عطية - قد «أكثر المفسرون في قصص هذه الآية بما لا صحة له، ولا تقتضيه ألفاظ القرآن، وفي معانيه بعد»[2].

---

(١) راجع التفاسير، مثل: جامع البيان للطبري، ٢٢/ ٤٤ - ٤٥.

(٢) المحرر الوجيز، ١٣/ ١٢٣.

وعامة تلك الآثار ضعيفة جدا، وبعضها منكر، ويبدو ـ كما قال ابن كثير ـ أنها مما تلقي عن أهل الكتاب[1].

أعود إلى الآية، فأقول: المنسأة هي العصا. أما دابة الأرض فهي الأرضة[2]، قال سيد قطب عنها: «..تتغذى بالأخشاب، وهي تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشراهة فظيعة، في الأماكن التي تعيش فيها. وفي صعيد مصر قرى تقيم منازلها دون أن تضع فيها قطعة خشب واحدة خوفا من هذه الحشرة التي لا تبقي على المادة الخشبية ولا تذر»[3].

وقد يعرض في الآية إشكال، في قوله تعالى: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾، فمن هو الذي تبين الأمر، هل هم الإنس أم الجن، وعلى ما يعود الضمير في «كانوا»؟

وقد ذكر المفسرون وجوها في معنى الآية، وهي:

١ ـ «علم الجن كلهم علما بينا بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم، وتوهمهم أن كبارهم يصدقون في ادعائهم علم الغيب»[4].

قال ابن عطية: «يحتمل أن يكون قوله: تبينت الجن، بمعنى علمت الجن وتحققت، ويريد بالجن جمهورهم والفعلة منهم والخدمة. ويريد بالضمير «كانوا» رؤساءهم وكبارهم، لأنهم هم الذين يدعون علم الغيب لأتباعهم من الجن والإنس ويوهمونهم ذلك، قاله قتادة. فتيقن الأتباع أن الرؤساء لو كانوا عالمين الغيب ما لبثوا»[5].

---

(١) تفسير ابن كثير، ٣/ ٦٥٠ ـ ٦٥١. واقرأ هذا القصص في تفاسير الطبري والقرطبي وابن كثير وغيرهم.

(٢) جامع البيان، ٢٢/ ٤٤. المحرر الوجيز، ١٣/ ١٢١. الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ١٧٨ ـ ١٨٠. تفسير ابن كثير ٣/ ٦٥٠. التحرير والتنوير ٢٢/ ١٦٤.

(٣) في ظلال القرآن، ٦/ ٦٣٩. وسيد قطب أديب ومفكر مصري، أعدم رحمه الله تعالى سنة ١٩٦٦. من كتبه الأخرى: العدالة الاجتماعية في الإسلام. خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. معالم في الطريق...

(٤) الكشاف، للزمخشري، ٣/ ٢٨٣. وانظر إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ٤/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٥) المحرر الوجيز، ١٣/ ١٢٢ ـ ١٢٣.

وهذا التفسير سائغ، لأنه يظهر أن عالم الجن يشبه عالم الإنس، حيث الأغلبية تتبع الأقلية في ضلالها واستكبارها، وربما اقتنعت بصواب ما يقوله لهم كبارهم، وهذا مثل حكاية الجن الذين أسلموا، قالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الجن: ٥]. قال الرازي: «معنى الآية أنا إنما أخذنا قول الغير، لأنا ظننا أنه لا يقال الكذب على الله، فلما سمعنا القرآن علمنا أنهم قد يكذبون، وهذا منهم إقرار بأنهم إنما وقعوا في تلك الجهالات بسبب التقليد، وأنهم إنما تخلصوا عن تلك الظلمات ببركة الاستدلال والاحتجاج»[١].

٢ ـ وهذا القول قريب من تفسير آخر، بمقتضاه يكون من الجن طبقة معينة تدعي معرفة الغيب. قال الزمخشري بعد كلام: «..أو علم المدعون علم الغيب منهم عجزهم وأنهم لا يعلمون الغيب، وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم. وإنما أريد التهكم بهم كما تهكم بمدعي الباطل إذا دحضت حجته وظهر إبطاله بقولك هل تبينت أنك مبطل، وأنت تعلم أنه لم يزل كذلك متبينا»[٢]. فهؤلاء توهموا أنفسهم قادرين على إدراك الغيب، وربما توهمهم غيرهم كذلك، فانكشف لأنفسهم ـ ولغيرهم ـ عجزهم وجهلهم.

٣ ـ وقال آخرون: تقدير الكلام في الآية: تبين أمر الجن[٣]، بإسناد الفعل إليها «أي بان أمرها، كأنه قال افتضحت الجن أي للإنس، هذا تأويل»[٤]. أي تبينت الجن للناس، فظهر أمرهم[٥]. فهنا الإنس هي من أدرك أن الجن لا تعلم الغيب.

قال الطبري: «(أ) في قوله (أن لو كانوا) في موضع رفع بتبين، لأن معنى

---

(١) مفاتيح الغيب، ٣٠/١٥٦ ـ ١٥٧. فخر الدين محمد بن عمر التيمي الرازي. من أئمة الإسلام في علوم الكلام والتفسير والأصول...وغيرها. عاش بالري وبهراة، وبها توفي سنة ٦٠٦هـ. له كتب كثيرة. انظر: طبقات الشافعية، لابن السبكي، ٨/ ٨١.

(٢) الكشاف، ٣/ ٢٨٣. والزمخشري هو محمود بن عمر، جار الله، أبو القاسم. عالم بالتفسير واللغة. جاور مدة بالحرم المكي. وتوفي بخوارزم عام ٥٣٨هـ. كان معتزلي المذهي. وبعض كتبه مطبوع متداول. انظر الأعلام، ٨/ ٥٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ١٨٠.

(٤) المحرر الوجيز، ١٣/ ١٢٢.

(٥) التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٦٥.

الكلام: فلما خر تبين وانكشف أن لو كان الجن يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين. وأما على التأويل الذي تأوله ابن عباس من أن معناه تبينت الإنس الجن فإنه ينبغي أن يكون في موضع نصب بتكريرها على الجن، وكذلك يجب على هذه القراءة أن تكون الجن منصوبة، غير أني لا أعلم أحدا من قراء الأمصار يقرأ ذلك بنصب الجن، ولو نصب كان في قوله تبينت ضمير من ذكر الإنس»[1].

٤ ـ والوجوه السابقة ممكنة على قراءة الجمهور التي هي إسناد التبين للجن. وفي بعض القراءات: « تُبُينت الإنس أن الجن لو كانوا»[2] وكذلك قرأها ابن عباس رضي الله عنه[3]. وهذه صريحة الدلالة. ومثلها تقريبا قراءة «تباينت الإنس»، قال الزمخشري: «بمعنى تعارفت وتعالمت»[4]. وكذلك قراءة تبينت الجن «على بناء الفعل للمفعول، أي تبينتها الناس»[5].

ويظهر لي أن هذه الوجوه كلها محتملة ولا تعارض بينها، بل هي صحيحة جميعا. وقد جعل الله سبحانه موت النبي الكريم بهذه الطريقة عبرة للناس والجن معا حتى يدركوا أنه لا أحد منهم يعلم الغيب، سواء كان من الجن أم من الإنس، كان من أصاغرهم أم من أكابرهم. وخفاء وفاة النبي مدة من الزمان حجة على الكل في أنهم لا يعرفون شيئا من الغيب. وبعض الأخبار تذكر أن سليمان عليه السلام قال حين عرف أنه سيموت قريبا: اللهم عم عن الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب[6]. قال قتادة: وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء، وأنهم يعلمون ما في غد، فابتلوا بموت سليمان[7].

ولذلك جمع ابن كثير بين هذه الوجوه، وقال: «تبينت الجن والإنس أيضا أن الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك»[8].

---

(١) جامع البيان، ٢٢/٤٦.

(٢) المحرر الوجيز، ١٣/١٢٣. الكشاف، ٣/ ٢٨٤.

(٣) جامع البيان، ٢٢/٤٥.

(٤) الكشاف، ٣/٢٨٣

(٥) المحرر الوجيز ١٣/١٢٢. الجامع لأحكام القرآن، ١٤/١٧٩. التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٦٤.

(٦) عزاه الهيثمي إلى الطبراني والبزار، وقال فيه عطاء وقد اختلط، وبقية رجالهما رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٨/٢٠٨.

(٧) جامع البيان، ٢٢/٤٥. الجامع لأحكام القرآن، ١٤/١٧٨ ـ ١٧٩.

(٨) تفسير ابن كثير، ٣/ ٦٥٠، ٦٥١.

والحاصل أن الجن لا تعرف الغيب، ولو عرفوه لاطلعوا على وفاة النبي الكريم ولتخلصوا من العذاب المهين، قال ابن عاشور: «و ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾: المذل، أي المؤلم المتعب فإنهم لو علموا الغيب لكان علمهم بالحاصل أزليا، وهذا إبطال لاعتقاد العامة يومئذ وما يعتقده المشركون أن الجن يعلمون الغيب، فلذلك كان المشركون يستعلمون المغيبات من الكهان، ويزعمون أن لكل كاهن جنيا يأتيه بأخبار الغيب، ويسمونه رئيا إذ لو كانوا يعلمون الغيب لكان أن يعلموا وفاة سليمان أهون عليهم»[1].

وبعض المفسرين - تأكيدا لهذا المعنى - يذكرون مددا طويلة خفي فيها أمر النبي على الشياطين، فكأنه كلما طالت الفترة بين موت النبي وعلم الجن بذلك كلما كان ذلك أدل على قصور علم الجن عن بلوغ الغيب. وأيضا يفعلون هذا اتباعا لبعض الآثار الواردة في القصة، والتي تفيد أن الجن استمرت نحوا من سنة في العمل لسليمان عليه السلام، الذي كان قد توفي. وهذا القول روي عن بعض السلف أيضا[2].

ويعجبني في هذا المقام رأي العلامة ابن عاشور، وأحسب أنه كان يفكر في هذه المسألة حين كتب في تفسير الآية: «..دام عملهم (أي الجن) له حتى مات..ولا شك أن ذلك لم يطل وقته لأن مثله في عظمة ملكه لا بد أن يفتقده أتباعه»[3]. وهذا تعليل مناسب، أي أن مدة عمل الشياطين بعد موت النبي لا يمكن أن تطول، فلا بد أن ينكشف موته، لأنه ملك تعلقت به وبتصريفه حقوق الناس.

ويدل على ذلك أن في الأخبار التي ذكرت مدة الحول أن سليمان دعا الله تعالى أن يخفي موته حتى ينتهي الشياطين المسخرون له من بناء بيت المقدس، فتم ذلك بعد سنة. بينما أخرج النسائي وغيره بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ «أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالا ثلاثة حكما

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٦٥، وانظر فيه أيضا: ١٣/ صفحة ١٢٣.

(٢) راجع: تفسير ابن كثير، ٣/ ٦٥٠. وهو من حديث الطبراني والبزار، كما تقدم عن مجمع الزوائد ٨/ ٢٠٨.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٦٤.

يصادف حكمه فأوتيه وسأل الله تعالى ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه وسأل الله تعالى حين فرغ من بنائه المسجد ألا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه»[1]. وهذا صريح أنه عليه السلام أنهى البناء في حياته[2]. والخبر الضعيف إذا خالف الصحيح رُد وعُد منكرا، كما هو عرف المحدثين.

نحن إذن لا نعرف كم هي الفترة التي عمي فيها على الجن موت سليمان عليه السلام، ولكنها لا بد أن تكون مدة كافية يختبر فيها مدعو علم الغيب، ويكشف عن عجزهم وكذبهم.

وهكذا يبين الله سبحانه بآياته لجميع خلقه حقيقة الشياطين، «فهؤلاء هم الجن الذين يعبدهم بعض الناس. هؤلاء هم سخرة لعبد من عباد الله. وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب، وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد»[3].

أيُّ الجن يتجسس على أخبار السماء؟

لم أجد ـ فيما بين يدي من المصادر ـ من تعرض لهذا السؤال، والذي يبدو لي أن طائفة معينة فقط هي التي تصعد إلى السموات وتسترق السمع، وربما كانت هذه الطائفة معروفة باستطلاع الغيب عند سائر الجن. وهذا الظن أرجعه إلى الأدلة التالية:

١ ـ سبق أن ذكرنا أن من الوجوه التي تحتملها آية: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾، أن جمهور الجن علموا أن الذين ادعوا معرفة الغيب منهم كانوا كاذبين أو مخطئين.

٢ ـ الحديث الذي رواه الطبراني والبيهقي في «كتاب الأسماء والصفات» عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: الجن ثلاثة أصناف، فصنف لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلون ويضعنون.

---

(١) هذا الحديث انفرد النسائي ـ عن سائر الستة ـ بروايته، وليس يوجد عند البخاري ومسلم وأبي داود كما قد يوهم ذلك صنيع أصحاب المعجم المفهرس لألفاظ الحديث. وقد أورده النسائي في كتاب المساجد، باب فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه. ومعنى لا ينهزه لا يحركه.

(٢) استفدت هذا من تفسير القرطبي، ١٤/ ١٨٠ ـ ١٨١.

(٣) في ظلال القرآن، ٦/ ٦٣٩.

والحديث صححه السيوطي[1]، وأقره عليه المناوي[2]. ومعنى «حيات وكلاب»، أي بصورتها، تكون على شاكلتها، ويحلون ويضعنون أي يقيمون ويرحلون[3].

فهذا يفيد أن الشياطين ذوات الأجنحة خاصة هي التي تطير وتصعد إلى السماء، في حركة سريعة، كما يشير إلى ذلك قوله جل شأنه: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾[4] ولذلك لما سئل الضحاك هل للشياطين أجنحة، قال: كيف يطيرون إلى السماء إلا ولهم أجنحة[5]. فينبغي أن يكون مسترقو السمع هم هؤلاء أو بعض هؤلاء.

حديث أهل السماء في شؤون الأرض:

ولكن لم اعتقد كثير من الناس أن للجن قدرة على الاطلاع على الغيب واستكشاف العالم المستور؟

في الواقع لهذا الاعتقاد أصل، وهو ما كان يعرفه العالم القديم - قبل الإسلام

---

(١) انظر: الجامع الصغير، في أحاديث البشير النذير، لأبي بكر السيوطي، ١/ ٥٦٤. و الحديث رواه كذلك الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٦، وصححه، ووافقه الذهبي.
وهذا الحديث رواه أيضا الحافظ الخرائطي في كتابه: هواتف الجنان، ٣٤. وانظر أيضا مخطوط: «التبيان فيما يتعلق بالجان»، وهو مختصر لآكام المرجان لأبي عبد الله الشبلي الحنفي، ص ٧. أما السيوطي فهو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر. عالم مشارك في أنواع من العلوم، خصوصا في اللغة والفقه والتفسير والحديث. نشأ بالقاهرة يتيما، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس وتفرغ للتأليف. توفي بالقاهرة سنة ٩١١هـ. انظر معجم المؤلفين ٥/ ١٢٨.

(٢) في شرحه على الجامع الصغير، والمسمى: فيض القدير، ٣/ ٣٦٤. لصاحبه زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين الحدادي، الشهير بالمناوي. عالم مشارك، من كتبه الكثيرة: غاية الإرشاد في معرفة الحيوان والنبات والجماد. شرح التحرير، في الفقه الشافعي. الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية. الروض الباسم، في الشمائل. عن معجم المؤلفين، ٥/ ٢٢٠.

(٣) من: السراج المنير شرح الجامع الصغير، لعلي العزيزي، ٢/ ٢١٨.

(٤) سورة النمل ٣٩. أي قال العفريت للملك سليمان أنا آتيك بعرش ملكة سبأ قبل أن تقوم من مجلسك. والضحاك جماعة، والمقصود هنا هو ابن مزاحم الهلالي، إن هو الذي اشتغل بالتفسير، وأخذه عن ابن عباس من طريق بعض تلامذته. انظر: تهذيب التهذيب ٤/ ٤٥٣.

(٥) رواه الطبري بسنده عن الضحاك في جامع البيان، ٢٣/ ٢٥.

بالخصوص ـ من صعود الجن إلى السموات العلى وتجسسها على ما كان يدور بين أهلها من كلام وحديث عن قضاء الله سبحانه الذي يوشك أن ينزل إلى الأرض.

ولقد حكى القرآن الكريم ذلك في مواضع متعددة، من بينها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ ـ ١٠].

وعلى لسان بعض الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨ ـ ٩].

وقد بينت الرواية عن النبي ﷺ كيف يسترق هؤلاء السمع، ومن أصح هذه الروايات وأوضحها في هذا المقام ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كالسلسلة على صفوان..فإذا فزع عن قلوبهم، قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا الذي قال وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع، هكذا واحد فوق آخر. (ووصف سفيان بيده وفرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض) فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض..فتلقى على فم الساحر، فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون ألم يخبرنا يوم كذا وكذا فوجدناه حقا، للكلمة التي سمعت من السماء»[(١)] وفي رواية: والشياطين بعضهم فوق بعض، قال ابن العربي: «يعني صفوفا أطباقا حتى إلى السماء يسترقون السمع، فيلقي أهل كل

---

(١) هذه رواية البخاري في كتاب التفسير، سورة سبأ، باب إلا من استرق السمع قال: حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو عن عكرمة عن أبي هريرة وسفيان هنا هو ابن عيينة، محدث كبير توفي سنة ١٩٨ هـ. وفي بعض الروايات: صفتَ بدل وصف. وفي شرح الكرماني على البخاري: خضعانا: أي خاضعين. الصفوان: الحجر الأملس، أو السلسلة وصوتها. إذا فزع: أي أزيل الخوف، بمعنى ذهب الفزع عنها.عن الكواكب الدراري، الكرماني، ١٧/ ١٧١ ـ ١٧٢.
والحديث رواه أيضا الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ٣٤ سورة سبأ، حديث رقم٣٢٧٧ (طرف من حديث النجم الذي استنار). وابن ماجه في المقدمة، الباب ١٣ حديث ١٩٤.
والجملة: (وصف سفيان إلى فوق بعض) مدرجة، من كلام الراوي عن سفيان، وما بعدها كلام النبي ﷺ.

سماء إلى ما تحتهم حتى إذا انتهى إلى أهل سماء الدنيا تكلموا به واسترقت الشياطين السمع»[1].

أما استراق السمع فهو سرقته، أي الاستماع بخفية من المتحدث، كأن المستمع يختلس من المتكلم كلامه الذي يخفيه عنه.[2]

وبهذا الحديث فسر جمهور المفسرين قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ، وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ، حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ، قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [آيات ٢٢ - ٢٣][3].

قال ابن كثير: «..وهذا أيضا مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشيفإذا فزع عن قلوبهم، أي زال الفزع عنهافإذا كان ذلك كذلك يسأل بعضهم بعضا: ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا. ولهذا قال: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾، أي أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾»[4].

وقد أخرج البخاري الحديث المذكور في كتاب التفسير، في سورة سبأ، وقدم له بقوله: «إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين».

والذي ساعد جمهور المفسرين على هذا التأويل أن في حديث آخر أن النبي ﷺ قال: «ربنا - تبارك وتعالى اسمه - إذا قضى الله أمرا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا. ثم قال الذين يلون حملة

---

(١) عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي، ١٢/ ١٠٤. وأبو بكر محمد بن عبد الله، المعافري الإشبيلي المالكي، يعرف بابن العربي، وهو عالم مشارك في علوم الدين واللغة والتاريخ. تولى قضاء إشبيلية بعد عودته من رحلته العلمية ببغداد، حيث التقى بالغزالي. دفن بفاس سنة ٥٤٣هـ. له المحصول في الأصول. الإنصاف في مسائل الخلاف. غوامض النحويين... عن معجم المؤلفين، ١٠/ ٢٤٢.

(٢) إرشاد العقل السليم، ٣/ ١٤٥. التحرير والتنوير، ١٤/ ٣١.

(٣) راجع: تفسير ابن كثير، ٣/ ٦٥٩. روح المعاني، للألوسي، ٢٢/ ١٣٨.

(٤) تفسير ابن كثير، ٣/ ٦٥٨.

العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال. فيستخبر بعض أهل السماوات بعضا حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فيخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم، ويرمون به.». وهذا خبر صحيح رواه مسلم، وقال النبي - في رواية ثانية لمسلم - : وقال الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ . . .﴾ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق ....﴾.[1]

ولذلك قال أبو العباس القرطبي: «وهذا التفسير هو الموافق لهذا الحديث، فتعين أن يكون هو المراد من الآية. وللمفسرين أقوال أخر بعيدة عن معنى الحديث»[2].

وقد حكى الطبري هذا الخلاف، فقال: «﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: حتى إذا خلي عن قلوبهم وكشف عنها الفزع وذهب..واختلف أهل التأويل في الموصوفين بهذه الصفة منهم، وما السبب الذي من أجله فزع عن قلوبهم. فقال بعضهم الذي فزع عن قلوبهم الملائكة، قالوا: وإنما يفزع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماعهم الله بالوحيقال ابن مسعود..إذا حدث أمر عند ذي العرش سمع من دونه من الملائكة صوتا كجر السلسلة على الصفا، فيغشى عليهم، فإذا ذهب الفزع عن قلوبهم تنادوا ماذا قال ربكم. قال فيقول من شاء قال الحق وهو العلي الكبيروقال آخرون - ممن قال ذلك الموصوفون بذلك الملائكة - إنما يفزع عن قلوبهم فزعهم من قضاء الله الذي يقضيه حذرا أن يكون ذلك قيام الساعةوقال آخرون بل الموصوفون بذلك المشركون، قالوا وإنما يفزع الشيطان عن قلوبهم، قال وإنما يقولون ماذا قال ربكم عند نزول المنية بهم..وأولى الأقوال في ذلك بالصواب القول الذي ذكره الشعبي عن ابن مسعود، ولصحة الخبر الذي ذكرناه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ بتأييده»[3].

على أن لبعض المفسرين رأيا آخر في الموضوع، فالألوسي يقول: «﴿حَتَّىٰٓ﴾ للغاية، واختلفوا في المغيا، إذ لم يكن قبلها ما يصلح أن يكون مغيا بحسب الظاهر،

---

(١) هذا حديث آخر رواه ابن عباس غير الأول الذي عن أبي هريرة، وقد أخرجه عنه الإمام مسلم في كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، حديث ٢٢٢٩. والترمذي في تفسير سورة سبأ من كتاب التفسير. وأحمد في المسند.

(٢) المفهم، ٥/ ٦٣٩. كتاب الرقى والطب، باب في رمي النجوم للشياطين.

(٣) جامع البيان، ٢٢/ ٥٤ إلى ٥٦.

واختلفوا لذلك في المراد بالآية اختلافا كثيرا. فقيل: هو ما يفهم من حديث الشفاعة ويشير إليه، وذلك أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ يؤذن بشفعاء ومشفوع لهم، وأن هناك استئذانا في الشفاعة ضرورة أن وقوع الإذن يستدعي سابقية ذلك، وهو مستدع للترقب والانتظار للجواب..فالمعنى حتى إذا أزيل الفزع عن قلوب الشفعاء والمشفوع لهم قال بعضهم لبعض. والظاهر أن البعض القائل المشفوع لهمإذ هم الأشد احتياجا إلى الإذن والأعظم اهتماما بأمره: ماذا قال ربكم في شأن الإذن بالشفاعة. قالوا أي الشفعاء.. قال ربنا القول الحق أي الواقع بحسب ما تقتضيه الحكمة، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى. والظاهر أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ من تتمة كلام الشفعاء»[1]. ثم ذكر الألوسي أن الجمهور جعل الضمائر في الآية كلها للملائكة، وأن الغشية تصيبهم عند سماع كلام الله جل شأنه، ثم قال: «التفسير الذي ذكرناه أولى بمراحل في الحسن عما ذكر عن أكثر المفسرين. وما سمعت من الرواية لا ينافيه، إذ لا دلالة فيه على أنه عليه الصلاة والسلام ذكر ذلك في معرض تفسير الآية. ولا تنافي بين التفزيعين. وكأن الأكثر من المفسرين نظروا إلى ظاهر طباق اللفظ مع الحديث فنزلوا الآية على ذلك فوقعوا فيما وقعوا فيه، وإن كثروا وجلوا. والقائل بما سبق نظر إلى طباق المقام وحقق عدم المنافاة وظهر له حال ما قالوه فعدل عنه»[2].

والحاصل أن الآية وردت في الشفاعة، والمتحدثون فيها هم الشفعاء والمشفوع لهم. أما الحديث فهو معنى من المعاني التي تدل عليها الآية، وليس بالمعنى الوحيد. وقد أطال العلامة ابن عاشور في تفسير الآية والرد على جمهور المفسرين[3]، ثم ختم بحثه قائلا: «وذلك (أي الحديث) لا يقتضي أنه المراد في آية سورة سبأ، وإنما هذه صفة تلقي الملائكة أمر الله في الدنيا والآخرة.. وليس تخريج البخاري والترمذي

---

(١) روح المعاني، ٢٢/١٣٧. وانظر أنوار التنزيل، للبيضاوي، ٢/٥٣. أبو الثناء محمود بن عبد الله، شهاب الدين، المعروف بالآلوسي الكبير، نسبة إلى آلوس جزيرة بالفرات. مفسر كبير وأديب، مولده ووفاته ببغداد (١٢٧٠ هـ، الموافق لـ ١٨٥٤م). من كتبه أيضا: رحلته إلى الآستانة. انظر: الأعلام، للزركلي، ٨/٥٣.

(٢) روح المعاني، ٢٢/١٣٨.

(٣) راجع: التحرير والتنوير، ٢٢/١٨٨ إلى ١٩١.

هذا الحديث في الكلام على تفسير سورة سبأ مرادا به أنه وارد في ذلك، وإنما يريد أن من صور معناه ما ذكر في سورة سبأ»[1].

وهذا الخلاف يخص مسألة هل الحديث يفسر الآية ويحد من عمومها، ولكنه لا يمتد إلى ما في الحديث نفسه، أعني تحدث الملأ الأعلى بأمر الله الذي وكل بتنفيذه بعض ملائكته، وأن الجن تحاول بلوغ السماء للتنصت على هذا الحديث ومعرفة الأمور المستقبلة التي سوف تحدث قريبا على الأرض.

حفظ السماء وفوائد النجوم

ثم إن الله سبحانه وضع في السماء حرسا وشهبا تضرب هؤلاء المتجسسة وتمنعهم من استراق السمع: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ ـ ١٨].

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

فأخبر الله سبحانه أنه زين السماء بهذه الكواكب التي نشاهدها، وفيها الثابت والسيار، بحسب النظر، كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [آية ٦].

ثم أنبأنا بفائدة أخرى للكواكب والنجوم ـ غير الفائدة الجمالية ـ ، وهي حفظ السماء من الشياطين الذين يحاولون الاطلاع على ما يدور بين أهلها من حديث[2].

قال أبو السعود: «﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ مرمي بالنجوم، فلا يقدر أن يصعد إليها ويوسوس في أهلها ويتصرف فيها ويقف على أحوالها»[3]. وقال في آية

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢/١٩١.

(٢) راجع: معالم التنزيل، ٤/٣٧٢. تفسير ابن كثير، ٢/٦٧٦. وقد فصلت الحديث عن فوائد النجوم في المذهبية الإسلامية في كتابي عن التنجيم، فراجعه للتوسع.

(٣) إرشاد العقل السليم، ٣/١٤٥. صاحب هذا التفسير هو أبو السعود محمد بن مصطفى العمادي، الحنفي، من موالي الروم، ولد بالقرب من القسطنطينية، ولازم المولى سعدي جلبي، ثم تولى القضاء زمانا. شاعر، وعارف باللغات التركية والفارسية. له: بضاعة القاضي في الصكوك. تهافت الأمجاد، في الفقه الحنفي. تحفة الطلاب، في المناظرة توفي سنة ٩٨٢هـ. عن معجم المؤلفين ١١/٣٠١.

الصافات المتقدمة: «كأنه قيل إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظا ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾، أي خارج عن الطاعة برمي الشهب..كأنه قيل: وحفظا من كل شيطان مارد زيناها بالكواكب»[1]. فـ«المراد بالحفظ من الشياطين الحفظ من استقرارها وتمكنها في السماوات»[2]. وفي الآية تنويه «بعصمة الوحي من أن يتطرقه الزيادة والنقص، بأن العوالم التي يصدر منها الوحي وينتقل فيها محفوظة من العناصر الخبيثة، فهو يرتبط بقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾»[3]، أي الوحي.

وقوله: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي مرجوم، والرجم في اللغة الرمي بالحجارة، ثم قيل للقتل رجم تشبيها له بالرجم بالحجارة[4].

ما السماء المقصودة؟

قال الرازي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ . . .﴾: «السماء الدنيا السماء القربى، وذلك لأنها أقرب السماوات إلى الناس، ومعناها السماء الدنيا من الناس، والمصابيح السرج سميت بها الكواكب»[5]. وذكر سيد قطب قريبا من هذا الكلام، قال: «وما السماء الدنيا؟ لعلها هي الأقرب إلى الأرض وسكانها المخاطبين بهذا القرآن. ولعل المصابيح المشار إليها هنا هي النجوم والكواكب الظاهرة للعين، التي نراها حين ننظر إلى السماء. فذلك يتسق مع توجيه المخاطبين إلى النظر في السماء. وما كانوا يملكون إلا عيونهم، وما تراه من أجرام مضيئة تزين السماء»[6].

على أن الآية تحتمل تفسيرين: جائز أن تكون الكواكب في السماء الدنيا نفسها؛ وجائز أن تكون في السماوات الأعلى، ولكنها تظهر في السماء الدنيا، بحيث يسوغ إضافتها إليها تجوزا[7]. ولهذا يقول الرازي: «اعلم أن ظاهر هذه الآية لا يدل على أن هذه الكواكب مركوزة في السماء الدنيا، وذلك لأن السماوات إذا كانت شفافة

---

(١) إرشاد العقل السليم، ٤/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٢) التحرير والتنوير، ١٤/ ٣٠.

(٣) التحرير والتنوير، ١٤/ ٢٩ ـ ٣٠

(٤) مفاتيح الغيب، ١٩/ ١٧٨. الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٨.

(٥) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٦٠.

(٦) في ظلال القرآن، ٨/ ١٨٨.

(٧) راجع: المحرر الوجيز، ١٦/ ٦١.

فالكواكب سواء كانت في السماء الدنيا أو كانت في سموات أخرى فوقها، فهي لا بد وأن تظهر في السماء الدنيا وتلوح منها، فعلى التقديرين تكون السماء الدنيا مزينة بهذه المصابيح»[١].

وقد فصل الطاهر بن عاشور الكلام في هذين الاحتمالين، فقال: «والكواكب: الكريات السماوية التي تلمع في الليل عدا الشمس والقمر. وتسمى النجوم. وهي أقسام، منها العظيم، ومنها دونه. فمنها الكواكب السيارة، ومنها الثوابت، ومنها قطع تدور حول الشمس

والدنيا: أصله وصف هو مؤنث الأدنى، أي القربى. والمراد: قربها من الأرض، أي السماء الأولى من السماوات السبع. **ووصفها بالدنيا**: **إما لأنها** أدنى إلى الأرض من بقية السماوات، والسماء الدنيا على هذا هي الكرة التي تحيط بكرة الهواء الأرضية وهي ذات أبعاد عظيمة. ومعنى تزيينها بالكواكب والشهب على هذا أن الله جعل الكواكب والشهب سابحة في مقعر تلك الكرة على أبعاد مختلفة، ووراء تلك الكرة السماوات السبع محيط بعضها ببعض في أبعاد لا يعلم مقدار سعتها إلا الله تعالى. ونظام الكواكب المعبر عنه بالنظام الشمسي على هذا من أحوال السماء الدنيا، ولا مانع من هذا لأن هذه اصطلاحات، والقرآن صالح لها، ولم يأت لتدقيقها ولكنه لا ينافيها. والسماء الدنيا على هذا هي التي وصفت في حديث الإسراء بالأولى.

وإما لأن المراد بالسماء الدنيا الكرة الهوائية المحيطة بالأرض وليس فيها شيء من الكواكب ولا من الشهب، وأن الكواكب والشهب في أفلاكها وهي السماوات الست والعرش، فعلى هذا يكون النظام الشمسي كله ليس من أحوال السماء الدنيا. ومعنى تزيين السماء الدنيا بالكواكب والشهب على هذا الاحتمال أن الله تعالى جعل أديم السماء الدنيا قابلا لاختراق أنوار الكواكب في نصف الكرة السماوية الذي يغشاه الظلام من تباعد نور الشمس عنه فتلوح أنوار الكواكب متلألئة في الليل فتكون تلك الأضواء زينة للسماء الدنيا تزدان بها.

والآية صالحة للاحتمالين لأنها لم يثبت فيها إلا أن السماء الدنيا تزدان بزينة

---

(١) مفاتيح الغيب، ٣٠/٦١.

الكواكب، وذلك لا يقتضي كون الكواكب سابحة في السماء الدنيا. فالزينة متعلقة بالناس، والأشياء التي يزدان بها الناس مغايرة لهم منفصلة عنهم، ومثله قولنا ازدان البحر بأضواء القمر».[(١)]

كيف يتصل الكاهن بالشيطان؟

الثابت أن للشيطان قدرة على الوصول إلى الإنسان والتخاطر معه بما يلقيه إليه من كلام يسميه القرآن الكريم بالوسوسة، لأنه لا خير فيه، فهو دعوة إلى شر أو تثبيط عن خير. يقول ابن تيمية: «الوسواس من جنس الحديث والكلاموهو نوعان خبر، وإنشاء. فالخبر إما عن ماض، أو عن مستقبل. فالماضي يذكره به، والمستقبل يحدثه بأن يفعل هو أمورا، أو أن أمورا ستكون بقدر الله، أو فعل غيره، فهذه الأماني والمواعيد الكاذبة. والإنشاء أمر ونهي وإباحة. والشيطان تارة يحدث وسواس الشر، وتارة ينشيء الخبر، وكان ذلك بما يشغله به من حديث النفس. قال تعالى في النسيان: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ . . .﴾ وقال فتى موسى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ، وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾

وأما إخباره بما يكون في المستقبل من المواعيد والأماني، فكقوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ وفي هذه الآية أمره ووعده. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا . . .﴾ . . .»[(٢)].

وللكاهن طبيعة نفسية تناسب هذا العالم الشيطاني وتتوافق معه، ولذا يقول عنهم العلماء: «الكهان قوم لهم أذهان حارة ونفوس شريرة وطباع نارية»[(٣)]. ويقول ابن عاشور: «وأما اتصال نفوس الكهان بالنفوس الشيطانية فيجوز أن يكون من تناسب

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣/٨٧ إلى ٨٩. مفهوم السماوات السبع من المتشابه، لذلك يقع الاحتمال في الآية ونظائرها.

(٢) الفتاوى، ١٧/٥١٩ ـ ٥٢٠. تخريج الآيات على ترتيبها في النص: الأنعام ٦٨. الكهف ٦٣.إبراهيم ٢٢. النساء ١٢٠.

(٣) أعلام السنن، ٢/١٢٠١ (وهو شرح الخطابي للبخاري). الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري ٢٥/٢٤٧. (أي شرح الكرماني، كتاب التوحيد).

بين النفوس».[1] وفي موضع آخر: «وبعض ظواهر الأخبار من السنة تقتضي أن صنفاً (أي من الجن) له اتصال بنفوس ذات استعداد خاص لاستفادة معرفة الواقعات قبل وقوعها أو الواقعات التي يبعد في مجاري العادات بلوغ وقوعها، فتسبق بعض النفوس بمعرفتها قبل بلوغها المعتاد. وهذه النفوس هي نفوس الكهان وأهل الشعوذة، وهذا الصنف من المخلوقات من الجن أو الشياطين هو المسمى بمسترق السمع.

ثم هذه التموجات التي تخلص إلى عقول أهل هذه النفوس المستعدة لها تخلص إليها مقطعة مجملة فيستعين أصحاب تلك النفوس على تأليفها وتأويلها بما في طباعهم من ذكاء وزكانة، ويخبرون بحاصل ما استخلصوه من بين ما تلقفوه وما ألفوه وما أولوه. وهم في مصادفة بعض الصدق متفاوتون على مقدار تفاوتهم في حدة الذكاء وصفاء الفهم والمقارنة بين الأشياء، وعلى مقدار دربتهم ورسوخهم في معالجة مهنتهم وتقادم عهدهم فيها. فهؤلاء هم الكهان، وكانوا كثيرين بين قبائل العرب»[2].

والقرآن الكريم يصور هذا التعاطف والتناسب بين الشياطين ونفوس بعض أهل الكفر وأدعياء التكهن. قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

لكن المفسرين اختلفوا في المراد بالشياطين هنا. فقال الماتريدي في تفسيره: «قيل فيه بأوجه: قيل: إن شياطينهم، يعني الكهنة، سموا بذلك لبعدهم عن الحق. يقال شطن، أي بعد. وقيل: إن كل عات ومتمرد يسمى شيطانا، لعتوه وتمرده وقيل: سموا شياطين، لأنه مع كل كاهن شيطان يعمل بأمره، فسموا بأسمائهم، وذلك جائز في اللغة. والله أعلم»[3].

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٢٣٠.

(٢) التحرير والتنوير، ١٤/ ٣٢ ـ ٣٣. سورة الحجر.

(٣) تأويلات أهل السنة، ص ٤٩. أبو منصور محمد بن محمود الماتريدي، السمرقندي، متكلم وأصولي. له: شرح الفقه الأكبر المنسوب لأبي حنيفة. بيان وهم المعتزلة. تأويلات القرآن. مآخذ الشرائع في أصول الفقه توفي رحمه الله بسمرقند سنة ٣٣٣هـ. من: معجم المؤلفين، ١١/ ٣٠٠. قلت: هو من كبار أئمة أهل السنة في الكلام، وتنسب إليه المدرسة المعروفة بالماتريدية، وإليها ينتمي أكثر الأحناف وبلاد ما وراء النهر.

وذكر ابن عطية وجوه التفسير المأثورة، قال: « قال ابن عباس رضي الله عنه: هم رؤساء الكفر. وقال ابن الكلبي[1] وغيره: هم شياطين الجن. قال القاضي أبو محمد[2]: وهذا في الموضع بعيد. وقال جمع من المفسرين: هم الكهان»[3]. ثم قال ابن عطية والقرطبي ـ معا ـ: « ولفظ الشيطنة الذي معناه البعد عن الإيمان والخير يعم جميع من ذكر»[4].

وقد اختصر البغوي ما تدل عليه الآية في كلمتين، فقال: « ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ أي رؤسائهم وكهنتهم ولا يكون كاهن إلا ومعه شيطان تابع له»[5].

وهؤلاء ـ أعني رؤساء الكفر والنفاق والكهانة ـ معسكر واحد متفاهم على محاربة الدعوة النبوية، ومتقارب في الشر، ولذلك يصلح أن يطلق على جميعهم لفظ الشيطنة.

بينما اقتصر بعض أهل التفسير على أن معنى الشياطين في الآية هم الكفار أو المنافقون أو جميع هؤلاء. قال الرازي: «وأما شياطينهم فهم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم..ولا شبهة في أن المراد بشياطينهم: أكابرهم، وهم إما الكفار وإما أكابر المنافقين، وأما أصاغرهم فلا»[6]. وإلى هذا ميل الطبري[7].

وقال ابن عاشور: «ويطلق الشيطان على المفسد ومثير الشر، تقول العرب فلان

---

(1) محمد بن السائب الكلبي، أبو النضر. مفسر وأخباري ونسابة. ترك تفسيرا طويلا للقرآن. ولد بالكوفة ومات بها سنة ١٤٦هـ. شهد وقعة دير الجماجم مع ابن الأشعث، أحد الثائرين على بني أمية. معجم المؤلفين، ١٠/ ١٥. وفيه كلام للمحدثين في مبحث الحكمة من القذف في النجوم، في الفصل الثاني..

(2) هو ابن عطية نفسه، وكان قاضيا.

(3) المحرر الوجيز، ١/ ١٢٤. وانظر الجامع لأحكام القرآن، ١/ ١٤٤ ـ ١٤٥.

(4) المحرر الوجيز، ١/ ١٢٤. الجامع لأحكام القرآن ، ١/ ١٤٥.

(5) معالم التنزيل، ١/ ٦٧. أبو محمد الحسين بن مسعود المعروف بابن الفراء البغوي. فقيه ومحدث ومفسر، شافعي توفي بمرو الروذ من مدن خراسان سنة ٥١٦هـ. من تصانيفه الأخرى: مصابيح السنة. التهذيب، في فروع الفقه الشافعي. الجمع بين الصحيحين. شمائل النبي المختار معجم المؤلفين، ٤/ ٦١.

(6) مفاتيح الغيب ، ٢/ ٧٧ .

(7) جامع البيان ، ١/ ٩٩ إلى ١٠١.

من الشياطين ومن شياطين العرب، وذلك استعارة، وكذلك أطلق هنا على قادة المنافقين في النفاق، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ. . .﴾»[1].

وكلا الوجهين وارد، وربما لو درسنا لفظة الشيطنة ومشتقاتها ـ وما قرب منها ـ في القرآن الكريم، وتتبعنا ذلك، وقارنا بعضه ببعض، وتعرفنا على أساليب القرآن في استعمال هذه الكلمة..ربما استنتجنا شيئا مفيدا في هذا الباب. وحسبنا هذا المقدار، وأولى أن ننصرف إلى أمور أخرى أمس بموضوع هذا الكتاب.

والمقصود أن للكاهن صحبة مع الشيطان وتوافقا معه، وهي نوع من علاقة أعم بين الإنس والجن يسميها القرآن الكريم بـ: الاستمتاع. في سورة الأنعام: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ، يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ، وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ، وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ، قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [آية: ١٢٨].

وقد اعتنى ابن تيمية بتفسير هذا الاستمتاع المتبادل، فقال في كلام طويل أنقل منه ما نحتاجه: «قال بعضهم: استمتاع الإنس بالجن ما كانوا يلقون لهم من الأراجيف والسحر والكهانة، وتزيينهم لهم الأمور التي يهيؤونها ويسهل سبيلها عليهم. واستمتاع الجن بالإنس طاعة الإنس لهم فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصي. قال محمد بن كعب[2]: هو طاعة بعضهم لبعض وموافقة بعضهم بعضاوقال ابن السائب[3]: استمتاع الإنس بالجن استعاذتهم بهم، واستمتاع الجن بالإنس أن قالوا: قد أسرنا الإنس مع الجن حتى عاذوا بنا، فيزدادون شرفا في أنفسهم، وعظما في نفوسهم، وهذا كقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[4] قلتُ: الاستمتاع بالشيء هو أن يتمتع به فينال به ما يطلبه ويريده

---

(١) التحرير والتنوير، ١/ ٢٩٠.

(٢) هو أبو حمزة محمد بن كعب القرظي، المدني. حدث عن العباس وعلي بن أبي طالب وابن مسعود وغيرهم.. ويقال الجميع مرسل. من أفاضل التابعين، وأعلمهم بالتفسير. مات بالمدينة حوالي ١١٩هـ. عن تهذيب التهذيب، ٩/ ٤٢٠.

(٣) هم جماعة يقال لهم ابن السائب، والمذكور هنا لعله محمد الكلبي صاحب التفسير، والله أعلم.

(٤) سورة الجن، آية ٦.

ويهواه ويدخل في هذا: الاستمتاع بالاستخدام وأئمة الرياسة، كما يتمتع الملوك والسادة بجنودهم ومماليكهم. ويدخل في ذلك الاستمتاع بالأموال كاللباسوفي الجملة استمتاع الإنس بالجن والجن بالإنس يشبه استمتاع الإنس بالإنس، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[2]. قال مجاهد: هي المودات التي كانت لغير الله[3] وتارة يخدم هؤلاء لهؤلاء في أغراضهم، وهؤلاء لهؤلاء في أغراضهم، فالجن تأتيه بما يريد من صورة أو مال أو قتل عدوه، والإنس تطيع الجن، فتارة تسجد له، وتارة تسجد لما يأمره بالسجود له..

ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم في الإخبار بالأمور الغائبة، كما يخبر الكهان، فإن في الإنس من له غرض في هذا، لما يحصل به من الرياسة والمال وغير ذلك، فإن كان القوم كفارا كما كانت العرب لم تبال بأن يقال: إنه كاهن، كما كان بعض العرب كهانا. وقدم النبي ﷺ المدينة وفيها كهان، وكان المنافقون يطلبون التحاكم إلى الكهان وإن كان القوم مسلمين لم يظهر أنه كاهن، بل يجعل ذلك من باب الكرامات، وهو من جنس الكهان، فإنه لا يخدم الإنسي بهذه الأخبار إلا لما يستمتع به من الإنسي، بأن يطيعه الإنسي في بعض ما يريده: إما في شرك، وإما في فاحشة، وإما في أكل حرام، وإما في قتل نفس بغير حق. فالشياطين لهم غرض فيما نهى الله عنه من الكفر والفسوق والعصيان. ولهم لذة في الشر والفتن يحبون ذلك وإن لم يكن فيه منفعة لهم»[4].

تفسير القرقرة:

وهي الصوت الذي يكون حين يلقي الشيطان إلى الكاهن بنبوءته. وقد ذكره النبي ﷺ، ففي حديث عائشة أم المؤمنين عن الناس الذين سألوا الرسول الكريم عن

---

(١) الزخرف ٦٧.

(٢) البقرة ١٦٦.

(٣) مجاهد بن جبر المكي، أبو الحجاج المخزومي المقرئ. روى عن خلق كثير من الصحابة والتابعين، وعنه عطاء وعكرمة وعمرو بن دينار وناس كثر. تلميذ ابن عباس، ومن أجل المفسرين. مات حوالي مائة هجرية. انظر تهذيب التهذيب، ١٠/ ٤٢ إلى ٤٤.

(٤) الفتاوى ، ١٠/ ٨٠ إلى ٨٣.

الكهان، قال: تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة، فيخلطون فيه أكثر من مائة كذبة. كذا في صحيح البخاري، في كتاب التوحيد[١].

وفي رواية المستملي - إحدى روايات جامع البخاري - الزجاجة، بضم الزاي[٢].

وفي الصحيح أيضا حديث آخر عن السيدة عائشة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: الملائكة تتحدث في العنان - والعنان الغمام - بالأمر يكون في الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة، فيزيدون معها مائة كذبة[٣].

والقرقرة هي الوضع في الأذن بالصوت[٤]. يقال: قررت الخبر في أذنه أقره قرا: أودعته، وقر الطائر قريرا صوت[٥]. وقال الهروي إنه ترديد الكلام في أذن الأبكم حتى يفهم[٦].

---

(١) انظر تخريج الحديث في صفحة.

(٢) فتح الباري، ١٥/ ٥٢٠، باب قراءة الفاجر والمنافق من كتاب التوحيد.

(٣) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده.

(٤) عمدة القاريء، ٢٥/ ٣٠١ . حديث عائشة في كتاب التوحيد.

(٥) المعلم بفوائد مسلم، ٣/ ١٠٨.

(٦) عمدة القاريء، ١٥/ ١٧٧. حديث عائشة في كتاب بدء الخلق.
لم أعرف الهروي، لأن هراة إقليم كبير، تخرج منه محدثون ولغويون كثر، وفي معجم المؤلفين منهم ستة وخمسون عالما كلهم يسمى الهروي. ويمكن أن يكون المذكور هو أبو إسماعيل عبد الله الهروي الحنبلي، توفي سنة ٤٨١هـ، وهو صاحب منازل السائرين. انظر معجم المؤلفين، ٦/ ١٣٣. أو هو أبو عمر عبد الواحد المليجي الهروي، توفي سنة ٤٦٣، وصنف في الرد على أبي عبيد في غريب الحديث، ٦/ ٢٠٥. أو هو أبو ذر عبد الهروي، المتوفى بمكة سنة ٤٣٤، وهو محدث كبير، ٥/ ٦٥. أو هو شمر بن حمدويه الهروي، أبو عمرو، توفي سنة ٢٥٥هـ، من تصانيفه: غريب الحديث، ٤/ ٣٠٦. أو هو أبو عبيد أحمد الهروي، اللغوي صاحب : غريب القرآن، وغريب الحديث، توفي سنة ٤٠١هـ، ٢/ ١٥٠.
والغالب على ظني أن المقصود هو شمس الدين الهروي، وترجمته بعد قليل، وقد توفي قبل العيني بأكثر قليلا من عشرين سنة . والعيني هو الناقل عنه.

وإضافة القرقرة إلى الدجاجة من إضافة الفاعل[١]. والمعنى أن الجني يقذف بالكلمة إلى وليه الكاهن فيتسامع بها الشياطين، كما تؤذن الدجاجة بصوتها صواحباتها فتتجاوب[٢]. أو أن صوت الجني عند إلقاء الكلمة إلى صاحبه يشبه صوت الدجاج وترده.

وحديث عائشة الآخر «كما تقر القارورة» يشهد لرواية المستملي. والمعنى على هذا الوجه - كما قال القابسي - «يكون لما يلقيه الكاهن حس، كحس القارورة عند تحريكها مع اليد أو على الصفا»[٣]. أو هو ما يسمع من حس الزجاجة حين يحك بها على شيء[٤]. قال الخطابي: غرضه ﷺ نفي ما يتعاطونه من علم الغيب[٥]. ثم قال: والصواب الزجاجة ليلائم معنى القارورة التي في الحديث الآخر[٦]. وتكون إضافة القرقرة إلى المفعول فيه، نحو مكر الليل[٧]. وتقديم رواية الزجاجة قول السهيلي أيضا، وذكر أن معنى يقرها يصبها ويفرغها[٨].

وهذا الحديث - وما فيه من ذكر الصوت - شاهد على وجود اتصال مادي للكاهن بالشيطان، اتصال محسوس، وليس بمجرد الوسوسة أو الحديث النفسي.

---

(١) عمدة القاري، ٢٥/ ٣٠١.

(٢) المعلم، ٣/ ١٠٨.

(٣) عمدة القاري، ١٥/ ١٧٨. والقابسي هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري، عالم المالكية بإفريقية في عصره، كان حافظا للحديث وعلله ورجاله، فقيها أصوليا، وكان ضريرا. له تصانيف، منها: الممهد، في الفقه، كبير جدا. المنقذ من شبه التأويل. ملخص الموطأ. الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين. عن الأعلام، لخير الدين الزركلي، ٥/ ١٤٤.

(٤) عمدة القاري، ١٥/ ١٧٨.

(٥) عمدة القاري، ٢٥/ ٣٠١. الكواكب الدراري، ٢٥/ ٢٤٧.

(٦) عمدة القاري، ٢٥/ ٣٠١. الكواكب الدراري ٢٥/ ٢٤٧. وانظر المعلم ٣/ ١٠٨.

(٧) الكواكب الدراري، ٢٥/ ٢٤٧ .

(٨) الروض الأنف، ١/ ٣٥٦. أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي، مؤرخ ومحدث ولغوي. ولد بالأندلس وأخذ عن ابن العربي، ولما اشتهر نبوغه طلبه والي مراكش، فأقام بها ثلاثة أعوام، ثم توفي بها سنة ٥٨١هـ. من مؤلفاته: التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام. شرح الجمل للزجاجي في النحو، لم يتم. رسائل في رؤية الله عز وجل في المنام، ورؤية النبي. الروض الأنف معجم المؤلفين ، ٥/ ١٤٧.

الفصل الثاني:

في حراسة السماء والقذف بالشهب

ما هو الشهاب؟

لاحظ العرب - في الجاهلية - نورا ينقض في السماء ثم يختفي، وقد يتعدد ويكثر، وذكروا ذلك في أشعارهم، فلما جاء الإسلام أخبرهم بحقيقة ما شاهدوه، وأن ذلك من الشهب التي ترمى بها الشياطين حين يستمعون إلى حديث الملائكة، قال ابن عاشور: «وفيه تعليم لهم بأن الشهب التي يشاهدونها متساقطة في السماء هي رجوم للشياطين المسترقة طردا لها عن استراق السمع كاملا، فقد عرفوا ذلك من عهد الجاهلية ولم يعرفوا سببه»[(١)].

لكن العلماء اختلفوا في هذا الشهاب ما هو[(٢)]، فالذي يرجم به عند بعضهم هو الكوكب نفسه، قال البغوي - في آية ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ -: أي «كوكب مضيء قوي لا يخطئه، يقتله أو يحرقه أو يخبله[(٣)]».

وهاء الضمير تعود على الشيطان المسترق. وقال آخرون بل الشهاب كرة من النار ليست بكوكب، قال الكرماني: «الشهب جمع شهاب، وهو شعلة نار ساقطة كأنها كوكب منقض»[(٤)]. والثاقب معناه «مضيء في الغاية كأنه يثقب الجو بضوئه»[(٥)]. فهو مضيء متوقد[(٦)].

---

(١) التحرير والتنوير، ١٤/ ٣١. سورة الحجر.

(٢) اليواقيت والجواهر، للشعراني، ١/ ١٣٦. إنسان العيون في سيرة الأمين المامون، لعلي بن برهان الدين الحلبي الشافعي، ١/ ٣٤٤.

(٣) معالم التنزيل، للبغوي، ٧/ ٣٥.

(٤) الكواكب الدراري، ٥/ ١٣٣. كتاب الأذان. والكرماني هو محمد بن يوسف البغدادي. محدث ولغوي. توفي في طريقه إلى الحج، ونقل إلى بغداد، سنة ٧٨٦هـ. له: شرح المواقف للإيجي، في علم الكلام. حاشية على تفسير البيضاوي. الفوائد الغياثية في المعاني والبيان. شرح البخاري المذكور معجم المؤلفين ١٢/ ١٢٩.

(٥) إرشاد العقل السليم، ٤/ ٢٦٦.

(٦) جامع البيان، للطبري، ٢٣/ ٢٥.

وهذا تفصيل الخلاف:

الرأي الأول: يرمى بالكواكب، وليس بكلها طبعا، بل ببعضها فقط.

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ معناه وجعلنا منها، وهذا كما تقول: أكرمت بني فلان وصنعت بهم، وأنت إنما فعلت ذلك ببعضهم دون بعض. ويوجب هذا التأويل في الآية أن الكواكب الثابتة والبروج، وكل ما يهتدى به في البر والبحر، فليست براجم»(١).

ودليل هذا القول ظاهر الكتاب الكريم، لأن فيه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾. فالضمير في «جعلناها» يعود على أقرب مذكور، أي المصابيح، وهي النجوم أو الكواكب كما هو مشار إليه في مواضع أخرى من القرآن، فهذه هي نفسها التي يرجم بها. وهذا ظاهر قول بعض المفسرين مثل الطبري(٢) والنسفي(٣).. قال القرطبي: سمي الكوكب شهابا لبريقه، يشبه النار(٤).

الرأي الثاني: الشهب غير الكواكب.

قال العيني والقرطبي: «الشهاب شعلة نار ساطعة كأنها كوكب منقض»(٥). وذكر الزمخشري أن «معنى كونها مراجم للشياطين أن الشهب التي تنقض لرمي المسترقة منهم منفصلة من نار الكواكب، لا أنهم يرجمون بالكواكب أنفسها، لأنها قارة في الفلك على حالها، وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نار، والنار ثابتة كاملة لا تنقص»(٦).

ولذلك قال القرطبي ـ أبا عبد الله ـ: «ليست الشهب التي يرجم بها من الكواكب

---

(١) المحرر الوجيز ١٦/ ٦٢ . وقارن بـ: ١٣/ ٢٢٢.

(٢) جامع البيان، ٢٩/ ٦٠ . سورة الجن.

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٤/ ٢٩٩. سورة الجن. لعبد الله بن أحمد النسفي، الحنفي، حافظ الدين أبو البركات. متكلم وأصولي وفقيه. توفي ببلدة بين خوزستان وأصبهان. من تصانيفه: عمدة العقائد في الكلام، وشرحها: الاعتماد. منار الأنوار، في أصول الفقه. الكافي في شرح الوافي، كنز الدقائق، كلاهما في الفقه الحنفي. معجم المؤلفين، ٦/ ٣٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ، ١٠/ ٩.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٩. سورة الحجر . عمدة القاري، ٦/ ٣٦. كتاب الأذان، باب الجهر بصلاة الصبح.

(٦) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٤/ ١٣٥.

الثوابت. يدل على ذلك رؤية حركاتها، والثابتة لا تجري ولا ترى حركاتها لبعدها»[1].

وقد طرح الرازي هذا السؤال، فقال: «هذه الشهب هل هي من الكواكب التي زين الله السماء بها أم لا؟ والأول باطل، لأن هذه الشهب تبطل وتضمحل، فلو كانت هذه الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير من أعداد كواكب السماء، ومعلوم أن هذا المعنى لم يوجد ألبتة فإن أعداد كواكب السماء باقية على حالة واحدة من غير تغير ألبتة، وأيضا فجعلها رجوما للشياطين مما يوجب وقوع النقصان في زينة السماء فكأن الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض»[2].

بقي القسم الثاني، وهو أن هذه الشهب جنس مستقل ليست بالكواكب المركوزة في الفلك، وهذا أيضا استشكله الرازي بالنظر لظاهر اللفظ القرآني، كما بينه أصحاب المذهب الأول. ثم حاول أن يرفع هذا الإشكال، فقال: «كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصابيح لأهل الأرض، إلا أن تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد، ومنها ما لا يكون كذلك، وهي هذه الشهب التي يحدثها الله تعالى ويجعلها رجوما للشياطين، وبهذا التقدير فقد زال الإشكال، والله أعلم»[3].

وللرازي أيضا جواب آخر، قال: «فإن قيل جعل الكواكب زينة للسماء يقتضي بقاءها واستمرارها، وجعلها رجوما للشياطين ورميهم بها يقتضي زوالها، والجمع بينهما متناقض. قلنا ليس معنى رجم الشياطين هو أنهم يرمون بأجرام الكواكب، بل يجوز أن ينفصل من الكواكب شعل ترمى الشياطين بها، وتلك الشعل هي الشهب، وما ذاك إلا قبس يؤخذ من نار، والنار باقية»[4].

وقال العز بن عبد السلام: إن الذي يرجم به شهب تخلق عند الرجم. ولذا قال

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/٤٦ (الصافات، ١٠). وفي النص أخطاء، وقد صححته بمقابلته بما نقله صاحب سبيل الهدى والرشاد، ٢/٢٠٢، عن القرطبي.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٦/١٢١.

(٣) مفاتيح الغيب، ٢٦/١٢٢.

(٤) مفاتيح الغيب، ٣٠/٦٠.

بعضهم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾، الهاء عائدة على السماء، التقدير: وجعلنا شهبها، على حذف المضاف، فصار الضمير للمضاف إليه[١].

وحكى محمد الصالحي عن الحليمي أنه قال: ليس فيما نتلوه من كلام ربنا عز وجل أن الشيطان يُرمى بالكواكب أو النجوم؛ وذكر أنه أطال الكلام في تقرير أن الرمي إنما هو بالشهب، وهي شعل النار، وجعل المصابيح كناية عن الشعل لا النجوم[٢]. وقال أبو شامة: «الشهاب في اللغة اسم للشعلة الساطعة من النار، ثم أطلق على النجم المزصد لرجم الشياطين المسترقين للسمع، لأنها لما عيّنت لرجم الشياطين، وهي الشعل من النار، أطلق عليها لفظ الشهب لهذه الملابسة والمجاورة مجازا»[٣].

---

(١) أورده محمد بن يوسف الصالحي الشامي في: سبيل الهدى والرشاد، ٢/٢٠٣. وقارن بـ: التحرير والتنوير، ٢٩/ ٢٢. وعبد العزيز بن عبد السلام السلمي إمام كبير، درس على الفخر بن عساكر والسيف الآمدي والحافظ بن عساكر وغيرهم. من تلامذته ابن دقيق العيد وشهاب الدين أبو شامة والحافظ أبو محمد الدمياطي. درس بدمشق، ثم بالقاهرة. من كتبه: شجرة المعارف. التفسير. الفتاوى. الغاية في اختصار النهاية توفي بالقاهرة، سنة ٦٦٠ هـ. راجع ترجمته المطولة في: طبقات الشافعية الكبرى، للتاج السبكي، ٨/ ٢٠٩.

(٢) سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ٢/ ٢٠٢، لشمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن يوسف الشامي الصالحي. محدث ومؤرخ. ولد بدمشق، ثم رحل إلى مصر. توفي سنة ٩٤٢ هـ. له: مطلع النور في فضل الطور. عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان. الآيات العظيمة الباهرة في معراج سيد أهل الدنيا والآخرة. الإتحاف بتمييز ما تبع فيه البيضاوي صاحب الكشاف. معجم المؤلفين، ١٢/ ١٣١.

أما أبو عبد الله الحليمي فهو الحسين بن الحسن البخاري الشافعي، قال الذهبي عنه: «صاحب وجوه حسان في المذهب، وكان من أذكياء زمانه ومن فرسان النظر». أخذ عن أبي بكر القفال وخلف بن محمد الخيام وبكر المروزي، وغيرهم، وحدث عنه أبو عبد الله الحاكم وأبو سعيد الكنجرودي له تصانيف مفيدة. توفي سنة ٤٠٣ هـ. راجع تذكرة الحفاظ للذهبي، ٣/ ١٠٣٠.

(٣) سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣. شهاب الدين أبو شامة، هو عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، الدمشقي. محدث ومؤرخ وفقيه. ولد بدمشق، وقتل بها سنة ٦٦٥هـ. من مؤلفاته الكثيرة: المقاصد السنية في شرح الشيبانية، في علم الكلام. إبراز المعاني في حرز الأماني، في القراءات. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، النورية والصلاحية. المحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول.. معجم المؤلفين، ٥/ ١٢٥.

الشهاب في علم الفلك:

ولست أدري إن كان يجوز لنا أن نستعين بعلم الفلك على رفع الاختلاف السابق حول الشهاب، وهل يمكن لهذا العلم أن يفيدنا فعلا في هذا الموضوع، وأن يقدم لنا إضافات أخرى في مسألة الرمي بالشهب.

ويبدو أن الشيخ ابن عاشور يرى جواز ذلك كله، ففسر الشهاب ببعض ما يعرفه من علم الفلك ـ أو علم الهيئة ـ ، قال: «إن تلك الشهب التي تلوح للناظر قطعا لامعة مثل النجوم جارية في السماء إنما هي أجسام معدنية تدور حول الشمس، وعندما تقرب إلى الأرض تتغلب عليها جاذبية الأرض فتنزعها من جاذبية الشمس فتنقض بسرعة نحو مركز الأرض. ولشدة سرعة انقضاضها تولّد في الجو الكروي حرارة كافية لإحراق الصغار منها وتحمى الكبار منها إلى درجة من الحرارة توجب لمعانها وتسقط حتى تقع على الأرض، في البحر غالبا، وربما وقعت على البر. وقد يعثر عليها بعض الناس إذ يجدونها واقعة على الأرض قطعا معدنية متفاوتة، وربما أحرقت ما تصيبه من شجر أو منازل. وقد أرخ نزول بعضها سنة ٦١٦ قبل ميلاد المسيح ببلاد الصين فكسر عدة مركبات وقتل رجالا، وقد ذكرها العرب في شعرهم قبل الإسلام . . .

وسقطت بالقطر التونسي مرتين أو ثلاث مرات، منها قطعة سقطت في أوائل هذا القرن وسط المملكة أحسب أنها بجهات تالة ورأيت شظية منها تشبه الحديد، والعامة يحسبونها صاعقة ويسمون ذلك حجر الصاعقة. وتساقطها يقع في الليل والنهار ولكنا لا نشاهد مرورها في النهار لأن شعاع الشمس يحجبها عن الأنظار.

ومما علمت من تدحرج هذه الشهب من فلك الشمس إلى فلك الأرض تبين لك سبب كونها من السماء الدنيا وسبب اتصالها بالأجرام الشيطانية الصاعدة من الأرض تتطلب الاتصال بالسموات»[1].

فاعتبر أن الشهاب المذكور في القرآن هو الذي يسمى في اصطلاح الهيئة والفلك بـ: النيزك[2].

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣/ ٩٠ ـ ٩١. وفي إنسان العيون، المعروفة بسيرة الحلبي، ١/ ٣٤٤، ذكر حوادث مشابهة.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٣/ ٩٣ . عند قوله تعالى: (فأتبعه شهاب ثاقب).

وبالرجوع إلى هذا العلم يتبين أن أهم الأجسام الفلكية، غير الكواكب والنجوم الكبيرة وذات الوجود المستقر، هي كالآتي:

١ ـ **المذنب**: جسم له رأس ونواة وذنب. يصل قطر النواة إلى حوالي كيلومترين، أما قطر الرأس فأضعاف ذلك بكثير. وتوجد حوالي المذنب طبقة كثيفة من الغاز والغبار، يجرها معه. ووزنه أقل من وزن الأرض مليار مرة. والمذنب جسم مضيء، لكن ضوءه مجرد انعكاس لضوء الشمس، وهو في النهاية ينقسم على نفسه، وقد يتفتت تماما[(١)].

٢ ـ **النجيمة**: وهي جسم صغير يدور حول الشمس. وتبدو النجيمة في سمائنا نحن مثل كوكب متحرك، لكن بريقها ضعيف. وأول مرة اكتشف فيها هذا الجسم كان في القرن التاسع عشر[(٢)].

٣ ـ **النيزك**: جسم طبيعي مكون من أحجار ومعادن، يأتي إلى الأرض من الفضاء، وسرعته بضع عشرات الكيلومترات في الثانية. وحين يقترب النيزك من سمائنا يكتسب حرارة، ويصير مضيئا، وكلما اقترب كان أشد إضاءة وتوهجا. وهذه الظاهرة التي لوحظت منذ القديم، لا تزال مستمرة إلى اليوم. ويقدر أن في الأرض من بقايا هذه النيازك حوالي أربعين طناً[(٣)].

وإن كان لا بد من تحديد الشهاب في ضوء علم الفلك، فالأقرب أنه النيزك، والله تعالى أعلم وأحكم.

هل كان الرجم بالشهب قبل المبعث، أم حدث بعده؟

اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين، بعد أن أجمعوا على أن الرمي البالغ والحراسة الشديدة أمران حدثا مع بعث النبي ﷺ، ولذلك كان حفظ السماء من دلائل نبوته:

المذهب الأول: إن الرجم بالشهب لم يكن قبل مبعث الرسول الكريم، وإنما حدث معه.

---

(١) راجع: Encyclopaedia Universalis, article comète, 6/p 159 et après.

(٢) انظر: Encyclopaedia Universalis, article Astéroïde, 3/249.

(٣) اقرأ: Encyclopaedia Universalis, article Météore, 15 /p197, ولعل القارئ لاحظ أن الشيخ ابن عاشور خلط قليلا بين النجيمة والنيزك.

وهذا قول ابن عباس وأبي بن كعب[1] من الصحابة، واختاره من التابعين الشعبي[2] ونافع بن جبير[3]، وقال به أيضا الزجاج والجاحظ[4] والبغوي وابن الجوزي[5] وعلي الحلبي[6] وغيرهم.

قال البغوي: «واعلم أن هذا لم يكن ظاهرا قبل مبعث النبي ﷺ، ولم يذكره شاعر من العرب قبل زمان النبي ﷺ، وإنما ظهر في بدء أمره، وكان ذلك أساسا لنبوته عليه السلام»[7].

وبعض هؤلاء قالوا لم يرم بنجم منذ رفع عيسى عليه السلام، أي أن الرجم بالشهب ليس شيئا لم يكن ألبتة قبل البعثة، بل لم يكن في الفترة بين النبيين: عيسى

---

(١) سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ٢٠٥.

(٢) سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ٢٠٥. الشعبي هو عامر بن شراحيل، أبو عمرو، الهمداني الكوفي. تابعي جليل، ولد في خلافة عمر، وروى عن صغار الصحابة. شهد وقعة الجماجم مع ابن الأشعث ثم نجا من سيف الحجاج، وعفى عنه وولي قضاء الكوفة. يعد الشعبي رحمه الله من أكابر المحدثين. انظر تذكرة الحفاظ، ١/ ٧٩ فما بعدها.

(٣) سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ٢٠٥. نافع بن جبير بن مطعم بن عدي، أبو محمد . تابعي مدني ثقة، روى عن بعض الصحابة كأبيه والعباس والزبير وعلي. توفي سنة ٩٩هـ. عن تهذيب التهذيب، ١٠/ ٤٠٥.

(٤) المفهم شرح مسلم، ٧/ ٤٢٠. سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ٢٠٥.

(٥) سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ٢٠٥. وابن الجوزي هو جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، التيمي، البغدادي، الحنبلي. مشارك في التفسير والحديث والفقه والأدب. ولد ببغداد، وتوفي بها سنة ٥٩٧ هـ. له: المغني في علوم القرآن. تذكرة الأريب، في اللغة. جامع المسانيد، ضخم. المنتظم في تاريخ الأمم معجم المؤلفين، ٥/ ١٥٧. وهو صاحب تفسير زاد المسير. تلبيس إبليس. صيد الخاطر.

(٦) إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ١/ ٣٤٠ فما بعدها. علي بن إبراهيم برهان الدين الحلبي الشافعي (٩٧٥ ـ ١٠٤٤هـ)، له هذه السيرة المعروفة بالحلبية. مؤرخ ولغوي، ومشارك في بعض العلوم الأخرى. ولد بمصر، وتوفي بالقاهرة. من تصانيفه الكثيرة: فرائد العقود العلوية في حل ألفاظ شرح الأزهرية، في النحو. النصيحة العلوية في بيان حسن طريقة السادة الأحمدية. حاشية على شرح الورقات للجلال المحلي، في أصول الفقه. عن معجم المؤلفين، ٧/ ٣.

(٧) معالم التنزيل، ٤/ ٣٧٣.

ومحمد، صلوات الله عليهم وسلامه. أما قبل المسيح فقد كان منه شيء[(١)].

وذكر ابن العربي - وغيره - وجها فيه، وهو أن الرمي بالشهب حدث من مولد النبي الكريم، ولكنه ما كثر إلا من بعثته[(٢)].

وقال ابن الجوزي: الذي أميل إليه أن الشهب لم ترم إلا قبل مولد النبي ﷺ، ثم استمر ذلك وكثر حين بعث[(٣)].

واستدلوا بما يلي:

١ - ظاهر الكتاب الكريم، وذلك أن الجن لما صعدت إلى السماء فوجئت بالحراسة والشهب واستنكرت ذلك: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ وهذا يدل على أن السماء لم تكن قبل ذلك تحرس، وإلا ما كان لحكايتهم واستغرابهم معنى، بل قالوا: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ. . .﴾.

٢ - حديث ابن عباس قال: كان الجن يصعدون إلى السماء يسمعون الوحي فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعا، فأما الكلمة فتكون حقا وأما ما زاد فيكون باطلا. فلما بعث النبي ﷺ منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا من أمر قد حدث في أرض، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائما يصلي بين جبلين، أراه قال بمكة، فأتوه فأخبروه، فقال هذا الذي حدث في الأرض. هذا لفظ الترمذي[(٤)]. وقال هذا حديث حسن صحيح[(٥)].

---

(١) وهي أيضا رواية عن أبي بن كعب، انظر سبيل الهدى والرشاد ٢/ ١٩٧ - ١٩٨، وعن ابن عباس، راجع دلائل النبوة، ٢/ ٢٤ - ٢٥. السيرة النبوية لابن كثير، ١/ ٤١٨.

(٢) عارضة الأحوذي، لابن العربي، ١٢/ ٢٢١، وهو شرح لسنن الترمذي.

(٣) عمدة القاري، ٦/ ٣٦. باب الجهر بقراءة صلاة الصبح من كتاب الأذان.

(٤) رواه في السنن، كتاب تفسير القرآن، باب ٧٤، حديث ٣٣٣٧. هو الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تلميذ البخاري، وشاركه في بعض شيوخه. سمع بالعراق وخراسان والحرمين. له: الجامع الصحيح، وهو أحد الكتب الستة المعتمدة. الشمائل، عن النبي ﷺ. العلل في الحديث. التاريخ معجم المؤلفين ١١/ ١٠٥.

(٥) اختلف المحدثون في مراد الترمذي من هذه الصيغة، فقيل يعني أن الحديث جاء بروايتين - أعني طريقين - ، إحداهما حسنة والأخرى صحيحة. وقيل يعني أن درجة الحديث تقع بين الصحة والحسن. وقيل هو اصطلاح خاص. وقيل يعني أن الخبر حسن أي جيد ومقبول، فهو الحسن اللغوي، أما السند فصحيح راجع كتب مصطلح الحديث، مثل: مقدمة ابن الصلاح، والنكت على المقدمة لابن حجر، ١/ ٤٧٥ فما بعدها.

فهذا ابن عباس يقول: ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك. والحديث له حكم الرفع لأنه من باب ما لا يخبر به الصحابي إلا عن توقيف.

وظاهر الآيات والأخبار أن الشياطين فوجئت بالحراسة الشديدة في السماء، ودفعهم ذلك إلى البحث عن السبب[1]، وهذا يقتضي أن يكون هذا الأمر جديدا، ففي حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنه قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ - وهو بنخلة - عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾. فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾، وإنما أوحي إليه قول الجن[2].

٣ - قال الزجاج: لم يكن الرمي إلا بعد النبي عليه السلام، بدليل أن الشعراء لم يشبهوا به في السرعة إلا بعد الإسلام[3]. بل جاءت أشعار العرب باستغرابهم الرمي بالنجوم، لكونهم لم يعهدوه قبل النبوة[4].

٤ - وقالوا أيضا: إن في بعض أخبار العرب ما يدل على الفزع الشديد الذي أصابهم لما لاحظوا الرمي بالشهب، ولو كان ذلك قبل البعثة لكان معتادا لهم غير مخوف. فقد حدث ابن إسحاق أن أول العرب فزع للرمي بالنجوم حين رمي بها هذا

---

(١) سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ٢٠٥.

(٢) هذا لفظ البخاري في كتاب الأذان، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر، حديث ٧٧٣، وكذا في كتاب التفسير، سورة الجن. والحديث أيضا أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب ١٤٩. والترمذي في السنن، كتاب التفسير، سورة الجن. وأحمد في مسند ابن عباس.

(٣) المحرر الوجيز، ١٠/ ١١٧. الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ١٠، سورة الحجر.

(٤) الكواكب الدراري، ٥/ ١٣٤ (كتاب الأذان).

الحي من ثقيف، وأنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له: عمرو بن أمية أحد بني علاج، وكان أدهى العرب وأنكرها، فقالوا له: يا عمرو ألم تر ما حدث في السماء من القذف بهذه النجوم؟ قال: بلى، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر، ويعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء، لما يصلح الناس في معايشهم، هي التي يرمى بها، فهو والله طي الدنيا، وهلاك هذا الخلق، وإن كانت نجوما غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق فما هو؟[١].

وقد ساق الحافظ في الفتح روايات كثيرة في هذا المعنى، مما يدل على أن لهذه القصة أصلا[٢]. وذكروا عن أبي رجاء العطاردي أنه قال: كنا لا نرى الرمي بالنجوم قبل الإسلام[٣].

المذهب الثاني: إنه كان يحدث قبل البعثة، فلما أوحي إلى النبي ﷺ ازداد الرمي بالشهب جدا، واشتدت الحراسة، ولم يعد في السماء موضع لاستراق السمع. قال ابن كثير: «قد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان»[٤].

وربما كان هذا مذهب الأكثرين، فهذا ما ظهر لي، وإن كان النسفي نسب إلى الجمهور المذهب الأول[٥]. ومن الذين قالوا بهذا المذهب الثاني: الزهري[٦]،

---

(١) سيرة ابن هشام، ١/ ٢٥٩. وانظر : السيرة النبوية لابن كثير، ١/ ٢٩٠. معالم التنزيل، ٤/ ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٢) راجع فتح الباري، ٩/ ٦٧٥. كتاب التفسير ، سورة قل أوحي إلي.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز، ١٠/ ١١٧. وأبو رجاء هو عمران، واختلف في اسمه. وهو مخضرم، عاش في الجاهلية زمانا، ثم أسلم بعد فتح مكة، وكان معمرا جاوز المائة سنة. ثقة. انظر الإصابة لابن حجر، ٧/ ١٤٨. رقم الترجمة ٩٩١٧.

(٤) تفسير ابن كثير، ٤/ ٥٠٧. سورة الجن.

(٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٤/ ٣٠٠ ، سورة الجن. بل صرح القرطبي بأن المذهب الثاني هو قول الأكثرين. وهذا يعزز من ظني السابق، انظر الجامع لأحكام القرآن ، ١٠/ ١٠، الحجر.

(٦) أبو بكر محمد بن مسلم الزهري، من أهل المدينة. حافظ كبير، وإمام في الحديث. نزل الشام واستقر بها وتوفي على الحدود بين الحجاز وفلسطين. له تصنيف في مغازي الرسول ﷺ. توفي سنة ١٢٤هـ ، معجم المؤلفين ، ١٢/ ٢١. قلت: روى عنه مالك، وسائر الستة. تابعي ثقة جليل.

والبيهقي[1]، وابن قتيبة[2]، وابن عطية[3]، وابن العربي، والغزالي[4]، والسهيلي[5]، والعز بن عبد السلام[6]، والرازي، والقرطبي أبو عبد الله، وأبو شامة، والزركشي[7]، وشمس الدين الهروي[8]، وابن كثير، والطاهر بن عاشور[9].. وسواهم. وينسب أيضا إلى عبد الله بن عباس[10].

---

(١) في كتابه: دلائل النبوة، ٢/ ٢١. والبيهقي هو المحدث الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين (٣٨٤ _ ٤٥٨هـ)، الخراساني، الشافعي. رحل في طلب الحديث، وسمع، وصنف كثيرا، حتى قيل تبلغ تصانيفه ألف جزء. منها: السنن الكبرى. الجامع المصنف في شعب الإيمان. دلائل النبوة. مناقب الشافعي. توفي بنيسابور. معجم المؤلفين، ١/ ٢٠٦.

(٢) حكاه عنه البغوي في معالم التنزيل، ٨/ ٢٣٩. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، عالم مشارك في أنواع من العلوم كاللغة والنحو وغريب القرآن والحديث والشعر والتاريخ. سكن بغداد، وحدث بها، وولي قضاء دينور. من كتبه الكثيرة: غريب القرآن. تأويل مختلف الحديث. أدب الكاتب. عيون الأخبار. طبقات الشعراء. جامع الفقه. معجم المؤلفين، ٦/ ١٥٠. توفي سنة ٢٧٦هـ. قلت: كتاب الإمامة والسياسة ينسب إليه، ولا يصح ذلك.

(٣) المحرر الوجيز، ١٦/ ١٣٥ _ ١٣٦. سورة الجن.

(٤) المفهم، ٧/ ٤٢٠.

(٥) سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ٢٠٤.

(٦) سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ٢٠٤.

(٧) سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ٢٠٤. بدر الدين أبو عبد الله محمد بن بهادر المصري الزركشي. تركي الأصل. عالم، تتلمذ لجمال الدين الأسنوي والسراج البلقيني، رحل إلى الشام وتولى بها وظائف، ثم عاد إلى القاهرة، وتوفي بها سنة ٧٩٤هـ. له: البحر المحيط، في أصول الفقه. شرح تنبيه الشيرازي، في الفقه. شرح جمع الجوامع. لقطة العجلان وبلة الظمآن. معجم المؤلفين. ٩/ ١٢١.

(٨) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عطاء الله الهروي، من ذرية الفخر الرازي. ولد بهراة، وولي قضاء مصر، وأمانة السر للملك برسباي بها، ثم تولى نظارة أوقاف الخليل والقدس، وبها توفي سنة ٨٢٩هـ. له: شرح مشارق الأنوار. فضل المنعم شرح صحيح مسلم. شرح مصابيح السنة للبغوي.. معجم المؤلفين ١٠/ ٢٩٤.

(٩) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٢٢٧.

(١٠) في رواية أحمد والبيهقي عنه، انظر: سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ١٩٧. دلائل النبوة، ٢/ ٢٤ _ ٢٥.

قال معمر: قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال نعم. قلت أفرأيت قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ . . . الآية﴾؟ قال: غُلظت وشُدد أمرها حين بعث النبي ﷺ[1]. قال ابن حجر: وهذا جمع حسن[2]. يعني بين الأدلة المتعارضة.

وقال ابن المنير: كان يرمى بالشهب، فتصيب تارة ولا تصيب أخرى، وبعد البعثة أصابتهم إصابة مستمرة فوصفوها لذلك بالرصد، فإن الذي يرصد الشيء لا يخطئه، فيكون المتجدد دوام الإصابة لا أصلها.[3]

وللجمهور أدلة أهمها:

١ ـ ظاهر القرآن، وذلك أن الجن قالت: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾، فقد كان في السماء حراسة وشهب، والآن زيدت حتى ملئت.

قال الرازي: «الأقرب إلى الصواب أن هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث، إلا أنها زيدت بعد المبعث وجعلت أكمل وأقوى. وهذا هو الذي يدل عليه لفظ القرآن، لأنه قال: ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ﴾، وهذا يدل على أن الحادث هو الملء والكثرة، وكذلك قوله: ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ﴾، أي كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب، والآن ملئت المقاعد كلها، فعلى هذا الذي حمل الجن على الضرب في البلاد وطلب السبب، إنما هو كثرة الرجم ومنع الاستراق بالكلية»[4].

وقال الهروي: «وفي هذه الآية دليل على أن الحادث هو الملء والكثرة، وأنهم

---

(١) ذكره عبد الرزاق في مصنفه. والراوي هو معمر بن راشد الأزدي. سكن اليمن. وروى عن كثير من التابعين، وعنه كثيرون من أفاضل المحدثين. وهو أحد الذين دار الإسناد عليهم. حافظ ثقة، مات سنة ١٥٢هـ. راجع تهذيب التهذيب لابن حجر، ١٠/ ٢٤٣.

(٢) فتح الباري، ٩/ ٦٧٦، كتاب التفسير.

(٣) نقله ابن حجر في الفتح، ٩/ ٦٧٦، ومحمد الصالحي في «سبيل الهدى والرشاد»، ٢/ ٢٠٦. وابن المنير هو زين الدين أبو الحسن، علي بن محمد الإسكندري (٦٢٩ ـ ٦٩٥هـ) محدث. من آثاره: شرح صحيح البخاري. المتواري عن تراجم البخاري. معجم المؤلفين، ٧/ ٢٣٤. وهو أخ ناصر الدين أبي العباس أحمد بن المنير، توفي سنة ٦٨٣هـ. تولى قضاء الإسكندرية. وعرف بحاشيته على الكشاف المسماة بالانتصاف. المعجم ٢/ ١٦١.

(٤) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ١٥٩.

كانوا في الأول يقعدون من السماء مقاعد لاستراق السمع ويجدون بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب، والآن ملئت المقاعد كلها ولم يبق مقعد من المقاعد خاليا»[1].

وقالوا أيضا قد ذكر الله سبحانه فائدتين في خلق الكواكب: تزيين السماء الدنيا، وحفظها من الاستراق[2]. فما دام لهذه النجوم وجود سابق على البعثة، فكذلك وظائفها وفوائدها متقدمة على الإسلام.

وقد استخرج القرطبي دليلا لهذا المذهب من قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ ـ ١٠]. قال الطبري شارحاً: «﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا﴾، ويرمون من كل جانب من جوانب السماء دحورا ... والدحر الدفع والإبعاد ... عذاب من الله واصب، اختلف أهل التأويل في معنى الواصب، فقال بعضهم معناه الموجع ... وقال آخرون بل معناه الدائم ..﴿وَهُوَ﴾ أولى التأويلين»[3].

قال القرطبي ـ في الاستدلال لمذهب الجمهور ـ: «لعل الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ، دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ إلى هذا المعنى، وهو أنهم كانوا لا يقذفون إلا من بعض الجوانب فصاروا يرمون واصبا. وإنما كانوا من قبل كالمتجسسة من الإنس، يبلغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره، ويسلم واحد ولا يسلم غيره، بل يقبض عليه ويعاقب وينكل. فلما بعث النبي ﷺ زيد في حفظ السماء، وأُعدت لهم شهب لم تكن من قبل؛ ليدحروا عن جميع جوانب السماء، ولا يقروا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها؛ فصاروا لا يقدرون على سماع شيء مما يجري فيها، إلا أن يختطف أحد منهم بخفة حركته خطفة، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض فيلقيها إلى إخوانه فيحرقه؛ فبطلت من ذلك الكهانة»[4].

٢ ـ واستدلوا أيضا بالحديث الصحيح عن ابن عباس، قال: «بينما رسول الله ﷺ

---

(١) عن: سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ٢٠٥.
(٢) سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٣) جامع البيان، ٢٣/ ٢٤ ـ ٢٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٤٥.

جالس في نفر من أصحابه إذ رمي بنجم فاستنار، فقال رسول الله ﷺ: ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية إذا رأيتموه؟ قالوا كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم، فقال رسول الله ﷺ: فإنه لا يرمى به لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا عز وجل إذا قضى أمرا سبح له حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح إلى هذه السماء، ثم سأل أهل السماء السادسة أهل السماء السابعة ماذا قال ربكم، قال فيخبرونهم ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا، ويختطف الشياطين السمع فيرمون، فيقذفونها إلى أوليائهم فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكونهم يحرفونه ويزيدون»[(١)].

٣ ـ ذكر الرمي في الشعر الجاهلي. قال السهيلي: «..لكن القذف بالنجوم قد كان قديما، وذلك موجود في أشعار القدماء من الجاهلية. منهم عوف بن أجرع، وأوس بن حجر، وبشر بن أبي خازم، وكلهم جاهلي، وقد وصفوا الرمي بالنجوم، وأبياتهم في ذلك مذكورة في مشكل ابن قتيبة في تفسير سورة الجن»[(٢)].

قال عوف المذكور:

فانقض كالدري يتبعه   نقع يثور تخاله طنبا[(٣)]

٤ ـ وذكره أيضا بعض الفلاسفة الأقدمين[(٤)]

ويبدو أن قول الجمهور أقرب إلى الصواب، وأقوى أدلتهم الحديث الصحيح،

---

(١) هذا لفظ الترمذي، رواه في كتاب التفسير، حديث ٣٢٣٨، وقال حسن صحيح. ورواه أيضا مسلم في كتاب السلام، باب ٣٥، حديث ١٢٤ في الكتاب. وأحمد في المسند. وانظر السيرة النبوية، لابن كثير ١/ ٤١٨.

(٢) الروض الأنف، ١/ ٣٥٥. وانظر سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ٢٠٥.

(٣) ذكره ابن عطية في: المحرر الوجيز، ١٦/ ١٣٦، سورة الجن، باسم عوف بن الجزع. وفي مفاتيح الغيب، ٣٠/ ١٥٨، نسبة هذا البيت إلى أوس بن حجر. وذكره الصالحي باسم عوف بن الجذع، في «سبيل الهدى والرشاد»، ٢/ ٢٠٥.

وكل هذا تصحيف، فيما يظهر لي، ولعل الصواب هو عوف بن الخرع، وهو عوف بن عطية بن الخرع التيمي، كان أمير قومه يوم رحرحان، قبيل مولد النبي ﷺ، وله قصيدتان في ديوان المفضليات. فهو شاعر جاهلي. راجع تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان. الفصل الثامن من الباب الأول ١/ ١١٨ (طبعة دار المعارف بمصر).

(٤) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ١٥٨.

وفيه أن النبي ﷺ سألهم عما كانوا يفسرون به الرمي بالنجوم في الجاهلية، وهذا صريح في معرفتهم بذلك قبل الإسلام. أما استدلال خصومهم بظاهر القرآن فهو معارض بمثله. وأما نفيهم وقوع ذلك في الشعر الجاهلي، فهذا أقصى ما فيه عدم العلم، والجمهور يتحدث عن شعراء جاهليين ذكروا الرمي، بل يذكرون أسماء هؤلاء الشعراء وأشعارهم، والمثبت حجة على النافي. وما ترويه الأخبار عن فزع العرب لما رأت الرمي في السماء، فلعلها فزعت لكثرة الرمي وشدته، لا للرمي في حد ذاته.

والله سبحانه أعلم وأحكم.

الحكمة من القذف بالنجوم وحراسة السماء:

قال ابن إسحاق: «لما سمعت الجن القرآن عرفت أنها إنما منعت من السمع قبل ذلك، لئلا يشكل الوحي بشيء من خبر السماء، فيلتبس على أهل الأرض ما جاءهم من الله فيه، لوقوع الحجة وقطع الشبهة»[1]. وعقب على ذلك السهيلي، فقال: «والذي قاله صحيحوذلك لينحسم أمر الشياطين وتخليطهم، ولتكون الآية أبين والحجة أقطع»[2].

فالمقصود من حراسة السماء وإبعاد الشياطين عنها حفظ الوحي، والحد من افتتان الناس بالكهان، إضافة إلى ما فيه من تشريف النبي ﷺ والإعلاء من منزلته. قال ابن عاشور في هذه المعاني: ولله سبحانه «منة على الناس بأن جعل لهم في السماء زينة الكواكب تروق أنظارهم فإن محاسن المناظر لذة للناظرين، قال تعالى ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾، ومنة على المسلمين بأن جعل في تلك الكواكب حفظا من تلقي الشياطين للسمع فيما قضى الله أمره في العالم العلوي، لقطع سبيل اطلاع الكهان على بعض ما سيحدث في الأرض، فلا يفتنوا الناس في الإسلام كما فتنوهم في الجاهلية، وليكون ذلك تشريفا للنبي ﷺ بأن قطعت الكهانة عند إرساله، وللإشارة إلى أن فيها منفعة عظيمة دينية، وهي قطع دابر الشك في الوحي، كما أن فيها منفعة دنيوية وهي للزينة والاهتداء بها في ظلمات البر والبحر»[3].

---

(١) سيرة ابن هشام، ١/٣٥٦.

(٢) الروض الأنف، ١/٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٣/٨٧.

والذي يظهر لي أن أهم حكمة لحراسة السماء من تسمع الجن ليست هي منع اختلاط الوحي بغيره، ولا الخوف عليه من الشياطين؛ فالوحي محفوظ على كل حال، يأخذه جبريل عليه السلام عن الباري سبحانه، ثم يبلغه مباشرة إلى النبي الكريم، يشافهه به ويردده معه حتى يحفظه، والله سبحانه يقول: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، الأعلى،٦. وبهذا الطريق فإن الوحي مصون محفوظ.

إن الحكمة الأولى - في رأيي - هي الرحمة بالناس، وتاريخ الكهانة يشير إلى هذا. فلقد رأينا في الباب الأول كيف اعتنى الناس بالكهانة والكهان، ورأينا مكانة هؤلاء وتأثيرهم على العام والخاص، بحيث كانوا هم القادة الحقيقيين لأغلب الديانات الوثنية التي عرفتها البشرية. وكانوا يجدون بعض المصداقية التي تؤهلهم لهذه القيادة في إخبارهم ببعض المغيبات على وجهها، وجاء جهل الناس وضعفهم فجعلهم يغضون الطرف عن أخطائهم وكذبهم ولا يحتفظون إلا بإصاباتهم. وهذا كله فتنة، كما قال ابن العربي[1]، أي أن الكهانة كانت نوعا من الابتلاء لم ينجح فيه أكثر البشرية.

فلما بعث النبي ﷺ أراد الله تعالى أن يهيىء الأرض للرسالة الجديدة، وكان من معالم هذا الإعداد: إضعاف مكانة الكهنة وهز ثقة الناس بهم. ولذلك لزم أن يحجبوا عن جميع الغيب، حتى عن الكلمات القليلة التي كانوا يصدقون فيها.

وهذا الضعف في الكهانة ومنزلتها لوحظ قبل الإسلام، قبيل بداية الألفية الأولى، أي منذ ظهور عيسى عليه السلام، أو حوالي هذه الفترة، كما سجل ذلك المؤرخون، وقد أشرت إلى هذا في موضعه.

ولذلك لا يبعد عندي أن يصح ما رواه بعض أهل العلم عن ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قد كانت الشياطين لا يحجبون عن السماء، فكانوا يدخلونها ويلقون أخبارها على الكهنةفلما ولد عيسى بن مريم عليهما السلام منعوا من ثلاث سماوات، فلما ولد محمد ﷺ منعوا من السماوات كلها[2]. وكذلك قال

---

(١) عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي، ١٢/ ١٠٤.

(٢) أورد هذا الخبر مجموعة من المفسرين، منهم أصحاب: معالم التنزيل، ٤/ ٣٧٢. مفاتيح الغيب، ١٩/ ١٧٨. الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٩.

الكلبي[1]، ولعله تلقاه من طريق ابن عباس. وصنيع ابن حجر في الفتح يدل على قبوله لهذا الخبر، فإنه لما حكى الخلاف المتقدم حول الرمي بالشهب هل حدث قبل المبعث أم معه، قال: «ثم وجدت عن وهب بن منبه ما يرفع الإشكال ويجمع بين مختلف الأخبار، قال: كان إبليس يصعد إلى السماوات كلهن يتقلب فيهن كيف شاء لا يمنع منذ أخرج آدم إلى أن رفع عيسى، فحجب حينئذ من أربع سماوات، فلما بعث نبينا حجب من الثلاث فصار يسترق السمع هو وجنوده ويقذفون بالكواكب. ويؤيده ما روى الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد، فلما بعث محمد حرست حرسا شديدا ورجمت الشياطين، فأنكروا ذلك»[2].

ويغلب على ظني صدق هذا الخبر، وأن الكهانة ضعفت بالتدريج، فودعت عصرها الذهبي مع المسيح، ورسالة هذا النبي الكريم هي - من وجه - إرهاص وإعداد للرسالة الخاتمة، ثم إن الكهانة اضمحلت وكادت تنتهي مع النبي محمد ﷺ. فالتاريخ يعضد هذا الخبر، وإن كان في أسانيده من وسم بالضعف، وذلك لأن الراوي الضعيف لا يروي الخبر الضعيف دائما، فهو إن كان ضعفه من جهة الوهم وخفة الضبط، أمكن أن يحدث بشيء ضبطه وأصاب فيه. وإن كان الضعف من ناحية أخلاقه، كمن يكذب مثلا، أمكن أن يروي شيئا يصدق فيه، وكم من واحد يكذب

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/٨، الكلبي هو محمد بن السائب بن بشر، تقدمت ترجمته، وأنه توفي بالكوفة سنة ١٤٦هـ. عالم بالأنساب والتفسير والأخبار، روى عن جماعة من التابعين. وروى عنه الكثيرون، لكن نقاد الحديث أجمعوا على تضعيفه، وبعضهم قال هو يكذب، ولذلك قالوا لا يكتب حديثه. انظر التفصيل في تهذيب التهذيب، ٩/١٧٨. وقد ذكره الحافظ ابن عدي في الضعفاء، وذكر ما قيل فيه، وأورد بعض أحاديثه، ثم قال: «له غير ما ذكرت أحاديث صالحة، وخاصة عن أبي صالح (يعني عن ابن عباس). وهو رجل معروف بالتفسير، وليس لأحد تفسير أطول ولا أشبع منه، وبعده مقاتل بن سليمان، إلا أن الكلبي يفضل على مقاتل لما في مقاتل من المذاهب الردية. وحدث عن الكلبي الثوري وشعبة، وإن كانا حدثا عنه بالشيء اليسير غير المسند. وحدث عن الكلبي ابن عيينة وحماد بن سلمة وإسماعيل بن عياش وهشيم، وغيرهم من ثقات الناس، ورضوه في التفسير، وأما في الحديث فخاصة إذا روى عن أبي صالح عن ابن عباس، ففيه مناكير. ولشهرته فيما بين الضعفاء يكتب حديثه». الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي، ٦/٢١٣٢. فتأمل.

(٢) فتح الباري، ٩/٦٧٦.

على الناس، ولكنه لا يكذب على الله أو على رسوله. فقد يصدق الكاذب، وقد يضبط الغافل. ولذلك نقول إن السند ضعيف، ولا نحكم بضعف المتن، إلا لأن المتن يتبع حكم السند في الأكثر، أو للاحتياط. ولذلك قال صاحب المقدمة: « إذا قالوا في حديث: إنه غير صحيح، فليس ذلك قطعا بأنه كذب في نفس الأمر، إذ قد يكون صدقا في نفس الأمر، وإنما المراد به أنه لم يصح إسناده على الشرط المذكور»[(١)].

ولعل هذا التفسير الذي قدمته يجيب بشكل واضح عن سؤال آخر ردده العلماء وحاولوا الإجابة عليه، وهو:

لِم يستمر القذف بعد النبوة؟

وذلك أنه إذا قلنا إن الرمي بالشهب كان لأجل النبوة وحفظ الوحي فلم دام هذا الرمي بعد وفاة النبي ﷺ؟ فقد قال العلماء إن الشياطين ممنوعون من الاستماع إلى يوم القيامة، وقال الشعراني: «وبتقدير استراقهم السمع فلا يتوصلون إلينا ليخبرونا بما استرقوه، بل تحرقهم الشهب وتفنيهم»[(٢)].

أجاب القرطبي عن هذا السؤال، وقال: «الجواب: أنه دام بدوام النبوة، فإن النبي ﷺ أخبر ببطلان الكهانة فقال: «ليس منا من تكهن»، فلو لم تحرس بعد موته لعادت الجن إلى تسمعها، وعادت الكهانة. ولا يجوز ذلك بعد أن بطل، ولأن قطع الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوة فعادت الكهانة دخلت الشبهة على ضعفاء المسلمين، ولم يؤمن أن يظنوا أن الكهانة إنما عادت لتناهي النبوة، فصح أن الحكمة تقضي دوام الحراسة في حياة النبي عليه السلام، وبعد أن توفاه الله إلى كرامته صلى الله عليه وعلى آله»[(٣)].

وللحليمي مثل هذا الجواب[(٤)]. وكذلك للرازي كلام قريب مما قال القرطبي، فعنده أن القذف «إنما دام لأنه عليه الصلاة والسلام أخبر ببطلان الكهانة، فلو لم يدم

---

(١) المقدمة في علوم الحديث، ص ٨٣، لابن الصلاح.

(٢) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، ١/١٣٦. أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الأنصاري، صوفي وعالم مشارك. ولد بمصر، وتوفي بالقاهرة سنة ٩٧٣هـ. من تصانيفه الكثيرة: الجوهر المصون. لواقح الأنوار في طبقات الأخيار. شرح جمع الجوامع، لابن السبكي في الأصول. المقدمة النحوية عن معجم المؤلفين ٦/٢١٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/٤٥، الصافات.

(٤) راجع: سبيل الهدى والرشاد، ٢/٢٠٣.

هذا العذاب لعادت الكهانة، وذلك يقدح في خبر الرسول عن بطلان الكهانة»[1]. أما ابن حجر فقد ذهب إلى أن سبب استمرار القذف هو استمرار الشياطين الصعود إلى السماء والتسمع على أهلها، حيث يتجدد قضاء الله سبحانه فيتجدد كلام الملائكة حوله، وقد استنبط هذا من الحديث السابق لما سألهم رسول الله ﷺ عما كانوا يقولون في جاهليتهم في النجم الذي استنار، قال ابن حجر: «فقال رسول الله ﷺ: فإنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا إذا قضى أمرا أخبر أهل السماوات بعضهم بعضا حتى يبلغ الخبر السماء الدنيا، فيخطف الجن السمع فيقذفون به إلى أوليائهم. فيؤخذ من ذلك أن سبب التغليظ والحفظ لم ينقطع لما يتجدد من الحوادث التي تلقى بأمره إلى الملائكة، فإن الشياطين مع شدة التغليظ عليهم في ذلك بعد المبعث لم ينقطع طمعهم في استراق السمع في زمن النبي ﷺ فكيف بما بعده»[2].

وهذه كلها أجوبة حسنة، وإنما قلت في صدر هذا المبحث إن التفسير الذي قدمته يجيب عن هذا الإشكال، لأن الافتتان بالكهنة لا يزال أمرا ممكنا و واردا، بل هو واقع الآن، فإن ملايين الناس اليوم يتصلون بالكهان والعرافين والمنجمين، برغم أنف التقدم العلمي والتكنولوجي الحاصل.

وهذا الافتتان حادث رغم انقطاع الكهانة أو ضعفها - على خلاف سنراه -، فكيف لو رفعت الحراسة عن السماء وعاد الجن للاستراق، وكانت إصابة أوليائهم من الكهان أكثر وأهم؟

لماذا يعود الجني إلى الاستراق؟

أي مع علمه بخطورة ذلك وأنه قلما سلم أحد من بني جنسه من الأذى. قال الرازي - عن بعض من رد حكاية القرآن لاستماع الجن ورميها بالشهب -: «ومن الناس من طعن في هذا من وجوه (وثانيها) أن هؤلاء الجن كيف يجوز أن يشاهدوا واحدا وألفا من جنسهم يسترقون السمع فيحترقون، ثم إنهم مع ذلك يعودون لمثل صنيعهم، فإن العاقل إذا رأى الهلاك في شيء مرة ومرارا وألفا امتنع أن يعود إليه من غير فائدة»[3].

---

(١) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٦٠، الملك.

(٢) فتح الباري، ٩/ ٦٧٧، كتاب التفسير، سورة قل أوحي إلي.

(٣) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٦٢.

وقد أجاب العلماء عن هذه الشبهة بأجوبة مختلفة، كلها حسنة وتؤدي مقصودها، فقال الرازي: «إذا جاء القدر عمي البصر، فإذا قضى الله على طائفة منها الحرق لطغيانها وضلالتها، قيض لها من الدواعي المطمعة في درك المقصود ما عندها تقدم على العمل المفضي إلى الهلاك والبوار»[١].

وعند البغوي جواب أحسن، قال: «إنما يعودون إلى استراق السمع مع علمهم بأنهم لا يصلون إليه طمعا في السلامة ونيل المراد، كراكب البحر»[٢]. وكذلك قال أبو السعود[٣].

وأصل هذا الجواب عند أبي علي الجبائي في تفسيره، وقد حكاه عنه الرازي، قال: «إنما يمنعون من المصير إلى مواضع الملائكة، ومواضعها مختلفة، فربما صاروا إلى موضع تصيبهم فيه الشهب، وربما صاروا إلى غيره ولا يصادفون الملائكة فلا تصيبهم الشهب، فلما هلكوا في بعض الأوقات، وسلموا في بعض الأوقات، جاز أن يصيروا إلى مواضع يغلب على ظنونهم أنه لا تصيبهم الشهب فيها، كما يجوز فيمن يسلك البحر أن يسلكه في موضع يغلب على ظنه حصول النجاة»[٤].

وقال أبو عثمان الجاحظ: فإن قيل كيف تعرض الجن لإحراق أنفسها بسبب سماع خبر بعد أن صار ذلك معلوما لهم؟ فالجواب: إن الله تعالى ينسيهم ذلك حتى تعظم المحنة[٥].

ورأى ابن العربي أن «هذه الكواكب تلقي على الشياطين النيران وتحرقهم،

---

(١) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٦٢.

(٢) معالم التنزيل، ٧/ ٣٥.

(٣) إرشاد العقل السليم، ٤/ ٢٦٦.

(٤) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٢٢، الصافات (وحفظا من كل شيطان..الآية). أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي، البصري، المعتزلي. ولد بجبا بخوزستان. متكلم، وإليه تنسب الطائفة الجبائية. توفي بالبصرة سنة ٣٠٣هـ. من آثاره: تفسير القرآن. معجم المؤلفين، ١٠/ ٢٦٩. أما أبو هاشم عبد السلام بن محمد الجبائي فهو ابنه، وهو أيضا من شيوخ المعتزلة، توفي سنة ٣٢١هـ. له: النقض على أرسطو في الكون والفساد. الطبائع والنقض على القائلين بها. الإنسان. الاجتهاد.. معجم المؤلفين ٥/ ٢٣٠.

(٥) الحيوان، ٦/ ٢٧٠. وانظر سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ٢٠١. عمدة القاري ٦/ ٣٦.

ولكنهم مكرهون أو واقعون فيها بشهوة الإغواء كما يقع العاصي في الحدود لشهوة المعاصي»[1]. وهذا يشبه ما قاله ابن عاشور في الجواب: «الجن لا تنكف عن ذلك لأنهم منساقون إليه بالطبع مع ما ينالهم من أذى الرجم والاحتراق، شأن انسياق المخلوقات إلى ما خلقت له مثل تهافت الفراش على النار، لاحتمال ضعف القوة المفكرة في الجن بحيث يغلب عليها الشهوة، ونحن نرى البشر يقتحمون الأخطار والمهالك تبعا للهوى مثل مغامرات الهواة في البحار والجبال والثلوج»[2].

أما السهيلي فمن رأيه أن الشهاب تارة يصيب الشياطين فيحرقهم وتارة لا يصيبهم[3]. قال العيني: «إن صح هذا فينبغي كأنهم غير متيقنين بالهلاك ولا جازمين به»[4]. ولم يرتض ابن حجر جواب السهيلي، وقال: «يجوز أن يقع التعرض مع تحقق الإصابة لرجاء اختطاف الكلمة وإلقائها قبل إصابة الشهاب، ثم لا يبالي المختطف بالإصابة لما طبع عليه من الشر»[5].

وعندي جواب آخر يعضد ما تقدم، وهو أن قولهم العاقل إذا رأى الهلاك في شيء لا يقدم عليه..قول غير مسلم. بل متى كانت أفعال العقلاء تتبع العقل وتلتزم بما يقتضيه على الدوام؟ وهذه الإنسانية منذ فجرها ترمي بنفسها في أتون حروب لا تنتهي وتحصد آلاف بل ملايين الضحايا، وتخوض مغامرات ضد وجودها، عن سبق إصرار وتعمد، وها هو الإنسان اليوم يدمر بنفسه بيئته، وهو يعرف جيدا آثار ذلك على وجوده الخاص

كيف نفسر هذا السلوك؟ إن الإنسان لا ينقاد للعقل وحده، وهذا أمر اتضح جيدا وصار الآن من المسلمات بعد اكتشاف علم النفس الحديث للعقل الباطن، أو اللاوعي l'inconscient.

وقد ثبت الآن وجود غريزة إنسانية تسمى بـ «التدمير الذاتي» Auto _ destruction، تحت تأثيرها يجوز أن يسعى الإنسان بنفسه إلى حتفه، وليس الانتحار إلا مظهرا من

---

(١) عارضة الأحوذي، ١٢/ ١٠٤. كتاب التفسير، باب ٣٤.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٢٢٩، سورة الجن.

(٣) عمدة القاري، ٦/ ٣٦ .

(٤) عمدة القاري، ٦/ ٣٦.

(٥) فتح الباري، ٩/ ٦٧٧. كتاب التفسير، سورة قل أوحي إلي.

مظاهر هذه الغريزة التي تفسر أشياء كثيرة، منها ـ مثلا ـ جانب من أسباب حوادث السيارات[١].

وإذا كان هذا شأن الإنسان ـ وهو أعقل وأشرف ـ ، فكيف بالجن والغالب عليهم الجهل والظلم؟ ولعل هذه المسألة تجرنا إلى الحديث عن مسألة أخرى قليلة الأهمية، ولكنها مذكورة في التفاسير:

هل يقتل الشهاب؟

فقد قال الحسن البصري وطائفة من العلماء: إنه يقتل[٢]. وقال ابن عباس وآخرون: إن الشهب لا تقتل الشيطان، ولكن تحرق وتخبل وتجرح من غير قتل[٣]. وذكر الطبري عنه روايات في هذا المعنى[٤].

قال ابن عاشور في تفسير كلام ابن عباس: «أي يفسد قوامه فتزول خصائصه، فإن لم يضمحل فإنه يصبح غير قادر على محاولة استراق السمع مرة أخرى»[٥].

وهذا لا يمنع الجني دائما من تبليغ ما سمع إلى غيره، كما بينه حديث البخاري المتقدم عن أبي هريرة، إذ فيه أن الجني يسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر، أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه وبعض العلماء يستطرد في ذكر مسائل هذا الموضوع القرآني، أعني الرمي بالشهب وحراسة السماء، فيذكرون بعض الإشكالات ويحكون بعض الشبهات.

من هؤلاء الرازي فقد ذكر ما سماه بالأسئلة وحاول الجواب عليها، فمنها:

«وتاسعها (يعني الأسئلة): لم لم يمنعهم الله ابتداء من الصعود إلى السماء حتى

---

(١) انظر مقالي: حوادث السير، والأمن الطرقي، في الموسوعة: Encyclopaedia Universalis, article Accidents de la circulation, 1/108. Routière (Sécurité) 20/322.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، ١٠/٩ ، سورة الحجر. سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ٢٠١.

(٣) الروض الأنف ، ١/ ٣٥٦. سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ٢٠١. الجامع لأحكام القرآن ، ١٠/٩، سورة الحجر.

(٤) جامع البيان ، ١٤/ ٩.

(٥) التحرير والتنوير، ٢٣/ ٩٣. الصافات .

لا يحتاج في دفعهم عن السماء إلى هذه الشهب.. والجواب.. أنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد»[1].

«(وثامنها) أن هؤلاء الشياطين لو كان يمكنهم أن ينقلوا أخبار الملائكة من المغيبات إلى الكهنة، فلم لا ينقلون أسرار المؤمنين إلى الكفار، حتى يتوصل الكفار بواسطة وقوفهم على أسرارهم إلى إلحاق الضرر بهم؟»[2] والجواب «لعله تعالى أقدرهم على استماع الغيوب عن الملائكة وأعجزهم عن إيصال أسرار المؤمنين إلى الكافرين»[3].

وكذلك ذكر الجاحظ بعض الشبهات عن قوم سماهم بالملحدين، ورد عليها[4].

ولا بأس بهذا كله مادام في إطار من القصد والاعتدال، وذلك لأن هذا الموضوع غيب، ولو أن الوحي لم يخبرنا بأشياء عنه لما عرفنا أصلا أن السماء تحرس وأن الشياطين تصعد إليها لاستطلاع أخبار أهل الأرض. وهذا معناه أن أمورا كثيرة نجهلها في هذا الموضوع، وأن هذا الجهل لا يرتفع، كما أنه لا يضر بطبيعة الحال. ولهذا لا داعي إلى التوسع في التفاصيل ودرس الاحتمالات وبناء النظريات، ومن نماذج هذا ما قاله العلامة ابن عاشور: «ولعل كيفية حدوث رجم الجن بالشهب كان بطريقة تصريف الوحي إلى الملائكة في مجار تمر على مواقع انقضاض الشهب، حتى إذا اتصلت قوى الوحي بموقع أحد الشهب انفصل الشهاب بقوة ما يغطه من الوحي فسقط مع مجرى الوحي ليحرسه من اقتراب المسترق، حتى يبلغ إلى الملك الموحى إليه فلا يجد في طريقه قوة شيطانية أو جنية إلا أحرقها وبخرها فهلكت أو استطيرت، وبذلك بطلت الكهانة وكان ذلك من خصائص الرسالة المحمدية»[5].

فهذا دخول في سؤال الكيفيات، وهي أشد أمور نجهلها، فهي غيب لا سبيل إلى دركه. وإلى هذا المعنى قصد سيد قطب حين قال: «وما الشيطان؟ وكيف يحاول استراق السمع؟ وأي شيء يسترق؟ كل هذا غيب من غيب الله، لا سبيل لنا إليه إلا

(١) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٦٣. سورة الملك.

(٢) مفاتيح الغيب ، ٣٠/ ٦٣. الملك.

(٣) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٦٣. الملك.

(٤) راجع كتابه : الحيوان ، ٦/ ٤٩٦ إلى ٥٠١.

(٥) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٢٣٠. سورة الجن.

من خلال النصوص. ولا جدوى في الخوض فيه، لأنه لا يزيد شيئا في العقيدة؛ ولا يثمر إلا انشغال العقل البشري بما ليس من اختصاصه، وبما يعطله عن عمله الحقيقي في هذه الحياة. ثم لا يضيف إليه إدراكا جديدا لحقيقة جديدة»[1].

فحسبنا إذن ما دلت عليه النصوص، أو أرشد إليه العقل الصريح، وما وراء ذلك غيب نكل علمه إلى الله سبحانه. وقد بسطت هذا المعنى في كتابي: الغيب والعقل. بحث في حدود المعرفة البشرية. فليراجع هنالك.

أصل الكذب في الكهانة، وهل تصدق أحيانا:

روت عائشة رضي الله تعالى عنها أن ناسا سألوا رسول الله ﷺ عن الكهان. فقال لهم رسول الله ليسوا بشيء. قالوا: يا رسول الله فإنهم يحدثون أحيانا بالشيء يكون حقا. قال رسول الله: تلك الكلمة من الحق، يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة[2].

قال الخطابي: «قوله ليسوا بشيء، معناه نفي ما يتعاطونه من علم الغيب، أي ليس قولهم بشيء صحيح يعتمد كما يعتمد أقوال الأنبياء وأخبارهم، فيما يخبرون به من علم الغيب الذي يوحى إليهم. وهذا كما يقول القائل لصاحبه إذا عمل عملا من غير إحكام له وإتقان لصنعته: ما عملت شيئا! فإذا قال قولا غير سديد: لم تقل شيئا، وما أشبه ذلك من هذا الباب»[3].

وفي الحديث فائدة أخرى، وهي إثبات إصابة الكاهن للحق أحيانا ثم تعليل هذه الإصابة، قال أبو سليمان: «قلت قد بين النبي ﷺ أن إصابة الكاهن أحيانا في بعض أقواله، إنما هو من جهة استراق السمع، يأتيه رئيه من الجن فيلقي إليه الكلمة التي سمعها استراقا من الوحي، فيزيد إليها أكاذيب يقيسها على ما كان سمع، فربما أصاب على وجه الاعتبار لما لم يسمع بما سمع، وربما أخطأ وهو الغالب من أمرهم»[4].

---

(١) في ظلال القرآن، ٥/١٩٦. وانظر أيضا: ٤٨/٧، الصافات. ١٨٩/٨، الملك.

(٢) رواه البخاري في كتاب الطب، باب ٤٦. وكتاب الأدب، باب ١١٧. وكتاب التوحيد، باب ٥٧. ورواه مسلم في كتاب السلام، حديث ١٢٣. وأحمد في المسند. وهذا لفظ مسلم.

(٣) أعلام السنن، ٢/١٢٠١.

(٤) أعلام السنن، ٢/١٢٠١.

وهنا سؤال: الكهانة كذب، فما مصدره إذن؟ هل الشيطان هو الذي يكذب على الكاهن فيما يخبره به، أم أن الكاهن هو الذي يكذب على الناس فيما ينبؤهم به؟

أقول: في النصوص مآخذ لكلا القولين، بل فيها أيضا أدلة على قول ثالث أختم به هذا الموضوع. قال الله سبحانه عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]. فأثبت أن الكتاب الكريم وحي من الله جل جلاله. ثم نفى أن يكون من كلام الكهان، فقال سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [آيات: ٢١٠ ـ ٢١٢]. وأخيرا أشار إلى صفة الكهنة وكذبهم وأن نبوءاتهم من وحي الشياطين إليهم، فقال جل وعلا: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [آيات ٢٢١ ـ ٢٢٣]. وذكر ابن عاشور في السياق العام لهذه الآيات أنه «لما سفه قولهم في القرآن: إنه قول كاهن، فرد عليهم بقوله ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ وأنه لا ينبغي للشياطين ولا يستطيعون مثله وأنهم حيل بينهم وبين أخبار أوليائهم، عاد الكلام إلى وصف حال كهانهم ليعلم أن الذي رموا به القرآن لا ينبغي أن يلتبس بحال أوليائهم. فالجملة متصلة في المعنى بجملة ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، أي ما تنزلت الشياطين بالقرآن على محمد ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

والأفاك كثير الإفك، أي الكذب، والأثيم كثير الإثم. وإنما كان الكاهن أثيما لأنه يضم إلى كذبه تضليل الناس بتمويه أنه لا يقول إلا صدقا، وأنه يتلقى الخبر من الشياطين التي تأتيه بخبر السماء.

وجعل للشياطين ﴿تَنَزَّلُ﴾ لأن اتصالها بنفوس الكهان يكون بتسلسل تموجات في الأجواء العليا»[1].

وقد اتفقت كلمة أكثر المفسرين ـ ومنهم قتادة وابن عطية ـ[2] على أن المقصود بقوله ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾: الكهنة[3]. وقال مجاهد: ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، كل كذاب من الناس[4].

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٢) معالم التنزيل، ٦/ ١٣٥. المحرر الوجيز، ١٢/ ٨٥.

(٣) الكشاف، ٣/ ١٣٢. إرشاد العقل السليم، ٤/ ١٢٩.

(٤) جامع البيان، ١٩/ ٧٠.

ولا بد في قوله ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ من تقدير المغايرة بين المتنزل ـ وهو الشيطان ـ والأفاك الأثيم، وهو إنسان.

وفائدة الآية ـ فيما نحن بصدده ـ هو وصف الكهنة بالكذب.

ثم إن المفسرين اختلفوا ـ بعد هذا ـ في موضعين:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾، فبعضهم جعل الضمير يعود إلى الشياطين، فهم الذين يلقون السمع[١]. والآخرون قالوا الكهنة هم من يلقي السمع[٢].

قال جار الله الزمخشري ـ عن الرأي الأول ـ: «هم الشياطين كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يسمعون إلى الملأ الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب، ثم يوحون به إلى أوليائهم من أولئك»[٣]. وهذا قول الطبري، قال: «يقول تعالى ذكره يلقي الشياطين السمع، وهو ما يسمعون مما استرقوا سمعه من حين حدث من السماء، إلى كل أفاك أثيم من أوليائهم من بني آدم»[٤]. وروي هذا التفسير عن مجاهد[٥]. وهو أيضا قول النسفي[٦]، وقال البغوي: «﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي يستمعون من الملائكة مسترقين، فيلقون إلى الكهنة»[٧].

والسمع على هذا الرأي يعني المسموع من الملائكة، أي ما تسمعه الشياطين منها. وفيها احتمالات أخرى ذكرها النسفي وغيره، فـ ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ إما حال، أي أن الشياطين تتنزل ملقين السمع. أو صفة لـ ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، لأنه في معنى الجمع فيكون في محل الجزاء، والتقدير: الأفاكون الآثمون، يلقون السمع..أو استئناف، فلا يكون له محل، قال النسفي: كأنه قيل: لم تنزل على الأفاكين، فقيل: يفعلون كذا وكذا..[٨]

---

(١) المحرر الوجيز، ١٢/ ٨٤. الجامع لأحكام القرآن ، ١٣/ ٩٧.

(٢) حكاه في : الكشاف، ٣/ ١٣٢. وفي المحرر الوجيز، ١٢/ ٨٥.

(٣) الكشاف ٣/ ١٣٢.

(٤) جامع البيان ، ١٩/ ٧١.

(٥) جامع البيان ، ١٩/ ٧١.

(٦) مدارك التنزيل، ٣/ ١٩٩.

(٧) معالم التنزيل ، ٦/ ١٣٥.

(٨) مدارك التنزيل، ٣/ ١٩٩.

وقال ابن عاشور ـ عن المذهب الثاني ـ : «و﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ صفة لـ *!*﴿كل أفاك أثيم﴾، أي يظهرون أنهم يلقون أسماعهم عند مشاهدة كواكب لتتنزل عليهم شياطينهم بالخبر وذلك من إفكهم وإثمهم.

وإلقاء السمع: هو شدة الإصغاء حتى كأنه إلقاء للسمع من موضعه، شبه توجيه حاسة السمع إلى المسموع الخفي بإلقاء الحجر من اليد إلى الأرض أو في الهواء، قال تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، أي أبلغ في الإصغاء ليعي ما يقال له»[1].

وقد اعتنى أبو السعود بتقرير هذا المذهب ـ الذي جعله مقابلا لقول الجمهور ـ ، فقال: «﴿يُلْقُونَ﴾ أي الأفاكون ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ إلى الشياطين فيتلقون منهم أوهاما وأمارات لنقصان علمهم، فيضمون إليها بحسب تخيلاتهم الباطلة خرافات لا يطابق أكثرها الواقع..وقيل الضمير للشياطين أي يلقون السمع، أي المسموع من الملأ الأعلى، قبل أن رجموا من بعض المغيبات إلى أوليائهمولا سبيل إلى حمل إلقاء السمع على تسمعهم وإنصاتهم إلى الملأ الأعلى قبل الرجم كما جوزه الجمهور، لما أن يلقون كما صرحوا به: إما حال من ضمير تنزل مفيدة لمقارنة التنزل للإلقاء، أو استئناف مبين للغرض من التنزل، مبني على السؤال عنه، ولا ريب في أن إلقاء السمع إلى الملأ الأعلى بمعزل من احتمال أن يقارن التنزل، أو يكون غرضا منه لتقدمه عليه قطعا، وإنما المحتمل لهما الإلقاء بالمعنى الأول. فالمعنى على تقدير كونه حالا: تنزل الشياطين على الأفاكين ملقين إليهم ما سمعوه من الملأ الأعلى، وعلى تقدير كونه جوابا عن سؤال من قال لم تنزل عليهم وماذا يفعلون بهم يلقون إليهم ما سمعوه. وحمله على استئناف الأخبار كما فعله بعضهم غير سديد، لأن ذكر حالهم السابقة على تنزلهم المذكور قبله غير خليق بجزالة التنزيل. وأما على تقدير كون ضمير يلقون للأفاكين، فهو صفة لكل أفاك لأنه في معنى الجمع سواء أريد بإلقاء السمع الإصغاء إلى الشياطين أو إلقاء المسموع إلى الناس. ويجوز أن يكون استئناف إخبار بحالهم على كلا التقديرين، لما أن كلا من تلقيهم من الشياطين وإلقائهم إلى الناس يكون بعد التنزيل، وأن يكون استئنافا مبنيا على السؤال على التقدير الأول فقط، كأنه قيل ما يفعلون عند تنزل الشياطين عليهم فقيل يلقون إليهم أسماعهم ليحفظوا ما يوحون به إليهم. وقوله تعالى ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ على التقدير الأول استئناف فقط، وعلى

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩/٢٠٦.

الثاني يحتمل الحالية من ضمير يلقون، أي يلقون ما سمعوه من الشياطين إلى الناس، والحال أنهم في أكثر أقوالهم كاذبون. فتدبر»[1].

الموضع الثاني: من الخلاف، هو قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾. قال القرطبي: «﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ يرجع إلى الكهنة، وقيل إلى الشياطين»[2].

قال الطبري - عن المذهب الأول - : «يقول: وأكثر من تنزل عليه الشياطين كاذبون فيما يقولون ويخبرون»[3]. وقال الزمخشري: «وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم، وترى أكثر ما يحكمون به باطلا وزورا»[4]. وذكر أبو السعود مثله[5]. وقال البغوي عن الكهنة: «﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ لأنهم يخلطون به كذبا كثيرا»[6].

وقال النسفي - عن الرأي الثاني - : هم الشياطين «أكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم (أي إلى الكهنة)، لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا»[7].

وخلاصة هذا العرض أن الآية صريحة في وصف الكهان بالكذب والإفك، وهي تفيد أيضا - في بعض وجوه التفسير - كذب الشياطين. ولهذا ففي رأيي أن الكذب في الكهانة له مصدران: الكهان والجن.

قال ابن عطية: «﴿يُلْقُونَ﴾ يعني الشياطين، ويقتضي ذلك أن الشيطان المسترق أيضا كان يكذب»[8]. وبهذا فسر الزمخشري والنسفي قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾، قالوا: أي «فيما يوحون به إليهم (إلى الكهنة)، لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا»[9].

---

(١) إرشاد العقل السليم، ٤/ ١٢٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٩٧.

(٣) جامع البيان، ١٩/ ٧١.

(٤) الكشاف، ٣/ ١٣٢.

(٥) إرشاد العقل السليم، ٤/ ١٢٠.

(٦) معالم التنزيل، ٦/ ١٣٥.

(٧) مدارك التنزيل، ٣/ ١٩٩.

(٨) المحرر الوجيز، ١٢/ ٨٥.

(٩) الكشاف ٣/ ١٣٢. مدارك التنزيل ٣/ ١٩٩.

وكما أن الشياطين يسمعون الكهان ما لم يسمعوا من الملائكة، كذلك الكهان يسمعون الناس ما لم يسمعوا من الشياطين، يقول أبو السعود: «وأكثرهم (أي الكهنة) يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم»[(١)].

وكذب الكهنة يكون من وجهين:

١ ـ إما بزيادتهم على ما أخبرتهم به الشياطين، وإليه الإشارة في حديث عائشة أنهم يزيدون معها ـ أي مع الكلمة التي جاءهم بها الجني ـ مائة كذبة.

٢ ـ وإما أن يتنبئوا بشيء ويزعموا أنهم تلقوه عن الجن مما استرقته من السماء، ويكون ذلك كذبا حيث لم يروا جنا ولم ينقلوا إليهم كلاما. وهذا النوع من الكذب كثير في الكهان والعرافين وكل من يدعي الاتصال بعالم الشياطين.

وإلى هذين الوجهين أشار العلامة ابن عاشور، قال: «وقوله ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾ أي أكثر هؤلاء الأفاكين كاذبون فيما يزعمون أنهم تلقوه من الشياطين، وهم لم يتلقوا منها شيئا، أي وبعضهم يتلقى شيئا قليلا من الشياطين فيكذب عليه أضعافه (فالكهنة) أفاكون وهم متفاوتون في الكذب، فمنهم أفاكون فيما يزيدونه على خبر الجن، ومنهم أفاكون في أصل تلقي شيء من الجن»[(٢)].

وهذا الكذب من الكهان كثير، ولذلك جاء في الحديث أنهم يزيدون على الكلمة الواحدة مائة كذبة، وفي بعض الروايات يزيدون تسعا، قال أبو بكر ابن العربي: «وكلاهما صحيح المعنى، لأنهم يزيدون بغير ضبط..فليس لتخليطهم ربط، ولا ينحصر بضبط، وكذلك كل باطل لا حصر له»[(٣)]. وقال العيني: «ذكر المائة للمبالغة لا للتعيين»[(٤)]. ومقصود الحديث أن ما يصدق فيه الكاهن قليل إلى جوار ما يكذب فيه أو يخطىء فيه.

والخلاصة إذن أن الكل يكذب، فالكهنة يكذبون بدليل ما جاء في النصوص من قرآن وسنة، وبدليل الواقع أيضا الذي يكذب أكثر نبوءاتهم. والشياطين يكذبون،

---

(١) إرشاد العقل السليم، ٤/ ١٢٠.

(٢) التحرير والتنوير، ١٩/ ٢٠٧.

(٣) عارضة الأحوذي، ١٢/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٤) عمدة القاري، ٢١/ ٢٧٦، كتاب الطب.

لأنهم فسقة لا يراعون حرمة الدين أو الخلق، فلا مانع أن يكذبوا أيضا على أصحابهم من الكهنة.

يبقى في الآية سؤال حكاه الزمخشري ثم أجاب عليه، قال: «كيف قيل: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ بعدما قضى عليهم أن كل واحد منهم أفاك؟ قلت: الأفاكون هم الذين يكثرون الإفك، ولا يدل ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك، فأراد أن هؤلاء الأفاكين قل من يصدق منهم فيما يحكي عن الجني وأكثرهم مفتر عليه»[1].

وقال أبو السعود: «الأظهر أن الأكثرية باعتبار أقوالهم - على معنى أن هؤلاء قلما يصدقون فيما يحكون عن الجني - ..وأكثر أقوالهم كاذبة. لا باعتبار ذواتهم، حتى يلزم من نسبة الكذب إلى أكثرهم كون أقلهم صادقين على الإطلاق. وليس معنى الأفاك من لا ينطق إلا بالإفك حتى يمتنع منه الصدق، بل من يكثر الإفك فلا ينافيه أن يصدق نادرا في بعض الأحايين»[2].

---

(١) الكشاف، ٣/١٣٣.

(٢) إرشاد العقل السليم، ٤/١٢٠.

الفصل الثالث:

عن النبوة والكهانة

النبي والكاهن والشاعر:

بين النبي والكاهن عداوة دائمة. النبي يجيء بدعوة تبطل الكهانة، وتعلن عن انتهائها، وتكشف ضلالها. والكاهن يود الاستمرار في دوره بين الناس فيرجعون إليه ويستشيرونه في شؤونهم.

وهذه العداوة مفهومة، لأن كلا من النبي والكاهن يدعي الاتصال بالسماء، فالنبي يكره الكاهن لأنه يعرف كذبه وتخرصه على الملكوت، والكاهن يعادي النبي لأنه يتصور أن الدعوة النبوية هي في سبيل أن تقضي على مكانة الكهانة وأن تحطم تأثيرها على الناس.

فهذا ـ إلى حد ما ـ نزاع حول القيادة الدينية للبشرية: أتكون للنبوة أم تكون للكهانة؟

قال أبو سليمان الخطابي ـ عن الكهان وما قاربهم من بعض الشعراء ـ: «وقد ذكر الله عز وجل أمرهم في كتابه، وبين حالهم في التطابق على عداوة أنبيائه وأوليائه، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. فهذا بيان أمر حزب أهل الضلال والافتراء على الله والمتكلفين لما ليسوا منه، المتشبهين بأنبياء الله الذين اصطفاهم لدينه وائتمنهم على وحيه»[(١)].

وقد حاولت قريش أن تصور دعوة النبي ﷺ على أنها دعوة كاهن يدعي أن وحيا من السماء ينزل عليه، وكان غرضهم من هذه الدعاية نزع كل خصوصية عن الدعوة الجديدة، وذلك بردها إلى الكهانة، أي إلى شيء معروف عند العرب، قد استأنست به وتعودت على وجوده. وقد ذكر القرآن الكريم هذه الدعاية في مواضع متعددة، كما سيأتي. ولذلك قالت امرأة أبي لهب لما تخلف النبي الكريم عن قيام ليلتين لمرض ألم به: أرجو أن يكون شيطانك قد تركك[(٢)].

---

(١) أعلام السنن ٢/١٢٠٣، عند شرح حديث عائشة: سأل ناس النبي عن الكهان..

(٢) وهو سبب نزول سورة الضحى. وهذا الحديث رواه البخاري في الصحيح، كتاب التهجد، =

فكانوا يقولون عن الرسول الأكرم إنه كاهن، وتارة نسبوه إلى حالة أخرى لها اتصال ـ في زعمهم ـ بعالم الشياطين، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ الطور ٢٩. قال ابن عطية: «كانت العرب قد عهدت ملابسة الجن والإنس بهذين الوجهين، فنسبت محمدا إلى ذلك، فنفى الله تعالى عنه ذلك»[(١)].

قالوا الإله ذو ولد	قالوا الرسول قد كهنا
ما نجا الله والرسول معا	من لسان الورى فكيف أنا

وفي أكثر الأحيان كانت قريش تنسب النبي ﷺ إلى أحد الصنفين: الكهان، أو الشعراء[(٢)]. ولذلك يقول تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٣].

قال ابن تيمية: «وأما التقسيم إلى الكاهن والشاعر، من جهة المعنى، فهو ـ والله أعلم ـ لأن الكلام نوعان: خبر، وإنشاء. والكاهن يخبر بالغيوب، مخلطا فيه الصدق بالكذب، لا يأتون بالحق محضا، وإذا ألقى الشيطان في أمنية أحدهم شيئا في القلب لم ينسخ منه، بل أكثرهم كاذبون»[(٣)] ومفهومه أن كلام الشاعر أكثره من باب الإنشاءات الخيالية، التي يختلط فيها الصدق والكذب، كما سيأتي بعد قليل.

وإنما اهتم الكتاب الكريم بالتفريق بين هذين «الحزبين» ـ بتعبير الخطابي، أي الأنبياء والكهان ـ نظرا للدعاية القرشية التي كانت تساوي بين النبي والكاهن، ولأنه يمكن أن تنطلي على ضعاف العقول إذا سمعوا الوحي فوجدوا نظمه يشبه كلام الكهنة. قال الطاهر بن عاشور: «ولما كان حال الكهان قد يلتبس على ضعفاء العقول ببعض أحوال النبوءة في الإخبار عن غيب، وأسجاعهم قد تلتبس بآيات القرآن في بادئ النظر، أطنبت الآية في بيان ماهية الكهانة وبينت أن قصاراها الإخبار عن أشياء

= باب ترك القيام للمريض، باب ٤، ح١١٢٥. وفي كتاب التفسير، باب ١، ح ٤٩٥٠. ورواه مسلم في كتاب الجهاد، حديث ١١٥.

(١) المحرر الوجيز، ١٥/ ٢٤٤.

(٢) الفتاوى لابن تيمية، ٢/ ٥٠.

(٣) الفتاوى ٢/ ٥٢.

قليلة قد تصدق، فأين هذا من هدي النبي والقرآن وما فيه من الآداب والإرشاد والتعليم والبلاغة والفصاحة والصراحة والإعجاز، ولا تصدي منه للإخبار بالمغيبات، كما قال ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾، في آيات كثيرة من هذا المعنى»[1].

ولذلك قال عز وجل: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢]. قال البغوي: «وذلك أن المشركين كانوا يقولون إن الشياطين يلقون القرآن على لسان محمد ﷺ»[2]. فنفى الله سبحانه ذلك: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾، «وما يتسهل لهم ولا يقدرون عليه. ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾، لممنوعون بالشهب»[3].

وكذلك لا صلة بين النظم القرآني وسجع الكهنة: «وأما انتفاء كون القرآن قول كاهن فمحتاج إلى أدنى تأمل، إذ قد يشبه في بادئ الرأي على السامع من حيث إنه كلام منثور مؤلف على فواصل، ويؤلف كلام الكهان على أسجاع مثناة متماثلة زوجين زوجين، فإذا تأمل السامع فيه بأدنى تفكر في نظمه ومعانيه علم أنه ليس بقول كاهن، فنظمه مخالف لنظم كلام الكهان، إذ ليست فقراته قصيرة ولا فواصله مزدوجة ملتزم فيها السجع»[4].

ولم يكن يخفى على العرب أن دعوى محمد ﷺ غير ادعاءات الكهان، وهذا المغيرة ـ كما في سيرة ابن إسحاق ـ «اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم. فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا. قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأيا نقل به، قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول كاهن. قال: لا والله، ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر لقد

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩/ ٢٠٧.

(٢) معالم التنزيل، ٦/ ١٣٠.

(٣) معالم التنزيل ، ٦/ ١٣٠.

(٤) التحرير والتنوير ، ٢٩/ ١٤٣، الحاقة.

رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة. وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل. وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس ـ حين قدموا الموسم ـ لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياهفأنزل تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ [المدثر: ١١ فما بعدها]»[١].

ولذلك أنبهم الكتاب العزيز: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٢].

ويبقى أن إدراك هذا الفرق هل هو أمر عفوي لا يحتاج إلى تفكر، أم لا بد فيه من تأمل، ولو كان قليلا؟ فهذا مما اختلف فيه بعض علماء التفسير. قال أبو السعود ـ عن الرأي الأول ـ : «قيل ذكر الإيمان مع نفي الشاعرية، والتذكر مع نفي الكاهنية، لما أن عدم مشابهة القرآن الشعر أمر بين لا ينكره إلا معاند، بخلاف مباينته للكهانة فإنها تتوقف على تذكر أحواله عليه الصلاة والسلام ومعاني القرآن المنافية لطريقة الكهنة ومعاني أقوالهم. وأنت خبير بأن ذلك أيضا مما لا يتوقف على تأمل قطعا»[٢].

وقال القاسمي ـ عن الرأي الثاني ـ : «قيل: نفي الإيمان في الأول، والذكرى في الثاني، لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمر بين، لا ينكره إلا معاند.فلا عذر لقائله في ترك الإيمان، وهو أكفر من حمار. وأما مباينته للكهانة، فيتوقف على تذكر ما، لأن الكاهن يأخذ جعلا، ويجيب عما سئل عنه، ويتكلف السجع، ويكذب كثيرا، وإن التبس على الحمقى لإخباره عن بعض المغيبات بكلام منثور، فتأمل»[٣].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤. أخرج كثير من الحفاظ هذا الخبر أو ما يشابهه أو قطعة منه. منهم: عبد بن حميد. وأبو نعيم ـ مختصرا ـ في الدلائل. وأخرج الحاكم في المستدرك، في كتاب التفسير، ٢/ ٥٠٦، قصة قريبة من هذه عن الوليد بن المغيرة، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه، ٢/ ٥٠٧. وحديث الحاكم أخرجه أيضا ـ فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور، ٦/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ـ البيهقي في الدلائل وابن جرير، وأبو نعيم في حلية الأولياء، وعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن مردويه.

(٢) إرشاد العقل السليم، ٥/ ١٩٢.

(٣) محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي، ١٦/ ٥٩٢٠، الحاقة ٤٢. جمال الدين بن =

وبحسب الرأي الأول يكون هذا الإدراك علما ضروريا، وأنى ذلك، بل المرء متى سمع شيئا من الوحي، واستحضر كلام الكهان، انقدح في ذهنه الفرق، بتأمل، يقل أو يكثر، يسرع أو يبطئ، بحسب استعدادات كل أحد وعقله وذكائه وخبراته، حتى لو سئل عن هذا الفرق أجاب بكلام معقول وباستدلال ما. وهذا أوان الكلام عن:

السجع في كلام الكهنة:

كان الكهان لا يلقون نبوءاتهم إلا مسجعة، وغلب ذلك على كلامهم، وعرفوا به. وهذا مثال لسجعهم: « روى ابن دريد في الأخبار المنثورة عن ابن الكلبي قال: كان خنافر بن التوأم كاهنا، فنزل واديا مخصبا، وكان له رئي في الجاهلية ففقده في الإسلام. قال: فبينا أنا ليلة في الوادي إذ هوى علي هوي العقاب. قال خنافر: فقلت: شصار؟ قال: اسمع أقل. قلت: قل أسمع. قال: عه تغنم، لكل ذي أمد نهاية، وكل ذي ابتداء إلى غاية. قلت: أجل. قال: كل دولة إلى أجل، ثم يتاح لها حول، وقد انتسخت النحل ورجعت إلى حقائقها الملل، إني آنست بالشام نفرا من آل العوام، حكاما على الحكام، يرددون ذا رونق من الكلام، ليس بالشعر المؤلف، ولا السجع المتكلف، فأصغيت فزجرت، فعاودت فظلعت، فقلت: بم تهيمنون، وإلام تعتزون. فقالوا خطاب كبار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شصار، لأصدق الأخبار، واسلك واضح الأخيار، تنج من أوار النار.

فقلت: وما هذا الكلام؟ قالوا: فرقان بين الكفر والإيمان. أتى به رسول من مضر، ثم من أهل المدر، ابتعث فظهر. فجاء بقول قد بهر، وأوضح نهجا قد دثر، فيه مواعظ لمن اعتبر.

قلت: ومن هذا المبعوث بالآي الكبر. قال: أحمد خير البشر، فإن آمنت أعطيت الشبر، وإن خالفت أصليت سقر، فآمنت يا خنافر وأقبلت إليك أبادر، فجانب كل نجس كافر، وشايع كل مؤمن طاهر، وإلا فهو الفراق. قال: فاحتملت حتى أتيت معاذ بن جبل بصنعاء فبايعته على الإسلام»[1].

= محمد سعيد القاسمي. عالم مشارك في أنواع من العلوم. ولد بدمشق وتعلم بها، ثم رحل إلى مصر، وعاد إلى الشام حيث تفرغ للعلم تدريسا وتصنيفا إلى أن توفي سنة ١٣٣٢هـ الموافق لـ ١٩١٤م. له: دلائل التوحيد. قواعد التحديث. إصلاح المساجد من البدع والعوائد. تعطير المشام في مآثر دمشق الشام. معجم المؤلفين، ٣/ ١٥٧.

(١) عن «سبيل الهدى والرشاد»، ٢/ ٢١٠. وابن دريد هو أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي. ولد =

وقد اشتهر هذا السجع عن الكهان واستمر إلى الإسلام الذي قضى على الكهانة:

روى مالك والشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قضى في امرأتين من هذيل اقتتلتا، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فأصابت بطنها وهي حامل فقتلت ولدها الذي في بطنها، فاختصموا إلى النبي ﷺ فقضى أن دية ما في بطنها غرة عبد أو أمة. فقال ولي المرأة التي غرمت: كيف أغرم يا رسول الله من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، فمثل ذلك يطل. فقال النبي ﷺ: إنما هذا من إخوان الكهان[1]. وولي المرأة هو حمل بن النابغة الهذلي، كما في رواية مسلم.

ومعنى الاستهلال هو رفع الصوت، واستهل الصبي إذا صاح عند الولادة. وقوله: ومثل ذلك يطل، أي يهدر، أي هذا لا ينبغي فيه شيء[2].

وفي رواية مسلم أن الراوي قال بعد الحديث: من أجل سجعه، قال القرطبي: «يعني بذلك أنه تشبه بالكهان، فسجع كما يسجعون حين يخبرون عن المغيباتوهي عادة مستمرة في الكهان»[3].

وكان لسجع الكهان فوائد لهم: فهي تحيط نبوءاتهم بهالة من العظمة والخفاء، فتكون أنفذ، وللكلمات أثرها السحري في النفوس، ولذلك قال النبي ﷺ - لما سمع خطبة التميميين وأعجبته -: إن من البيان لسحرا[4]. ثم هي كلمات مجملة تحتمل

= بالبصرة، وقرأ على علمائها، رحل إلى عمان وفارس، ثم عاد إلى بغداد وتوفي بها سنة ٣٢١هـ. من تصانيفه: الجمهرة في اللغة. أدب الكاتب. اشتقاق أسماء القبائل. غريب القرآن، لم يكمل معجم المؤلفين، ٩/ ١٨٩.

(١) هذا لفظ البخاري، رواه في باب الكهانة من كتاب الطب. ورواه مسلم في كتاب القسامة، حديث ٣٦. وأبو داود في الديات. والنسائي في القسامة. والدارمي في الديات. وأحمد في مسنده. ورواه مالك في الموطأ مرسلا في عقل الجنين من كتاب العقول.

(٢) أعلام السنن ٢/ ١١٦٠. المفهم ٥/ ٦٤. عمدة القاري ٢١/ ٢٧٥.

(٣) المفهم ٥/ ٦٤.

(٤) نسبة إلى قبيلة بني تميم. انظر تمام الحديث في: صحيح البخاري، كتاب الطب، وكتاب النكاح. صحيح مسلم في كتاب الجمعة. ورواه أيضا أبو داود في الأدب. الترمذي في البر. الدارمي في الصلاة. مالك في الموطأ في باب ما يكره من الكلام. وهو أيضا في مسند أحمد في مواضع متعددة.

تعددا في التفسير وتنوعا في التأويل، بحيث يسهل التخلص من الخطأ وتحوير النبوءة متى اقتضى الأمر ذلك. قال ابن عاشور: «ولا شك أن لسذاجة عقول القوم أثرا ما، وكان أقوامهم يعدون المعمرين منهم أقرب إلى الإصابة فيما ينبئون به، وهم بفرط فطنتهم واستغفالهم الله من مريديهم لا يصدرون إلا كلاما مجملا موجها قابلا للتأويل بعدة احتمالات، بحيث لا يؤخذون بالتكذيب الصريح، فيكلون تأويل كلماتهم إلى ما يحدث للناس في مثل الأغراض الصادرة فيها تلك الكلمات، وكلامهم خلو من الإرشاد والحقائق الصالحة.

وهم بحيلتهم واطلاعهم على ميادين النفوس ومؤثراتها التزموا أن يصوغوا كلامهم الذي يخبرون به في صيغة خاصة ملتزما فيها فقرات قصيرة مختتمة بأسجاع، لأن الناس يحسبون مزاوجة الفقرة لأختها دليلا على مصادفتها الحق والواقع، وأنها أمارة صدق. وكانوا في الغالب يلوذون بالعزلة، ويكثرون النظر في النجوم ليلا لتتفرغ أذهانهم. فهذا حال الكهان، وهو قائم على أساس الدجل والحيلة والشعوذة، مع الاستعانة باستعداد خاص في النفس وقوة تخترق الحواجز المألوفة»[1].

وقد كره بعضهم السجع لأجل هذا الحديث، وربما عناهم الخطابي حين قال في حديث الهذلي: «ولم يعبه رسول الله بقوله: إنما هذا من إخوان الكهان، لأجل السجع نفسه، وقد يوجد في تضاعيف كلام رسول الله من السجع ما لا يخفى، ولكنه إنما عاب منه رده الحكم، وتزيينه القول فيه بالسجع على مذهب الكهان في ترويج أباطيلهم بالأساجيع التي يولعون بها، فيروجون بها الباطل، ويوهمون الناس أن تحتها طائلا»[2].

وقال الباجي: «يريد ـ والله أعلم ـ أنه لا علم (أي الهذلي) عنده إلا ما أورد من الأسجاع التي يستعملها الكهان على وجه الإلباس على الناس أو التمويه عليهم»[3].

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٣٣.

(٢) أعلام السنن، ٢/ ١١٦٠ ـ ١١٦١. وانظر المفهم ٥/ ٦٤.

(٣) المنتقى شرح الموطأ، ٧/ ٨٠، لأبي الوليد سليمان بن خلف التجيبي، القرطبي، الباجي (٤٠٣ ـ ٤٧٤هـ). فقيه وأصولي وأديب. رحل إلى الشرق فأقام بمكة وبغداد والموصل ودمشق، فتعلم. ثم عاد إلى الأندلس وولي القضاء، وتوفي بألمرية. من كتبه الكثيرة: المعاني في شرح الموطأ، في عشرين مجلدا، وهو غير المنتقى. التسديد إلى معرفة التوحيد. الناسخ والمنسوخ. تفسير القرآن. إحكام الفصول معجم المؤلفين ٤/ ٢٦١.

ويبعد أن نحكم بكراهة السجع بإطلاق، بل ينبغي أن يجوز، بدليل قول النبي ﷺ ـ على ما رواه البخاري في كتاب الأدب من صحيحه ـ : يا أبا عمير، ما فعل النغير! قال ابن العربي ـ في حديث حمل الهذلي ـ : «(إن هذا من إخوان الكهان)، وليس هذا بإنكار لصورة السجع، فإنه جائز، وإنما بين به النبي ﷺ إبطال كل سجع ينظم في معارضة حق، كما أنه يكره أن يتكلف ابتداء في طريق الحق، إلا أن يرد في مطرد القول»[1]. فلا بأس بالسجع إذا استعمل باعتدال، ومن غير تكلف.

الفروق بين النبوة والكهانة:

أ ـ الفرق واضح في دعوة النبي وكلام الكاهن، «وما يليق هذا القرآن بالشياطين. وهو يدعو إلى الهدى والصلاح والإيمان. والشياطين تدعو إلى الضلال والفساد والكفر»[2]. ولذلك لما نفى الله تعالى أن يكون الوحي مما نزلت به الشياطين، فقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ ، إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢]، عاد فقال: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين؟ تنزل على كل أفاك أثيم، يلقون السمع، وأكثرهم كاذبون.﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٣].

قال النسفي: «﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ مرتكب للآثام، وهم الكهنة والمتنبئة كسطيح وطلحة ومسيلمة. ومحمد ﷺ يشتم الأفاكين ويذمهم، فكيف تنزل الشياطين عليه؟»[3] وقال القرطبي في سورة الحاقة: «﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾، لأنه ورد بسب الشياطين وشتمهم، فلا ينزلون شيئا على من سبهم»[4]. وذكر الرازي ـ في آيات الشعراء ـ أن الوحي لو كان من تنزل الشياطين لكان الكفار أولى به، إذ كيف ينزل على من يسب الشياطين ويلعنهم[5].

ب ـ والنبي لا يأخذ على دعوته أجرا، ولا يتكلف الوحي، فهو ينزل عليه دون جهد منه، بخلاف الكاهن. فهذا فرقان. قال الخطابي: «الأنبياء لا يتكلفون القول ولا يطلبون على ما يخبرون به الأجر، فقال عز وجل: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ

---

(١) القبس شرح موطأ مالك بن أنس، لأبي بكر بن العربي، ٣/ ١٠٠٠.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٢٤٢. سورة الشعراء.

(٣) مدارك التنزيل، ٣/ ١٩٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ١٧٨.

(٥) مفاتيح الغيب، ٢٤/ ١٧٢ ـ ١٧٣.

﴿الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]. وقال: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢١]. والكاهن يتكلف الكذب والزور، ويختلق الأجر والعوض عليه، ولذلك نهى النبي ﷺ عن حلوان الكاهن..والنبي لا يتكلف إنما يتبع الوحي ويؤدي الأمانة، ولا يأخذ الرشوة، ولا يطلب عليها الإتاوة»[١].

والعرب تسمي ما يعطاه الكاهن على كهانته من جعل.. حلوانا، مالا أو غيره[٢]. قال المازري: «يقال حلوت الرجل أحلوه: إذا أعطيته شيئا يستحليه. كما يقال: عسلته أعسله، إذا أطعمته عسلا. ومنه قيل للرشوة ولما يأخذه الرجل من مهرابنته حلوانا، لأنها كلها عطايا حلوة مستعذبة»[٣].

وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى في سورة التكوير، آية ٢٤: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾، قال النسفي: أي: «وما محمد على الوحي..ببخيل، من الضن، وهو البخل. أي لا يبخل بالوحي كما يبخل الكهان رغبة في الحلوان، بل يعلمه كما علم ولا يكتم شيئا مما علم»[٤].

ج ـ النبي لا يجيب متى سئل، والكاهن له جواب عن كل سؤال. قال ـ في شرح البخاري ـ : «ولذلك ترى الأنبياء يقولون في كثير مما يسأل عنهم: لا نعلم، حتى يوحى إليهم، ولا نرى الكهان يمتنعون من التقول والتألي في جميع ما يسألون عنه، فهما حزبان»[٥]. ولذلك قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ «تبتدع القول، وتخبر بما في غد من غير وحي»[٦].

د ـ ثم إن دعوة النبي إصلاح عام يتعلق بحياة الإنسان في جميع أبعادها، بينما يقتصر الكهان على الإخبار بأمور محددة من المغيبات، لا يصيبون في أكثرها. يقول

---

(١) أعلام السنن ٢/ ١٢٠٣.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر الأندلسي ٨/ ٣٩٩. حديث أول لابن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن. أعلام السنن للخطابي ١/ ٦٢٤. المنهاج للنووي ١٠/ ١٩٥.

(٣) المعلم ٤/ ٤٤٦. باب النهي عن ثمن الكلب وحلوان الكاهن.

(٤) مدارك التنزيل ٤/ ٣٣٧. وانظر: محاسن التأويل، للقاسمي، ١٦/ ٥٩١٩ ـ ٥٩٢٠، الحاقة ٤٢.

(٥) أعلام السنن للخطابي، ٢/ ١٢٠٣. ينبغي أن تكون الجملة هكذا: في كثير مما يسألون عنه.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ١٧/ ٤٨. سورة الطور. وراجع محاسن التأويل، ١٦/ ٥٩٢٠، الحاقة.

ابن عاشور عن القرآن: «ومعانيه ليست من معاني الكهانة الرامية إلى الإخبار عما يحدث لبعض الناس من أحداث، أو ما يلم بقوم من مصائب متوقعة ليحذروها، فلذلك كان المخاطبون بالآية منتفيا عنهم التذكر والتدبر، وإذا بطل هذا وذاك بطل مدعاهم، فحق أنه تنزيل من رب العالمين كما ادعاه الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم»[1].

هـ ـ النبي رجل صدق، يعيش في الصدق، فكلامه وحديثه وسلوكه صدق. ولذلك قال هرقل إمبراطور الروم: عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله[2]. بينما يعرف الكاهن بالكذب والتخليط. وهذا منه مفهوم، لأنه وضع نفسه في موضع الاطلاع على الغيب، والناس يسألونه في الكبيرة والصغيرة، فيضطر إلى الكذب متى عدم وسيلة أخرى. قال الرازي في قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ. . .﴾: «والمراد أنهم كانوا يقيسون حال النبي ﷺ على حال سائر الكهنة، فكأنه قيل لهم: إن كان الأمر على ما ذكرتم فكما أن الغالب على سائر الكهنة الكذب فيجب أن يكون حال الرسول ﷺ كذلك أيضا، فلما لم يظهر في إخبار الرسول ﷺ عن المغيبات إلا الصدق علمنا أن حاله بخلاف حال الكهنة»[3].

والنبي ـ أيضا ـ إنسان كريم، وعلى خلق، بل على حظ عظيم منه، وهو مقتنع بأن له رسالة ينبغي أن يؤديها إلى الناس، ولذلك تغلب عليه أخلاق السكينة والحلم والرفق والرحمةبخلاف أكثر الكهنة في أكثر أحوالهم.

وقد أشار الشعراني إلى بعض هذه الفروق في قوله، وبه أختم هذه المسألة: «فإن قلت فما الفرق بين المعجزة والكهانة. فالجواب أن الفرق بينهما هو أن المعجزة فعل خارق للعادة مقرون بالتحدي يقوم مقام تصديق الله تعالى بالنبي بالقول كما مر. وأما الكهانة فهي كلمات تجري على لسان الكاهن ربما توافق وربما تخالف. والنبي لا

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٩/١٤٣، الحاقة.

(٢) هذا جزء من كلام هرقل في الحديث الطويل الذي رواه ابن عباس أن عظيم الروم سأل أبا سفيان عن النبي ﷺ حين خرج وأعلن الرسالة. وقد ذكر البخاري هذا الحديث تاما في كتاب بدء الوحي، ثم في كتاب الجهاد، وكتاب التفسير، سورة آل عمران. ورواه مسلم أيضا في كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل. وأحمد في المسند.

(٣) مفاتيح الغيب، الجزء ٢٤ / ١٧٥، سورة الشعراء.

يكون قط إلا كامل الخلق والخلق، وأما الكاهن فيكون مختل العقل ناقص الخلق مزورا، فإن ادعى النبوة بكهانته فربما قابله بدعواها كاهن آخر فلا يوجد الفرق بينهما ألبتة؛ بخلاف النبوة فإن النبي إذا تحدى بالمعجزة وقابله مدع كاذب لا يجوز أن يظهر له معجزة مثل معجزة الصادق. وقد قدمنا أن المعجزة تصديق الله للصادق فكيف تكون تصديقا للكاذب، والله تعالى لا يصدق الكاذب»[1].

النبي والشاعر:

لما رد الكتاب الكريم - في سورة الشعراء - على المشركين الذين رموا النبي الأكرم بالكهانة، انتقل مباشرة إلى ذكر الشعراء، وبيان الفرق بينهم وبين الأنبياء: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [آيات ٢٢١ - ٢٢٧]. قال ابن عطية: وهذه الكناية هي عن شعراء الجاهلية[2].

وهذا القران بين الكهنة والشعراء وتبرئة الرسول ﷺ عن أن يكون منهم..أمر يتكرر في القرآن في مواضع أخرى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٢]. وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٢٩ - ٣١]. قال الطبري: «يقول جل ثناؤه: بل يقول المشركون - يا محمد - لك: هو شاعر نتربص به حوادث

---

(١) اليواقيت والجواهر، ١/ ١٦٢. ذكر بروكلمان من كتب أبي بكر الباقلاني: كتاب البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنيرنجيات. «تاريخ الأدب العربي»، ٤/ ٥١.

(٢) المحرر الوجيز ١٢/ ٨٥. لم أذكر موضوع الشعر إلا لضرورة، وهي ارتباطه بموضوع الكهانة، كما هو واضح في القرآن، ولهذا لم أفصل الحديث في قضية الشعر في الإسلام، لوقوعها خارج نطاق هذا البحث. لكن يمكن للقارئ أن يراجع موقف الدين من الشعر في كتب الأدب الإسلامي، ومنها على سبيل المثال: مدخل إلى المنهج الإسلامي في النقد الأدبي، لعلي الغزيوي، ص ٤٣ إلى ٧٨. منشورات كتاب دعوة الحق، الصادرة عن وزارة الأوقاف بالمغرب.

الدهر، يكفيناه بموت أو حادثة مباغتة»[1]. وروى عن ابن عباس أن قريشا لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ، قال قائل منهم: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء: زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم، فأنزل الله في ذلك: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾[2].

قال ابن عاشور ـ على آيات الشعراء ـ: «كان مما حوته كنانة بهتان المشركين أن قالوا في النبي ﷺ: هو شاعر، فلما نثلت الآيات السابقة سهام كنانتهم وكسرتها، وكان منها قولهم: هو كاهن، لم يبق إلا إبطال قولهم: هو شاعر. وكان بين الكهانة والشعر جامع في خيال المشركين، إذ كانوا يزعمون أن للشاعر شيطانا يملي عليه الشعر، وربما سموه الرئي، فناسب أن يقارن بين تزييف قولهم في القرآن: هو شعر، وقولهم في النبي ﷺ: هو شاعر، وبين قولهم: هو قول كاهن، كما قرن بينهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ فعطف هنا قوله ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ على جملة ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.

ولما كان حال الشعراء في نفس الأمر مخالفا لحال الكهان، إذ لم يكن لملكة الشعر اتصال ما بالنفوس الشيطانية، وإنما كان ادعاء ذلك من اختلاق بعض الشعراء أشاعوه بين عامة العرب، اقتصرت الآية على نفي أن يكون الرسول شاعرا»[3].

ويقول الخطابي ـ بعد إشارته إلى ذكر القرآن للكهان ـ: «ثم قال: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾، فوصلهم به في الذكر، ولذلك تجد الكهان يسجعون في كلامهم، فيقطعونه تقطيع قوافي الشعر، وتجد الواحد بعد الواحد من فحولة الشعراء يدعي أن له خليلا من الجن يملي عليه الشعر، ويقوله على لسانه، كما جاء من ذلك في شعر الأعشى[4] من

---

(١) جامع البيان، ٢٧/ ١٧.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان ٢٧/ ١٧.

(٣) التحرير والتنوير، ١٩/ ٢٠٧.

(٤) هم جماعة من الشعراء كلهم يسمى الأعشى، أعشى همدان، وهو الشاعر عبد الرحمن بن عبد الملك، قتله الحجاج سنة ٨٣هـ حين خروجه مع ابن الأشعث. وأعشى بني ربيعة، أو شيبان، وهو عبد الله بن خارجة بن حبيب مادح الخليفة عبد الملك الأموي. وأعشى بني تغلب، وهو النعمان بن نجوان. والمقصود هنا ـ وغالبا إذا أطلق اسم الأعشى ـ هو الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، شاعر جاهلي، كان على النصرانية ومات عليها رغم إدراكه الإسلام. راجع تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان، ١/ ١٤٧ ـ ٢٣٧ ـ ٢٣٨ (طبعة دار المعارف).

ذكره مسحلا وجهنام»[1]. ثم ذكر قصصا في هذا المعنى.

وإنما اعتقد العرب أن الشاعر يشبه الكاهن، لأن «الكاهن مستمد من الشياطين، و﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُنَ﴾. وكلاهما في لفظه وزن، هذا سجع وهذا نظم. وكلاهما له معان من وحي الشياطين»[2].

ورغم أن «نفي كون القرآن قول شاعر بديهي، إذ ليس فيه ما يشبه الشعر من اقتران أجزائه في المتحرك والساكن والتقفية المتماثلة في جميع أواخر الأجزاء[3]»، رغم ذلك نبه القرآن على الفرق بين النبي والشاعر، إقامة للحجة وإبطالا لكل شبهة.

قال الرازي ـ في هذا الموضوع، في تفسير آيات الشعراء ـ : «اعلم أن الكفار لما قالوا: لم لا يجوز أن يقال إن الشياطين تنزل بالقرآن على محمد، كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر على الشعراء؟ ثم إنه سبحانه فرق بين محمد ﷺ وبين الكهنة، فذكر ههنا ما يدل على الفرق بينه عليه السلام وبين الشعراء، وذلك هو أن الشعراء يتبعهم الغاوون، أي الضالون. ثم بين تلك الغواية بأمرين: (الأول) ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، والمراد منه الطرق المختلفة كقولك أنا في واد وأنت في واد، وذلك لأنهم قد يمدحون الشيء بعد أن ذموه وبالعكس، وقد يعظمونه بعد أن استحقروه وبالعكس، وذلك يدل على أنهم لا يطلبون بشعرهم الحق ولا الصدق، بخلاف أمر محمد ﷺ، فإنه من أول أمره إلى آخره بقي على طريق واحد، وهو الدعوة إلى الله تعالى والترغيب في الآخرة والإعراض عن الدنيا. (الثاني) ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾، وذلك أيضا من علامات الغواة، فإنهم يرغبون في الجود ويرغبون عنه، وينفرون عن البخل ويصرون عليه، ويقدحون في الناس بأدنى شيء صدر عن واحد من أسلافهم، ثم إنهم لا يرتكبون إلا الفواحش، وذلك يدل على الغواية والضلالة.

---

(١) أعلام السنن ٢/ ١٢٠٢.

(٢) فتاوى ابن تيمية ٢/ ٥١، الاعتقاد في الصلة بين الكهانة والشعر اعتقاد قديم. وكان في شعوب أخرى غير العرب، فاليونان ـ مثلا ـ كانوا ينسبون الشعر إلى الإلاهة الفن Muse، أو إلى شكل من الخلق يسمى الحورية Nymphe، واعتبروا أن الشعر من وحيها وإلهامها. انظر محاورة أفلاطون: Phèdre, p 244 ـ ٢٤٥. وراجع: Les Grecs et l'irrationnel, p 87 à 89. ولم يظهر لي سبب هذا التوافق على اعتبار الشاعر يلهم أيضا، كالكاهن.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٩/ ١٤٣. الحاقة.

وأما محمد ﷺ فإنه بدأ بنفسه حيث قال الله تعالى له: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾، ثم بالأقرب فالأقرب حيث قال الله تعالى له: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾. وكل ذلك على خلاف طريقة الشعراء، فقد ظهر بهذا الذي بيناه أن حال محمد ﷺ ما كان يشبه حال الشعراء. ثم إن الله تعالى لما وصف الشعراء بهذه الأوصاف الذميمة بيانا لهذا الفرق استثنى عنهم الموصوفين بأمور أربعة: (أحدها) الإيمان وهو قوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، (وثانيها) العمل الصالح وهو قوله ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، (وثالثها) أن يكون شعرهم في التوحيد والنبوة ودعوة الخلق إلى الحق، وهو قوله ﴿وَذَكَرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، (ورابعها) أن لا يذكروا هجو أحد إلا على سبيل الانتصار ممن يهجوهم، وهو قوله ﴿وَٱنتَصَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾، قال الله تعالى ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾»[1].

ويقول الأديب سيد قطب ـ في السياق نفسه ـ:

«ولقد كانوا يقولون عن القرآن أحيانا: إنه شعر، ويقولون عن النبي ـ ﷺ ـ إنه شاعر. وهم في حيرتهم كيف يواجهون هذا القول الذي لا يعرفون له نظيرا، والذي يدخل إلى قلوب الناس، ويهز مشاعرهم، ويغلبهم على إرادتهم من حيث لا يملكون له ردا.

فجاء القرآن يبين لهم في هذه السورة أن منهج محمد ـ ﷺ ـ ومنهج القرآن غير منهج الشعراء ومنهج الشعر أصلا. فإن هذا القرآن يستقيم على نهج واضح، ويدعو إلى غاية محددة، ويسير في طريق مستقيم إلى هذه الغاية. والرسول ـ ﷺ ـ لا يقول اليوم قولا ينقضه غدا، ولا يتبع أهواء وانفعالات متقلبة؛ إنما يصر على دعوة، ويثبت على عقيدة، ويدأب على منهج لا عوج فيه. والشعراء ليسوا كذلك. الشعراء أسرى الانفعالات والعواطف المتقلبة. تتحكم فيهم مشاعرهم وتقودهم إلى التعبير عنها كيفما كانت. ويرون الأمر الواحد في لحظة أسود، وفي لحظة أبيض. يرضون فيقولون قولا، ويسخطون فيقولون قولا آخر. ثم هم أصحاب أمزجة لا تثبت على حال!

هذا إلى أنهم يخلقون عوالم من الوهم يعيشون فيها، ويتخيلون أفعالا ونتائج ثم يخالونها حقيقة واقعة يتأثرون بها. فيقل اهتمامهم بواقع الأشياء، لأنهم يخلقون هم في خيالهم واقعا آخر يعيشون عليه!

---

(١) مفاتيح الغيب، ٢٤/١٧٦ ـ ١٧٧.

وليس كذلك صاحب الدعوة المحددة، الذي يريد تحقيقها في عالم الواقع ودنيا الناس. فلصاحب الدعوة هدف، وله منهج، وله طريق. وهو يمضي في طريقه على منهجه إلى هدفه مفتوح العين، مفتوح القلب، يقظ العقل؛ لا يرضى بالوهم، ولا يعيش بالرؤى، ولا يقنع بالأحلام، حتى تصبح واقعا في عالم الناس.

فمنهج الرسول - ﷺ - ومنهج الشعراء مختلفان، ولا شبهة هناك»[1].

قصة الغرانيق:

ومن أهل العلم من ذهب إلى أن النبي ﷺ - في بدء أمره - خاف أن يكون هذا الذي يأتيه من الوحي نوعا من الكهانة، واستنبطوا ذلك من حديث عائشة أم المؤمنين، وهو الحديث الطويل الذي ذكره البخاري في كتاب بدء الوحي، قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة..وفيه أن الملك لما تبدى له وغطه ثلاثا، ذهب إلى زوجه خديجة يرجف فؤاده، وأخبرها الخبر، وقال لها: لقد خشيت على نفسي[2].

قال ابن حجر: «والخشية المذكورة اختلف العلماء في المراد بها على اثني عشر قولا: أولها..أن يكون ما رآه من جنس الكهانة، جاء مصرحا به في عدة طرق، وأبطله أبو بكر بن العربي، وحق له أن يبطل، لكن حمله الإسماعيلي على أن ذلك حصل له قبل حصول العلم الضروري له أن الذي جاءه ملك وأنه من عند الله تعالى»[3].

وإنما أبطل الجمهور هذا الاحتمال لأن النبي ﷺ معصوم، ومن الشيطان ووساوسه محفوظ، فلا يمكن أن يقربه، ولا أن يلتبس عنده بالملك، وقد طهر الله سبحانه نبيه وأعده للرسالة.

---

(١) في ظلال القرآن، ٦/ ٢٤٥.

(٢) رواه البخاري في الصحيح، كتاب بدء الوحي، وفي كتاب التفسير، سورة العلق، وفي كتاب التعبير. ورواه مسلم في كتاب الإيمان، الحديث رقم ٢٥٢ في الكتاب.

(٣) فتح الباري، ١/ ٢٤ (اعتمدت في هذا المبحث على النسخة التي قرأها عبد العزيز بن باز، ونشرتها رئاسة إدارات البحوث العلمية.. بالسعودية). والإسماعيلي المذكور لعله أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي الجرجاني، إمام أهل جرجان والمرجوع إليه في الفقه والحديث، وصاحب التصانيف، ومنها: المستخرج على البخاري . المعجم. وله مسند كبير. توفي سنة ٣٧١ هـ. راجع تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٤٧.طبقات الشافعية ، ٣/ ٧.

ولذلك قال ابن حجر : إن أولى الأقوال بالصواب أن المقصود بالخشية : الموت من شدة الرعب. ثم القول بأنه المرض، أو دوامه[1].

لكن يشكل على هذا قصة الغرانيق، وفيها أن الشيطان لبس على النبي الكريم، والقصة مشهورة، وهي في الكتب مسطورة ، واختلف الناس فيها كثيرا، ولولا أن لها تعلقا بموضوعنا هذا ـ النبوة والكهانة ـ ، وأنها مذكورة في جوامع التفسير والحديث والسير، ولولا أن بعض أهل العلم صححها، حتى إنني وقفت لأحدهم على رسالة مستقلة، جعلها في بيان صحة القصة وفي تأويلها لولا هذا كله ما تعرضت لها أو لذكرها.

ورغم ذلك لن أبحث هذه القضية بتفصيل كبير، فحسبي أن أنبه على مآخذها وإشكالاتها وأهم مذاهب الناس فيها وما أجاب به بعضهم بعضا، وفي ذلك غنية وكفاية إن شاء الله تعالى.

والقارئ يحتاج أولا أن يحيط خبرا بهذه القضية:

ذكر القصة :

وفيها روايات كثيرة، حاصلها «أن النبي ﷺ جلس في ناد من أندية قومه، كثير أهله، فتمنى يومئذ ألا يأتيه من الله شئ فينفروا عنه يومئذ، فأنزل الله عليه : ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، فقرأ حتى إذا بلغ إلى قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾، ألقى الشيطان كلمتين: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى.

فتكلم بها، ثم مضى بقراءة السورة كلها، ثم سجد في آخر السورة، وسجد القوم جميعا معه، ورفع الوليد بن المغيرة ترابا إلى جبهته وسجد عليه، وكان شيخا كبيرا. فلما أمسى أتاه جبريل، فعرض عليه السورة، فلما بلغ الكلمتين قال: ما جئتك بهاتين، فأوحى الله إليه: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا، وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾ الإسراء ٧٣ إلى ٧٥. فما زال مغموما مهموما حتى نزلت: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ،

(١) فتح الباري ، ١/ ٢٤.

﴿وَأَلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ... لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

والغرانيق جمع غرنوق، من طير الماء، طويل العنق. والمقصود بها الأصنام، وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله وتشفع لهم، فشبهت بالطيور التي تعلو في السماء وترتفع[2].

والآيات - موضع الإشكال - من سورة الحج، ٥٢ إلى ٥٤، وهي مكية وفيها آيات مدنية.

ويظهر لي أنه يمكن أن نقسم آراء العلماء في الموضوع ثلاثة أقسام، فتكون ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: إبطال القصة من أصلها. (نموذج ابن العربي).

فهذه القصة هي - عند ابن العربي - من قول بعض الرواة الذين هم بجهلهم أعداء على الإسلام، والروايات الكثيرة لهذه القصة «كلها باطلة، لا أصل لها، ولو شاء ربك لما رواها أحد ولا سطرها، ولكنه فعال لما يريد»[3]. وتبعه على ذلك القرطبي[4].

وإنما حكم القاضي أبو بكر ببطلان هذه الروايات للاعتبارات الآتية:

١ - «النبي إذا أرسل الله إليه الملك بوحيه، فإنه يخلق له العلم به، حتى يتحقق أنه رسول من عنده، ولولا ذلك ما صحت الرسالة، ولا تبينت النبوة..ولو كان النبي إذا شافهه الملك بالوحي لا يدري أملك هو أم إنسان أم صورة (أخرى) لم يصح له أن

---

(١) راجع بعض هذه الروايات في: جامع البيان (طبعة دار المعرفة)، ١٧/ ١٣١ فما بعدها، فقد ذكر الطبري كثيرا منها بأسانيدها. وبعد قليل ستجد تخريجا أوسع لهذه القصة.

(٢) النهاية في غريب الحديث، ٣/ ١٨٠ . مزيل الخفا عن ألفاظ الشفا، ٢/ ١٢٤، لأحمد الشمني.

(٣) أحكام القرآن ٣/ ١٣٠٣، سورة الحج. (اعتمدت في هذا المبحث على طبعة عيسى الحلبي بتحقيق علي البجاوي).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٢/ ٥٤.

يقول: إنه من عند الله، ولا ثبت عندنا أنه أمر الله، فهذه سبيل متيقنة، وحال متحققة لا بد منها..ولو جاز للشيطان أن يتمثل فيها، أو يتشبه بها ما آمناه على آية، ولا عرفنا منه باطلا من حقيقة»[1].

٢ ـ الرسول معصوم من الكفر والشرك، والنطق بتلك الكلمات كفر. والله سبحانه قد عرَّف رسوله بنفسه وبصره بأدلته، فلم يكن يخفى عليه من أمر الله شيء[2].

٣ ـ لا يمكن «أن يجهل النبي ﷺ حال القول، ويخفى عليه قوله، ولا يتفطن لصفة الأصنام بأنها الغرانقة العلى، وأن شفاعتهن ترتجي، وقد علم علما ضروريا أنها جمادات لا تسمع ولا تبصر، ولا تنطق ولا تضر..بهذا كان يأتيه جبريل الصباح والمساء..ثم لم يكف هذا حتى قالوا (أي الرواة): إن جبريل لما عاد إليه بعد ذلك ليعارضه فيما ألقى إليه من الوحي كررها عليه جاهلا ـ تعالى الله عن ذلك ـ فحينئذ أنكرها عليه جبريل، وقال له: ما جئتك بهذه»[3].

٤ ـ إن قول العربي: كاد يكون كذا، معناه قارب ولم يكن، فأخبر الله في هذه الآية أنهم قاربوا أن يفتنوه عن الذي أوحي إليه، ولم تكن فتنة، فلم يفتتن ولم يفتر ولم يعدوه خليلا[4].

٥ ـ أخبر الله سبحانه أنه ثبَّت نبيه وعصمه وقرر التوحيد والمعرفة في قلبه، فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾. فهذه الآية نص في عصمته من كل ما نسب إليه[5].

٦ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ قال ابن العربي: «هذه الآية نص في غرضنا، دليل على صحة مذهبنا، أصل في براءة النبي ﷺ مما نسب إليه أنه قاله، عندنا..أخبر الله تعالى أن من سننه في رسله وسيرته في أنبيائه أنهم إذا قالوا عن الله قولا زاد الشيطان فيه من قبل نفسه، كما يفعل سائر المعاصي، كما تقول: ألقيت في الدار كذا..وألقيت في الكيس كذا.فهذا نص في أن

---

(١) أحكام القرآن، ٣/ ١٣٠٠.

(٢) أحكام القرآن، ٣/ ١٣٠٠.

(٣) أحكام القرآن، ٣/ ١٣٠١ ـ ١٣٠٢.

(٤) أحكام القرآن، ٣/ ١٣٠٢.

(٥) أحكام القرآن، ٣/ ١٣٠٢. وهي آية ٧٤ من الإسراء.

الشيطان زاد في الذي قاله النبي ﷺ، لا أن النبي قاله؛ وذلك أن النبي ﷺ كان إذا قرأ تلا قرآنا مقطعا، وسكت في مقاطع الآي سكوتا محصلا، وكذلك كان حديثه مترسلا فيه متأنيا، فيتبع الشيطان تلك السكتات التي بين قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾، فقال - يحاكي صوت النبي ﷺ - : وإنهن الغرانقة العلا، وإن شفاعتهن لترتجى.

فأما المشركون والذين في قلوبهم مرض.. فتلوها عن النبي ﷺ، ونسبوها بجهلهم إليه، حتى سجدوا معه اعتقادا أنه معهم، وعلم الذين أوتوا العلم والإيمان أن القرآن حق من عند الله فيؤمنون به، ويرفضون غيره.. وكل ذلك ابتلاء من الله ومحنة»[1].

والمقصود أن ابن العربي يرى أن القصة تخالف صريح القرآن مخالفة تامة، فهو يثبت عصمة النبي وحفظ الله سبحانه له ولوحيه إليه، والقصة تصرح بغير ذلك، لهذا لم يناقش ابن العربي الرواية من حيث أصلها وسندها، والثابت في مصطلح الحديث أن الخبر إذا خالف القرآن مخالفة صريحة رد، واعتبر شاذا ومعلولا، في أحسن أحواله، لأنه لا يبعد أن يحكم عليه بالوضع[2].

وهذا معنى ختمه بهذا الكلام: «وقد أوعدنا إليكم توصية أن تجعلوا القرآن إمامكم، وحروفه أمامكم، فلا تحملوا عليها ما ليس فيها، ولا تربطوا فيها ما ليس منها، وما هدي لهذا إلا الطبري بجلالة قدره، وصفاء فكره، وسعة باعه في العلم، وشدة ساعده وذراعه في النظر؛ وكأنه أشار إلى هذا الغرض، وصوب على هذا المرمى فقرطس»[3]. يعني أن الأصل الأول هو القرآن، فما ناقضه طرح. وكذلك فعل الطبري وفسر الآية كما فعل ابن العربي.

ومن بعد القاضي أبي بكر، جاء القاضي عياض فسلك الطريق نفسه، لكنه فصل البحث أكثر، وكانت قدمه في الحديث أرسخ من ابن العربي، فقال: «اعلم أكرمك

---

(١) أحكام القرآن، ٣/ ١٣٠٢ - ١٣٠٣.

(٢) راجع في الوضع وعلامات الحديث الموضوع، وأن منها مخالفة القرآن والسنة المتواترة: «تدريب الراوي في شرح تقريب النووي»، ١/ ٢٧٦، للسيوطي.

(٣) أحكام القرآن، ٣/ ١٣٠٣. انظر عن الطبري: جامع البيان، ١٧/ ١٣٤ (طبعة دار المعرفة).

الله أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين، أحدهما في توهين أصله، والثاني على تسليمه»[1].

ابتدأ عياض ببيان ضعف خبر الغرانيق من حيث السند، فقال:

«هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم، وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال: « لقد بلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير»، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته واضطراب رواياته وانقطاع إسناده واختلاف كلماته، فقائل يقول إنه في الصلاة، وآخر يقول قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة؛ وآخر يقول قالها وقد أصابته سنة، وآخر يقول بل حدث نفسه فسها، وآخر يقول إن الشيطان قالها على لسانه، وإن النبي ﷺ لما عرضها على جبريل قال ما هكذا أقرأتك؛ وآخر يقول بل أعلمهم الشيطان أن النبي ﷺ قرأها، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال والله ما هكذا نزلت؛ إلى غير ذلك من اختلاف الرواة. ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية، والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال فيما أحسب الشك في الحديث أن النبي ﷺ كان بمكة وذكر القصة. قال أبو بكر البزار هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه، وأما حديث الكلبي فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه كما أشار إليه البزار رحمه الله»[2].

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ٢/ ١٢٥، للقاضي عياض. راجع طريقا آخر في رد القصة وتفسير هذه الآيات في: التحرير والتنوير، ١٧/ ٢٩٦ فما بعدها.

(٢) الشفا، ٢/ ١٢٥ ـ ١٢٦. القاضي بكر بن العلاء، أبو الفضل، القشيري البصري المالكي. سمع الموطأ من أحمد السامي، وسمع من أبي مسلم الكجي، وحدَّث عنه الحسن بن رشيق وعبد الرحمن بن النحاس.. قال الذهبي: «مؤلفه في الأحكام نفيس، وألف في الرد على الشافعي، :

ثم رد الخبر من حيث المعنى، وذلك من وجوه:

١ ـ مخالفته لما تقرر من عصمة النبي ﷺ.

٢ ـ «إن هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيد الالتئام متناقض الأقسام ممتزج المدح بالذم متخاذل التأليف والنظم، ولما كان النبي ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك. وهذا لا يخفى على أدنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه»[(١)]. يريد أنه كلام جمع بين التوحيد والشرك، بين ذم الأصنام ومدحها.

٣ ـ لو صحت هذه القصة لاستند عليها الكفار والمنافقون واليهود، واستدلوا بها على عدم صحة النبوة المحمدية، ولاشتهر ذلك. «ولا تشغيب للمعادي حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت، فما روي عن معاند فيها كلمة ولا عن مسلم بسببها بنت شفة، فدل على بطلها واجتثاث أصلها، ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس أو الجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدثين ليلبس به على ضعفاء المسلمين»[(٢)].

٤ ـ «ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت ﴿وإن كادوا ليفتنونك..﴾ الآيتين، وهاتان الآيتان تردان الخبر الذي رووه، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم، فمضمون هذا ومفهومه أن الله تعالى عصمه من أن يفتري وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا فكيف كثيرا، وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم، وأنه قال ﷺ: «افتريت على الله وقلت ما لم يقل»، وهذا ضد مفهوم الآية وهي تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له؟وقد روي عن ابن عباس كل ما في القرآن كاد فهو ما لا يكون،

= وعلى المزني والطحاوي، وعلى أهل القدر». توفي بمصر سنة ٣٤٤هـ، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٥٣٨. وشعبة هو ابن الحجاج أبو بسطام الواسطي، نزيل البصرة. أحد كبار أئمة الحديث. وهو شيخ سفيان الثوري وابن المبارك وأبي داود وعلي بن الجعد وخلق لا يحصون. توفي سنة ١٦٠هـ. راجع: تذكرة الحفاظ، لشمس الدين الذهبي، ١/ ١٩٣.

أما البزار فهو الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البصري، صاحب المسند الكبير. ارتحل آخر عمره إلى اصبهان وإلى الشام والنواحي ينشر علمه. قال الذهبي: «ذكره الدارقطني فأثنى عليه، وقال: ثقة يخطئ ويتكل على حفظه. قلت: توفي بالرملة سنة ٢٩٢هـ». تذكرة الحفاظ، ٢/ ٦٥٤.

(١) الشفا، ٢/ ١٢٧.

(٢) الشفا، ٢/ ١٢٨.

قال الله تعالى ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ولم يذهبوقد ذكرت في معنى هذه الآية تفاسير أخر ما ذكرناه من نص الله على عصمة رسوله ترد سفسافها، فلم يبق في الآية إلا أن الله تعالى امتن على رسوله بعصمته وتثبيته بما كاده به الكفار وراموا من فتنته، ومرادنا من ذلك تنزيهه وعصمته ﷺ وهو مفهوم الآية»[1].

المذهب الثاني: تصحيح أصل القصة، ثم تأويلها (نموذج ابن حجر العسقلاني)

أي تصحيح جزء من القصة لا كلها.

قال ابن حجر: أخرج «ابن أبي حاتم والطبري وابن المنذر من طرق عن شعبة عن أبي بشر عنه قال قرأ رسول الله ﷺ بمكة والنجم، فلما بلغ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى. فقال المشركون ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، فسجد وسجدوا، فنزلت هذه الآية. وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق أمية ابن خالد عن شعبة فقال في إسناده «عن سعيد بن جبير عن ابن عباس» فيما أحسب، ثم ساق الحديث، وقال البزار: لا يروى متصلا إلا بهذا الإسناد، تفرد بوصله أمية بن خالد وهو ثقة مشهور، قال: وإنما يروى هذا من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس انتهى. والكلبي متروك ولا يعتمد عليه، وكذا أخرجه النحاس بسند آخر فيه الواقدي، وذكره ابن إسحاق في السيرة مطولا وأسندها عن محمد ابن كعب، وكذلك موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب الزهري، وكذا ذكره أبو معشر في السيرة له عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس وأورده من طريقه الطبري، وأورده ابن أبي حاتم من طريق أسباط عن السدي؛ ورواه ابن مردويه من طريق عباد بن صهيب عن يحيى بن كثير عن الكلبي عن أبي صالح وعن أبي بكر الهذلي وأيوب عن عكرمة وسليمان التيمي عمن حدثه، ثلاثتهم عن ابن عباس، وأوردها الطبري أيضا من طريق العوفي عن ابن عباس، ومعناهم كلهم في ذلك واحد، وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإما منقطع»[2].

لكن ابن حجر اعتبر أن هذه الطرق، وإن كان كل واحد منها ضعيفا، إلا أن

---

(١) الشفا، ٢/١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) فتح الباري، ٨/٤٣٩. كتاب التفسير، باب سورة الحج.

مجموعها يدل على أن لخبر الغرانيق أصلا، أي أن قدرا منه صحيح. قال: «لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلا، مع أن لها طريقين آخرين مرسلين رجالهما على شرط الصحيحين: أحدهما ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن يزيد عن ابن شهاب حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فذكر نحوه، والثاني ما أخرجه أيضا من طريق المعتمر بن سليمان وحماد بن سلمة فرقهما عن داود بن أبي هند عن أبي العالية»[1].

ثم انتقل ابن حجر إلى الرد على القاضيين، فقال: «وقد تجرأ أبو بكر بن العربي كعادته فقال: ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة باطلة لا أصل لها، وهو إطلاق مردود عليه. وكذا قول عياض هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، مع ضعف نقلته واضطراب رواياته وانقطاع إسناده. وكذا قوله: ومن حملت عنه هذه القصة من التابعين والمفسرين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم في ذلك ضعيفة واهيةوجميع ذلك لا يتمشى على القواعد، فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن لها أصلا، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض»[2].

وبعد هذا اختار ابن حجر تأويل القصة، قال: «وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر، وهو قوله: «ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى»، فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره، لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمدا ما ليس منه، وكذا سهوا إذا كان مغايرا لما جاء به من التوحيد، لمكان عصمته»[3]. ثم ذكر وجوه التأويل، وأكثرها أورده القاضي عياض.

وإنما لزم التأويل، لأنه «لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة، بها وقعت الفتنة، ثم اختلف الناس في صورة هذا الإلقاء»[4]. ولأن الخبر يخالف

---

(١) فتح الباري، ٨/ ٤٣٩.

(٢) فتح الباري، ٨/ ٤٣٩.

(٣) فتح الباري، ٨/ ٤٣٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٢/ ٥٥.

مبدأ مجمعا عليه، هو: مبدأ عصمة النبي ﷺ. قال القاضي عياض: «اعلم أن الأمة مجمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفايته منه، لا في جسمه بأنواع الأذى ولا على خاطره بالوساوسوأما أقواله ﷺ فقد قامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على صدقه، وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها بخلاف ما هو به، لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا»[(١)].

وقد ذكر القاضي عياض ما تحصل عنده من أجوبة أئمة المسلمين على تسليم صحة الحديث، وفيها الغث والسمين ـ كما قال ـ، فمنها:[(٢)]

١ ـ في رواية قتادة ومقاتل أن النبي ﷺ أصابته سنة عند قراءته لهذه السورة، فجرى ذلك الكلام على لسانه بحكم النوم. قال القاضي عياض: وهذا لا يصح، لأن النبي ﷺ معصوم في يقظته ومنامه، لا سبيل للشيطان عليه في حال.

٢ ـ في رواية الكلبي أن النبي ﷺ حَدث نفسه، فقال ذلك الشيطان على لسانه، وفي رواية أخرى أنه سها. وكل هذا لا يصح.

٣ ـ «وقيل لعل النبي ﷺ قاله أثناء تلاوته على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار، كقول إبراهيم عليه السلام ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على أحد التأويلات، وكقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ بعد السكت وبيان الفصل بين الكلامين، ثم رجع إلى تلاوته»[(٣)].

قال القاضي: «وهذا ممكن مع بيان الفصل وقرينة تدل على المراد وأنه ليس من المتلو، وهو أحد ما ذكره القاضي أبو بكر، ولا يعترض على هذا بما روي أنه كان في الصلاة، فقد كان الكلام قبل فيها غير ممنوع»[(٤)].

٤ ـ «ومما يظهر في تأويله أيضا أن مجاهدا روى هذه القصة: والغرانقة العلى، فإن سلمنا القصة قلنا لا يبعد أن هذا كان قرآنا، والمراد بالغرانقة العلى وأن شفاعتهن

---

(١) الشفا، ٢/١١٧ ـ ١٢٣.

(٢) انظر: الشفا، ٢/١٢٩ فما بعدها. لجأ القاضي عياض إلى طريقين: الأول، في إبطال القصة. وقد سبق تلخيص كلامه فيه. والثاني، في تأويل القصة على افتراض صحة شيء منها. وهي هذه الوجوه الستة وغيرها...

(٣) الشفا، ٢/١٢٩.

(٤) الشفا، ٢/١٢٩ ـ ١٣٠.

لترتجى: الملائكة على هذه الرواية. وبهذا فسر الكلبي الغرانقة أنها الملائكة، وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون الأوثان والملائكة بنات الله، كما حكى الله عنهم ورد عليهم في هذه السورة بقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾، فأنكر الله كل هذا من قولهم. ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح، فلما تأوله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم ولبس عليهم الشيطان ذلك وزينه في قلوبهم وألقاه إليهم، نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما سبيلا للإلباس، كما نسخ كثير من القرآن ورفعت تلاوته.

وكان في إنزال الله تعالى لذلك حكمة وفي نسخه حكمة، ليضل به من يشاء ويهدي من يشاء وما يضل به إلا الفاسقين، و ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ...﴾ ـ الآية ـ»[1]. وتمام هذه الآيات من سورة النجم: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ...﴾ آيات ١٨ إلى ٢٣.

٥ ـ «وقيل إن النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة وبلغ ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، خاف الكفار أن يأتي بشيء من ذمها فسبقوا إلى مدحها بتلك الكلمتين ليخلطوا في تلاوة النبي ﷺ ويشنعوا عليه على عادتهم وقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾. ونسب هذا الفعل إلى الشيطان لحمله لهم عليه، وأشاعوا ذلك وأذاعوه وأن النبي ﷺ قاله، فحزن لذلك من كذبهم وافترائهم عليه فسلاه الله تعالى بقوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ...﴾ الآية، وبين للناس الحق من ذلك من الباطل، وحفظ القرآن وأحكم آياته ودفع ما لبس به العدو كما ضمنه تعالى من قوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾»[2]. فالملقي هنا هم الكفار، ولذلك فهذا التأويل قريب من تأويل ابن العربي ـ وغيره ـ أن الملقي هو الشيطان. وهو الجواب السادس:

٦ ـ وقد رجح القاضي عياض تأويل ابن العربي، قال: «والذي يظهر ويترجح في

---

(١) الشفا، ٢/١٣١.

(٢) الشفا، ٢/١٣١ ـ ١٣٢.

تأويله، عنده وعند غيره من المحققين على تسليمه، أن النبي ﷺ كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلا ويفصل الآي تفصيلا في قراءته، كما رواه الثقات عنه، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكيا نغمة النبي ﷺ بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار، فظنوها من قول النبي ﷺ وأشاعوها، ولم يقدح ذلك عند المسلمين بحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله وتحققهم من حال النبي ﷺ في ذم الأوثان وعيبها ما عرف منه. وقد حكى موسى بن عقبة في مغازيه نحو هذا؛ وقال إن المسلمين لم يسمعوها وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين وقلوبهم، ويكون ما روي من حزن النبي ﷺ لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة وقد قال الله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي..﴾ الآية، فمعنى تمنى: تلا، قال الله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي تلاوة. وقوله ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي يذهبه ويزيل اللبس به ويحكم آياته»[(١)].

وقال القرطبي: «وهذا التأويل أحسن ما قيل في هذا. وقد قال سليمان بن حرب: إن «في» بمعنى عنده. أي ألقى الشيطان في قلوب الكفار عند تلاوة النبي ﷺ، كقوله عز وجل: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا﴾، أي عندنا»[(٢)]. واعتبر القرطبي أن هذا اختيار العلماء المحققين[(٣)].

ويعضد هذا التأويل ما أورده البخاري عن ابن عباس، وأنه قال في آية: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾، أي: «إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان، ويحكم آياته. ويقال: ﴿أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ قراءته»[(٤)]. قال أبو جعفر النحاس: هذا من أحسن ما قيل في تأويل الآية وأجله[(٥)].

قال ابن حجر: «وعلى تأويل ابن عباس هذا يحمل ما جاء عن سعيد بن جبيرقرأ رسول الله بمكة: والنجم، فلما بلغ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾، ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل

---

(١) الشفا، ٢/ ١٣٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٢/ ٥٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٢/ ٥٦.

(٤) الجامع الصحيح، كتاب التفسير، باب سورة الحج.

(٥) فتح الباري، ٨/ ٤٣٨.

اليوم، فسجد وسجدوا، فنزلت هذه الآية»[1]. أي ألقى الشيطان في تلاوته وقراءته، ومحاكيا صوته، ليخلط عليه، ويلبس على المشركين..

المذهب الثالث: تصحيح القصة كلها، ثم تأويلها.

(نموذج إبراهيم الكوراني الشهرزوري)

وهذا قول طائفة من أهل العلم، وقد صنف في الانتصار له الشيخ إبراهيم الشهرزوري رسالة سماها «اللمعة السنية في تحقيق الإلقاء في الأمنية»، وهي مخطوط، بحسب علمي[2].

الرسالة مثال لهذا المذهب الثالث، كتبها صاحبها جوابا عن سؤال ورد عليه، مضمنه أن السائل اطلع على ردود القاضي عياض وغيره من العلماء على القصة، فلم يقتنع بما قالوه، فتوجه إلى الشيخ المذكور يستفتيه في أمر هذا الخبر.

بدأ المؤلف بذكر طرق رواية الغرانيق، وأن منها ما أخرجه البزار وابن مردويه والضياء في المختارة[3] بسند رجاله ثقات عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ: أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى..ففرح المشركون بذلكوأن جبريل استقرأه، فقرأ النبي ﷺ هذه الكلمات، وقال له جبريل: ما آتيتك بها.

قال الشيخ إبراهيم الكوراني: «هذه الرواية صحيحة صريحة في أنه ﷺ قرأ تلك

---

(١) فتح الباري، ٨/ ٤٣٨.

(٢) مخطوط بالخزانة الصبيحية بمدينة سلا، والشيخ إبراهيم بن حسن الشهرزوري المدني، هو برهان الدين أبو العرفان، ويعرف بالكوراني، نزيل المدينة المنورة، الصوفي الشافعي (١٠٢٥ ـ ١١٠١). كثير التصنيف حتى قيل إن كتبه جاوزت المائة، بما في ذلك الرسائل. كتب في علم الكلام والحديث والنحو والتصوف. وقد ذكر إسماعيل البغدادي كتاب «اللمعة السنية» ضمن كتبه، في «هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين»، ١/ ٣٦. وانظر مصادر ترجمة الشيخ إبراهيم الكوراني في معجم المؤلفين، ١/ ٢١.

(٣) المعني هو الحافظ ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، صاحب التصانيف النافعة ـ كما قال الذهبي ـ، ومنها «المختارة»، وهي مجموعة أحاديث منتقاة. كان مرجوعا إليه في الحديث وعلم الرجال، وكان دينا صالحا، توفي سنة ٦٤٣هـ. راجع تذكرة الحفاظ للذهبي، ٤/ ١٤٠٥.

الكلمات ونطق بها». وهذا يرد تأويل ابن حجر وغيره أن الشيطان حكى نغمة النبي ﷺ، لأن النبي قرأها بعينها أمام جبريل. قال: لو كان الشيطان محاكيا في حالة نعاس النبي ﷺ لم يكن النبي الكريم يقرؤها حين طلب منه جبريل القراءة عليه. وهذا كله لأجل الابتلاء. ثم ساق الشيخ كلام الزمخشري: «كان تمكين الشيطان من ذلك محنة من الله وابتلاء زاد المنافقون به شكا وظلمة، والمؤمنون نورا وإيقانا، والله سبحانه له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن وأنواع الفتن» انتهى[1].

فإن قلت: النقل المذكور معارض لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]. ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾. ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

قلت: لا معارضة عند الإمعان، لأن النقل المذكور وما في معناه من الأحاديث تدل على أنه ﷺ نطق بتلك الكلمات عن إلقاء الشيطان الملبس بإلقاء الملك، وهذا التمكين للابتلاء. ولم يكن هذا النطق «نطقا عن الهوى، ولا تقولا على الله ولا ركونا إليهم قليلا، لأن شيئا من ذلك لا يتأتى إلا إذا كان النطق عن اختيار منه ابتداء من غير تابعية للإلقاء الملبس عليه. واللازم باطل لدلالة صريح الآية على أن الشيطان ألقى في الأمنية، ودلالة الآية المتعاضدة المفسرة للآية على أن النطق بها كان عن تبعية لذلك الإلقاء لا عن اختيار منه».

ومعنى الأمنية أن يسلم قومه، كما جاء عن ابن عباس، فهي نوع من الخطرات، أي تمن وأمل.

ثم بعض الروايات يدل على أن الإلقاء كان في حالة نعاس، وبعضها على أنه ﷺ سهى، «ويمكن الجمع بأن يكون السهو عبارة عن الخطرات التي هي أمنيته أن يسلم قومه، وأن يكون ذلك في حالة نعاس، فبرزت تلك الكلمات في قراءته».

ثم ساق كلاما في تفسير هذا الإلقاء من كتاب ختم الأولياء للحكيم الترمذي[2]،

---

(١) اللمعة السنية في تحقيق الإلقاء في الأمنية، مخطوط، ص ١ و ٢. عَدُّ الصفحات يبدأ من الورقة الأولى التي فيها البسملة والتقديم. وما بين معقوفتين نقل حرفي من المخطوط، وغيره تصرف بالاختصار.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي المعروف بالحكيم، محدث وصوفي كبير. سمع الكثير بخراسان والعراق، وقدم نيسابور وحدث بها. كان حيا سنة ٣١٨هـ. من تصانيفه: الأكياس =

وهو على طريقة الصوفية في الكلام على الخواطر، وكان مما ذكره أن الآية تعزية للنبي وتسكين له بعد هذه التجربة، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ حل به هذا، فلست بأول من ابتلي بهذا..[(١)]

ثم قال المؤلف: «والمقصود أن نطق رسول الله بتلك الكلمات - عن إلقاء الشيطان الملبس بإلقاء الملك ابتلاء من الله تعالى - لا ينافي عصمته، ولا يعارض الآيات المذكورة، ولا يلزم منه تخليط الوحي بالوسوسة، لأن الله سبحانه ينسخ ما يلقي الشيطان عن لسانه، ثم يحكم الله آياته، فلا يقع في ريب في شيء من الوحي»

« وإنما لم يقدح ذلك في علو مقامه وعصمته، لأنه لم يصدر منه إلا اتباع الإلقاء، وذلك هو اللائق بمنصب النبوة، غير أن الله تعالى ابتلاه باختفاء الإلقاء الشيطاني في غطاء الأمنية، للحكم المذكورة في قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث»[(٢)].

قال الشيخ الكوراني «الله سبحانه وتعالى ما نفى الريب والاحتمال بعد النسخ والإحكام إلا عن الذين أوتوا العلم والذين آمنوا، وأما الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم أراد الله أن يجعل ما يلقي الشيطان فتنة لهم، فيكونون كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ وإنما لا يزالون في مرية لعدم التمييز عندهم، لأن التمييز لا يحصل إلا بالعلم أو بالإيمانوإنما كان نسخ ما يلقي الشيطان ثم إحكام الله آياته مزيلا للاحتمال عند الذين أوتوا العلم والذين آمنوا، لأن الذين أوتوا العلم يميزون بمقتضى العلم بين الغي والرشدوالذين آمنوا (بسبب التصديق الناشيء من النور المقذوف في القلب المعبر عنه بشرح الصدر»[(٣)].

هذا أهم ما جاء في الرسالة.

محمد الفاسي يتعقب الكوراني:

ثم إن هذه الرسالة وردت من المدينة المشرفة - بلد المؤلف - إلى المغرب

= والمغترين. رياضة النفس. علل العبودية. الكسب.. وكلها في التصوف. نوادر الأصول في أخبار الرسول .. معجم المؤلفين، ١٠/ ٣١٥.

(١) اللمعة السنية، ص ٣ - ٤.

(٢) اللمعة السنية، ص ٥.

(٣) اللمعة السنية ، ص ٥ - ٦.

الأقصى، ولم يرتض أحد علمائه - وهو الشيخ ابن عبد القادر الفاسي -[1] ما جاء فيها، فكتب عليها ردا هو أطول من الأصل، ولم يعنونه. وهو مخطوط.

وقد ابتدأ محمد الفاسي بتضعيف أصل القصة، وساق كلام ابن العربي وعياض، وقال: كل روايات القصة ضعيفة، والمسند فيها حديث شعبة، وفيه الكلبي لا تجوز الرواية عنه.

ونقل عن الشيخ أبي حيان[2] أن بعض المفسرين ذكروا هذه القصة، وذلك خطأ منهم. وقد سئل عنها ابن إسحاق إمام علم السيرة، فقال: هذا من وضع الزنادقة. وقال البيهقي: هذه القضية غير ثابتة من جهة النقلورواتها مطعون عليهم. انتهى[3].

قال الفاسي: «قد تحصل أن القصة ليس لها سند صحيح، إذ من شروط الصحيح الاتصال وعدم الشذوذ، وطرقها دائرة بين الشذوذ والانقطاع والإرسال. ولهذا قال ابن حجر بعد إيراده طرقا منها طريق البزار وابن مردويه وغيرهما: وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإما منقطع».

ثم ذكر الشيخ ابن عبد القادر الفاسي كلام ابن حجر في الرد على القاضيين ابن العربي وعياض، وأن للقصة طرقا متعددة تدل على أن لها أصلاقال: «هذه الدلالة غير قطعية، وهي معارضة بظواهر الآيات الدالة على امتناع حمل القصة على ظاهرها، والظواهر المتكاثرة ربما أفادت القطع». ثم قال الفاسي: «سلمنا الدلالة على أن لها أصلا، ويكفي في ذلك المقدار الذي يوافق ما ثبت في الصحيح، أو المقدار الذي اتفقت عليه الروايات مما يقرب تأويله ولا يقدح في العصمة، إذ لا يلزم أن تكون جميع الزيادات وجميع الروايات أو أكثرها مقبولة أو ثابتة، لا سيما إن تعذر الجمع أو التأويل على وجه لا يقدح في منصب النبوة.

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي. عالم مشارك في العلوم العقلية والنقلية. من آثاره: شرح شواهد الموضح لابن هشام. شرح نظم تحفة الفكر لأبيه. التقييد على السنوسية. شرح نظم ألقاب الحديث للعربي الفاسي. توفي سنة ١١١٦ هـ. معجم المؤلفين، ١٠/ ١٨٢. هدية العارفين، ٢/ ٣٠٩. وهو ابن عالم مالكي آخر هو أبو السعود عبد القادر بن علي الفاسي المحدث، له حواش على الصحيح. انظر معجم المؤلفين ٥/ ٢٩٥. توفي الأب سنة ١٠٩١هـ.

(٢) أبو عبد الله محمد بن يوسف الأندلسي صاحب البحر المحيط في التفسير، من أهل القرن الثامن.

(٣) رد محمد بن عبد القادر الفاسي على «اللمعة السنية»، ص ٦ إلى ٨.

هذا، وعلى فرض صحة السند واتصاله، فهو خبر آحاد غايته إفادة الظن، فلا يهدم ما علم يقينا من العصمة، إذ الظني لا يعارض القطعي. فما أمكن تأويله على وجه لائق بمنصب النبوة قبل، وما تعذر تأويله لم يقبل»[1].

هذا ما يتعلق بالحديث من حيث النقل.

قال محمد الفاسي: وأما ما يلزم على إبقائه ـ أي الخبر ـ على ظاهره كما قرره الشيخ المذكورفأمور منها:

١ ـ تسور الشيطان وتسلطه عليه...وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ الحجر ٤٢. ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ النحل ٩٩.

٢ ـ زيادته ﷺ في القرآن ما ليس منه.

٣ ـ اعتقاد النبي ما ليس بقرآن قرآنا.

٤ ـ إما أن يكون عند نطقه بذلك معتقدا ما اعتقدوه في آلهتهم، وهذا كفر؛ أو يكون معتقدا معنى آخر مخالفا لما اعتقدوه، فيكون مقرا لهم على باطل.

٥ ـ أنه اشتبه عليه ما يلقيه الشيطان بما يلقيه الملك، وهذا يقتضي أنه على غير بصيرة فيما يوحى إليه[2].

قال الشيخ: «والذي ينبغي اعتقاده أنه ﷺ محلى ببصيرة فيما يأتيه عن الله، وأنه يعلم يقينا أن المخاطب له ملك لا شيطان». ثم نقل عن الغزالي وابن العربي كلاما في كيفيات الوحي يدل على رؤية الرسول الكريم لحقائق الأشياء بمقتضى بصيرة باطنية له. وكذلك نقل عن عياض استحالة تمثل الشيطان ملكا، وقال: وهو مثل ظهور الشيطان بمظهر النبي وتلبيسه على الناس. كلاهما ممتنع.

٦ ـ التقول على الله إما عمدا أو سهوا، وكل ذلك محال في حقه.

٧ ـ الإخلال بالوثوق بالقرآن. ولذلك حين قال إبراهيم الشهرزوري إن نطق النبي بتلك الكلمات لا ينافي عصمته، تعقبه الفاسي وقال: كيف لا ينافي عصمته وإدخاله إياه (أي ذلك الكلام) في السورة وتلاوته منزلة منزلة قوله: هذا وحي من الله، هذا قرآن..وأنتم أيها المكلفون مأمورون بتلاوته. وكلها معاني كاذبة.

---

(١) رد محمد الفاسي على اللمعة السنية، ص ٨ ـ ٩.

(٢) رد الفاسي على اللمعة السنية ، ص ٩ ـ ١٠.

والعصمة تنافي الكذب على أي وجه كان، على ما هو مذهب جمهور الأئمة.
على أن مقابله الذي هو مذهب القاضي[1] ـ وهو تجويز الكذب سهوا ـ إنما يريد به التجويز العقلي لعدم دخوله في مبحث التصديق المقصود بالمعجزة، وإلا فهو ممتنع شرعا وغير واقع قطعا، للإجماع.

وقال أيضا ـ في الرد على قول الشيخ إن القصة لا تعارض آيات: لا ينطق عن الهويلو تقول علينا.. ـ : إن سلمنا أن النطق التابع للإلقاء لا ملازمة بينه وبين النطق عن الهوى، إلا أن المتبادر من الآية ولحن الخطاب نفي النطق بالباطل، سواء كان بوجه هوى أو بإلقاء شيطان أو غيره. والآية وإن لم تدل على هذا المعنى منطوقا، فقد دلت عليه بمفهوم المساواة. ويؤيد ذلك ويعضده الحصر الذي في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، أي ما نطقه في أمور الدين إلا وحي لا غيره، وهذا ليس بوحي قطعا. وأما آية: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ فسياقها بإثر ادعائهم فيه الكهانة يؤذن بأن الكاهن المتبع لما يلقيه إليه الجني متقول على الله، فلا يصح أن يقال كل من اتبع ما ألقي إليه لم يكن متقولا على الله. وأما آية: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ فإنما تقتضي التثبيت ونفي مقاربة الركون إليهم، وإذا وافقهم على مدح آلهتهم فأي ركون أعظم منهوقد قال أبو حيان في آية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾: ليس فيها إسناد شيء إلى رسول الله ﷺ، إنما تضمنت حال من كان قبله من الأنبياء، إذا تمنوا[2].

قال الفاسي: وأما على أن للقصة أصلا فقد ذكروا تأويلاتولكنه لم يتوسع فيها ولم يذكرها.

وأما قول الكوراني: إن ذلك لا يقدح في علو مقام النبي وعصمته، لأنه لم يصدر عنه إلا اتباع الإلقاءفقد اعترضه الشيخ الفاسي بأن هذا الإلقاء إذا كان باطلا وشيطانيا واتبعه كيف لا يقدح ذلك في علو مقامه؟ قال: وعلم النبي ﷺ بما يأتيه عن ربه يقين لا يخالجه شك، ومعرفة لا يتخللها شرك، ولو وقع منه خلاف الأكمل لكان في الآية أو غيرها ما يدل على العتاب

أما قوله: لم يكن النطق عن اختيار ابتداء، فجوابه: إن أريد بالاختيار مقابل

---

(١) لعله المتكلم الأشعري الكبير أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، وهو المعني في الغالب إذا أطلق لفظ القاضي في مبحث كلامي، خصوصا في كتب المالكية.

(٢) رد الفاسي على اللمعة السنية، ص ١٠ إلى ١٤.

الاضطرار، وأنه ألجئ إلى ذلك، فهو مثل ما قيل إن الشيطان ألجأه إلى أن قال ذلك بغير اختياروالله تعالى يقول حكاية عن الشيطان: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني، ولوموا أنفسكم.﴾ إبراهيم ٢٢. «لا يقال الملجيء هو الله لا الشيطان، لأنا نقول لا يبقى وجه للنسبة إلى الشيطان حينئذ، وكون الله ألجأه عند إلقاء الشيطان هو المراد بقولنا ألجأه الشيطان، إذ لا فاعل إلا الله».

«وإن أريد بالاختيار أنه لم ينطق بالباطل من قبل نفسه، وإنما تبع فيه الغير اغترارا، فهو باطل لما تقدم من الإجماع على أنه معصوم فيما كان طريقه البلاغ من الأخبار»[1].

وأخيرا تعرض محمد الفاسي لتفسير الشهرزوري: ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾، فقال: «إذا كانت الفرق الأربع مستوية في التكليف بمقتضى ما يجب من النظر العقلي والإعذار إليهم جميعا ببيان الحجج على تحقيق الحق وإبطال الباطل لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسلفقد يقال حينئذ أي فرق بين إخبار النبي أولا وبين إخباره ثانيا، حتى يكون أحدهما محتملا والآخر غير محتمل، عند قوم دون آخرين؟[2] وادعاء خلق العلم الضروري والإلهام من الله لهؤلاء دون هؤلاء مما يحتاج إلى دليل. ولئن سلم الفرق بين الناسخ وغيره، وأن المؤمنين وأولي العلم لا يحتمل عندهم ما ورد ناسخا ومبطلا لغيره، فلا نسلم تطرق الاحتمال بعدم ورود الناسخ. قلنا ألذلك أمد معين؟ فإن قلتم بلى احتاج إلى دليل؛ ولو لم تقولوا به تطرق احتمال مدة حياته ﷺ لا محالة في كل ما لم يرد مبطلا لغيره، فلا تبقى هنا هذه الآية - أعني: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ الآية. . .﴾ -، وذلك باطل قطعا. لا يقال نلتزم أن البيان يتأخر إلى وقت الحاجة، وذلك هو الأمد المعين، لأنا نقول: مثل هذا يرجع إلى الاعتقاد، أي لا يختص بيانه بوقت دون آخر[3].

---

(١) رد الفاسي على الشهرزوري، صاحب اللمعة السنية، ص ١٥.

(٢) يقصد: كيف يمكن التمييز بين إخبار النبي في البداية: تلك الغرانيق وبين إخباره بعد ذلك بأن ذلك من الشيطان، وبأن الله نسخه؟ فالنبي مصدق على كل حال. ثم كيف يحصل هذا التمييز للمؤمنين فقط دون غيرهم؟

(٣) يعني يكون البيان على الفور.

هذا إن أريد أن هذا العلم غير مكتسب، وأنه الإلهام من الله. وإن كان المراد العلم الذي هو على طريقة الاكتساب، إلا أن الله سبحانه أرشد هؤلاء وأضل آخرينكان الطريق الذي توصلوا به إلى معرفة ما يحتمل وما لا يحتمل ممكن التعلم والتعليم، فينبغي إظهاره وتبيينه.

ولنقتصر على هذا المقدار في الكلام، إذ فيه تقرير جوابه، إن شاء الله»[1].

القصة معلولة:

والظاهر أن هذا المذهب الثالث الذي يصحح القصة كلها ضعيف، لا ينبغي اعتقاده. والمذهبان الأول والثاني محتملان، وأمثلهما الأول.

وذلك لأن من المعروف عند المحدثين أن الحكم على أي حديث رفع إلى النبي ﷺ لا يتم إلا بعد دراسة أمرين:

١ ـ السند: وشروط صحة السند هو اتصال العدل الضابط بمثله إلى منتهاه.

٢ ـ المتن: وشروط قبول المتن سلامته من العلة والشذوذ.

ولذلك يقول ابن الصلاح: «الحديث الصحيح هو الحديث المسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه، ولا يكون شاذا ولا معللا»[2].

وقول الشيخ الكوراني إن رجال الحديث ثقات لا يترتب عليه أن الحديث صحيح، بل الصحيح سلسلة الرواة فقط، وأين الكلام عن الشذوذ والعلة. صحيح أن الخبر إذا صح سنده صح أيضا متنه، ولكن هذه القاعدة أكثرية وليست مطردة، وهذا كلام ابن الصلاح: «قولهم: «هذا حديث صحيح الإسناد أو حسن الإسناد» دون قولهم هذا حديث صحيح أو حديث حسن، لأنه قد يقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولا يصح، لكونه شاذا أو معللا. غير أن المصنف المعتمد منهم إذا اقتصر على قوله:

---

(١) رد الفاسي على اللمعة السنية، ص ١٥ إلى ١٧.

(٢) مقدمة في علوم الحديث، ص ٨٢، للحافظ المحدث الفقيه تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الكردي الشهرزوري الموصلي، المعروف بابن الصلاح. درَّس وأفتى وصنف، من ذلك: شرح مشكل الوسيط للغزالي، في الفقه الشافعي. معرفة المؤتلف والمختلف. طبقات الشافعية .. توفي بدمشق سنة ٦٤٣هـ. عن معجم المؤلفين، ٦/ ٢٥٧.

إنه صحيح الإسناد، ولم يذكر له علة ولم يقدح فيه، فالظاهر منه الحكم له بأنه صحيح في نفسه، لأن عدم العلة والقدح هو الأصل والظاهر»[1].

ونحن إذا تأملنا المتن لاحظنا أمورا:

١ ـ فمنها اضطراب رواياته واختلافها. وهذا يسم الخبر بالاضطراب، وطرقه وإن تعددت إلا أن بين المتون اختلافا، والمحدثون يقولون: «الاضطراب موجب ضعف الحديث لإشعاره بأنه لم يضبط»[2]. وإنما كان تنوع الطرق وكثرتها يدل على أن للقصة أصلا، لو أنها اتفقت على رواية واحدة وكلام واحد. ولذلك قال العلماء إن الحديث ـ إذا اشتد ضعفه ـ لم تزده كثرة الطرق إلا ضعفا.

٢ ـ ومنها مخالفة القصة للأصول الكبيرة والثابتة بالقرآن والسنة المشهورة والعقل الصريح..فالنبي معصوم، والوحي محفوظ، والآيات على هذا شاهدة، والسنة بذلك طافحة..فكيف ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول رواة أكثرهم ضعاف، اختلف كلامهم، ولا ندري أحفظوا أم نسوا.

فهذا حديث معلول ـ ولو صح سنده ـ ، و «الحديث المعلل هو الحديث الذي اطلع فيه على علة تقدح في صحته، مع أن ظاهره السلامة منها. ويتطرق ذلك إلى الإسناد الذي رجاله ثقات الجامع شروط الصحة من حيث الظاهر..ثم قد تقع العلة في إسناد الحديث، وهو الأكثر. وقد تقع في متنه»[3].

وإذا لم نستعمل قواعد علم الحديث في الشذوذ والعلة في مثل قصة الغرانيق، ففيم ستستعمل، وما فائدتها، ولأي شيء يذكرها العلماء؟

يبدو لي ـ إذن ـ أن هذا الخبر مردود، إما لضعف أسانيده، أو إن قلنا إن إسناده صحيح، فلعلة ظاهرة ـ ليست خفية ـ في متنه، أوجبت رده.

فهذا الخبر معلل، وإنما المحفوظ المشهور الذي رواه الأئمة في أصح الجوامع والسنن هو ما قاله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وهو من أقدم الصحابة إسلاما وأعلمهم بالمرحلة المكية من تاريخ الإسلام، قال: «أول سورة أنزلت فيها سجدة:

---

(١) مقدمة في علوم الحديث، ص ١١٣.

(٢) مقدمة في علوم الحديث ، ص ٢٠٥.

(٣) مقدمة ابن الصلاح، ١٩٤ ـ ١٩٥.

والنجم. قال فسجد رسول الله ﷺ، وسجد من خلفه، إلا رجلا رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافرا. وهو أمية بن خلف»[١].

ويجدر بنا ـ ونحن ندرس موضوع الكهانة في الإسلام، ونبحث في الكهان الذين عاصروا النبوة ـ أن نعرض لشخصية غامضة عاشت في زمن النبي ﷺ، وكان حالها يشبه ـ في بعض الجوانب ـ ما نعرفه عن الكهان، إنه ابن صياد ـ اللغز:

---

(١) هذا لفظ البخاري في كتاب التفسير، باب: فاسجدوا لله واعبدوا، حديث رقم ٤٨٦٣. ورواه أيضا في كتاب السجود، وكتاب مناقب الأنصار، وفي المغازي. وهو عند الترمذي في كتاب الجمعة. وفي الموطأ في باب القرآن. والنسائي في كتاب الافتتاح. والدارمي في الصلاة. وأحمد في مواضع متعددة، منها مسند عبد الله بن مسعود.

الفصل الرابع:

كهان على عهد النبوة: ابن صياد؟ وغيره

لغز ابن صياد: صحابي أم كاهن أم هو الدجال؟

ابن صياد، ويقال له أيضا ابن صائد، واسمه صاف. قيل نسبه في بني النجار من أهل المدينة، وقيل هو من اليهود، وكانوا حلفاء لبني النجار.

هذا رجل عاش في عهد النبي ﷺ، وأشكل أمره على الناس - بما في ذلك الصحابة رضوان الله عليهم - ، واختلفوا فيه اختلافا كثيرا، حتى قيل فيه كل قول. فبعضهم - مثل الطبري[1] - عده من جملة الصحابة ، وبعضهم نسبه إلى الكهانة، وآخرون قالوا إنه المسيخ الدجال الذي سيظهر في آخر الدنيا ويقتله عيسى عليه السلام، ومال جماعة إلى أنه دجال عادي من جملة الدجاجلة الذين حذر منهم النبي ﷺ وأخبر بظهورهم.

يقول أبو العباس القرطبي عن ابن صياد: «كانت حاله في صغره حالة الكهان، يصدق مرة، ويكذب مرارا. ثم إنه أسلم لما كبر، وظهرت منه علامة الخير من الحج والجهاد مع المسلمين، ثم ظهرت منه أحوال، وسمعت منه أقوال، تشعر بأنه الدجال، وبأنه كافر»[2].

ثم قال: «وعلى الجملة فأمره كله مشكل على الأمة، وهو فتنة ومحنة»[3].

بعض الأحاديث الواردة في الموضوع:

وقصة ابن صياد صحيحة، وردت في أعلى الجوامع والسنن. وقد رأيت أن أذكر هنا أهم الأحاديث الخاصة به، لأنها مفصلة، وحولها دار اختلاف العلماء.

فمما اتفق عليه الشيخان حديث عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنهما - انطلق مع رسول الله ﷺ في رهط قبل ابن صياد حتى وجده يلعب مع

---

(١) انظر المفهم بشرح تلخيص مسلم، للقرطبي ، ٧/ ٢٧٠.

(٢) المفهم، ٧/ ٢٦٢. باب ما ذكر من أن ابن الصياد الدجال، من كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٣) المفهم ، ٧/ ٢٦٣.

الصبيان عند أطم بني مغالة؛ وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده، ثم قال رسول الله لابن صياد: «أتشهد أني رسول الله؟»، فنظر إليه ابن صياد، فقال: أشهد أنك رسول الأميين. فقال ابن صياد لرسول الله: أتشهد أني رسول الله؟ فرفضه رسول الله ﷺ، وقال: «آمنت بالله وبرسله». ثم قال له رسول الله: «ماذا ترى؟!» قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب، فقال له رسول الله ﷺ: «خلط عليك الأمر!»، ثم قال له رسول الله: «إني قد خبأت لك خبيئا». فقال ابن صياد: هو الدخ! فقال له رسول الله: «اخسأ! فلن تعدو قدرك». فقال عمر بن الخطاب: ذرني يا رسول الله أضرب عنقه! فقال له رسول الله ﷺ: «إن يكنه فلن تسلط عليه! وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله!».

وقال ابن عمر أيضا: انطلق بعد ذلك رسول الله ﷺ وأبي بن كعب إلى النخل التي فيها ابن صياد؛ حتى إذا دخل رسول الله ﷺ النخل طفق يتقي بجذوع النخل، وهو يختل أن يسمع من ابن صياد شيئا، قبل أن يراه ابن صياد، فرآه رسول الله وهو مضطجع على فراش في قطيفة له فيها زمزمة، فرأت أم ابن صياد رسول الله ﷺ وهو يتقي بجذوع النخل، فقالت لابن صياد: يا صاف! ـ وهو اسم ابن صياد ـ هذا محمد! فثار ابن صياد. فقال رسول الله ﷺ: «لو تركته بين». قال عبد الله: فقام رسول الله في الناس فأثنى على الله بما هو له أهل، ثم ذكر الدجال فقال: «إني لأنذركموه ما من نبي إلا وقد أنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه، ولكن أقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه، إنه أعور، وإن الله تبارك وتعالى ليس بأعور»[1].

وهذا كله لفظ مسلم، ولا يكاد يختلف عن لفظ شيخه البخاري.

---

(١) هذان حديثان أو ثلاثة رواهما البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام. وفي كتاب الجهاد والسير، في باب كيف يعرض الإسلام على الصبي. وروى أطرافا منه في مواضع أخرى ـ كعادته رحمه الله في تقطيع الحديث ـ منها: كتاب الجهاد، باب ما يجوز من الاحتيال. كتاب الأدب، باب قول الرجل للرجل اخسأ. كتاب أحاديث الأنبياء

ورواه مسلم في كتاب الفتن. باب ذكر ابن صياد (الباب ١٩ في كتاب الفتن). وأبو داود في كتاب الملاحم، باب خبر ابن الصائد. والترمذي في أبواب الفتن، باب في ذكر ابن صائد.

وغير هؤلاء ممن روى أطرافا من هذا الحديث أحمد في المسند، والبزار، والطبراني في الكبير والأوسط. انظر مجمع الزوائد للهيثمي ٨/ ٣ ـ ٤.

شرح الغريب:

أطم بني مغالة: الأطم هو الحصن، ويجمع على آطام. وبنو مغالة منطقة في المدينة إلى جوار المسجد النبوي[1]. رفضه: وفي بعض الروايات رفصه: قيل الرفص الضرب بالأرجل مثل رفسه. وقيل المعنى ضغطه. أما رفضه فمن الرفض، وهو الرمي، كأنه أعرض عنه ولم يلتفت إليه لما سمع منه ما سمع، فعل المغضب[2].

طفق يتقي: أي أخذ أو جعل يستتر بجذوع النخل[3].

يختل: أي «يطلب ابن صياد مستغفلا له ليسمع شيئا من كلامه الذي يقوله في خلوته»[4].

قطيفة: كساء مخمل[5].

زمزمة: وفي بعض النسخ رمرمة، وهما متقاربان، أي الصوت الخفي بتحريك الشفتين[6].

ثار ابن صياد: أي وثب وثبة شديدة، ونهض من مضجعه[7].

بين: أي ما عنده وما في نفسه[8]. أي كان يعبر عن حاله في نومه، هل هو الدجال أو لا؟[9]. وقد افترق الناس في ابن صياد على ثلاثة آراء:

رأي من ينكر أن يكون ابن صياد هو الدجال، وفيهم من نسبه إلى الصحبة:

وقد ذهب إلى هذا القول ابن صياد نفسه، واستدل على ذلك بجملة صالحة من الأدلة، وهي في الظاهر مقبولة!

---

(١) المفهم ٧/ ٢٦٣. الكواكب الدراري، ٧/ ١٢٩ (كتاب الجنائز).

(٢) المفهم ٧/ ٢٦٣. الكواكب الدراري ٧/ ١٢٩.

(٣) المفهم ٧/ ٢٦٦.

(٤) الكواكب الدراري ٧/ ١٣٠. وانظر أعلام السنن، ١/ ٤٢٣ فما بعدها.

(٥) الكواكب الدراري ٧/ ١٣١.

(٦) عمدة القاري، ١٤/ ٣٠٣. كتاب الجهاد.

(٧) المفهم ٧/ ٢٦٦. الكواكب الدراري ٧/ ١٣١.

(٨) الكواكب الدراري ٧/ ١٣١.

(٩) المفهم ٧/ ٢٦٦.

في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرجنا حجاجا ـ أو عمارا ـ ومعنا ابن صائد. قال (أي أبو سعيد فهو الراوي): فنزلنا منزلا، فتفرق الناس وبقيت أنا وهو، فاستوحشت منه وحشة شديدة مما يقال عليه. قال: وجاء بمتاعه، فوضعه مع متاعي، فقلت: إن الحر شديد فلو وضعته تحت تلك الشجرة. قال: ففعل. قال: فرفعت لنا غنم، فانطلق، فجاء بعس، فقال: اشرب أبا سعيد! فقلت: إن الحر شديد، واللبن حار. ما بي إلا أني أكره أن أشرب عن يده ـ أو قال: آخذه عن يده ـ فقال: أبا سعيد! لقد هممت أن آخذ حبلا، فأعلقه بشجرة، ثم أختنق مما يقول لي الناس! يا أبا سعيد! من خفي عليه حديث رسول الله ﷺ ما خفي عليكم معشر الأنصار، ألست من أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ؟ أليس قد قال رسول الله: «هو كافر» وأنا مسلم؟ أو ليس قد قال رسول الله: «هو عقيم لا يولد له» وقد تركت ولدي بالمدينة؟ أو ليس قد قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل المدينة ولا مكة»، وقد أقبلت من المدينة وأنا أريد مكة. ـ وفي رواية: قد حججت ـ. قال أبو سعيد: حتى كدت أن أعذره! ثم قال: أما والله إني لأعرفه، وأعرف مولده، وأين هو الآن! قال: قلت له: تبا لك سائر اليوم. وفي رواية: قال: وقيل له: أيسرك أنك ذاك الرجل؟ قال: فقال: لو عرض علي ما كرهت[1].

قال القرطبي ـ أبا العباس ـ: «هذا الحديث من أوله إلى آخره يدل على أن هذه القصة اتفقت لأبي سعيد مع ابن صياد بعد أن كبر، وصار رجلا وولد له، وبعد موت النبي ﷺ، وأن ابن صياد أسلم وحج، وأنه حفظ الحديث عن رسول الله ﷺ، ولذلك ذكره ابن جرير وغيره في الصحابة»[2].

وقال الخطابي: «وقد اختلفت الروايات في أمره وما كان من شأنه بعد كبره فروي أنه قد تاب عن ذلك القول، ثم إنه مات بالمدينة»[3].

---

(١) انظر صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد. وسنن الترمذي، أبواب الفتن، أول حديث في باب ما جاء في ذكر ابن صياد. والكفر والعقم وعدم دخول الحرمين.. من علامات الدجال الأكبر.

(٢) المفهم، ٧/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٣) معالم السنن، ٤/ ٣٢٣.

ابن صياد كاهنا:

ويجوز أن يكون ابن صياد متكهنا، وفي الأحاديث المختلفة مآخذ لهذا الظن. فقد سأله النبي ﷺ عن ماذا يرى؟ فقال: يأتيني صادق وكاذب (حديث ابن عمر الأول). قال القرطبي: «يعني به تابعه من الشيطان، كان تارة يصدق له، وتارة يكذب، وهذه حالة الكهان»[1]. ولذلك قال له النبي ﷺ: خلط عليه الأمر. أي «لبس عليك تابعك الجني حالك»[2].

وهذا الاتصال بعالم الشياطين يدل عليه حديث آخر لمسلم عن أبي سعيد الخدري قال: لقيه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر في بعض طرق المدينة. فقال له رسول الله ﷺ أتشهد أني رسول الله؟ فقال هو: أتشهد أني رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: آمنت بالله وملائكته وكتبه، ما ترى؟ قال: أرى عرشا على الماء. فقال رسول الله: ترى عرش إبليس على البحر. وما ترى؟ قال أرى صادقين وكاذبا، أو كاذبين وصادقا. فقال رسول الله: لبس عليه، دعوه[3].

ثم إن النبي ﷺ أراد أن يختبر هذا الفتى، فقال له: إني قد خبأت لك خبيئا. يعني فأي شيء هو. فقال ابن الصائد: هو الدخ.

قال القرطبي: «واختلف في هذا المخبأ ما هو؟ فالأكثر على أنه أضمر له في نفسه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾»[4]. سورة الدخان، آية ١٠.

وتوجد آراء أخرى، فقد قال الداودي: كانت في يده سورة الدخان مكتوبة. وعلى هذا يكون قوله الدخ يعني به الدخان. وهذه لغة معروفة في الدخان[5]. وقيل إنما أراد

---

(١) المفهم، ٧/ ٢٦٤.

(٢) المفهم، ٧/ ٢٦٤.

(٣) رواه مسلم في الصحيح والترمذي في السنن، كلاهما في باب خبر ابن الصائد من كتاب الفتن. وهذا الحديث بعضه عند أحمد في مسند جابر، كما في مجمع الزوائد ٨/ ٣، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. وذكر أن أحمد رواه أيضا في مسند أبي سعيد الخدري.

(٤) المفهم ٧/ ٢٦٤. وانظر المنهاج للنووي ١٨/ ٣٩.

(٥) معالم السنن ٤/ ٣٢٢ فما بعدها. المفهم ٧/ ٢٦٤.. المنهاج ١٨/ ٣٩. والداودي هو أبو جعفر أحمد بن نصر الأسدي، من متقدمي شراح البخاري، له النصيحة في شرح البخاري. النامي في شرح الموطأ. الإيضاح في الرد على القدرية.. والداودي سكن طرابلس الغرب، وتوفي بتلمسان سنة ٤٠٢هـ. عن معجم المؤلفين، ٢/ ١٩٤.

ابن صياد أن يقول: الدخان، فزجره النبي ﷺ، أو أن ابن صياد هاب منه، فخرجت منه نصف كلمة، وهي: الدخ[١].

وقيل: الدخ نبات موجود بين النخيل والبساتين خبأه له النبي ﷺ[٢].

قال الخطابي فيمن قال المراد بالدخ هنا هو الدخان: لا معنى للدخان هنا، لأنه ليس مما يخبأ في كف أو كم كما قال، بل الدخ نبت موجود بين النخيل والبساتين. ثم قال: إلا أن يكون معنى خبأت أضمرت لك اسم الدخان فيجوز، والصحيح المشهور أنه ﷺ أضمر له آية الدخان[٣].

والخلاصة أن النبي ﷺ أخفى شيئا إما في نفسه ـ وهي آية الدخان ـ، وإما في يده أو كمه، ثم سأله عنه ليختبره، فأجاب ابن صياد بجواب صحيح لكنه ناقص. فالمقصود من هذا الاستدلال أن في ابن صياد شبها بالكهان، فلعله واحد منهم.

قال الخطابي عنه: «وكان يبلغ رسول الله ﷺ خبره وما يدعيه من الكهانة ويتعاطاه من الغيب، فامتحنه بذلك ليزور به أمره ويخبر شأنه، فلما كلمه علم أنه مبطل وأنه من جملة السحرة أو الكهنة، أو ممن يأتيه رئي من الجن أو يتعاهده شيطان فيلقي على لسانه بعض ما يتكلم به، فلما سمع منه قوله الدخ زبره فقال اخس فلن تعدو قدرك. يريد أن ذلك شيء اطلع عليه الشيطان فألقاه إليه وأجراه على لسانه، وليس ذلك من قبل الوحي السماوي، إذ لم يكن له قدر الأنبياء الذين علم الغيب ولا درجة الأولياء الذين يلهمون العلم فيصيبون بنور قلوبهم، وإنما كانت له تارات يصيب في بعضها ويخطئ في بعض، وذلك معنى قوله يأتيني صادق وكاذب، فقال له عند ذلك قد خلط عليك»[٤].

وقال القاضي عياض: «وأصح الأقوال أنه لم يهتد من الآية التي أضمر النبي ﷺ إلا لهذا اللفظ الناقص، على عادة الكهان إذا ألقى الشيطان إليهم بقدر ما يخطف قبل

---

(١) أعلام السنن ١/ ٤٢٣ فما بعدها. المفهم ٧/ ٢٦٥. الكواكب الدراري ٧/ ١٣٠.

(٢) المفهم ٧/ ٢٦٥.

(٣) معالم السنن ٤/ ٣٢٣. وانظر: المنهاج ١٨/ ٣٩. الكواكب الدراري ٧/ ١٣٠.

(٤) معالم السنن ٤/ ٣٢٣. في جملة «إذ لم يكن له قدر الأنبياء الذين» سقط كما نبه عليه الناشر، والمعنى الذين اطلعوا على علم الغيب، أو أطلعهم الله تعالى على علم الغيب.. أو نحو ذلك. وانظر عارضة الأحوذي، ٩/ ٩٩.

أن يدركه الشهاب، ويدل عليه قوله ﷺ: اخسأ فلن تعدو قدرك. أي القدر الذي يدرك الكهان من الاهتداء إلى بعض الشيء وما لا يتبين منه حقيقته، ولا يصل به إلى بيان وتحقيق أمور الغيب. ومعنى اخسأ اقعد فلن تعدو قدرك. والله أعلم»[1].

وإلى هذا مال القرطبي، فقال: «وقوله (لن تعدو قدرك) أي لن تجاوز حالة الكهان المتخرصين الكذابين، لا يليق بك إلا ذلك. وإنما اختبره النبي ﷺ بذلك لينظر هل طريقته طريقة الكهان، أو لا؟ فظهر أنه كذلك، وأن الشياطين تلعب به، وتلبس عليه»[2]. فلن يصل أبدا إلى مرتبة الأنبياء، فإنهم يوحى إليهم من علم الغيب وحي جلي وواضح[3].

وقد اختار ابن تيمية أيضا هذا المذهب، فقال عن ابن صياد: «وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال، وتوقف النبي ﷺ في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال. لكنه كان من جنس الكهان، قال له النبي ﷺ قد خبأت لكوقد كان خبأ له سورة الدخان..فلن تعدو قدرك يعني إنما أنت من إخوان الكهان»[4].

ولكلمة (لن تعدو قدرك) تفسير آخر، قال الكرماني: «يحتمل أن يراد أنه لن يبلغ قدرك وحي الأنبياء ولا إلهام الأولياء، وأن يراد أنه لم يسبق قدر الله فيه وفي أمره»[5]. وقال المازري: «قول رسول الله ﷺ لابن صياد: اخسأ فلن تعدو قدرك، يحتمل وجهين: أحدهما أنه لا يبلغ قدرك أن تطالع الغيب من قبل الوحي الذي يوحى إلى الأنبياء والإلهام الذي يلهم الأولياء، وإنما هو شيء جرى من إلقاء الشيطان إليه حين سمع النبي ﷺ يراجع به أصحابه في النخيل، والآخر أنك لن تسبق قدر الله سبحانه فيك وفي أمرك»[6].

رأي من يعتبر أن ابن صياد هو الدجال:

أي هو الدجال المعروف الذي حذر منه النبي ﷺ أمته، وظهوره من أشراط

---

(١) عن المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي، ١٨/ ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) المفهم ٧/ ٢٦٥.

(٣) الكواكب الدراري، ٧/ ١٣٠.

(٤) الفتاوى ١١/ ٢٨٣.

(٥) الكواكب الدراري، ٧/ ١٣١.

(٦) المعلم ٣/ ٢٠٩. وأصل هذا الكلام عند الخطابي في: أعلام السنن ١/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

الساعة الكبرى، ويقال له أيضا الدجال الأكبر لتمييزه عن غيره. وبعض العلماء يرى أن ابن صائد ليس هو هذا الدجال المعروف، ولكنه دجال عادي من جملة الدجاجلة الذين يلبسون على الناس دينهم.

والقول بأنه الدجال الأكبر صح عن جملة من الصحابة، منهم: عمر، وابنه عبد الله، وجابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهم[1].

حدَّث ابن عمر، قال: «لقيت ابن صياد مرتين، فقلت لبعضهم: هل تحدثون أنه هو؟ قال: لا والله! قال: قلت كذبتني، والله لقد أخبرني بعضكم: أنه لن يموت حتى يكون أكثركم مالا وولدا، فكذلك هو زعموا اليوم! قال: فتحدثنا، ثم فارقته».

و «البعض» هنا، و كذا القائل: لا والله..هم الصحابة والمسلمون الذين كانوا مع ابن عمر.

ثم قال ابن عمر: «فلقيته لقية أخرى وقد نفرت عينه. قال: فقلت متى فعلت عينك ما أرى؟ قال: لا أدري! قال: قلت: لا تدري وهي في رأسك؟ قال: إن شاء الله خلقها في عصاك هذه. قال: فنخر كأشد نخير حمار سمعت. قال: فزعم بعض أصحابي: أني ضربته بعصا كانت معي حتى تكسرت. وأما أنا فوالله ما شعرت! قال: وجاء حتى دخل على أم المؤمنين فحدثها، فقالت: ما تريد إليه؟ ألم تعلم أنه قد قال: «إن أول ما يبعثه على الناس غضب يغضبه»[2].

نفرت: أي ورمت. والنخير صوت الأنف.

قال القرطبي: «وكون ابن عمر لم يشعر بضربه لابن صياد بالعصا حتى تكسرت، كان ذلك لشدة موجدته عليه، وكأنه تحقق منه أنه الدجال»[3].

وفي رواية أخرى لمسلم أن ابن عمر لقي ابن صياد في بعض طرق المدينة، فقال قولا أغضبه، فانتفخ حتى ملأ السكة، فدخل ابن عمر على حفصة وقد بلغها، فقالت له: يرحمك الله ما أردت من ابن صياد؟! أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: «إنما يخرج من غضبة يغضبها»[4].

---

(١) المفهم ٧/ ٢٦٢. المنهاج ١٨/ ٣٧.

(٢) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد.

(٣) المفهم ٧/ ٢٧١.

(٤) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب ذكر ابن صياد.

قال أبو العباس القرطبي: «يعني: أن ابن عمر قال لابن صياد قولا غضب ابن صياد لأجله، فانتفخ حتى ملأ السكة، وهي الطريق، وتجمع سككا، وهذا الانتفاخ محمول على حقيقته وظاهره، ويكون هذا أمرا خارقا للعادة في حق ابن صياد، ويكون من علامات أنه الدجال؛ لأن هذا موافق لما قالته حفصة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ: «إنما يخرج من غضبة يغضبها». وقد اجتمعت في أحاديث ابن عمر هذه قرائن كثيرة تفيد: أن ابن صياد هو الدجال، ولذلك كان ابن عمر - رضي الله عنهما - قد اعتقد ذلك وصمم عليه بحيث كان يحلف على ذلك، وكذلك جابر بن عبد الله - رضي الله عنهم - »[1]. كلاهما كان يحلف أن ابن صياد هو الدجال لا يشكان فيه، فقيل لجابر: إنه أسلم، فقال: وإن أسلم. فقيل: إنه دخل مكة وكان في المدينة، فقال: وإن دخل[2]. وعلق على ذلك ابن حجر قائلا: «في كلام جابر إشارة إلى أن أمره ملبس، وأنه يجوز أن يكون ما ظهر من أمره إذاك لا ينافي ما توقع منه بعد خروجه في آخر الزمان»[3].

وبهذا أجاب هؤلاء الذين يرون أنه الدجال عن حديث الخدري، قالوا: «ما لبس به من أنه مسلم فسيكفر، أو هو منافق كافر في الحال، وحجه وغيره محبط بكفره، أو لعله كان ذلك منه نفاقا. وأما كونه لا يولد له ولا يدخل مكة والمدينة، فيحتمل أن يكون ذلك منه إذا خرج على الناس، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك»[4]. ولذلك قال النووي: لا دلالة في هذه الأمور - أي دخوله مكة، وأنه ولد له - لأن النبي ﷺ إنما أخبر عن صفاته وقت فتنته وخروجه في الأرض[5].

من أسباب وقوع الإشكال والاختلاف في أمر ابن صياد.

لم يبين النبي ﷺ لأمته حقيقة هذا الرجل مما ترك المجال مفتوحا للاجتهاد والرأي. وربما توفي النبي ﷺ ولم يعرف حال ابن صياد. وفي حياة هذا الرجل مآخذ لكل قول، فقد ظهرت عليه في صباه علامات الكهانة، وكان ذلك في حياة النبي ﷺ.

---

(١) المفهم ٧/ ٢٧٢.

(٢) المنهاج ١٨/ ٣٧.

(٣) فتح الباري، ١٥/ ٢٧٠.

(٤) المفهم ٧/ ٢٧٠.

(٥) المنهاج ١٨/ ٣٧.

وبعدها ظهر منه الإسلام والحج. ثم تلفظ بكلمات لا تصدر عن مؤمن صحيح الإيمان، فقد صرح بأنه يعرف الدجال، ويعرف مكانه، بل قال إنه لا يكره أن يكون هو نفسه الدجال المنتظر، لو عرض عليه، كما في رواية أخرى لمسلم عن أبي سعيد الخدري.

وهذه أهم الأحاديث والآثار التي تفسر جانبا كبيرا من اختلاف العلماء في الموضوع، لأن بعضها يعارض بعضا:

١ ـ وفاة ابن صياد:

فقد روي أنه مات بالمدينة، وكشف عن وجهه، وصلي عليه، وقيل للناس: اشهدوا. أي بأن الميت فعلا هو ابن صياد، وهذا يدل على أنه ليس دجالا[١].

ومن جهة أخرى روى أبو داود عن جابر قال: فقدنا ابن صياد يوم الحرة. أي غاب ولم يترك أثرا يدل على مصيره[٢].

وقد رجح النووي رواية أبي داود وصحح إسنادها، وقال: «هذا يعطل رواية من روى أنه مات بالمدينة وصلي عليه»[٣].

ويعارض رواية أبي داود ما أخرجه أبو نعيم الأصبهاني[٤] في تاريخ أصبهان عن حسان بن عبد الرحمن عن أبيه قال: لما افتتحنا أصبهان كان بين عسكرنا وبين اليهودية فرسخ، فكنا نأتيها فنمتار منها، فأتيتها يوما فإذا اليهود يزفنون ويضربون، فسألت صديقا لي منهم فقال ملكنا الذي نستفتح به على العرب يدخل. فبت عنده على سطح فصليت الغداة، فلما طلعت الشمس إذا لرهج من قبل العسكر فنظرت، فإذا رجل عليه قبة من ريحان واليهود يزفنون ويضربون، فنظرت فإذا هو ابن صياد، فدخل المدينة فلم يعد حتى الساعة[٥].

---

(١) معالم السنن ٤/ ٣٢٣. المفهم ٧/ ٢٦٢. المنهاج ١٨/ ٣٧.

(٢) كتاب الفتن، باب خبر ابن الصائد.

(٣) المنهاج ١٨/ ٣٨.

(٤) أحمد بن عبد الله بن مهران، محدث ومؤرخ. من مؤلفاته: حلية الأولياء. دلائل النبوة. تاريخ اصبهان. المستخرج على الصحيحين. معرفة الصحابة. توفي بأصبهان سنة ٤٣٠هـ. معجم المؤلفين، ١/ ٢٨٢.

(٥) أورده ابن حجر، في فتح الباري ١٥/ ٢٦٨، عند شرحه لحديث جابر الآتي عن حلف عمر. والرهج ـ كما في لسان العرب ـ هو الغبار.

قال ابن حجر: «حسان بن عبد الرحمن ما عرفته، والباقون ثقات..ولا يلتئم خبر جابر هذا مع خبر حسان بن عبد الرحمن، لأن فتح أصبهان كان في خلافة عمر كما أخرجه أبو نعيم في تاريخها، وبين قتل عمر ووقعة الحرة نحو أربعين سنة»[1]. ثم حاول ابن حجر الجمع بين الروايتين.

٢ ـ حديث جابر عن حلف عمر عند النبي ﷺ:

روى البخاري عن محمد بن المنكدر قال: رأيت جابر بن عبد الله يحلف بالله إن ابن الصياد الدجال، قلت: تحلف بالله. قال: إني سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبي ﷺ فلم ينكره النبي ﷺ[2].

قال البيهقي: «يجوز أن توافق صفة ابن صياد صفة الدجال، كما ثبت في الصحيح أن أشبه الناس بالدجال عبد العزى بن قطن..وليس في حديث جابر أكثر من سكوت النبي ﷺ لقول عمر، فيحتمل أنه ﷺ كان كالمتوقف في أمره ثم جاءه البيان أنه غيره كما صرح به في حديث تميم»[3] الآتي.

فهذا محتمل، وهو يرجع إلى التقرير من النبي ﷺ ماذا يفيد وماذا لا يفيد. وقد نقل ابن حجر عن ابن دقيق العيد[4] بحثا في هذه المسألة، قال: «إذا أخبر النبي ﷺ عن أمر ليس فيه حكم شرعي، فهل يكون سكوته ﷺ دليلا على مطابقة ما في الواقع، كما وقع لعمر في حلفه على ابن صياد هو الدجال فلم ينكر عليه، فهل يدل عدم

---

(١) فتح الباري ١٥/ ٢٦٨.

(٢) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب من رأى ترك النكير من النبي ﷺ حجة، لا من غير الرسول. حديث ٧٣٥٥. ومسلم في كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد. وأبو داود في السنن.

وروي هذا الحلف أيضا عن ابن مسعود، قال الهيثمي: «رواه الطبراني وأبو يعلى بنحوه باختصار، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح». مجمع الزوائد، ٨/ ٥.

(٣) نقله النووي في المنهاج ١٨/ ٣٨، عن كتاب «البعث والنشور» للبيهقي، وقد راجعته ـ بتحقيق أبي هاجر زغلول ـ فلم أجده. وكتاب البعث والنشور خاص بأحاديث الجنة والنار.

(٤) أبو الفتح تقي الدين محمد بن علي، الشهير بابن دقيق العيد. عالم مشارك في علوم الدين واللغة. ولد بالحجاز، ورحل إلى الشام ومصر، وولي بها القضاء. توفي بالقاهرة سنة ٧٠٢هـ. من كتبه: شرح مختصر ابن الحاجب الفقهي، لم يكمل. الإلمام في أحاديث الأحكام. الاقتراح في علوم الحديث.. معجم المؤلفين ١١/ ٧٠.

إنكاره على أن ابن صياد هو الدجال كما فهمه جابر، حتى صار يحلف عليه ويستند إلى حلف عمر أو لا يدل، فيه نظر. قال: والأقرب عندي أنه لا يدل، لأن مأخذ المسألة ومناطها هو العصمة من التقرير على باطل، وذلك يتوقف على تحقيق البطلان، ولا يكفي فيه عدم تحقق الصحة، إلا أن يدعي مدع أنه يكفي في وجوب البيان عدم تحقق الصحة فيحتاج إلى دليل وهو عاجز عنه، نعم التقرير يسوغ الحلف على غلبة الظن لعدم توقف ذلك على العلم. انتهى مخلصا»[١].

ثم قال ابن حجر: «ولا يلزم من عدم تحقق البطلان أن يكون السكوت مستوي الطرفين، بل يجوز أن يكون ذلك المحلوف عليه من قسم خلاف الأولى»[٢].

٣ ـ حديث تميم الداري، ويعرف أيضا بحديث الجساسة.

وهو عمدة من رأى أن الدجال غير ابن صياد.

والصحابي الراوي هو تميم بن أوس بن حارثة، أبو رقية الداري. كان نصرانيا، ثم قدم المدينة وأسلم سنة تسع. وكان راهب أهل فلسطين قبل ذلك. وبعد مقتل عثمان رضي الله تعالى عنه انتقل إلى الشام، ومنها إلى فلسطين، حيث توفي رضي الله تعالى عنه. وكان عمر يعظمه جدا[٣].

روى مسلم في الصحيح عن الشعبي أنه سأل فاطمة بنت قيس، أخت الضحاك بن قيس، وكانت من المهاجرات الأول. فقال حدثيني حديثا سمعتيه من رسول الله، لا تسنديه إلى أحد غيرهفحدثتهإلى أن قالت: فلما انقضت عدتي سمعت نداء المنادي، منادي رسول الله ينادي: الصلاة جامعة. فخرجت إلى المسجد، فصليت مع رسول الله، فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم. فلما قضى رسول الله صلاته، جلس على المنبر، وهو يضحك. فقال: ليلزم كل إنسان مصلاه. ثم قال: أتدرون لم جمعتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة. ولكن جمعتكم، لأن تميما الداري كان رجلا نصرانيا، فجاء فبايع وأسلم. وحدثني حديثا

---

(١) فتح الباري، ١٥/٢٦٧ ـ ٢٦٨. وقارن بـ: إرشاد اللبيب إلى مقاصد حديث الحبيب، لابن غازي، ص٢٤٩. وهي حاشية على البخاري.

(٢) فتح الباري ١٥/٢٦٨.

(٣) انظر ترجمة تميم ـ رقم ٨٣٨ ـ في: «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر، ١/٣٦٧.

وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال. حدثني أنه ركب في سفينة بحرية، مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام. فلعب بهم الموج شهرا في البحر. ثم أرفؤوا[1] إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس. فجلسوا في أقرب[2] السفينة. فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة أهلب[3] كثير الشعر، لا يدرون ما قبله من دبره، من كثرة الشعر. فقالوا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة. قالوا وما الجساسة؟ قالت أيها القوم، انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إليكم بالأشواق. قال: لما سمت لنا رجلا فرقنا[4] منها أن تكون شيطانة. قال فانطلقنا سراعا، حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقا، وأشده وثاقا، مجموعة يداه إلى عنقه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه، بالحديد. قلنا: ويلك ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري. فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب (ثم حكوا له قصتهم مع الجساسة). . فقال: أخبروني عن نخل بيسان[5]. قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها هل يثمر؟ قلنا له نعم. قال أما إنه يوشك أن لا تثمر. قال أخبروني عن بحيرة طبرية[6]. قلنا عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء. قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب. قال: أخبروني عن عين زغر[7]. قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم، هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها. قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب. قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم. قال كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه. قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا نعم. قال أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه. وإني مخبركم عني. إني أنا المسيح[8]، وإني أوشك أن يؤذن لي

---

(١) في تعليق محمد عبد الباقي على صحيح مسلم، ٤/٢٢٦٢: ارفؤوا، أي التجأوا إليها.

(٢) الأقرب جمع قارب، وهي سفينة صغيرة. من التعليق المذكور.

(٣) الأهلب غليظ الشعر، كثيره. وفي معالم السنن، باب خبر الجساسة من كتاب الفتن: الجساسة يقال إنها تجسس الأخبار للدجال، وبه سميت جساسة.

(٤) أي خفنا منها وارتعبنا.

(٥) بيسان قرية بالشام.

(٦) بحر صغير معروف بالشام.

(٧) في تعليق عبد الباقي، ٤/٢٢٦٣: عين زغر بلدة معروفة في الجانب القبلي من الشام.

(٨) أي المسيح الدجال، لأن إحدى عينيه ممسوحة. ويقال له أيضا: المسيخ، بالخاء المعجمة.

في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطيبة، فهما محرمتان علي، كلتاهما. كلما أردت أن أدخل واحدة، أو واحدا منهما، استقبلني ملك بيده السيف صلتا[1]، يصدني عنها. وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها. قالت: قال رسول الله، وطعن بمخصرته في المنبر: هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة. يعني المدينة. ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟ فقال الناس نعم. (فقال النبي) فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة. (ثم ذكر أن الدجال في المشرق) قالت: فحفظت هذا من رسول الله ﷺ[2].

والقرطبي ـ أبو عبد الله ـ ممن يرى أن ابن صياد هو الدجال الأكبر، برغم ظاهر هذا الخبر، وقد أجاب عنه بقوله: «وقد استدل من قال من العلماء: إن الدجال ليس ابن صياد بحديث الجساسة، وما كان في معناه، والصحيح أن ابن صياد هو الدجال بدلالة ما تقدم، وما يبعد أن يكون بالجزيرة ذلك الوقت، ويكون بين أظهر الصحابة في وقت آخر، إلى أن فقدوه يوم الحرة»[3].

وقال ابن حجر في هذا الحديث: «وفي بعض طرقه عند البيهقي أنه شيخ، وسندها صحيح»[4]. قلت: وهو كذلك في رواية ابن ماجه لحديث الجساسة. ولذلك قال بعض العلماء عن حديث تميم: «فيه أن الدجال الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان غير ابن صياد، وكان ابن صياد أحد الدجالين الكذابين الذين أخبر ﷺ بخروجهم، وقد خرج أكثرهم. وكأن الذين يجزمون بابن صياد هو الدجال لم يسمعوا بقصة تميم، وإلا فالجمع بينهما بعيد جدا إذ كيف يلتئم أن يكون من كان في أثناء الحياة النبوية شبه المحتلم ويجتمع به النبي ﷺ ويسأله، أن يكون في آخرها شيخا كبيرا مسجونا في جزيرة من جزائر البحر موثقا بالحديد يستفهم عن خبر النبي ﷺ هل خرج أو لا؟

---

(١) أي مسلولا.

(٢) رواه مسلم في الجامع الصحيح، في كتاب الفتن وأشرط الساعة، باب قصة الجساسة، حديث رقم ٢٩٤٢. ورواه أبو داود في السنن، كتاب الفتن، باب الجساسة. والترمذي أيضا في أبواب الفتن. ورواه ابن ماجه في السنن، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم وخروج ياجوج وماجوج، حديث ٤٠٧٤ بترقيم محمد عبد الباقي.

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأهل الآخرة، للقرطبي، ٢/ ٣٩٢.

(٤) فتح الباري، ١٥/ ٢٦٧.

فالأولى أن يحمل على عدم الاطلاع، أما عمر فيحتمل أن يكون ذلك منه قبل أن يسمع قصة تميم، ثم لما سمعها لم يعد إلى الحلف المذكور. وأما جابر فشهد حلفه عند النبي ﷺ فاستصحب ما كان اطلع عليه من عمر بحضرة النبي ﷺ»[1].

لكن في رواية لأبي داود، سندها حسن، أن جابرا كان يعرف قصة تميم[2]. وقد حاول ابن حجر الجمع بين خبر تميم رضي الله عنه والأحاديث الأخرى، فقال: «وأقرب ما يجمع به بين ما تضمنه حديث تميم وكون ابن صياد هو الدجال أن الدجال بعينه هو الذي شاهده تميم موثقا، وأن ابن صياد شيطان تبدى في صورة الدجال في تلك المدة إلى أن توجه إلى أصبهان فاستتر مع قرينه إلى أن تجيء

المدة التي قدر الله تعالى خروجه فيها، ولشدة التباس الأمر في ذلك سلك البخاري مسلك الترجيح فاقتصر على حديث جابر عن عمر في ابن صياد، ولم يخرج حديث فاطمة بنت قيس في قصة تميم، وقد توهم بعضهم أنه غريب فرد، وليس كذلك فقد رواه مع فاطمة بنت قيس أبو هريرة وعائشة وجابر»[3].

وفي النهاية،

من رأيي أن أمرا أشكل على النبي ﷺ - أكرم البشر على الله سبحانه وأعلمهم بدينه - شيء لا أطمع في دركه. ويحتمل أن النبي ﷺ لم يعرف حقيقة ابن صياد، ويحتمل أنه عرفها، ولكنه لم يخبرنا بها، كما لم يخبرنا عن أشياء كثيرة لا تعلق لها بالرسالة. وانظر جواب النبي ﷺ لعمر حين قال له: ذرني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال له: إن يكنه - أي الدجال - فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله.

قال القرطبي - أبا العباس -: «هذا يدل على أن النبي ﷺ لم يتضح له شيء من أمر كونه هو الدجال أم لا؟ وليس هذا نقصا في حق النبي ﷺ، لأنه لم يكن يعلم إلا ما علمه الله، وهذا مما لم يعلمه الله تعالى به، ولا هو مما ترهق إلى علمه حاجة، لا شرعية، ولا عادية، ولا مصلحية. ولعل الله تعالى قد علم في إخفائه مصلحة فأخفاه.

(١) فتح الباري، ١٥/ ٢٦٧. أول هذا الكلام قاله البيهقي، لكن الناقل لم يبين متى ينتهي، فلعل آخر هذا النص لابن حجر، فلذلك نسبته إلى بعض العلماء. وقارن بـ: عارضة الأحوذي، ٩/ ١٠٦.

(٢) فتح الباري ١٥/ ٢٦٧.

(٣) فتح الباري ١٥/ ٢٦٩.

والذي يجب الإيمان به أنه لا بد من خروج الدجال يدعي الإلهية، وأنه كذاب أعور، كما جاء في الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي قد حصلت لمن عاناها العلم القطعي بذلك»[1].

وهنا إشكال لا بد من الإجابة عليه، ذكره البيهقي والخطابي وأجابا عنه، وردد كثير من العلماء بعدهما هذا الجواب[2]، قال الخطابي: «وقد يسأل عن أمره (أي ابن صياد)، فيقال: كيف يجوز أن يقاره رسول الله ﷺ وهو يدعي النبوة، وتركه بالمدينة يساكنه فيها ويجاوره بها، ولم لم يترك عمر أن يفعل به ما هم به من ضرب عنقه، وهو منكر لنبوته ومدعيها لنفسه؟

والجواب أنه قد يحتمل ذلك وجهين من التأويل: أحدهما: أنه حين تكلم بهذا القول كان غير بالغ، ولا حكم لقول غير البالغالثاني: أن هذه القصة إنما جرت له معه أيام مهادنة رسول الله اليهود وحلفائهم..وكان ابن الصياد من جملتهم»[3].

وعلى الجملة فقد كان ابن صياد ـ كما قال الخطابي ـ «فتنة قد امتحن الله به عباده المؤمنين، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيي عن بينة»[4].

وبعد هذا لعل التوقف في أمر هذا الرجل هو أولى المذاهب، لكن من الواضح أنه لو صح أن ابن صياد كان كاهنا، فلا شك أنه لم يكن كاهنا عاديا، وهو دليل على خطر الكهانة وقدرتها على فتن الناس.

على أن الكهنة الذين عاصروا النبي الكريم لم يكفروا كلهم به، فقد كان فيهم من أناب إلى الحق بعد أن عرفه.

كهان تحولوا إلى الإسلام:

ولذلك لم تكن العلاقة بين النبي والكاهن عداوة دائمة، فإن من الكهان الذين أدركوا النبي ﷺ من آمن به واتبعه، وهو أمر يدل على أن في بعضهم خيرا.

---

(١) المفهم ٧/ ٢٦٥.

(٢) راجع: المفهم ٧/ ٢٦٥. المنهاج ١٨/ ٣٨. الكواكب الدراري ٧/ ١٣١. عارضة الأحوذي، ٩/ ١٠٠.

(٣) أعلام السنن ١/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦.

(٤) معالم السنن، ٤/ ٣٢٣.

ويسهل أن نفسر هذا التحول من التكهن والشرك إلى الإيمان، لأن الكاهن أخبر الناس بالعالم الخفي، ولذلك هو يعرف جيدا حقيقة النبوة ويقدر أن يميز الصادق من الكاذب بين من يدعونها.

وهناك سبب آخر، وهو أن كثيرا من الكهنة ـ خصوصا الذين لهم اتصال بالجن ـ علموا ببعثة النبي ﷺ، بل فيهم من أخبر قومه بها. لذلك قال جواد علي: «لما ظهر الإسلام ودع أولائك الكهان رئيهم وتابعهم وكهانتهم، إذ نهى الإسلام عنها. وقد كان لبعضهم أثر مهم في إعداد قبائلهم للدخول في الإسلام»[(١)].

ومن هؤلاء الكهان الذين أسلموا: خنافر بن التوأم الحميري، كان كاهنا، وأوتي بسطة في الجسم وسعة في المال، وكان عاتيا، تمنع في البداية على الإسلام، ثم أذعن له آخرا[(٢)]. قال الحافظ ابن عبد البر: «كان كاهنا من كهان حمير، ثم أسلم على يدي معاذ باليمن. وله خبر حسن في أعلام النبوة، إلا أن في إسناده مقالا، ولا يعرف إلا به»[(٣)].

ومن هؤلاء أيضا، بل هو أشهرهم: سواد بن قارب الدوسي، أو السدوسي، رضي الله تعالى عنه. ذكره جمع من الحفاظ ضمن الصحابة[(٤)]. وقصته مذكورة في عدد من كتب الحديث[(٥)]. لكن أصح طرقها ما رواه البخاري في كتاب مناقب

---

(١) المفصل، ٦/ ٧٦٤. انظر: سبيل الهدى والرشاد، ٢/ ١٩٢، ٢١٠، ٢١١.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ٢/ ٣٦٣. ترجمة رقم ٢٣٤٤.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٢/ ٤٦٠. ترجمة رقم ٦٩٦، لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي. المحدث الحافظ، والفقيه، والمؤرخ. روى عن محدثي الأندلس، وتولى القضاء لفترة. سكن دانية وبلنسية وشاطبة. من كتبه: جامع بيان العلم وفضله. التمهيد. القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم. الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمرو. توفي بشاطبة سنة ٤٦٣. عن معجم المؤلفين ١٣/ ٣١٥. ومعاذ هو ابن جبل. وتقدم ذكر قصة خنافر المشار إليها في مبحث سجع الكهان.

(٤) الإصابة، ٣/ ٢١٩. ترجمة ٣٥٨٥.

(٥) قال ابن كثير في «السيرة النبوية» في خبر سواد: تفرد به البخاري. ١/ ٣٤٣. قلت: لعله يعني من بين الأئمة المشهورين في الحديث، وهم الستة، أو الثمانية إذا أضفنا إليهم: مالكا وأحمد. وذلك لأن قصة سواد رواها مفصلة الخرائطي في هواتف الجنان، ص ٤١. وابن =

الأنصار، باب إسلام عمر رضي الله عنه: عن عبد الله بن عمر قال: «ما سمعت عمر لشيء قط يقول إني لأظنه كذا، إلا كان كما يظن. بينما عمر جالس إذ مر به رجل جميل. فقال عمر: لقد أخطأ ظني، أو إن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم، علي الرجل. فدعي له، فقال له ذلك. فقال[1]: ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم. قال فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني. قال: كنت كاهنهم في الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك؟ قال: بينما أنا يوما في السوق، جاءتني أعرف فيها الفزع، فقالت: ألم تر الجن وإبلاسها، ويأسها من بعد إنكاسها، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها[2].

قال عمر: صدق، بينما أنا نائم عند آلهتهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه. فصرخ به صارخ لم أسمع قط صارخا أشد صوتا منه، يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: لا إله إلا أنت. فوثب القوم. قلت لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا. ثم نادى يا جليح، أمر نجيح[3]، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا الله. فقمت، فما نشبنا أن قيل: هذا نبي.

والرجل هنا هو سواد بن قارب، كما في بعض طرق الحديث عند غير البخاري[4]. وقول عمر: لقد أخطأ ظني «حاصله أن عمر ظن شيئا مترددا بين شيئين أحدهما يتردد بين شيئين، كأنه قال: هذا الظن إما خطأ أو صواب، فإن كان صوابا، فهذا الآن إما باق على كفره، وإما كان كاهنا»[5]. وقال ابن حجر: «تلطف سواد في

= عساكر، والحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده. وانظر طرقا أخرى للحديث في الإصابة، ٣/ ٢١٩. وراجع في هذه الكتب قصة سواد مطولة.

(١) أي سواد بن قارب.

(٢) في فتح الباري، ٧/ ١٧٩ ـ ١٨٠ (طبعة ابن باز): الإبلاس المراد به اليأس ضد الرجاء. والإنكاس الانقلاب. قال ابن فارس: «معناه أنها يئست من استراق السمع بعد أن كانت ألفته، فانقلبت عن الاستراق قد يئست من السمع». القلاص جمع قلص، وهو جمع قلوص، وهي الفتية من النياق. الأحلاس جمع حِلْس، وهو ما يوضع على ظهور الإبل تحت الرحل.

(٣) جليح: الوقح المكافح بالعداوة، ويحتمل أن يكون اسم علم. انظر فتح الباري ٧/ ١٨١. ونجيح من النجاح. وهذا مثال للهواتف التي كثرت قبيل البعثة.

(٤) فتح الباري، ٧/ ١٧٩. عمدة القاري، ١٧/ ٦. وانظر في تفصيل قصة سواد: دلائل النبوة، للبيهقي ٢/ ٢٥ فما بعدها.

(٥) فتح الباري ، ٧/ ١٧٩.

الجواب إذ كان سؤال عمر عن حاله في كهانته، إذ كان من أمر الشرك، فلما ألزمه أخبره بآخر شيء وقع له، لما تضمن من الإعلام بنبوة محمد ﷺ، وكان سببا لإسلامه»[1].

وقد حسن إسلام سواد رضي الله عنه، ويذكرون أنه لما مات النبي ﷺ خشي سواد على قومه دوس من الردة، فقام فيهم خطيبا فوعظهم ونصحهم، فأجابه القوم بالسمع والطاعة وثبتوا على الإسلام[2].

---

(١) فتح الباري ، ٧/ ١٨٠.

(٢) راجع : إنسان العيون، للحلبي، ١/ ٣٢٤.

الفصل الخامس:

في استمرار الكهانة وانقطاعها.

هل توجد الكهانة اليوم:

وهذه قضية اختلف فيها العلماء وتباينت حولها فهومهم، فبعضهم قال بأن الكهانة انتهت ببعثة النبي ﷺ، وأصبحت منذ تلك الفترة أمرا ينتمي إلى الماضي. وآخرون قالوا إن الكهانة لم تنقض، فهي مستمرة إلى يوم القيامة، ولكنها ضعفت ولم تعد لها المكانة والقوة اللتان كانتا لها قبل الإسلام.

القرآن يحتمل كلا المذهبين:

والآيات الواردة في الموضوع تحتمل كلا الرأيين، لهذا يستند إليها كل فريق:

قال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ ـ ١٨].

فالاستثناء هنا إما متصل، وإما منفصل. لو قلنا إنه متصل، فهو في محل نصب، ويكون المعنى: حفظنا السماء من كل شيطان رجيم إلا ممن استرق السماع، فإنا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء. أما الوحي فلا تسمع منه شيئا لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢][(١)].

وإذا قلنا هو استثناء منقطع، يكون المعنى: حفظنا السماء من كل شيطان رجيم. لكن من استرق السمع، أي الخطفة اليسيرة[(٢)]. وهذا رأي الرازي، قال: «لا يمكن حمل لفظة «إلا» هاهنا على الاستثناء، بدليل أن إقدامهم على استراق السمع لا يخرج السماء من أن تكون محفوظة منهم، إلا أنهم ممنوعون من دخولها، وإنما يحاولون القرب منها، فلا يصح أن يكون استثناء على التحقيق، فوجب أن يكون معناه: لكن من يسترق السمع»[(٣)].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٩. إرشاد العقل السليم ٣/ ١٤٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٩. إرشاد العقل السليم ٣/ ١٤٥.

(٣) مفاتيح الغيب، ١٩/ ١٧٨.

مَّارِدٍ ۝٧ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: ٦ ـ ١٠].

قال ابن عاشور: «القذف: الرجم، والجانب: الجهة، والدحور: الطرد، وانتصب على أنه مفعول مطلق لـ: يقذفون. وإسناد فعل: «يقذفون» للمجهول، لأن القاذف معلوم، وهم الملائكة الموكلون بالحفظ المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾. والعذاب الواصب: الدائموالمعنى أنهم يطردون في الدنيا ويحقرون، ولهم عذاب دائم في الآخرة، فإن الشياطين للنار»[1].

و «لا يسمعون» تحتمل قولين: الأول: تقدير الكلام لئلا يسمعوا كما قال تعالى: ﴿رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾. والثاني أنه كلام مبتدأ منقطع عما قبله، وهو حكاية حال المسترقة للسمع وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة[2].

ثم إن في الآية قراءتين مشهورتين: فجمهور القراء قرأوا «لا يسمعون» بإسكان السين وتخفيف الميم، والباقون قرأوا بتشديدهما: «لا يسمعون». وهذه بمعنى لا يتسمعون، فهذا أصلها، والتسمع تطلب السماع[3].

فعلى القراءة الأولى ينتفي سمع الجن، وإن كانوا يستمعون؛ وعلى الثانية ينتفي السماع أصلا، فلا يسمعون لشيء، ويعضد هذه القراءة قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[4]. وتفيد هذه القراءة انقطاع الكهانة.

قال الرازي: «وللأولين أن يجيبوا فيقولون التنصيص على كونهم معزولين عن السمع لا يمنع من كونهم معزولين أيضا عن التسمع بدلالة هذه الآية، بل هو أقوى في ردع الشياطين ومنعهم من استماع أخبار السماء، فإن الذي منع من الاستماع فبأن يكون ممنوعا من السمع أولى»[5].

وقال ابن عطية: «ظاهر الأحاديث أنهم يستمعون حتى الآن لكنهم لا يسمعون،

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣/ ٩٢ ـ ٩٣.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٢٤.

(٣) المحرر الوجيز، ١٣/ ٢٢١. مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٢٣. الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٤٤ ـ ٤٥.

(٤) المحرر الوجيز، ١٣/ ٢٢١. مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٢٣. الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٤٥.

(٥) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ١٢٣.

وإن سمع منهم أحد شيئا لم يفلت الشهاب قبل أن يلقي ذلك السمع إلى الذي تحته، لأن من وقت محمد ﷺ ملئت السماء حرسا شديدا وشهبا، وكان الرجم في الجاهلية أخف، وروي في هذا المعنى أحاديث صحاح»[1]. ولذلك ينتفي تحقق السمع وتثبت المحاولة.

وبعض المفسرين يوجه القراءتين معا بما يؤول إلى توافقهما في المعنى، قال الأستاذ ابن عاشور: «وحرف ﴿إِلَى﴾ يشير إلى تضمين فعل ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ معنى ينتهون فيسمعون، أي لا يتركهم الرمي بالشهب منتهين إلى الملأ الأعلى انتهاء الطالب المكان المطلوب، بل تدحرهم قبل وصولهم فلا يتلقفون من علم ما يجري في الملأ الأعلى الأشياء مخطوفة غير متبينة، وذلك أبعد لهم من أن يسمعوا لأنهم لا ينتهون فلا يسمعون. وفي الكشاف: أن سمعت المعدي بنفسه يفيد الإدراك، وسمعت المعدي بـ ﴿إِلَى﴾ يفيد الإصغاء مع الإدراك.

وقرأ الجمهور ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ بسكون السين وتخفيف الميم. وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ بتشديد السين وتشديد الميم مفتوحتين على أن أصله: لا يتسمعون فقلبت التاء سينا توصلا إلى الإدغام، والتسمع: تطلب السمع وتكلفه، فالمراد التسمع المباشر، وهو الذي يتهيأ له إذا بلغ المكان الذي تصل إليه أصوات الملأ الأعلى، أي أنهم يدحرون قبل وصولهم المكان المطلوب، والقراءتان في معنى واحد. وما نقل عن أبي عبيد من التفرقة بينهما في المعنى والاستعمال لا يصح.

وحاصل معنى القراءتين أن الشهب تحول بين الشياطين وبين أن يسمعوا شيئا من الملأ الأعلى. وقد كانوا قبل البعثة المحمدية ربما اختطفوا الخطفة فألقوها إلى الكهان، فلما بعث الله محمدا ﷺ قدر زيادة حراسة السماء بإرداف الكواكب بعضها ببعض حتى لا يرجع من خطف الخطفة سالما كما دل عليه قوله ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾، فالشهب كانت موجودة من قبل وكانت لا تحول بين الشياطين وبين تلقف أخبار مقطعة من الملأ الأعلى فلما بعث محمد ﷺ حرمت الشياطين من ذلك»[2].

والراجح أن قراءة لا يسمعون بالتشديد لا تفيد أن الجن لا تحاول أصلا التنصت

---

(١) المحرر الوجيز، ١٣/٢٢١.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٣/٩٢.

على حديث الملأ الأعلى، فوجب توجيهها بما لا يخالف هذا المعنى الذي ثبت بأحاديث صحاح صراح عدا ظواهر القرآن في مواضع أخرى، كسور الملك والجن

ولكن هذا مني استباق لنتيجة المناقشة بين الفريقين، فالأولى أن ننصرف الآن لمتابعة هذا الجدل العلمي:

تفصيل الخلاف:

يوجد مذهبان رئيسيان، ويظهر لي أنه يمكن أن يوجد مذهب ثالث:

المذهب الأول: انقطاع الكهانة كلية.

وذلك لأن الله سبحانه قال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢].

قال العلامة ابن عاشور: «﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ﴾ اعتبارا بملابسة ذلك للكهانواستؤنف بـ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾، فكان ذلك كالفذلكة لما قبله، وهو بعمومه يتنزل منزلة التذييل. والمعزول: المبعد عن أمر، فهو في عزلة عنه. وفي هذا إبطال للكهانة من أصلها، وهي وإن كان فيها شيء من الاتصال بالقوى الروحية في سالف الزمان، فقد زال ذلك بظهور الإسلام»[1].

ويدل أيضا على انقطاع الكهانة آيات سورة الجن: ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا.﴾ قال ابن عاشور: «وفي سورة الجن دلالة على أنه منع بعد البعثة ونزول القرآن إحكاما لحفظ الوحي أن يلتبس على الناس بالكهانة»[2].

وإذا كان الأمر كذلك، فعلى أي شيء نحمل الأخبار الصحيحة الواردة في الموضوع؟ الجواب: «يكون ما اقتضاه حديث عائشة وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ من استراق الجن السمع وصفا للكهانة السابقة. ويكون قوله: ﴿ليسوا بشيء﴾ وصفا لآخر أمرهم»[3].

وسيأتي في الكلام على المذهب الثاني أدلة أخرى لأهل القول الأول في ثنايا المناقشات الواقعة بين الطرفين.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩/ ١٩٩. وانظر أيضا: ٢٩/ ٢٢٩، سورة الجن.

(٢) التحرير والتنوير، ١٤/ ٣١. سورة الحجر، ١٦ إلى ١٨.

(٣) التحرير والتنوير، ١٤/ ٣١ ـ ٣٢.

على أن هناك وجها للاستدلال لمن يقول بانتهاء الكهانة لم أر أحدا منهم ذكره أو أشار إليه، ولكنه جار على مذهبهم. وذلك أن خصومهم يقولون المشاهدة تدل على استمرار الكهانة، وقوله ﷺ: ليسوا بشيء، أي شرعا لا وجودا. وللأوائل أن يقولوا: صحيح أن الكهان موجودون، ونعرف ذلك بالمشاهدة، والأدلة الشرعية لم تنف وجود ناس يتسمون بالكهان، وقد يدعون الاتصال بالسماء، وإنما تنفي صدق ذلك: أي أن الكهان قديما كانوا صادقين بادعائهم أن لهم رئيا، وكان الرئي الجني فعلا يسترق الكلام من السماء، فلما جاء الإسلام انقطع هذا. ولكن لا يستبعد أن يدعي بعض الناس أن لهم رئيا يصلهم بالسماء، فيكون ذلك كذبا منهم، أو إن صدقوا يكون ذلك كذبا من الجني، فهي دعوى فقط، ولا صعود ولا استراق، فصورة الدعوى مستمرة وحقيقتها منقطعة. وهذا كمدعو النبوة، فهم موجودون ولكنهم كاذبون.

وليس لهذا الاعتراض من جواب إلا الاستدلال بعموم الأدلة من القرآن والسنة، والتي يذكرها أصحاب:

المذهب الثاني: استمرار الكهانة إلىآخر الدنيا:

وربما تناظر العلماء في هذه القضية وتجادلوا، فهي محتملة، ويجوز على كل فريق فيها الصواب والخطأ.

وقد وقفت على رسالة، في نصر استمرار الكهانة، لعالم مغربي متأخر هو عبد الرحمن بن زيدان الحسني[1]، وقد حكى في مقدمتها أنه حدث له اختلاف في مجلس عام ـ أي مناظرة ـ مع شخص آخر، وصفه بالعلم ولم يسمه، وذلك بمناسبة قول البوصيري في الهمزية[2]:

فمحت آية الكهانة آيا ... تٌ من الوحي مالهن انمحاء

فهو يرى أن نزول الوحي لم يقطع الكهانة من أصلها، بل استمرت منها بقية،

---

(١) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحسني السجلماسي، مؤرخ وشاعر. ولد بمكناس واستكمل دراسته بالقرويين، نقيب الأشراف بمكناس وزرهون. وتوفي بمكناس سنة ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦م، وهو صاحب: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس. معجم المؤلفين، ٥/ ١٧٧.

(٢) شرف الدين، أبو عبد الله محمد بن سعيد الصنهاجي، البوصيري. أصله من المغرب. صوفي وأديب. توفي بالإسكندرية سنة ٦٩٤هـ. اشتهر بقصيدة البردة التي مدح فيها النبي ﷺ. عن معجم المؤلفين، ١٠/ ٢٨.

بينما انتصر العالم الآخر لمذهب اضمحلال الكهانة وانتهائها. وهذا ما دعى الأول إلى تأليف رسالة صغيرة - ولكنها كافية في تأدية المقصود - يبسط فيها الأدلة والحجج، سماها: «قراضة العقيان في تحقيق استمرار أفراد من الكهانة لآخر الزمان».(١)

وقد رأيت أن ألخصها للقارئ، لأنها مثال جيد لمذهب استمرار الكهانة:

قال المؤلف: «اعلم أن الذي دل عليه الكتاب والسنة وعضدته المشاهدة وعليه عول غير واحد من الفحول، وهو الحق إن شاء الله تعالى، هو أن استراق السمع لا زال إلى الآن، وأن الكهانة لم تنقطع، بل لا زالت منها بقايا مستمرة».(٢)

فهذه أصول الأدلة:

الأدلة من القرآن:

في الكتاب الكريم - في مواضع متعددة -: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾. ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾. ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾.

فالكلام الذي يخطفه الجني، أي المسترق بالفتح، أو المستمع له، إما أن يكون هو:

١ - خصوص الوحي إلى النبي ﷺ.

٢ - أو حديث الملائكة فيما بينها بالقضاء القريب يكون في الأرض.(٣)

فعلى الاحتمال الأول: تعني كلمة «الآن» الزمن الممتد بين بدء البعثة إلى وفاة النبي ﷺ، أي فترة الوحي. ولهذا قال النسفي: «﴿فَمَن يَسْتَمِعِ﴾ يرد الاستماع ﴿ٱلْآنَ﴾ بعد المبعث»(٤). فهنا تدل الآيات السابقة على أن الجني الذي يسترق السمع يذهب بما سمعه ويلقيه في أذن الكاهن. فيكون الكاهن موجودا في عهد النبي ﷺ. وإذا كان هذا هكذا في زمن البعثة وحراسة السماء، فكيف يكون الحال بعدها(٥)؟.

---

(١) انظر: قراضة العقيان، ص ٢.

(٢) قراضة العقيان، ص ٤.

(٣) قراضة العقيان، ص ٤.

(٤) مدارك التنزيل، ٤/ ٣٠٠.

(٥) قراضة العقيان، ص ٥.

وعلى الاحتمال الثاني، أي ما يوحيه الله جل جلاله إلى ملائكته في سماواته.
فهذا مستمر ما دام أن عالمي الجن والإنس مستمران. والدليل هنا أحاديث النبي ﷺ في الكهانة، كحديث أبي هريرة: إذا قضى الله الأمر في السماء..وقد سبق.

وقد عبر عن ذلك بـ «إذا» المؤذنة بالاستقبال والتحقق. «وكل ذلك نص ـ أو قريب منه ـ في أن الاستراق والإلقاء ووجود الكهنة لم ينقطع، وإنما ضعف بالتشديد في الحراسة بالشهب»[1].

اعتراض والجواب عنه:

وقد يقال: إن الكهانة التي أصلها الاستراق قد انتهت، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾. والجواب: ليس المراد بالسمع في الآية كل سمع، بل خصوص القرآن. وهذا تفسير الطبري، وحكاه عن قتادة.

أو نقول ـ كما قال بعض العلماء ـ: الاستراق واقع، ولكنهم لا يتمكنون من اختطاف خبر تام وكلام مفيد.

ومما يدل على أن القرآن حفظ من تسمع الشياطين حديث ابن عباس ـ في صحيح البخاري ـ أن الجن تعجبت من الشهب والحراسة المشددة في السماء، فانطلقوا يفتشون في الأرض عن علة ذلك، حتى وجدوا النبي ﷺ يقرأ القرآن فجرا. فلو كان لهم قدرة على استراق القرآن، لأحاطوا بخبره في السماء، ولم يحتاجوا أن يضربوا في الأرض لاستطلاع الأمر[2].

ولهذه الأدلة ـ وغيرها مما سيأتي ـ قال جماعة من العلماء: إن المراد بـ «الآن» في الآية الاستقبال، وإن كانت في الأصل موضوعة للوقت الحاضر. وذلك ليتسنى لهم الجمع بين الأدلة[3].

من السنة:

الأحاديث التي تفيد بقاء الكهانة كثيرة، وقد تقدم كثير منها فيما سلف من

---

(١) قراضة العقيان، ص ٥ ـ ٦.

(٢) قراضة العقيان في تحقيق استمرار أفراد من الكهانة لآخر الزمان، لعبد الرحمن بن زيدان الحسني، ص ٧.

(٣) قراضة العقيان ، ص ٨.

البحث، كأحاديث عائشة وابن عباس وأبي هريرةوكذا أحاديث النهي عن إتيان الكهان وتصديقهم، مثل: من أتى كاهنا

ولا خفاء أن النهي في هذه الأحاديث للاستقبال، وليس للماضي، «لأنه لا جائز أن يكون هذا حكم من تقدم منه إتيان كاهن، ثم أسلم، لما تقرر كتابا وسنة من أن الإسلام يجب ما قبله»[١].

وأصرح هذه الأحاديث قوله ﷺ لمعاوية بن الحكم السلمي، وقد سأله عن الكهان: فلا تأتهم. أي في المستقبل[٢].

ومن الأحاديث الدالة على المقصود ما رواه ابن عباس أن النبي ﷺ كان ليلا في مجلس من أصحابه، فنظر إلى السماء، وإذا بنجم قد استنار..فسألهم عنه، ثم أخبرهم أنها الملائكة ترمي الشياطين بالشهب، فـ: «في الحديث ثبوت الاستراق بعد البعثة، لأن هذه الواقعة كانت حين كون الأنصار مع النبي، وذلك بالمدينة بعد الهجرة، وكانت البعثة قبلها بثلاث عشرة سنة»[٣].

وقد حاول النبي ﷺ معرفة حقيقة ابن صياد، وكان يحتمل أن يكون كاهنا، ولذلك اختبره بإخفاء شيء عنه. يقول ابن زيدان: «قوله ﷺ: فلن تعدو قدرك، أي فلست بنبي، ولن تجاوز قدرك، وإنما أنت كاهن، فلن تجاوز، يعني قدر الكهانفلو كانت الكهانة انمحت من أصلها ما تطلب عليه أفضل الصلاة والسلام الكشف عن حال ابن صياد ليعلم ما يدعيه: هل هو على طريق الكهان أو السحرة»[٤]. أو الدجل.

اعتراض وجوابه:

قالوا: إنما يدل على انتهاء الكهانة أن النبي ﷺ قال لما سئل عن الكهان: ليسوا بشيء. فنفى الكهانة كما نفاها في الحديث الذي ذكره السهيلي، وفيه قول ابن عباس: فانقطعت الكهانة اليوم، فلا كهانة.

والجواب أن «المراد بقوله عليه الصلاة والسلام ليسوا بشيء عدم الاعتبار

---

(١) قراضة العقيان، ص ١٢.

(٢) قراضة العقيان، ص ١٢.

(٣) قراضة العقيان، ص ٢٠.

(٤) قراضة العقيان، ص ١٣ ـ ١٤.

شرعا، لأن كونهم شيئا مشاهدفلو لم تكن كهانة بعد البعثة ما بقي وجه لحرمة إتيانهم، لأنهم معدومون»[1]. أي لم تبق فائدة لتحذيره ﷺ ـ هو وعلماء أمته من بعده ـ من إتيان الكهان وتصديقهم[2].

ولذلك يقول عبد القادر بدران ـ وهو ممن وافق المؤلف على نظره في المسألة ـ: «معنى بطلان الكهانة والشرك أن الشرع لم يزل لهما بالمرصاد، كلما أراد أحدهما أن يقوى كان الشرع مبطلا له، يعني مناديا على أنه من الباطل، وليس شيء منه بحق، وأما وجودهما في نفس أصحابهما فهذا لا يمكن القول ببطلانه ألبتة»[3]. وكذلك قال أبو عبد الله العراقي ـ ممن قرظ الرسالة ـ: «لم يتكلم العلماء

على الشرك هل هو موجود أم لا، ولا على الكاهن هل هو موجود أم لا، بل إنما يتكلمون على الأحكام»[4].

أما الحديث الذي ذكره السهيلي فمعناه لا حكم يعتد به بقي للكهانة، وذلك إشارة إلى إبطال ما كانوا عليه في الجاهلية من فزعهم إليهم واعتمادهم عليهم في كل ما ينبو بهم وينزل عليهم. ولا بد من هذه الطريقة للجمع بين الأدلة[5].

دليل المشاهدة:

وأما المشاهدة الدالة على استمرار الكهانة: «فهي ما يشاهد كل حين في السماء

---

(١) قراضة العقيان، ص ١٥.

(٢) قراضة العقيان، ص ٨.

(٣) في تعليقه على رسالة ابن زيدان، وهو مطبوع معها: قراضة العقيان، ص ٤٣، التقاريظ. وابن بدران هو عبد القادر بن أحمد. نشأ بدمشق، وتوفي بها سنة ١٣٤٦هـ ١٩٢٧م. عالم مشارك. له: شرح سنن النسائي، لم يكمل. جواهر الأفكار، في التفسير، لم يكمل. المدخل إلى مذهب أحمد بن حنبل. ديوان شعر. كتاب في تاريخ دمشق معجم المؤلفين ٥/ ٢٨٣.

(٤) في تقريظه لرسالة قراضة العقيان، ص ٢٨. لعله محمد بن رشيد الحسيني. أصله من المشرق، وولد بفاس، وبها توفي سنة ١٣٤٨هـ ـ ١٩٢٩م. ولي قضاء طنجة وفاس. له مؤلفات، منها: أحكام مسجلة، في ستة مجلدات، أصدرها زمن ولايته القضاء. الذهب الإبريز في محاسن السلطان مولانا عبد العزيز. شرح الهمزية. رسالة في الإمامة الكبرى. عن معجم المؤلفين، ٩/ ٣١٢.

(٥) قراضة العقيان، ص ٨.

من الرمي بالشهب»[1]. ولذلك يقول الصاوي: «ما زالوا يتوجهون إلى الصعود فتعالجهم الشهب»[2].

ومن المشاهد أيضا وجود الكهان ورجوع الناس إليهم، يقول عبد الحي الكتاني: «فوجود الكهانة اليوم أمر لا يشك فيه أحد ممن طالع وبحث ورحل، أو طالع أخبار الوجود في الوقت الحاضر»[3].

كثرة القائلين باستمرار الكهانة:

وقد ذكر منهم المؤلف جماعة[4]، منهم: أبو عبد الله القرطبي والشيخ التاودي[5]، وابن خلدون، والسهيلي، والقاضي عياض، وأبو سليمان الخطابي، والزرقاني[6].

ثم إن المؤلف عرض رسالته على جماعة من أهل العلم المتأخرين، فوافقوه على مجمل الرسالة، وأثبتوا ذلك في تقاريظ، طبعت مع «قراضة العقيان»[7].

---

(١) قراضة العقيان، ص ١٧.

(٢) في حاشيته على تفسير الجلالين، كما هو الظاهر. وهو أحمد بن محمد الصاوي المصري الخلوتي. ولد بمصر وتوفي بالمدينة سنة ١٢٤١هـ. من تصانيفه: بلغة السالك لأقرب المسالك، في الفقه المالكي. حاشية على جوهرة التوحيد للقاني. شرح الصلوات الدرديرية. حاشية على تحفة الإخوان، في البيان. معجم المؤلفين، ٢/ ١١١.

(٣) في تعليقه على: قراضة العقيان، ص ٣٤.

(٤) قراضة العقيان، ص ١٥ ـ ١٦.

(٥) أبو عبد الله محمد بن الطالب بن سودة التاودي. فقيه ومحدث. ولد بفاس، وتوفي سنة ١٢٠٧هـ له: حاشية على صحيح البخاري. تعليق على لامية الزقاق. حاشية على شرح الزرقاني لمختصر خليل. المنحة الثانية في الصلاة الفائتة. معجم المؤلفين، ١٠/ ٩٦.

(٦) أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي، المالكي. ولد وتوفي بالقاهرة (١٠٥٥ ـ ١١٢٢هـ). عالم مشارك. له شرح البيقونية في الحديث. شرح المواهب اللدنية، للقسطلاني. شرح موطأ مالك. معجم المؤلفين، ١٠/ ١٢٤. وهو ابن الشيخ عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، توفي سنة ١٠٩٩، صاحب الشرح المعروف على مختصر خليل. انظر معجم المؤلفين، ٥/ ٧٦.

(٧) من هؤلاء الشيوخ: المهدي الوزاني، ومحمد بن أحمد مفتي زرهون، وأبو عبد الله محمد بن الرشيد العراقي، والعباس بن أحمد التازي الفاسي، وأحمد بن الشمس، وعبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، والفاطمي بن الفضيل الإدريسي، ومحمد حمدان الونيسي المدرس بحرم =

الدليل من جهة المعنى:

«العلة في التشديد في الحراسة والرمي بالشهب هي صون الوحي من الاختلاط بأقوال الكهنة، وقد زالت العلة وانتفى السبب»[(١)].

ولذلك يقول المؤلف: هذا يدل على صحة قول ابن خلدون ـ وسيأتي بعد قليل تفصيله ـ: لعل السماء عادت كما كانت قبل البعثة، «لأنه لما انقطع الوحي صارت السماء مساوية حالتها للحالة التي كانت عليها قبل البعثة، وقد كانت حينئذ حراستها غير مشتدة، فكذا بعده ﷺ»[(٢)].

احتمال وجود مذهب ثالث:

ويشبه أن يكون لبعض العلماء مذهب ثالث ليس هو استمرار الكهانة ولا انقطاعها. لقد سبق أن قدمت في شرح مصطلح الكهانة أن الظاهر أنها قسمان رئيسيان: الكهانة بوسيط ـ من الجن ـ يأتيه بالأخبار من السماء، ومن بحثه في الأرض؛ والثاني الكهانة بلا وسيط، وهي عبارة عن قدرة نفسية ذاتية على إدراك بعض المغيبات.

يبدو من نصوص بعض العلماء أن الكهانة بلا وسيط مستمرة إلى اليوم، أما الكهانة بوسيط، ففرع منها انقطع وفرع استمر، الذي انقطع هو خبر الجني عن شيء سمعه في السماء، والذي استمر شيء عرفه الجني مما رآه يحدث في الأرض أو علمه، من شؤون الحاضر أو الماضي القريب.

قال السهيلي: «الذي انقطع اليوم، وإلى يوم القيامة، أن تدرك الشياطين ما كانت تدركه في الجاهلية الجهلاء، وعند تمكنها من سماع أخبار السماء. وما يوجد اليوم من كلام الجن على ألسنة المجانين إنما هو خبر منهم عما يرونه في الأرض، مما لا

= الرسول، ومحمد بن عبد الله التجاني الطصفاوي، وأبو العباس أحمد سكيرج، ويوسف بن إسماعيل النبهاني المدني، وعبد القادر أحمد بدران. انظر ملاحق قراضة العقيان، ص ٢٤ إلى ٤٢. وأغلب هؤلاء ولد في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، وهم مغاربة في الأكثر.

(١) قراضة العقيان ، ص ٢٠.

(٢) قراضة العقيان، ص ٢٠.

نراه نحن كسرقة سارق، أو خبيئته في مكان خفي، أو نحو ذلك، وإن أخبروا بما سيكون كان تخرصا وتظنيا، فيصيبون قليلا، ويخطئون كثيرا»[١]. ولذلك أجاب السهيلي على حديث ابن صياد، وظاهره استمرار الكهانة حتى على عهد النبي ﷺ، بجوابين: إما أن الدخ نبات يكون من النخيل، أو خبأ له عليه السلام آية الدخان، أي في نفسه، فعلى هذا لم يصب ابن صياد ما خبأ له النبي ﷺ.

«الثاني: أن شيطانه كان يأتيه بما خفي من أخبار الأرض، ولا يأتيه بخبر السماء لمكان القذف والرجم، فإن كان أراد بالدخ الدخان بقوة جعلت لهم في أسماعهم ليست لنا، فألقى الكلمة على لسان صاف وحدها، إذ لم يمكنه سماع سائر الآية؛ ولذلك قال له النبي ـ عليه السلام ـ : اخسأ فلن تعدو قدر الله فيك، أي: فلن تعدو منزلتك من العجز عن علم الغيب؛ وإنما الذي يمكن في حقه هذا القدر دون مزيد عليه»[٢].

وقال ابن خلدون: «قد زعم بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة، وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع في القرآن. والكهان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ. ولا يقوم من ذلك دليل، لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضا..وأيضا فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء، وهو ما يتعلق بخبر البعثة، ولم يمنعوا مما سوى ذلك، وأيضا فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط، ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه، وهذا هو الظاهر لأن هذه المدارك كلها تخمد في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس، لأن النبوة هي النور الأعظم الذي يخفى معه كل نور ويذهب»[٣].

خاتمة الفصل وفيها كلمة عن الكهانة بلا وسط:

والظاهر أن الكهانة مستمرة بجميع أنواعها، لعموم النصوص وإطلاقها، ولا

---

(١) الروض الأنف، شرح سيرة ابن هشام، ١/ ٢٥٩. وقارن بـ: دليل الفالحين، ٤/ ٥٠٩ ـ ٥١١.

(٢) الروض الأنف، ١/ ٢٦٠.

(٣) المقدمة، ص ٧٧. ضمن المقدمة السادسة.

يزال الكهان في كل البلدان والأزمنة، قال ابن تيمية: «الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب والحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوةكل هؤلاء كان معهم من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة»[1]. وهؤلاء عاشوا بعد زمان النبي ﷺ.

وقد استنبط ابن حجر من حديث النجم الذي استنار وسؤال النبي للصحابة عن تفسيرهم لهذه الظاهرة أيام جاهليتهم: «أن سبب التغليظ والحفظ لم ينقطع لما يتجدد من الحوادث التي تلقى بأمره إلى الملائكة، فإن الشياطين مع شدة التغليظ عليهم في ذلك بعد المبعث لم ينقطع طمعهم في استراق السمع في زمن النبي ﷺ فكيف بما بعده، وقد قال عمر لغيلان بن سلمة لما طلق نساءه: إني أحسب أن الشياطين فيما تسترق السمع سمعت بأنك ستموت فألقت إليك ذلك الحديث، أخرجه عبد الرزاق وغيره. فهذا ظاهر في أن استراقهم السمع استمر بعد النبي ﷺ، فكانوا يقصدون استماع الشيء مما يحدث فلا يصلون إلى ذلك إلا إن اختطف أحدهم بخفة حركته خطفة فيتبعه الشهاب، فإن أصابه قبل أن يلقيها لأصحابه فاتت، وإلا سمعوها وتداولوها»[2].

وقال السهيلي: «وإن وجد اليوم كاهن، فلا يدفع ذلك بما أخبر الله به من طرد الشياطين عن استراق السمع، فإن ذلك التغليظ والتشديد كان زمن النبوة، ثم بقيت منه، أعني من استراق السمع بقايا يسيرة بدليل وجودهم على الندور في بعض الأزمنة، وفي بعض البلاد»[3].

لكن يبعد في نظري أن ترجع السماء إلى ما كانت عليه قبل البعثة، خصوصا إذا قلنا إن الحفظ كان من أجل حديث الملائك عن الكوائن والقضاء النازل كما هو ظاهر الأحاديث، وليس لأجل الوحي. والنبوة وإن انتهت إلا أنها فاصل بين مرحلتين في التاريخ الإنساني، فالبشرية قبل النبوة خلاف البشرية بعدها. فالكهانة مستمرة،

---

(١) الفتاوى ١١/ ٢٨٤.

(٢) فتح الباري، ٩/ ٦٧٧. سورة قل أوحي من كتاب التفسير.

(٣) الروض الأنف، ١/ ٣٥٦. كأن للسهيلي رأيين في الموضوع، إذا قارنت كلامه هذا بالنص السابق الذي نقلته عنه قبل قليل، ففي كلام السهيلي شيء من الاضطراب وإن كان هو أقرب إلى القول باستمرار الكهانة.

ولكنها ضعيفة، بل هي أضعف مما كانت عليه في زمان الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، وهذا الضعف هو الذي يفسر لنا ندرة الإصابة في نبوءات الكهان.

فلعل مذهب استمرار الكهان هو قول الجمهور، ولعله أصوب من القول بانقطاعها الكلي، وهذا الاستمرار ابتلاء من الله سبحانه. والعلم لله وحده..

ومما يؤكد هذا القول: وجود الكهانة بلا وسيط.

وهذا هو النوع الآخر من الكهانة، الذي يذكره العلماء المسلمون، فهي عندهم قسمان[1]. وقد سبق أن رأينا ذلك في تقسيمي الخطابي وعياض في تعريف الكهانة في المبحث الثاني. وهذا القسم - كما قال الرازي - يكون من خواص بعض النفوس وليس بمكتسب[2]. يقول ابن خلدون: للنفس الإنسانية استعداد للانسلاخ من البشرية إلى المرتبة الروحانية فوقها، وهذه ملكة لا تحصل باكتساب ولا تعلم.. ولكن لابد لعملها من استعانة المرء بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة، كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام والعيافة.. وغاية هذه الاستعانة تركيز القوة المفكرة وتقوية المخيلة لأجل التنبؤ.. وهذه الملكة هي الكهانة[3].

وقد مرت نظرية فلوطرخس في وجود ملكة عند الإنسان تتيح له التوقع.

---

(١) انظر: معالم السنن، ٤/ ٢١١ - ٢١٢ . قراضة العقيان ، ص ٦ - ٧.

(٢) كشف الظنون، ٢/ ١٥٢٥. أبجد العلوم، ٢/ ٤٥٤.

(٣) انظر مقدمة ابن خلدون، ص ٧٦ - ٧٧.

خلاصة في النتائج

إن من الواضح الآن أن النظرية الإسلامية في الكهانة تفسر أهم الإشكالات التاريخية في الموضوع:

١ ـ حقيقة الكهانة: وهي حقيقة مزدوجة بحسب نوعيها:

أ ـ الكهانة بوسيط، فهذه من عمل الشياطين الذين يلقون إلى الكهان بأخبار يتلقفونها من تسمعهم على حديث الملائك حين يذكرون قضاء الله تعالى الذي سيحدث قريبا في الأرض. وأكثر هذه الأخبار تتعلق بالمستقبل.

لكن الشياطين كما يصعدون إلى السماء، فهم يسيحون في الأرض أيضا، ولهم قدرة على رؤية بعض أفعال الناس المستترة. ولذلك يعرفون كثيرا من المغيبات من الماضي والحاضر، فيطلعون عليها أثناء حدوثها[١]، ويخبرون بها الكهان.

وأهم الإخبارات في الكهانة بوسيط تتعلق بالمستقبل.

ب ـ الكهانة بلا وسيط، وهي مقدرة ذاتية للكاهن على توقع أشياء آتية. وعلم أمور ماضية. وهذا ما يفسر حقيقة الكهانة، ولماذا تصدق أحيانا، ولماذا تخطيء في الأكثر.

وهذا القسم الثاني من الكهانة، أي بلا وسيط، هو الذي كان ينقص كتاب المسيحية في تصورهم لموضوع الكهانة، وكان يمكن أن يفسروا به استمرار بعض الكهانة بعد عيسى عليه السلام.

٢ ـ متى انقطعت الكهانة وكيف.

تجيب النظرية الإسلامية عن هذا الإشكال، وبالاستعانة أيضا بالبحث التاريخي في الموضوع، يظهر أن هذا الانقطاع حدث على مرحلتين. أي تم بالتدريج:

الأولى: مع بعثة عيسى عليه السلام. وهذه أمور يثبتها كل من الدين والتاريخ:

أ ـ ضعف الكهانة قبيل هذه البعثة.

ب ـ السرعة التي وقع بها هذا الضعف.

---

(١) بالتوس أيضا يفرق بين نوعي النبوءة الشيطانية: بالماضي والحاضر من جهة، وبالمستقبل من جهة أخرى. انظر:

Maigron: note, in: Histoire des Oracles, p 127,129.

إن تفاجئ الوثنيين بتوقف المعابد عن التكهن وذهولهم لذلك.. ليس له إلا تفسير واحد، وهو أن هذا التوقف حدث سريعا، وفي زمن قصير. ولو أنه استغرق قرونا، وكان في تدرجه بطيئا، ما استغربه أحد.. على هذا النحو الذي نجده في التراث القديم.

ولا نستطيع أن نحدد بدقة متى حدث ضعف الكهانة بالمعابد القديمة، وليس للمؤرخين تحديد تاريخي في هذا الموضوع[١]. لكننا إذا أخذنا بما عندنا هنا من الأخبار الإسلامية، وإذا قسنا ما وقع على ما حدث بالنسبة للنبوة المحمدية، أمكن أن نقول: إن توقف معابد النبوءة عن التكهن حدث قبيل بعثة المسيح عليه السلام.

أما طريق هذا التوقف فهو حراسة السماء من الشياطين. وهذه الحراسة تكون بوسيلتين: إما بمنع الجن من الصعود إلى السماوات الثلاثة الأعلى، وتركهم يدخلون إلى غيرها، كما في خبر ابن عباس[٢]. وإما بحراسة السماء أكثر مما كانت تحرس به قبل اقتراب زمن المسيح.

وهذه الحراسة ـ كما ترى ـ ليست شاملة ولا شديدة. ولهذا كان الشياطين ينجحون في سماع أشياء من حديث الملائكة. وهذا ما يفسر استمرار الكهانة، حتى بعد ظهور المسيحية، وهو الاستمرار الذي أثبته فونتونيل جيدا، كما رأينا، ويثبته أيضا تاريخ الكهانة عند شعوب أخرى، كالعرب. فالتكهنات لم تنعدم، وإنما قلت فقط، بالنسبة إلى ما كانت عليه قبل المسيح.

الثانية: مع بعثة محمد عليه الصلاة والسلام.

وهنا زيد في حراسة السماء وملئت حرسا شديدا. أو نقول ـ مع ابن عباس وغيره ـ إن الشياطين الذين كانوا منعوا من الصعود إلى ثلاث سماوات، والتصنت على ما فيها، في عهد المسيح أصبحوا ـ مع بعثة محمد ـ ممنوعين من السماوات كلها.

وعلى كلا التقديرين، يكون لهذا التشديد أثر بيّن في إضعاف الكهانة إلى أبعد حد.

وهذا ما يفسر أن الإسلام الذي كان فاصلا بين عصرين وعالمين: القديم

---

(١) انظر: Devins et Oracles grecs, p 114

(٢) قد تقدم هذا في مبحث «الحكمة من القذف بالنجوم» في الباب الثاني.

والوسيط، هو الذي قضى بشكل شبه نهائي على الكهانة، ولأول مرة في التاريخ الإنساني.

إن من حكمة الله تعالى في خلقه، أنه يهيئ لظهور أنبيائه ورسله، وهذا التشديد في الحراسة غايته إضعاف الكهانة، وفتح الطريق أمام الرسالة القادمة. وقد لاحظ المؤرخون ـ مثلا ـ أنه حوالي زمان المسيح عليه السلام كان الناس قد تعبوا من الجدل النظري، والقيل والقال، وكثرة السؤال، أي تعبوا من العقل المجرد، وكانوا متعطشين للإيمان.. للاعتقاد الهادئ[١].

وهذا التفسير لانقطاع الكهانة لا يلغي بعض الأسباب المذكورة في تعليل هذه الظاهرة، كنقص السكان وتنامي الشك فإن لأقدار الله تعالى أسبابا طبيعية بارزة، وأخرى غيبية خفية.

---

(١) راجـــع : Flacelière, note 146, p 240; note 169, p 244, in: Sur la disparition des Oracles.
Dodds: Les Grecs et 226 l'irrationnel, p 226 et après.

خاتمة الكتاب:

لقد كشفت هذه الدراسة عن وجود نظرية إسلامية ـ قائمة ومتكاملة ـ في الكهانة، فبينها وحدد معالمها وأوضح كيف تجيب هذه النظرية عن أهم الإشكالات في تاريخ الكهانة: حقيقتها، ومصدرها، ولماذا تصدق بعض إخباراتها، ولماذا توقفت معابدها بتلك الطريقة السريعة المباغتة.

واليوم ـ مع عودة الاعتقادات القديمة إلى عصرنا هذا ـ فإن الذي لم يفهمه بعد كثير من الوضعيين والعلمويين هو أن معركة العلم مع الكهانة والعرافة، وغيرها من الفنون الغيبية والتنبؤية معركة خاسرة وأن الاهتمام المعاصر بهذه الأشياء في ازدياد مطرد، ولا يمكن للتثقيف العلمي البارد أن يوقفه ..

هناك حاجة لإدخال طرف آخر في هذه المعركة إذا أريد لها النجاح .. وهو عنصر الدين. لابد إذن من تحالف العلم والدين للقضاء على الشرك والخرافة والوهم بعد بيان ما في هذه الظواهر الغيبية من صدق وإصابة .. إن وجدا.

وعلى مستوى آخر، فإن العقيدة الإسلامية الواضحة والحاسمة في تقرير أن الله تعالى وحده من يعلم الغيب .. عقيدة هامة جدا، لأنها تحمي الإنسان من السقوط في إسار هذه الفنون أو الممارسات التي تدعي الاطلاع على المغيبات، من كهانة وعرافة وتنجيم وهي ـ مع ذلك ـ عقيدة لا تعرقل النمو العلمي والفضول المعرفي .. بل تشجع على ذلك، لأنها تقطع الطريق على علوم موهومة وفاسدة، الصواب فيها قليل والخطأ كثير، وذلك كالتكهن بأشكاله جميعا.

ولذلك فعقيدة الغيب الإسلامية تدفع بالإنسان إلى اكتشاف نظام الكون، وإلى قيام علوم حقيقية يقرر الدين أن ما فيها من صحة التوقع ليس من الغيبيات في شيء. وهذا كله بحثته بتوسع وتفصيل في كتابي الآخر: «الغيب والمستقبل».

وقد كشف هذا البحث أيضا عن وجود هذا الجانب الاعتقادي والغيبي في الإنسان اليوناني، وأن ما يقال عن عقلانيته الفائقة مجرد كلام إيديولوجي. وبعض المفكرين الغربيين أنفسهم يقرون بهذه الحقيقة[١].

---

(١) من أهم من بيَّن هذه الحقيقة ـ في كتاب صار اليوم مرجعا كلاسيكيا في الموضوع ـ الإنجليزي دودس: Dodds : Les grecs et l'irrationnel.

ولست أنكر عقلانية اليونان، ولكنني أقول: إنه إلى جوار هذه العقلانية، وجد ببلاد الإغريق الاعتقاد العميق في الغيبيات، وفي أشكال من الفنون الخفية، وكان ارتباط الناس هناك بالمعابد وطقوسها قويا وراسخا .. فهذا هو الوجه الآخر للعقل اليوناني. ولذلك فالإنسان اليوناني إنسان متدين على العموم.

ومن جهة أخرى لا أظن أنه يمكن لبحث آخر في موضوع «الكهانة في الإسلام» أن يقدم أشياء جديدة وهامة، بل أعتقد أن الإسلام قد أجاب عن الإشكاليات الرئيسية في تاريخ الكهانة. وما كتبته هنا كاف للقارئ العربي، وواف بالمطلوب. إنما إذا أراد أحد أن يتابع البحث في قضية التكهن، فيمكن له ذلك في المجالات الآتية:

١ ـ التوسع في دراسة الكهانة العربية قبل الإسلام، أو عند شعوب أخرى كالبربر مثلاً، وقد كانت المرأة المعروفة بالكاهنة البربرية هي التي قادت مقاومة الفتح الإسلامي للجناح الغربي من شمال إفريقيا.

٢ ـ تحقيق ما يوجد بتراثنا الإسلامي المخطوط في هذا الموضوع، أو ما قاربه، مثل: «كتاب الهواتف»، لأبي بكر بن أبي الدنيا. «وخير البِشر بخير البَشر»، لحجة الدين الصقلي. وكتاب « البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهان »، لأبي بكر الباقلاني

٣ ـ تعريب بعض الكتب التي صنفها اليونان واللاتين قديما في موضوع معابد التكهن، مثل كتب فلوطرخس وبورفوريوس وجوليان المرتد فتعريف القارئ العربي ببعضها أمر حسن.

٤ ـ دراسة وضع الكهانة والعرافة اليوم، في العالم الإسلامي، والغربي خاصة. فهذه الظاهرة ما زالت حية ومستمرة، وأحيانا منتشرة. فدراستها تفيد كثيرا في فهم الإنسان اليوم، وفهم ما الذي يبحث عنه في هذه المعتقدات. وهذا أمر مهم بالنسبة إلى طريقة عرض الإسلام على المجتمعات المعاصرة.

أحمد الله تعالى على فضله وتوفيقه، وأصلي وأسلم على النبي وآله. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر و المراجع

أولاً ـ بالعربية:

I ـ المطبوعات:

١ ـ التفسير:

القرآن الكريم، برواية حفص.

١ ـ الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين محمود: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. دار إحياء التراث العربي. بيروت. دون ذكر الطبعة والتاريخ.

٢ ـ البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود: معالم التنزيل. حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش. دار طيبة، الطبعة الثانية، سنة ١٩٩٣. الرياض

٣ ـ البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل. مطبعة مصطفى محمد. الناشر المكتبة التجارية. القاهرة. د. ط. ت.(أي دون ذكر الطبعة والتريخ).

٤ ـ الرازي، محمد فخر الدين: مفاتيح الغيب (أو التفسير الكبير). دار الفكر. ط ١٩٩٣. بيروت.

٥ ـ الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. طبع بطهران. د. ط. ت.

٦ ـ أبو السعود، محمد بن مصطفى العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. المطبعة المصرية، الناشر المكتبة الحسينية المصرية. ط١، ١٩٢٨. صححها حسن محمد المسعودي.

٧ ـ سيد قطب: في ظلال القرآن. دار إحياء التراث العربي. ط ٥. ١٩٦٧. بيروت.

٨ ـ السيوطي، عبد الرحمن: الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور. المطبعة الإسلامية بطهران، سنة ١٣٧٧هـ.

٩ ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. المطبعة

الميمنية بمصر، وهي طبعة قديمة، واعتمدت أحيانا على طبعة دار المعرفة. ط ٣. ١٩٧٨. بيروت.

١٠ ـ ابن عاشور، محمد الطاهر: تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد. اختصره المؤلف بـ: التحرير والتنوير من التفسير. نشر مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة. د. ط. ت.

١١ ـ ابن العربي، أبو بكر: أحكام القرآن. اعتنى به محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. ١٩٨٨. بيروت. د. ط. واعتمدت أحيانا على النسخة التي حققها علي البجاوي. مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٤.

١٢ ـ ابن عطية، أبو محمد عبد الحق: المحرر الوجيز. طبعت أجزاؤه بين ١٩٧٥ و١٩٨٩. طبعة وزارة الأوقاف. ط ١. المغرب.

١٣ ـ القاسمي، محمد جمال الدين: محاسن التأويل. اعتنى به محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية. ط ١ . ١٩٥٧. القاهرة.

١٤ ـ القرطبي، أبو عبد الله محمد: الجامع لأحكام القرآن. ١٩٨٨، دار الكتب العلمية، بيروت. النسخة الثانية: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٠. القاهرة. وهي نسخة معتمدة فيما بين آل عمران آية ٧ إلى الأنعام آية ٥٠.

١٥ ـ ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم. دار ابن كثير. ط١. ١٩٩٤. دمشق.

١٦ ـ الماتريدي، أبو منصور محمد السمرقندي: تأويلات أهل السنة. تحقيق وتعليق: د. إبراهيم عوضين والسيد عوضين. مطابع الأهرام التجارية، صدر بعناية المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. ١٩٧١. القاهرة.

١٧ ـ النسفي، عبد الله بن أحمد أبو البركات: مدارك التنزيل وحقائق التأويل. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة. د. ط. ت.

٢ ـ الحديث وعلومه:

أ ـ مصطلح الحديث:

١٨ ـ ابن حجر، العسقلاني: النكت على مقدمة ابن الصلاح.

١٩ ـ السيوطي، عبد الرحمن: تدريب الراوي في شرح تقريب النووي. تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف. دار الكتب الحديثة. القاهرة. ط٢، ١٩٦٦.

٢٠ ـ ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن: المقدمة في علوم الحديث. مطبوع مع تعليق البلقيني. دار الكتب، ١٩٧٤.

ب ـ الحديث وشروحه:

٢١ ـ الأبي، أبو عبد الله محمد بن خلفة: إكمال المعلم. دار الكتب العلمية. د. ط. ت.

٢٢ ـ الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف: المنتقى شرح الموطأ. دار الكتاب العربي ـ بيروت. د. ط. ت. (طبعة مصورة عن طبعة مطبعة السعادة بالقاهرة، سنة ١٣٣١هـ).

٢٣ ـ البخاري، أبو عبد الله محمد: الجامع الصحيح. مطبوع مع شرحيه: فتح الباري، وعمدة القاري.

٢٤ ـ ابن عبد البر، أبو عمر يوسف: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد. تحقيق جماعة بإشراف الجهة الناشرة، وهي وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بالمغرب. طبع على مدى سنوات متفرقة من نهاية السبعينيات إلى أواسط الثمانينيات.

٢٥ ـ البيهقي، أبو بكر أحمد: دلائل النبوة. تحقيق عبد الرحمن عثمان. الناشر محمد الكتبي، المدينة المنورة. دار النصر، القاهرة. ١٩٦٩.

٢٦ ـ الترمذي، أبو عيسى بن سورة: الجامع (مطبوع مع شرحه عارضة الأحوذي). دار الكتب العلمية.

٢٧ ـ الحاكم، أبو عبد الله: المستدرك على الصحيحين. اعتنى به يوسف المرعشلي. دار المعرفة، بيروت.

٢٨ ـ ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري. طبعة مصححة على عدة نسخ، ومنها النسخة التي حققها وأجازها الشيخ عبد العزيز بن باز. دار الفكر ـ ط ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥. بيروت. واعتمدت أحيانا على نسخة ابن باز.

٢٩ ـ ٣٠ ـ الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد البستي:

○ معالم السنن شرح سنن أبي داود. اعتنى به عبد السلام عبد الشافعي محمد. دار الكتب العلمية. ١٩٩٦. بيروت.

○ أعلام السنن في شرح صحيح البخاري. دراسة وتحقيق د. يوسف الكتاني. مطابع منشورات عكاظ. ١٩٩١. الرباط.

٣١ ـ عبد الرزاق، أبو بكر بن همام الصنعاني: المصنف. تحقيق حبيب الرحمان الأعظمي. توزيع دار الكتاب الإسلامي. ط٢. ١٩٨٣. بيروت.

٣٢ ـ الشوكاني، محمد بن علي: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار. دار الفكر. د. ط. ت.

٣٣ ـ صديق خان، أبو الطيب القنوجي البخاري: السراج الوهاج من كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج. وهو شرح على ملخص صحيح مسلم للحافظ المنذري. تحقيق الشيخ عبد التواب هيكل. إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بقطر. ١٩٩٤. طبع بالمطبعة الأهلية بالدوحة.

٣٤ ـ العزيزي، علي بن أحمد: السراج المنير شرح الجامع الصغير. دار الفكر. د. ط. ت. ومعه حاشية سالم الحنفي على الشرح المذكور.

٣٥ ـ ابن علان، محمد الصديقي: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين. دار الفكر، بيروت.

٣٦ ـ ابن غازي، محمد بن أحمد: إرشاد اللبيب إلى مقاصد حديث الحبيب. دراسة وتحقيق عبد الله محمد التمسماني، أستاذ بكلية أصول الدين بتطوان. نشر وزارة الأوقاف سنة ١٩٨٩ بالمغرب.

٣٧ ـ ٣٨ ـ ابن العربي، أبو بكر: * عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي. دار الكتب العلمية. د. ط. ت.

○ القبس في شرح موطأ مالك بن أنس. دراسة وتحقيق: د. محمد عبد الله ولد كريم دار الغرب الإسلامي. ط١. ١٩٩٢. بيروت.

٣٩ ـ العيني، بدر الدين محمود بن أحمد: عمدة القاري بشرح صحيح البخاري. دار الفكر. د. ط. ت.

٤٠ ـ القرطبي، أحمد أبو العباس: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم.

تحقيق محيي الدين مستو، يوسف بديوي، وأحمد السيد، ومحمود بزال. دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، كلاهما بدمشق. ط١، ١٩٩٦.

٤١ ـ الكرماني: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري. المطبعة البهية المصرية. ط٢. ١٩٣٩. القاهرة.

٤٢ ـ المازري، أبو عبد الله محمد بن علي: المعلم بفوائد مسلم. تقديم وتحقيق: محمد الشاذلي النيفر. دار الغرب الإسلامي. ط٢. ١٩٩٢. بيروت.

٤٣ ـ مسلم، بن الحجلج: الجامع الصحيح. تحقيق وتعليق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة. ط١، ١٩٥٥.

٤٤ ـ المناوي، محمد عبد الرؤوف: فيض القدير شرح الجامع الصغير. دار المعرفة، بيروت. ط٢، ١٩٧٢.

٤٥ ـ النسائي، أحمد بن شعيب: المجتبى من السنن. دار الكتاب العربي، بيروت.

٤٦ ـ النووي، يحيى بن شرف: *المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. اعتنى به محمد فؤاد عبد الباقي. دار الكتب العلمية، بيروت. طبعة أولى، ١٩٩٥.

ج ـ كتب الرجال والجرح والتعديل:

٤٧ ـ ابن حجر، العسقلاني: تهذيب التهذيب. تصوير دار صادر بلبنان عن نسخة مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية. حيدر آباد الدكن، الهند. ط١، ١٣٢٥هـ

٤٨ ـ الذهبي، محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء. تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين. مؤسسة الرسالة بدمشق. ط٢، ١٩٨٢.

٤٩ ـ ابن عدي، أبو أحمد عبد الله: الكامل في الرجال. دار الفكر، بيروت. ط٢، ١٩٨٥.

د ـ كتب تخريج الأحاديث:

٥٠ ـ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: * الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير. دار الفكر، بيروت. ط١، ١٩٨١.

٥١ ـ لفيف من المستشرقين: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي. نشره الدكتور أي، ونسنك. طبع مكتبة بريل بمدينة ليدن بهولندا. ١٩٣٦.

٥٢ ـ الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. بتحرير الحافظين: العراقي وابن حجر. دار الكتب العلمية، ط ١٩٨٨.

٣ ـ السيرة النبوية:

٥٣ ـ ابن سعد، محمد: الطبقات الكبرى. مطبعة بريل بليدن، هولندا. نشر مؤسسة النصر، بطهران. ١٣٢٢هـ.

٥٤ ـ السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام. علق عليه ووضع حواشيه: مجدي بن منصف بن سيد الشورى. منشورات محمد بيضون. د. ط. ت. دار الكتب العلمية، بيروت. واعتمدت أحيانا على النسخة التي أخرجها طه عبد الرؤوف سعد. دار المعرفة، بيروت. ١٩٧٨.

٥٥ ـ الصالحي، محمد بن يوسف الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد. تحقيق عادل عبد الموجود، وعلي معوض. ط١. ١٩٩٣. دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٦ ـ علي، بن برهان الدين الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون. ١٩٨٠، دار المعرفة، بيروت.

٥٧ ـ عياض، أبو الفضل اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى. ومعه «مزيل الخفا عن ألفاظ الشفا»، لأحمد بن محمد الشمني. دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٨ ـ ابن كثير، إسماعيل أبو الفداء: السيرة النبوية. تحقيق مصطفى عبد الواحد. ١٩٩٠. دار الفكر، بيروت.

٥٩ ـ ابن هشام، عبد الملك: السيرة النبوية. (مطبوع مع «الروض الأنف» للسهيلي).

٤ ـ كتب أصول الدين، والعقائد والفرق:

٦٠ ـ بارندر، جفري: المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ترجمه عن الإنجليزية: إمام عبد الفتاح إمام. سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٧٣، ١٩٩٣. الكويت.

٦١ ـ التفتازاني، سعد الدين: شرح العقائد النسفية. تحقيق أحمد حجازي السقا. ط١، ١٩٨٧. مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

٦٢ ـ عبد الرحمن، آل الشيخ: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد. راجع حواشيه وصححها وعلق عليها عبد العزيز بن باز. دار الحديث بالقاهرة. ط٢، ١٩٩٢.

٦٣ ـ الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد: اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر. دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء. وهي نسخة مصورة عن طبعة مصطفى الحلبي بالقاهرة، سنة ١٩٥٩.

٦٤ ـ محمد، عبد الوهاب: كتاب التوحيد. طبع مع شرحه فتح المجيد لعبد الرحمن آل الشيخ. دار الحديث، القاهرة. ط٢، ١٩٩٢.

٥ ـ الفتاوى والرسائل:

٦٥ ـ ابن تيمية، أحمد تقي الدين: مجموع الفتاوى. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. الناشر: المكتب التعليمي السعودي بالمغرب.

٦٦ ـ السيوطي، عبد الرحمن: الحاوي للفتاوي. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط٣، ١٩٥٩. مطبعة السعادة. توزيع المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.

٦ ـ الكهانة:

٦٧ ـ الخرائطي، أبو بكر: هواتف الجنان. دار الكتب العلمية. ط١، ١٩٨٩

٦٨ ـ ابن زيدان، عبد الرحمن: قراضة العقيان في تحقيق استمرار أفراد من الكهانة لآخر الزمان. المطبعة الجمالية بمصر، ١٩١٤.

٦٩ ـ شيشرون: علم الغيب في العالم القديم. ترجمه وعلق عليه: توفيق الطويل. مطبعة الاعتماد، الناشر مكتبة الآداب بالجمامين، كلاهما بمصر. ١٩٤٦.

٧ ـ العلوم: تصنيفها وتاريخها.

٧٠ـ إسماعيل، باشا البغدادي: هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين. منشورات مكتبة المثنى ببغداد، عن طبعة وكالة المعارف الجليلة بإستانبول، ١٩٥١.

٧١ ـ بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي. نقله إلى العربية السيد يعقوب بكر، وعبد الحليم النجار، ورمضان عبد التواب. دار الكتاب الإسلامي، قم، إيران. ط٢. وأحيانا اعتمدت على: طبعة دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧٤.

٧٢ ـ حاجي خليفة، كاتب جلبي: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. تصوير سنة ١٩٩٠ عن طبعة دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٨٢.

٧٣ ـ القنوجي، صديق بن حسن خان: أبجد العلوم. (الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم). دار الكتب العلمية، بيروت.

٨ ـ التاريخ:

٧٤ ـ جواد، علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار العلم للملايين، بيروت. مكتبة النهضة، بغداد. ط٢، ١٩٧٦.

٧٥ ـ المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط٣، ١٩٥٨. مطبعة السعادة بمصر. توزيع المكتبة التجارية الكبرى.

٩ ـ المعاجم وكتب الغريب:

٧٦ ـ ابن الأثير، أبو السعادات المبارك: النهاية في غريب الحديث. المطبعة الخيرية، القاهرة. ط١، ١٣٢٢هـ.

٧٧ ـ الجرجاني، علي بن محمد: التعريفات. مصورة على النسخة التي طبعتها المطبعة الخيرية بمصر، سنة ١٣٠٦هـ. د. ط. ت. دار السرور، بيروت.

٧٨ ـ الجوهري، إسماعيل بن حماد: الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق أحمد عبد الغفور عطار. ط٢، ١٩٧٩. دار العلم للملايين، بيروت.

٧٩ ـ الراغب، الأصفهاني: مفردات غريب القرآن. مطبوع مع النهاية لابن الأثير.

٨٠ ـ الزبيدي، محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس. دار ليبيا، بنغازي. عن نسخة المطبعة الميمنية بمصر، ١٣٠٦هـ.

٨١ ـ سهيل، إدريس: المنهل، قاموس فرنسي ـ عربي. دار الآداب، بيروت. ط١٦، ١٩٩٥.

٨٢ ـ الفيروز أبادي، محمد مجد الدين: القاموس المحيط، والقابوس الوسيط. مطبعة السعادة بمصر، ١٣٢٦هـ.

٨٣ ـ الكفوي، أيوب أبو البقاء: الكليات. ط١، ١٩٩٢. مؤسسة الرسالة، بيروت.

٨٤ ـ ابن منظور، جمال الدين بن مكرم: لسان العرب. دار صادر، بيروت، وكذلك دار بيروت. ١٩٥٥.

٨٥ ـ معجم الفرائد الدرية للجيب. المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨.

١٠ ـ التراجم:

٨٦ ـ ابن عبد البر أبو عمر يوسف: الاستيعاب في معرفة الأصحاب. تحقيق علي البجاوي. مطبعة نهضة مصر، بالقاهرة.

٨٧ ـ ابن حجر، أحمد العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة. تحقيق علي البجاوي. دار نهضة مصر، القاهرة. ١٩٧٢.

٨٨ ـ الذهبي، شمس الدين محمد: تذكرة الحفاظ. دار إحياء التراث العربي، بيروت. ١٩٥٦.

٨٩ ـ الزركلي، خير الدين: الأعلام. القاهرة. ط٣، ١٩٦٩.

٩٠ ـ ابن السبكي، عبد الوهاب تاج الدين: طبقات الشافعية الكبرى. تحقيق عبد الفتاح الحلو، ومحمود الطناجي. مطبعة عيسى البابي الحلبي. ط١، ١٩٦٤.

٩١ ـ عمر، رضا كحالة: معجم المؤلفين. مكتبة المثنى، ودار إحياء التراث العربي، كلاهما ببيروت.

١١ ـ كتب أخرى:

٩٢ ـ الحافظ، أبو عثمان، تحقيق عبد السلام هارون. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٨.

٩٣ ـ القرطبي، أبو عبد الله: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة. اعتنى به فواز أحمد زمرلي. ط ٤، ١٩٩٥. دار الكتاب العربي، بيروت.

٩٤ ـ المقدمة، لعبد الرحمن بن حلدون، مطبعة محمد عاطف، القاهرة.

٩٥ ـ الشبلي، محمد بن عبد الله: التبيان فيما يتعلق بالجان. وهو ملخص لآكام المرجان للشبلي، ومنقول عن نسخة مقابلة على أصلها كتبت سنة ٨٩٨هـ، والناسخ عبد الحي موسى، سنة ١٢٦٧هـ. رقمه بالخزانة العامة: ك٢٣٧٥.

٩٦ ـ الفاسي، محمد بن عبد القادر: رد على رسالة «اللغة السنية» لإبراهيم الكوراني الشهرزوري. ضمن مجموع، في الخزانة الصبيحية بسلا، رقم ٢٥٩.

٩٧ ـ الكتاني، عبد الحي: تبليغ الأمانة في مضار الإسراف والتبرج والكهانة. خط متوسط، والمخطوط كتب بخطين مختلفين، صفحاته ٢٤٣، وينقص منه الفصل

الأخير، أي الثالث والعشرون. أول المخطوط: الحمد لله الذي أحيى قلوب المؤمنين بتبصرته وزجر الغافلين عن تذكرته بزواجر موعظته.. أما بعد فيقول خادم السنة وأهلها محمد عبد الحي وآخره: وأما حكم سماع غير القرآن من هذه الآلة الفتوغرافية.. وأبيات. رقمه بالخزانة العامة: ك ٣١٨٥.

٩٨ ـ الكوراني، إبراهيم بن حسن الشهرزوري: اللمعة السنية في تحقيق الإلقاء في الأمنية. خط مغربي. ضمن مجموع. رقمه بالخزانة الصبيحية بسلا ٢٥٩.

ثانياً ـ بالفرنسية:

1 - Divination :

99 - Flacelière, Robert : Devins et Oracles grecs. P.U.F. Collection QSJ, nº 939. 1er éd, 1961.

100 - Fontenelle, et Van Dale : Histoire des Oracles.
Edition critique, publiée par Louis Maigron. E. Cornély et Cie, Editeurs. Paris. 1908.

101 - Plutarque : Sur la disparition des Oracles.
Traduit d'après le grec, et commenté par : R. Flacelière.
Société d'édition Les Belles Lettres, Paris 1947.

102 - Savignac, Jean Paul : Les Oracles de Delphes.
Oracles choisis, traduits de grec, et commentés, par Savignac.
Collection Orphée, Edition : La Différence. Février 1989.

2 - Philosophie :

103 - Dodds, E.R: Les Grecs et l'irrationnel.
Traduit d'anglais par : Michael Gibson.
Aubier, Editions Montaigne, Paris , 1965.

104 - Grimal, Pierre : La mythologie grecque.
je ? - Presses universitaires de France. Collection Que sais
16ème édition, 1995. Paris.

105 - 106 - Platon : * Phèdre.

Texte établi et traduit par : Léon Robin. Société d'édition les Belles Lettres, Paris, 1944.

* Timée.

Traduit par : Albert Rivaud. Editions les Belles Lettres, Paris, 1949.

107 - Plutarque : Opinions des philosophes.

Traduit et établi par : Guy Lachenaud. Les Belles Lettres, Paris, 1993.

108 - Porphyre : De l'Abstinence.

Traduit et établi par : Jean Bouffartgire, et Michel Patillon. Collection des Universités de France. Editions les Belles Lettres. Paris, 1979.

3 - Histoire :

109 - Duchet. G, et M. Suchaux : Histoire grecque.

Librairie Hachette, Paris, 1958.

110 - Finley, Moses. I : Les premiers temps de la Grèce. L'ge du bronze et

l'époque archaïque.

Traduit d'anglais par : François Hartog. Flammarion, collection Champs. Imprimé en 1990 sur l'édition de 1980.

111 - Hérodote : Histoires.

Texte établi et traduit par Ph. E. Le Grand. Les Belles Lettres, Paris. Collection des universités de France. 1936.

112 - Petit, Paul : Précis d'histoire ancienne.

Presses universitaires de France. 1ère édition, 1962.

4 - Encyclopédies et dictionnaires :

113 - Dictionnaire encyclopédique Alpha. Edité par Editions - Grammont, S. A.
Lusanne, Suisse, 1983.

114 - Dictionnaire encyclopédique d'histoire. Par : Michel Mourre, et
d'autres. Bordas, 1978, Paris.

115 - Encyclopédie des arts divinatoires. Par : Belline, le voyant. Marabout.
Editions Robert Laffont, 1977.

116 - Encyclopaedia Universalis. Editeur : Ency. Uni, Paris, 1996. Président
d'encyclopédie : Alain Aubry.

117 - Petit Robert. Dictionnaire de la langue francçaise. 1995.

118 - Petit Robert. Noms propres, 1995.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات